مجموعة أعمال
العلامة الأديب محمد المختار السوسي
المتوفى سنة 1383 هـ - 1963 م

خلال جزولة

للفقير إلى الله تعالى
العلامة الشيخ محمد المختار السوسي
المتوفى سنة 1383 هـ - 1963 م

المجلد الأول
1-2

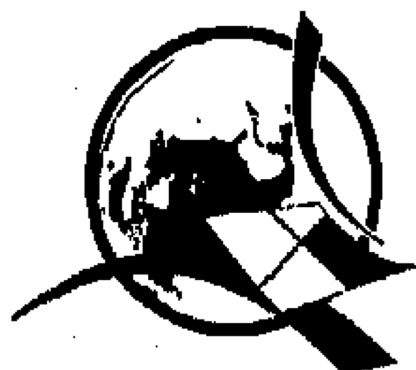
دار الكتب العلمية
DKI
بيروت - لبنان

مجموعة أعمال العلامة الأديب محمد المختار السوسي

خلال جزولة

للفقير إلى الله تعالى
العلامة الشيخ محمد المختار السوسي

الجزء الأول


دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Etablie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

الكتاب : خلال جزولة

Title : ḪILĀL JUZŪLA

التصنيف : رحلات

Classification: Journeys

المؤلف : العلامة محمد المختار السوسي

Author : Al-Sheikh Muhammed Al-Mukhtar As-Sousi

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages (4 Parts in 2 Volumes) 1056 (4أجزاء بمجلدين) عدد الصفحات

Size 17x24 cm قياس الصفحات

Year 2015 A.D - 1436 H. سنة الطباعة

Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنان

Edition : 1st الطبعة : الأولى

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah, Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.O.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon, Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٥٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٩٦١+
فاكس: ٥٨٠٤٨١٣ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

ISBN-13: 978-2-7451-8380-4
ISBN-10: 2-7451-8380-X
90000
9 782745 183804

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

مقدمة

كنت في ذلك المنفى الأول بإلغ محصورًا خمس سنوات متوالية، لا أرى، ولا أجتمع، ولا أجالس إلا بعض من يتسربون إليّ في زاويتنا، من الذين يزورونها تعهدًا لمكان شيخهم الوالد رحمه الله، فصار يراعي مرسلًا في تقييد الشوارد، واقتناص الأوابد، إما من أفواه هؤلاء الذين يمكن لي أن أتصل بهم اتصالًا تامًّا، وإما من كتب كتبت في تاريخ تلك الناحية التي قصرت مسعاي على الاعتناء بها قصر المجد الذي يعرف ما يصنع، فأنقب في هذه الكتب وفي كل ما أتوصل به على أيدي رسل من أصحاب الوالد الذين لا يضنون بأوقاتهم في متابعة أسفار إلى ما أرسلهم إليه من كل مكان أظن فيه فائدة، أو رجال ملمين بعلوم ممن أرجو منهم في هذا الموضوع عائدة، فلم أزل بين المداد والقرطاس، طوال تلك السنوات، حتى سودت ما سودت مما يراه القارئ اليوم تباعًا في كتاب «من أفواه الرجال» وفي «الترياق المداوي» وفي «المعسول» وفي «سوس العالمة» وفي «إيليغ قديمًا وحديثًا» وفي «مترعات الكؤوس» وفي غيرها مما ملأت به فراغ تلك السنوات التي خيمت علي فيها الوحدة، وأرخت علي عزاليها[1]، فكانت هذه الكتابة أفضل مؤنس يمسح عن الفؤاد أشجان الهموم والأنكاد.

ثم لما منّ الله بأن تنفرج عني الأزمة، سرحت أولًا في سوس، فأمكن لي أن أتقرى بعض نواحيه، فصرت أعمل خطواتي على البغال غالبًا، فأقيد كل ما

(1) العزالي بفتح اللام وكسرها: مصب الماء من الراوية.

سنح بلا تكلف، فتكررت الرحلات، حتى كانت أربعًا، فجمعت الكل تحت هذا الاسم: «خلال جزولة» فهي التي يقرؤها القارئ إن شاء الله من هذه الرحلة الأولى إلى الرابعة، وقد كان بودي أن تطول هذه الرحلات حتى تستوعب كل نواحي سوس، ولكن هذا ما تيسر، ثم انقطعت بعد تسريحي التام إلى مراكش مختتم 1364هـ، فالتهمتني الحواضر، ثم عدت عواد جدد منعت من إتمام هذه المنية كما أحب.

ثم جاءت الأزمة الكبرى فانتقلت من الحمراء إلى البيضاء. ثم جاء الاعتقال والنفي الثاني إلى الصحراء، ثم لم نكد نرجع من هناك حتى دهم الاستقلال الذي جعل في رجلي قيدًا لا أجد منه حرية، حتى أنني متى وردت إلى سوس، فإنما هي اقتبالات ومجتمعات لا فراغ معها لإتمام تلك الأمنية، وقد تجمعت عندي مواد أخرى عن بعض نواح لم أكن زرتها في هذه الرحلات لا تليق إلا لأمثالها، ولكن كيف يتيسر الآن من ذلك ما نريد؟

وبعد فهاك الرحلة الأولى الساذجة، وأعتقد أنها دون أخواتها الآتية من وجهات شتى، لا في الفوائد، ولا في ذكر الآثار، فاقبلها بفضلك على علاتها.

ثم إن هناك رحلة أخرى أقدم من هذه الأربع: «من الحمراء إلى إيليغ» كنت كتبتها عام 1354هـ لا تدخل تحت ذيل هذه وإن كان لها لونها ووصفها، وما ذلك إلا لأنها أقدم منها، وهي تتكلم على حاحة، وايداوتانان، وأكادير.

والله أسأل أن يجعل كل ما خرمشنا من عفو الكلام ولغوه لا لنا ولا علينا إن لم نفز فيه بما يقربنا إلى الله، والسلام على عباده الذين اصطفى.

الرباط 25-2-1379هـ

م خ س

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

(من إيلغ إلى تارودانت)

الحمد لله الذي دحى الأرض فسواها، وجعل جوانبها للمسافرين ذللًا، والصلاة والسلام على الذي كان يلازم الأسفار ليزداد اعتبارًا ونشرًا للدين الذي أمر بتبليغه لكل أحد، وعلى آله وأصحابه الذي غادروا في سبيل الله جزيرتهم فشرقوا وغربوا، وأعرقوا وأشأموا، فكانوا نباريس العالم، وسادة العادلين، من بين جميع الفاتحين.

أما بعد،

فقد مضت خمس سنوات تامة بعد اليوم الذي أمرت أن أنزوي إلى إيلغ، فكادت النفس فيها لولا لطف الله تصدأ مرآتها، ويأجن[1] ماؤها ويغيم أفقها، ثم إنه لما صرح لي في 13 ـ 12 ـ 1360هـ بأني مطلق السراح في سوس، تطلعت إلى أن أغتنم الفرصة بحسب الطاقة لأستتم المجهودات التي كنت افتتحتها منذ اليوم الذي نفيت فيه إلى إيلغ مفتتح 1356هـ. فأرسلت عيني إلى الأمكنة التي فيها طلبتي، وفي خزائنها رغبتي، وبين صدور رجالها أمنيتي، فرأيتها شتى، منها ما تكون حاجتي فيه على طرف الثمام[2]، ومنها ما أراه أبعد من العيوق[3]، فاخترت أن أفتتح بالجهة التي كانت سبلها معبدة أمامي قبل اليوم بكثرة الإخوان والأصحاب. فعزمت على أن أزور تيزنيت فأݣادير فتارودانت، وما إلى هذه

(1) ماء آجن وآسن: متغير.

(2) الثمام بالضم نبتة صغيرة وذلك كناية عن قرب تناول الشيء.

(3) العيوق بفتح العين وتشديد الياء مضمومة: نجم في السماء.

المدن الثلاث التي هي حواضر سوس اليوم، وكان يجب علي أن لا أتقيد بأسابيع معدودة لتتسع الفسحة أمام مباحثي. غير أنني وقد حلبت الدهر أشطره[1] رأيت أن الأولى التؤدة والجني من الأغصان التي يمكن صهرها بسهولة وأدنى لمس. ولذلك وضعت برنامج سفري ـ اتباعًا للأخ الذي سأسافر في رفقته وأرجع في صحبته في بحر شهر فقط. فكان شهر ربيع الثاني عام 1361هـ هو عين ذلك الشهر، سافرنا في مفتتحه، ورجعنا في مختتمه. وهأنذا الآن وقد استرحت في هذين اليومين أراجع ما كتبت في مذكراتي اليومية. فإذا ذلك خير كثير، منه ما هو معد لكتابي الكبير «المعسول» ومنه ما لعله لا يدخل تحت شرطنا فيه، فأردت أن أودع هذه الرحلة ما أراه نافعًا من ذلك، مما يلفت أنظار المطالعين في الرحلات كما كان قبل ذلك المسافرون أمثالي ممن يركبون متون الرحلات، فكم شيء يكون عند قوم من سقط المتاع يكون طرفة مستملحة عند آخرين، ولكل قوم عادات تختلف باختلاف البلدان. فقطر سوس واسع فسيح، في كل ناحية من نواحيه ما يستحق من العادات والأخلاق. وكبار الرجال وأفاضل الكرام أن لا يمر به الباحث إلا وقد أعاره من عنايته طرفًا، هذا على أننا لا نعني كثيرًا إلا بالجهة العلمية التاريخية التي نطنا بها همتنا منذ أن كتبت علينا الأقدار أن تميط بهذا النفي عنا الاعتناء بدراسة فنون الحديث والتفسير والأصول والبيان والأدب العام، والمقصود منا ـ معشر الطلبة ـ أن لا نثني الهمم عن بحث يفيد، وتقييد شاردة من شوارد المعارف كيفما كانت، وأن لا نزال منتظمين في سلك طلبة العلم من المهد إلى اللحد.

ثم إنني أنوي أن أطلق الإسهاب، وأن أعانق الإيجاز ما استطعت وأن لا أذكر إلا ما أرى له فائدة، إما علمية مطلقة وإما أدبية خاصة. زيادة على أعلان شكر كل من أسدى إلى معروفًا، لأننا مأمورون أن نكافئ كل من أحسن إلينا، فإذا لم يكن لمثلي في المكافأة إلا بنات اليراع، فليؤد عني هذا الواجب الأكبر اليراع السيال، فلا خير فيمن لا يشكر المسدين، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله.

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

(1) الشطر: حلمة الضرع، ومعنى المثل أنني جربت الأمور.

السبت 1 ربيع الثاني:

غادرنا الدار نحو العاشرة صباحًا، وقد توجهت معي أم مثواي والولدان عبد الله وسعيد وخادمنا، لزيارة أخوالهم في قبيلة أيت برابيم (إبراهيم)، وقد اخترت أن نتوجه جميعًا للفسحة، لأننا كنا منذ خمس سنوات فيما نحن فيه، وكل من كان معك في مضرة، ويجب أن يشاركك في المسرة. والكرام إذا أيسروا يلتفتون إلى من كان معهم في المنزل الخشن[1].

اندلقت بنا سيارة الأخ ـ وهو سائقها بنفسه ـ فقلت في نفسي ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هُود: 41]. ثم أرسلت فكري ـ وسعيد يلعب في حجري ـ في حالة العالم اليوم، وقد غاضت الحرب الضروس المنتشرة في جوانب الكرة الأرضية كل منابع السياحات، واستبدت بالبترول والمطاط، حتى لا يكاد المدنيون يجدون من ذلك شيئًا، وقد كان للأخ نظرة بعيدة منذ أن اكفهر وجه العالم السياسي مفتتح عام 1358هـ، فحاز ما حاز من البترول، ولكن لضيق نظرة الإنسان في استشفاف ما وراء سجوف الغيب، وإن كانت له المعية وحاول أن يحتاط لم يحرص على أن يزيد من ذلك لمثل هذه الفترة الشديدة حتى أنه بعدما كان تنظيم تفرقة البترول على ذوي السيارات بعد إعلان الحرب لم يتمكن ـ لجهله بالطرق المتتبعة في أمثال هذه الظروف. من أن يحوز كل ما خوله له القانون، ثم لم يستبن الرشد الأضحى الغد[2]، حين لا يغني الندم، فها هو ذا اليوم مدخره يشرف على النفاد، وربما لم يملأ العشرة أشهر القادمة، ثم إن لم يأت فرج عام فهو عازم على الرجوع إلى ركوب البغال، اختيارًا لحفظ سيارته الأمريكية الجميلة من امتهانها (بالكّازوجين) اختار ذلك بعدما قلب الأمر ظهرًا لبطن، حتى عزم أخيرًا على ما ذكر، نازلًا على حكم الضرورة، ولولا الضرورة

---

(1) تلميح إلى قول الصولي:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم في المنزل الخشن

(2) قال ابن الصمة:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى ... فلم يستبينوا الرشد الأضحى الغد

ما استبدل أحد الجواد بالثور[1] ذي الغبب[2]، فاللهم فرج عن العالم وعجل بالسلم الذي يرضينا ويرضى جميع من نمت إليهم ويمتون إلينا، إنك سميع مجيب، وأنت تعرف يا رب ما نريده لأمتنا من الانطلاق في جو الحرية والاستقلال.

حول هذه الفكرة استرسلت مع الأخ إلى أن وقفت بنا السيارة في مركز (تيبوزك) ببعقيلة فدرت بفكري مرات حول مجالات المعارك التي تدور الآن في هذه الحرب الضروس، فحينًا أكون حول (لينينكْراد) وحينًا حول (دونيتز) وتخوم القوقاز، وطورًا أجول حول الفيليبين وأسترالية. وطورًا حول برمانية وقد أنجذب فأجول البحار فأتصور الطيارات والغواصات والبوارج وحاملات البترول فأتصور أعظم مرحلة رءاها العالم منذ وجد إلى الآن. ثم أتذكر أقطار العالم الذين دارت رحى هذه الحرب على كواهلهم فأقيس الحاضر من الحرب بماضيها قبل ثلاث سنوات فتخرج لي هذه النتيجة التي يأبى الملاحدة أن يفهموها وهي أن للعالم مدبرًا يعرف ما لا يعرفه (تشامبرلان) و(تشرشيل) و(موسوليني) و(هتلير) و(ستالين) و(روزفيلت) و(طوجو) فهؤلاء ومن إليهم اليوم، مثل كل واحد منهم مثل غريق في بحر خضم شديد، يستمسك بكل ما يراه في الماء. ولو لم يكن إلا خيالًا، ثم لا يدرى ما يلده الغد، وعما قليل يذوب هؤلاء الجبابرة ويبقى المساكين وحدهم في الاستمتاع بالحياة.

لندع العالم وما فيه ما دامت أمواجه بعيدة عنا في الجملة، لا نصطلي بنيرانها إلا من بعيد، ولا يعارك الفرد المدني مثلي فيها إلا تخيلًا، وتحت آمال تكون أو لا تكون.

لم أكن من جناتها علم الله وإني بحرها اليوم صال

ذهبنا قدمًا مستبشرين بسفر كنا محرومين منه منذ سنوات (وأحب شيء إلى

(1) قال المتنبي:

ومن ركب الثور بعد الجوا د أنكر أظلافه والغبب

(2) الغبب بمحركتين: الجلد المترهل المتدلى تحت عنق الثور.

النفوس ما منعته)[1]. إلا أن الزمان أراد أن ينبهنا من سنتنا فأحسسنا ونحن ننزل من جبل (آفود) بالسيارة مائلة، فوقفها السائق، فإذا إحدى العجلات انفلقت فاشتغل معينه باستبدالها، وقد كانت الآلة التي ترفع بها السيارة قد انكسرت لنا حين ذهبنا منذ شهرين إلى مركز (تافراوت) وإذ لم تتأت آلة أخرى فقد سلك المعين مسلكًا بلديًا، فقد نجر ألواحًا عند نجار، فصار يستعين بها فيقضي غرضه، والحاجة تنفتق الحيلة، ثم لم نمش كثيرًا حتى تفتقت تلك العجلة نفسها أيضًا، فوضع موضعها عجلة ختمت كل المدخر عند الأخ من العجلات، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرَّحمـٰن: 27]، وذلك حين كدنا نخرج من شعب سيدي الغيات، والهاجرة التي تذيب دماغ الضب ـ كما يقولون ـ تفرغ علينا صكة عمي[2]، والسغب يلوي الأمعاء لي الخرقاء[3] بالخيط الذي تعقده. فكنت أتمنى جفنة ابن جدعان لاستظل بها، وبعد لأي طارت بنا سيارتنا صوب تيزنيت، فمررنا في (أكال ملولن) بدار الفقيه أبي زيد العوفي الذي سمعنا منذ أيام أنه ملازم الفراش لكبره، ولمرض عضال ألم به. فكنت أتمنى لو كنت حرًّا أن أزوره، ولكني في قافلة إلى غيري مقودها، وحول الثانية عشرة دخلنا (تيزنيت) فقصدنا دار الفقيه سيدي الحسن العفياني الذي كان في انتظارنا بالغداء، فوجدنا منزلًا رحبًا، وصدرًا منشرحًا، ومائدة فائضة بما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وما ظنك بطعام تنوول بعد السغب الشديد، ورب المثوى الفاضل يملأ جو الثوي بحديثه العذب[4].

بشاشة وجه المرء خير من القرى ... فكيف بمن يأتي به وهو ضاحك

فلما قضينا الغرض، وأدينا فريضة الظهر، خرجت مع الأخ فزرنا محكمة القاضي الفاضل الكريم سيدي محمد أعمو، فتلاقينا بشوق كبير، فبردت غلة

---

(1) قال الشاعر:

منعت شيئًا فأكثرت الولوع به ... أحب شيء إلى الإنسان ما منعا

(2) في الحديث: كنت أستظل بجفنة عبد الله بن جدعان صكة عمي والصكة الضربة، وعمي تصغير أعمى، والمقصود بالعبارة وقت اشتداد الهاجرة.

(3) الخرقاء: المرأة التي لا تحسن عملًا.

(4) الثوي كغنى: بيت الأضياف في الدار.

كانت منذ سنوات تتلظى بين الجوانح، وما كانت تزداد بتبليغ السلام من بعيد إلا التهابًا، ثم أوقف القاضي أعماله حينًا، فدارت المحادثات، فأرانا ظهيرًا ورد من الحكومة لتعيين الفقيه العفياني، المذكور لإلقاء درسين أحدهما صباحًا يكون ابتدائيًّا لتلاميذ الكتاتيب في العربية، والآخر في الرسالة بين العشائين يكون عامًّا لهم ولكل من شهده، وهذا أمر كانت الجرائد نشرته قبل اليوم، قائلة أن ذلك يكون كأساس لنشر التعليم العربي في جميع المدن، فتذكرت مثل هذه الخطوة الأولى في أيام الشيخ محمد عبده على يد عبد العزيز جاويش في أمارة عباس الخديوي الوطني الشهير، فقلت في نفسي عسى أن تأتي هذه الخطوة المغربية بمثل ما أتت به تلك الخطوة المصرية، فإننا نرى مصر اليوم تتموج بالعلوم العربية في كل جهة بادية وحاضرة والمترقب أن تنكشف هذه الغمة عن سلم طويل، وعن تمام أمل الأمة، لتثمر كل الآمال، وهل تثمر إلا بالحرية والاستقلال؟ وهل تؤتي أكلها إلا متى نهضنا بالعلوم؟ وإذ ذاك نرى كل الكتاتيب القرآنية في البادية والحاضرة منظمة كما ينبغي، معتنى فيها بمبادئ العلوم، حتى تكون كلها مدارس ابتدائية محافظًا فيها على الأخلاق الدينية والعادات القومية، زيادة على المحافظة على القرآن، كما نرجو أيضًا أن نرى رجوع الحياة إلى مدارس العلم البدوية كالمدارس القديمة المنبثة في أرجاء سوس، حتى توافق العصر في تدريسها ونظمها، فإن الشعب المغربي لا ينهض عمليًّا دينيًّا ودنيويًّا إلا بتنظيم كل الكتاتيب والمدارس التي تغمره من أدناه إلى أقصاه، فكل قديم نافع وحديث لا بد منه. هذا هو الرجاء الذي يبعثه فينا عمل الحكومة اليوم، وأول الغيث قطر ثم ينكب[1].

جلت جولة قصيرة في سوق تزنيت، فابتهجت النفس برؤيتها ثانيًا بعد ما كادت تنسى المدينة منذ أن انضوت إلى «إيلغ»، إلا أن الحركة في السوق متوقفة، إلا ما يروج في السوق السوداء، زعموا، فإنه كثير لا تعوز فيها حاجة ما دام الثمن الباهظ ناضًا، ثم لاقينا بكل اشتياق الأستاذ العلامة سيدي احمد

---

(1) شطر بيت، وقبله:

وأبلق الفجر يبدو قبل أبيضه

ابن أحمد الناظر ـ أخا القاضي.

فلم يزد عناق التلاق إلا اضطرام الاشتياق   ويزداد بالقرب اشتياقًا إلى القرب[1]

فذهبت معه إلى دار الفقيه العفياني. فودعت الأهل لأنهم سيبكرون إلى أهليهم في أيت برابيم، فاستقررنا في دار القاضي مستريحين وقد غادرنا الأخ إلى منتجع سرحه في ضواحي (تيزنيت) فلم نره إلا في الغد، هكذا اختتم هذا النهار الذي هو أول يوم في سفرنا المبارك.

الأحد 2 ربيع الثاني:

زرت مسجد ايت محمد ـ فتخا ـ فإذا به مع كونه من الطراز القديم من أحسن المساجد، فيه مصلى واسع، ومكتب حسن، وسقيفتان فسيحتان. إحداهما للطلبة والأخرى للعامة. يأوون إليهما في محادثاتهم طرفي النهار، وعند انتظار الصلوات، وفيه أيضًا متوضأ حسن أفيح، وقد زرت بعد هذا النهار مسجد إداكفا وهو نظير المتقدم، وفيه مدرر من أعظم المعلمين لكتاب الله، اسمه سيدي عمر، عليه مسحة من الصلاح، ذو شيبة وأطراق، وعنده تلاميذ كثيرون، أبطأ هناك فخرج عشرات وعشرات، حتى لقد سمعت أنه تخرج به في حفظ كلام الله زهاء مائتين، وقد تغدينا معه مرة، فرأيته ساكن الطائر، منقبضًا، سالم الطوية، وهو اليوم يجتاز الستين، وقد زرنا مكتب نظارة الأحباس، فكان على صغره حسن الهندام في الجملة مرتبًا منظمًا، وهذا الناظر الجديد سيدي أحمد بن أحمد أعمو هو ثالث النظار هناك، فقد كان قبله سيدي الحسن بن أحمد من آل الحسن بن الطيفور، العلامة الساموگني المشهور، ثم الأديب سيدي محمد بناني الفاسي، نيابة عن مولاي محمد البلغيثي السلوي ناظر تارودانت ثم صاحبنا هذا، والمال الذي يروج هنا لا يزال دون المظنون منه، لضعف هذه البلاد وقلة ماليتها، وضؤولة أحباسها، ولا أحسب ذلك إلا سيزداد مع الأيام، وقد كانت نظارة الأحباس الكبرى كتبت إلى هذا الناظر أن يجمع

---

(1) شطر ثاني بيتين أوله: واعجب منه قربة لحبيبه

وأولهما:

يـزيـد ظـمـأه كـلـمـا ازداد شـربـه   من الحب فأعجب منه ظمئان في شرب

كل أحباس جبال جزولة مما إلى تيزنيت تحت نظره، ولكن المراقبة في تيزنيت لم تأذن له بعد.

مما استفدته هذا النهار، بعض ما يتعلق بالفقير محمد واعزيز الشهير. وأنه من أصحاب عبد الرحمان دفين إيكرار بآݣلو، كما ذكر لي أحد الإيݣراريين، وقد لاقيت حفيده وهو سيدي أحمد بن مبارك بن علي بن الفقير محمد وعزيز فأفادني أن نسبه هو هكذا محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي بن محمد بن عبد الله بن محمد بن سليمان بن عثمان بن حمد هكذا بغير الهمز وهكذا نقلته من خط الفقيه سيدي الحسن الآتي. وقال أحمد بن مبارك أن نسبهم اتصل بمن يأتون: أحمد بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مسعود بن محمد بن محمد ابن الحسن بن أحمد بن سالم بن أحمد بن إبراهيم بن عبد الحليم بن عبد الكريم بن عيسى بن موسى بن عبد السلام بن أحمد بن جعفر بن عبد الجبار بن أحمد بن إدريس بن إدريس إلى آخر النسب المشهور، وفي المنقول منه أن أحمد بن محمد بن إبراهيم المذكور أخذ عن داوود الدادسي وأن محمد بن سعيد العباسي أخذ عن أحمد هذا، أقول لعل أحمد هذا هو أبو عثمان الذي كتب بلفظة حمد والله أعلم. أما وفاة الفقير محمد واعزيز (وهو محرف عبد العزيز الذي كان جده) ففي الأربعاء الأخير من رمضان 1248هـ وله أحاديث وأخبار متداولة، رأيت بعضها مقيدًا في طرف كتاب عند أهله، وكراماته واشتغاله بما يعنيه مستفيضة، وأصله انتقل من تيمكيدشت كما صرح به ابن العربي الأدوزي، وتوفي حفيده مبارك بن علي بن محمد 11 رمضان 1351هـ، وتوفي الفقيه محمد بن محمد بن الفقير محمد وعزيز الخميس 18 ربيع الأول 1349هـ عن سن تناهز المائة، وقد أخذ من تيمكيدشت عن الشيخ سيدي الحسن بن أحمد وشارط في مدرسة سيدي همو بن الحسن بالأخصاص ودرس فيها الفنون ما شاء الله، وتوفي أخوه سيدي الحسن بن محمد بن الفقير واعزيز في الخميس 13 ذي القعدة 1349هـ وقد تخرج بابن العربي الأدوزي، وكان الإخوان فقيهين مذكورين متصوفين مائلين إلى الانقباض يتقدمان الناصريين إلى تيمكيدشت دائمًا، هذا ضريح الفقير محمد واعزيز من مزارات التزنتيين مبني عليه، وأخباره كثيرة، وله في الروحانيات أخبار تدل على شفوف رحمة الله

وأعاد علينا من بركاته، ولعلنا نرجع إلى ذكر هذه الأسرة في ترجمة الشيخ سيدي إبراهيم البصير، لأن آباءه أخذوا عن أفرادها، فلنترقب ذلك في «المعسول» إن شاء الله في (القسم الرابع) فإذ ذاك نشبع الكلام عليهم كما ينبغي إن تيسرت لنا أخبارهم كما نريد، ثم صادفت هناك بين عدول ماسة سيدي عبد الرحمان الأدوزي، فأملى علي ما تيسر من أخبار أهله مما حضر عنده وواعد أن يوافيني بغير ذلك من آثارهم ولعله يفي فأسوي الجميع في تراجمهم من كتابنا المذكور إن شاء الله، ولكن قبل أن أسأله عن كل ما أريد فاجأ من حال بيننا، ثم إني تلوت ترجمة الأستاذ المحفوظ الادوزي على تلميذه الخاص سيدي أحمد الناظر، فأفادني بعض ما لم أعرفه، وهذا وقد ألقيت على سيدي إبراهيم بن القاضي آية (أكاد أخفيها) عشية أمس، فجاءني اليوم بما يشفي الغليل فيها، وهو نجيب لبق ممن قالوا بعد ما أصيبوا بما أصيب به ابن عباس:

أن يذهب الله من عيني نورهما ففي لساني وقلبي منهما نور

وقد قال أن هناك من قال أخفيها أزيل خفاءها، والهمزة همزة السلب، كما تقول أعجمت الكتاب أي أزلت عجمته، ومن قال أخفيها أظهرها، وقد قرئ أخفيها بفتح الهمزة أيضًا، ويقال خفاه وأخفاه بمعنى أظهره، إلى غير ذلك مما ذكره المفسرون.

الاثنين 3 ربيع الثاني:

بكرت لزيارة والد قرينتي الشريف سيدي إبراهيم بن محمد في (الأرجام) في قبيلة أيت برابيم لسماعي بإصابته بورم شديد في إحدى ركبتيه وما يقاسيه من الثمانين - وبلغتها - اشد فعزمت على الابتداء بزيارته بعد ما عزمت على تأخيرها. فاستويت على بغلة القاضي المسرجة، وقد قال إنني أنعلتها لك بمجرد ما عرفت أنك آت، فوجدت راحة عليها فتملصت من الأكف التي تدمي مقاعد أمثالي الذين لا يألفون الركوب، فمررنا بإيغبولا، فشاهدت دار آل إيليغ، وأراني رفيقي أخو زوجتي سيدي محمد بن إبراهيم الشريف الضياع التي لهم والتي لغيرهم، وقد سمعت أن هذه الأرض هي الباقية وحدها من أملاك بودميعة العظيمة تحت يد أحفاده اليوم، ثم وصلنا فوجدنا ترحيبًا من الشريفات

المحجوبات قبل الشرفاء الذين تلقونا خارج القرية، فأمضينا هنالك النهار مع الفقيه الشيخ الصالح أستاذنا سيدي أحمد بن مسعود المعدري، والد الأديب البوتعماني فقد جاء مع طلبته فباتوا معنا فرحًا وابتهاجًا، فجالست كثيرًا من الشباب النبيه البشير ابن ذلك السيد، فإنني كنت أسمع به كثيرًا فإذا به قد صدق الخبر الخبر[1]، ففاوضته في خزانتهم مما احتاج إليه من المقيدات. فذهب إلى مدرسة بونعماني فأتاني بما تيسر، فاشتغل بنسخه وهو ذو همة فيما كلف به.

الثلاثاء 4 ربيع الثاني:

أصبحت مع هؤلاء السادة الكرام، والشيخ سيدي أحمد منعزل عنا كما هي عادته لضعف بنيته جدًّا، حتى لا يقدر أن يجالس كثيرًا. ولكونه يمضي أوقاته في تلاوة القرآن وفي قراءة دلائل الخيرات، وقد جمعهما بحمالة واحدة يحملها صاحبه. ولا شغل له إلا ذلك مغتنمًا ما بقي من عمره، ثم اجتمع حولي تلاميذه النجباء، فوضعت في يدي كتابًا من كتب الزاوية في دار صهري، فوجدت بابًا في فضل العلم فأمرت سيدي البشير أن يتلو علينا منه، فيمضي لسانه الذلق الفصيح بلا تهدج ولا تلعثم، وهل يكون صنو الشاعر البونعماني إلا كذلك، فكنت أنا والفقيه سيدي أحمد الناظم الساحلي معين الأستاذ ابن مسعود له بالمرصاد، لا نذره يعسف لو كان من العاسفين، وهذا المعين من نجباء الطلبة مستحضر في النحو والفقه، وكل الفنون التي يدرسها البونعمانيون وهو من المتخرجين بابن مسعود المذكور، والمرحوم سيدي أحمد بن محمد بن مسعود هو الذي لقبه بالناظم لأنه يراه مولعًا بقرض الشعر، وقد كنت حرصت على أن أتوصل بشيء مما قاله فلم يتيسر ذلك، وهو الآن ابن زهاء أربعين سنة، وقد حضر الطعام بعد متوع النهار فحلق الطلبة يأكلون، فداعبتهم قائلًا:

---

(1) قال المتنبي:

واستكبر الأخبار قبل لقائكم ... فلما التقينا صدق الخبر الخبر

وفي معناه قول متنبيء المغرب ابن هانئ:

كانت مسألة الركبان تخبرنا ... عن جعفر بن فلاح أحسن الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت ... أذني بأحسن مما قد رأى بصري

أحاجيكم ما تقوله العرب لما يؤكل صباحًا قبل الغداء، ثم قلت لهم إن العرب تقول له اللهنة، ومنه قول بعضهم لهنوا ضيفكم، ثم ودعنا الأستاذ وتلاميذه لأنهم بصدد جمع الادام السنوي لمدرستهم على العادة، وهم في تلك الحالة يتتبعون دروسهم في القرى. والناس يلاقونهم بكل إكبار. وبعد صلاة الظهر خرجنا من (الأرجام) وقد جررنا معنا البشير النابغة، قاصدين إلى (العوينة) لصلة رحم لنا هناك، فمضى الطريق كله أدبًا بإنشادات لطيفة، وبفوائد مختلفة مليحة، نتقاذفها كما تترامى الحسان بطاقات الأزهار، فنزلنا أمام ضريح سيدي عبد الله بن محمد العويني الأدوزي الأصل فإذا بحفيده سيدي عبد الله الفقيه تلاقانا، ولم تكن لي به معرفة قبل ذلك الحين ، بكل بشر يقطر به وجهه. فلم أكد أراه حتى أحسست بأنني لاقيت أحد من يتفتح لهم قلبي الذي لا يتفتح لكل أحد، وكان من أغرب المصادفات أننا وجدنا أعوان الحكومة كما جاءوا، فاستداروا بالقرية، معلنين أن لا خروج ولا دخول لأحد، لظهور بوادر مرض معدٍ من بعض السكان. مات منه بعضهم، فكانت دار رب مثوانا خارجة عن القرية، فأباح الحراس لأهلها عدم الانحجار مع أهل القرية فكان ذلك من لطف الله بنا، وإلا فنحرم من صلة الرحم، وهذا التحجير الصحي في الأوبئة المعدية، مما ظهرت للعقول منفعته، ودلت عليه الأحاديث الصحيحة، فقد أمرنا أن لا ندخل بلدًا فيه الوباء، وأن لا نخرج منه، وقضية عمر حين قدم الشام معروفة، ولا أكاد أفهم ما في (الاستقصا) في ترجمة أحمد الذهبي من دفع هذا التحجير. وفق كل ذي علم عليم.

الأربعاء 5 ربيع الثاني:

بتنا ليلة نعدها في طليعة الليالي الغر التي تقل في سفرنا هذا لقلة المجالسين الموافقين في حلبة الأدب. ولأريحية رب المثوى مع أخيه الفقيه سيدي إبراهيم وهما في سماء المعالي والمكارم القمران النيران، أو البحران المتساجلان، فما شئت من أدب ومفاكهة، وفوائد وأنباء، يثر بها لسان الفقيه سيدي عبد الله، فيحكي عن رحلته العلمية. وعن صحبته للشيخ النعمة بن ماء العينين، وعنده دفتر كبير فيه كثير من أراجيزه، ومن بينها قطع تداولها الشيخ

النعمة، والشاعر الإفراني. والأستاذ أبو الحسن الإلغي، وذلك حين كانوا آئبين من سفرة من (كردوس) حيث الأمير أحمد الهيبة، فقال الشيخ النعمة وقد ألح عليهم في السير:

ألا فاعذروني في المسير فإننا لا رواح روح الوصل شوقًا تنسمنا
ولا لوم في شرع الصبابة عندنا علينا إذا من روح وصل تروحنا
جعلناه قربًا أذهب البعد بيننا وعنا به شرط التحفظ أسقطنا
وآدابكم فضلًا تمهد عذرنا وعلياؤكم ترقيكم ما تسنمنا

فقال الشاعر الإفراني:

عذرناك مولانا فسر حيث يممنا وساعدك الإقبال من هند أو لبنى
ولا برحت يمناك تجني مناك ما تضاعف حر الشوق إن قرب المغنى
وأي ملام في انبعاث المعنى إذا ما شام برق الحمى حنا
وطار به شوق اللقا وتسرعت ركائبه كأنها تفهم المعنى
فما عنف المشتاق إلا أخو الجفا عريض القفا لم تصبه المقلة الوسنى
فدم واصلًا خود الصبا بخرائد العلا ما زجا خمر المنى باللمى إلا هنا
فإنك نعم الغيث والغوث إن دجا ملم وسح المزن منا، وما منا
عليك سلام من فؤاد طما به هواك إلى أن صار مملوكك القنا

وقال أبو الحسن الأستاذ الإلغي:

ألا قل لمن بجاهه قد تترسنا ومن وجهه كل الكمال توسمنا
ومن لهم غوث الورى فبجوده وأقدامه من كل هم تنفسنا
ومن لم نزل نستنشق الطيب ساطعا براحته السحاء إما تصافحنا
ومن رشحته للسيادة والتقى يد عن مدى إحسانها قد تقاصرنا
لك العذر إن أوضعت غير مضيع حقوقًا قضاها عز همتكم شأنًا
عليكم سلام الله يا خير منشيء لأرواح روح الوصل شوقًا تنسمنا

واذكر أننا لما كنا ننشد البيت الثالث للأستاذ الإلغي، وجدنا في الأصل

براحته السمحاء فقلت لفظة السمحاء لا تقال، وإنما يقال السمحة من سمح كسهل فهي سهلة، ولذلك لا يقال الحنيفية السمحاء، فقال النابغة البشير لا أرى الكلمة إلا مصحفة من السحاء فقلت له لله درّك، فهكذا يقول الأستاذ الإلغي اللغوي المتثبت، ولا يقول خلافه، فأصلحنا الكلمة، ثم لما حررنا تراجم الأدوزيين العوينيين آل أرباب مثوانا، لا لحق ما لا يزال ينقضي عنهم في (المعسول) عزمت على التبكير فأسلس سيدي عبد الله المضيف قياده، ولكن ما كدنا نصلي الصبح حتى والى ما والى من أطعمة اليد واليدين، فما ترك حنيذا فما دونه إلا عرضه على السماط، وهو يقول: أن قعيدة الدار بنت خالتك هي التي باتت تهيئ كل هذا طوال الليل، فتذكرت وأنا أمر على تلك الأطعمة ما قاله ابن الخطيب في مضيفه يعقوب بن أبي حدو في طريقه إلى مراكش:

نزلنا على يعقوب نجل أبي حدو ... فعرفنا الفضل الذي ما له حد
وقابلنا بالبشر واحتفل القرى ... فلم يبق لحم لم ننله ولا زبد
يحق علينا أن نقوم بحقه ... ويلقاه منا البشر والشكر والحمد

ولم أكد أنشد هذه الأبيات في نفسي حتى حملت اليراع فكتبت هذه الأبيات المهلهلة، والمتاع يحمل على البغال، لنخلد فيها للعوينة ذكرًا بين القوافي:

إن مرءًا قد زار أرض العوينة ... ورأى أهلها، رأى الفضل عينه
لم أكن قط عارفًا قبل كنه الـ ... ـجود حتى رأيت أهل العوينة
فرأيت الندى المجسم حتى ... ليرى طرفهم قرى الضيف دينه[1]
وسرورًا عند التلقي وبشرًا ... مستفيضًا يقر للضيف عينه

ثم زمت الركاب، وركب متن الطريق فاغذذنا[2] إلى (تيزنيت) فدخلناها

---

(1) الطرف بالفتح: الكريم، كما يطلق أيضًا على العين، قال اليوسي كاتبًا به إلى أضيافه:

كلوا واعذروني في التخلف إنني ... رأيت اتباع الظرف ليس من الظرف
فأحسن ظرفي ترك ضيفي كما يشاء ... فليس اتباع الطرف من شيم الطرف

(2) الاغذاذ: الإسراع.

في نحو التاسعة، ثم أخذنا تذكرة السفر إلى أكادير، فصاحبت الفقيه الناظر إلى داره، فدخل علينا سيدي أحمد بن أبي زيد العوفي الشاب المهذب الأريحي وهو كما تخرج منذ سنتين من جامع ابن يوسف، فتولى خطة العدالة بعد أن أدى الامتحان في وزارة العدلية، وعليه رونق الحضر وأدبه وحصافته، فتناول معنا الغداء في نصف النهار هناك، ثم جرنا الأخ الكريم حاتم المعدر سيدي الناجم إلى بعض معاريفه فأفاض علينا، وقد حضر معنا هناك الشيخ إبراهيم الابلاغي، وقد سلم عليّ سلامًا يقل نظيره في الجبليين، فأحفى في السؤال، وذلك لما بين أسلافه وأسلافنا من قديم المعرفة والإخاء المتين، وفي الثانية عشرة خرجت السيارة صوب أݣادير تخترق فسيح أزاغار، وهي وإن كانت تسير بالݣازوجين ذات جري كثير، وفيها أبصر مبصر إزائي أثر قرحة في عنقي، يكاد يبرأ فسألني من أي نوع القرحة، فقلت إنها حفظك الله من المعضلات الشديدة التي يقابلها المستطبون عندنا بالكي الشديد، غير أن الله رؤوف بي. فقيض لي إنسانًا من اداوزكري (هو سيدي أحمد بن الطيب من أصحاب والدي) فلم يكد يراها يوم انبثقت حتى عرفها، باسوداد رأسها وبكونها منعدمة المخرج، فقال عليك في الحين بالبارود والثوم وحب الرشاد والملح والفلفل الأهلي وشيء قليل جدًّا من إثمد الحج، فدق الجميع وأخلطه بالزيت واربطه عليها، ثم تحفظ من كل ما فيه رائحة طيب. أو تناول الخبز المخمر، وتجنب الجزر، فتجنبت كل شيء إلا اللحم بالبصل، والإدام بلا كمون ولا أفاوية الأبازير، كما تجنبت ملاقاة الناس لئلا يكون فيهم طيب أو سهوكة الدرن، فإنها أيضًا تضر بالقرحة، بل تجنبت حتى المزابل ونحوها، فهكذا أسرع إلى الشفاء، فإنني احتجبت 15 يومًا عن كل زائر، وعن الرياح وعن الشمس، فكل ذلك مما يضر بها، فلم أحس بأدنى ضرر في جسدي بسبب هذا التحفظ، ثم لما مضت أيام، ونحن نستبدل تلك الأدوية على القرحة كل يوم تفجرت ولفظت ما فيها، فتناولنا ثانيًا حب الرشاد والبصل والتمر الجيد، فدققناها ناعمًا. فمزجناها بالزيت فوق النار اللطيفة، فصرنا نربطها عليها حتى لا ورم فيها، فعمدنا إلى ما يسمى أسركنا، وهو مما يدبغ به عندنا، وهو نبات كالاشنان، فدققناه فنذره عليها، حتى اكتست الجلد كما ترى، وهذا كله بإشارة ذلك السيد الزكري قائلًا أنه من

الأدوية التي يحرص الشيخ أبو العباس الجشتيمي على أن تنتشر بين الناس، فعملت أنا جهدي لنشرها بينهم، وهذا ما قاله جزاه الله خيرًا، فبادر صاحبي إلى كتابة هذا الدواء، كما كان القاضي أعموا قبل ذلك اعتنى بكتابته، وقصدي بكتابة مثل هذا، إفادة القارئ كيف التطبب عندنا في مثل هذا.

وصلنا أكادير نحو الثانية والنصف فصمدنا إلى (تالبرجت) فصادفنا هناك ابن أختي الشاب الذكي سيدي محمد بن سعيد التناني، وقد نزل عند شقيقته التي تزوج بها حديثًا حوالي عيد الفطر 1360هـ السيد أحمد بن بلعيد من إيداوتانان ثم وجدت الأخ سيدي عبد الله الساكن الآن في أزيار بإيداوتانان كما ركب إلى (تمانار)، فاستقدمناه بالهاتف فتعشى معنا، فاجتمعت به وبابن سعيد وكلاهما ممن كنت أشتاق إلى لقياه من زمن، وابن سعيد لا يزال يتلقى في المسجد اليوسفي ويرجى له سمو وتفوق، خصوصًا في الأدبيات، (وقد توفي هذا الشاب وشيكًا رحمه الله ودفن في الصويرة).

كذلك قضينا هذا النهار، فمن مكارم (العوينة) إلى ابتهاج (تيزنيت) إلى السرور بمرائي بسائط هشتوكة، إلى الحبور بمناغاة أمواج البحر المنبسط تحت أقدام (تالبرجت) التي هي بلا ريب إحدى المدن المغربية القليلة النظير، وإن كانت حديثة.

الخميس 6 ربيع الثاني:

أصبحت مع الأخ سيدي عبد الله الصوفي المكين نرتاد ساحل البحر بعدما لهننا مضيفنا الكريم، فأفضى إلي وأفضيت إليه بأخبار العائلتين، ثم أتينا للغداء فأطلقنا للواحي عنانه، يشنف أسماعنا بأخبار العالم، كما كنا نصنع منذ عشي الأمس فصرنا نستمتع من جديد بألوان من المدينة كنا حرمناها منذ سنوات غير مبكي عليها من أنفسنا، لأننا وإن كنا نتذوقها، إلا أن المتعة التامة إنما يجدها مثلي في المتع العلمية وبمحادثة الإخوان، وإلا فهذا الواحي والكهرباء في هذه الغرفة التي أنزلنا فيها مضيفنا الكريم، هل يقدران أن يصلا بأنفسنا إلى ما تصله لذة المعارف ومحادثة الأصدقاء، وفي العشي نزلنا إلى (انزكان) فوجدنا الأخ الحبيب وأصحابنا هنالك في الانتظار، فنزلنا في قرية (الدشايرة) في دار، فلا تسأل عما

تدفق علينا من الموائد الطافحة، وقد التقيت مع الفقيه مولاي عبد المالك التناني، واستفدت منه اليوم وفي يوم الرجوع ما سنكتبه ذلك اليوم فانتظر.

الجمعة 7 ربيع الثاني:

كان أحباب من (فونتي) واعدونا على أن نرجع إليهم، فوفينا فأقلتنا السيارة الحافلة إليهم، وهي تأتي وتذهب دائمًا في كل ساعة أو ساعتين طوال النهار بين (تالبرجت) و(إنزكان) فوجدناهم مترقبين، فأمضينا ليلة من ليالي إحياء القلوب.

السبت 8 ربيع الثاني:

بكرنا بكور الغراب تجوب بنا السيارة الطريق إلى (تارودانت) فنمر بأراضي المعمرين، ومن بينها ضيعة لشركة الساتيام غرست فيها الموز، ثم أحاطت الضيعة من جوانبها الفيحاء على اتساعها بسياج من شبكة رقيقة من الأسلاك الرقيقة المنسوجة، تحجب مثل النحل والبعوض، ولا تحجب الشمس، كما جعلتها أفقيًا فاكتست الضيعة كلها جوانب وسماء تلك الشباك التي تبدو رأي العين كأنها نسج العنكبوت، ومن بينها تبدو (المضخات) آلات رفع الماء ـ وسوى هذه أراض أخرى كلها لهذه الشركة، وقد باعتها هذه السنة لتاجر أهلي هو السيد المعروف بالدمناتي من تارودانت، وهو مشارك لأجنبي كما سمعت، وهو من أثرياء تلك المدينة، كما اشترى أيضًا دار ابن حيدة بن مايس المسماة هناك دار البارود، وقد سمعت أن ذلك كله بأحد عشر مليونًا من الفرنكات، مع أن الأراضي فيها آلاف مؤلفة من الأمتار، كانت تلك الشركة اشترتها بثمن بخس من الأهالي، وقد كاد المعمرون يستحوذون على أراضي هوارة الجنوبية، وغالب ذلك بسبب القائد بوشعيب الاقطاعي الذي أخلص للاستعمار. وقد قال لي مطلع: لم يبق الآن من الأرض الجيدة في أيدي الأهالي إلا قليل، وإن كان المعمرون لم يستخدموا من تلك الأراضي إلا قليلًا، ثم بعد أن قطعنا غابات أرگان ولجنا في غابات الزيتون، فهذه الأراضي في الحقيقة أراض مخصبة إلى الغاية، وقد قال المطلعون أن الأراضي الممتدة

من (أولوز) برأس الوادي إلى (أنزكان) إلى (اكلو) إلى أولاد جرار فوجان فهشتوكة إلى أن تمر شمالي الأطلسي الصغير (كما يسمى به في الجغرافية الحديثة جبل جزولة الممتد جنوبي هذه الأراضي) فيها 500،000 هكتار يصلح فيها للتعميرخمسها فقط، أي 100،000 هكتار، ولكن إيجاد المياه الكافية للجميع دونها أشغال عظيمة في سدود وحفر الجداول والسواقي الكبرى إلى آخر ما ذكره أرباب هذا الشأن، ولا عيب في هذه الأراضي إلا أنها تحتاج إبان السقي إلى الماء الكثير، فأين هذه الأراضي من أراضي دكالة وعبدة حيث الأراضي البورية التي لا تحتاج إلى السقي، بل يكفيها المحراث والفأس، ثم تؤتى أكلها من غير معالجة السقي والتسميد في كل وقت، وهذه الأراضي السوسية من أخصب الأراضي المغلة، فإن غللها تبكر قبل غلل الشمال بكثير.

وصلنا المدينة نحو التاسعة، فنزلنا في دار أبي المواريث سيدي العربي بن محمد التيزنيتي، ولم نجده هناك لذهابه مع الأخ سيدي محمد إلى (تازمورت) قبل ذلك اليوم، وقد كان الأخ تركنا في (تيزنيت) عجلًا للسفر إلى الحمراء فما وراءها ليزور ولده عليًا في مكناس، وكنت أظنه سافر إذا بعدم انتظام المواصلات في هذه الأيام قد أخره إلى اليوم، ثم صمدت إلى دار الفقيه العلامة القاضي سابقًا سيدي موسى بن العربي الرسموكي الأصل الرداني الدار، فسألت عنها فقدمنا إليها إنسان ليدلنا، وقد لفت نظري في هذه المدينة أن أهلها يهتبلون بالوارد الذي لا يعرف الطرق فيدلونه، رأيت ذلك منهم مرارًا، فكان هذا من محاسن تارودانت المشكورة، ومن مآثرها المحمودة، فدققت الباب، فأعملت الخادم باسمي، فابتدر القاضي ففتح الباب قائلًا: أنت هذا يا فلان، وقد سمعت أنه كان وكان، - يعني النفي - فقلت له حقيقة كان وكان. ثم جاء ما نفي كان وكان، بهاتين العبارتين اللتين تبادلناهما أثر المصافحة كانت التحية، ثم جلسنا في الثوي، فتبادلنا الأسئلة عن الأحوال الشخصية فرأيت منه فرحًا زائدًا وبشرًا فائضًا، وقد قلت له ما عندي في تارودانت سوى زيارتك فقط، ولا يزال الفضل لك في التعارف، وذلك أن أول يوم تعارفنا فيه يوم شرفتني بالزيارة إذا أنا في الحمراء، فسره ما رأى من نجابة

أصحابنا هناك، ثم مررت بتلك المدينة مرجعي من الغ إلى مراكش[1] عام 1354هـ، فلاقيته ثانيًا في دار حاتم تارودانت السيد الحاج مبارك بن علي المناني التميدويني استدعاه ليلة احتفاله بنا، ثم ضرب الدهر ضرباته، وما في الأفئدة لا يزال مصونًا، وقد قال لي ذكره الله بالخيرات، أنه أنشأ أثر مروري بتارودانت حين نفتني الحكومة مختتم عام 1355هـ هذين البيتين:

هون عليك فإن نفيك برهنا عن كل فضل نلته ولك الهنا
إن كان نفي المرء يوحش صدره فسواه أضناه البعاد وأوهنا

ثم كان أول ما سألته عنه. وهي أسئلة بسببها حرصت على لقياه، هل وقف على كتاب روداني ألفه صاحبه عام 1139هـ وسماه (نزهة الألباب، في ذكريات الأحباب) أو (نفحات الشباب) كتبه كاقتراح من الفاسيين ليدلي فيه بما عرفه عن الأدب السوسي في عهد محمد العالم بن مولاي إسماعيل قائد تارودانت وكل سوس في سنوات 1112هـ فذكر فيه أدباء من مصاقع الأدب العربي في سوس، غير أن الذي عندنا من الكتاب فيه بتر في آخره، فسألت هذا السيد لعله يقف على الكتاب فنستتمه، فكان الجواب بالنفي، وقد كنت سمعت بأن نسخة منه ربما توجد في إحدى خزائن علماء الساحل، أما في خزانة السملاليين. وأما في خزانة ابن يدير، غير أنهما نهبتا منذ أزمان على يد ابن دحان وقد كنت على نية أن أفاتح بالسؤال عن الكتاب بقية العلماء السملاليين الفقيه سيدي الطاهر إذا به توفي قبل هذا السفر بنحو شهر فهكذا خرج السؤال عن الكتاب صفرًا في هذه المرة، ولعلنا نقف على طلبتنا في مرة أخرى كما سألته أيضًا عن رحلة حجازية لأحمد الأسغاركيسي المتوفى عام 1136هـ. فقد انتسخت بعضها إلى أن وصل فاسًا، فكان الجواب أيضًا بالنفي، ولعل الرحلة في خزانة الاسغركيسيين إن كانت مصونة من حوادث الدهر، ولم أتصل إلى الآن في سفري هذا بمن يكون لي فاتحة خير إلى بيت الاسغاركيسيين الطافح بالعلم والصلاح منذ القرن العاشر.

---

(1) هذه الرحلة جمعتها في جزء تحت اسم «من الحمراء إلى الغ».

قيدت عن القاضي ترجمته وقد أخذ عن أحمد بن محمد أمزاركو وهو عمدته بعدما أخذ عن آخرين، ثم دخل تارودانت عام 1314هـ، فاتجر حينًا، ثم التحق بخطة العدالة وبمجلس الشورى، ثم تعين قاضيًا في العهد الحفيظي، ولم يزل يتقدم ويتأخر، وهو يطلب بعد أن أسن أن يعفى من تلك الخطة التي عجز عنها، فلم تسعفه الحكومة إلا أخيرًا، ومن قريضه ما قاله بعد أن أخر عن القضاء إحدى المرات المتقدمة:

يظن بي الاغمار أني منطوٍ ... على أسف لما صرفت عن القضا
ولم يعلموا أني كفيت أمورًا همهن أحر في فؤادي من الغضا
فقل لمحب ساءه ذاك أو لمبغض سره ما هكذا النظر اقتضى
فإني أرى عكس القضية لازمًا ... لحاليكما فالوجه أن تعكسا القضا[1]

ثم لما أعيد بعد تلك المرة إلى الخطة قال:

ولكن هذا الهم قد عاد ثانيًا ... فيا رب فاصرفه كصرفك ما مضى

ثم لما تطاول عليه هذا الهم أزيد من عشرين سنة في هذه المرة الأخيرة. قال:

وقد دام هذا الهم عشرين حجة ... وزيد عليها أربع وهو ما انقضى

ثم قال ـ إننا اليوم نقول في الشطر الأخير:

وزيد عليها أربع وقد انقضى

ثم اتبع ذلك الحمد وقد كسا الاستبشار وجهه من غير ظهور تصنع لذلك قال إنني الآن والحمد لله أبيت ملآن العين بالوسن الطيب، وأظل ولا شغل لي إلا مناجاة دفاتري ومناجاة ربي، وأنشد من قطعة أولها:

ليكن قاضيًا على أهل سوس ... من تبحر في علوم المجوس
كل قاض لهم وإن جل لازا ... ل مدى الدهر في العنا والبؤس

وللقاضي هذا ترجمة واسعة توجد في كتابنا «المعسول» وقد تسرب إلي

---

(1) القضاء: هنا بمعنى الحكم. والقضاء الأول بمعنى الخطة. هكذا قال القاضي.

ممن يداخلونه من أفضى إلي بما يجيف عليه بابه من خشوع زائد ودمع مسترسل ومناجاة لخالقه جعل لها وقتًا لا يخرمه، وإن زلزلت الأرض زلزالها، وكان مع إخفائه لحاله هذا عن الناس، ربما يفلت من فلتات لسانه ما يدل على ما وراء الأكمة قوله:

يا جاهلًا بأمور علمها رشد ... وغافلًا والمنايا دونه رصد
هذا أوان فطام النفس عن زلل ... قد طالما أنت في أمواجها ترد
وأن هذا زمان الصلح إن سبقت ... لك العناية واحتف بك المدد
فانج بنفسك من داء الذقون ولذ ... ببيت ربك فهو المنهج الجدد
وصل فيه على المختار سيدنا ... محمد وعلى آل هم السند
واعكف على الفرض فيه والوظيفة والـ ... ـورد وأنت خلي القلب مجتهد

وقد مضت لي معه نحو ثلاث ساعات كلها فوائد تنتشر من فيه، ثم تنتظم بيراعي فكأن ذلك أعجبه كثيرًا، فقال: لله درك من حريص على أن لا تفوت سانحة، وبمثل هذا يدرك المعارف المولعون، والأعجب أنك لا تزال كما كنت لم تفتر همتك بالمكث في الجبال التي لا يعرفون مثل هذه الهمم، فقلت له: ما زدت على أني رأيت الدرر تساقط على رطبة فحرصت على أن لا تضيع، والعلم صيد والكتابة قيده[1]، وأنا حقًّا لو كنت في الجبال على ما هي عادة الجبال في هذا العصر لفترت همتي، ولكنني منزو عن كل أحد، بل تباعدت عزوفًا عمن لا يقدرون مثل هذا الحرص، ويعدونه من خور الطبيعة، ولا يعلم إلا الله ما طرق أذني من المسفين هممًا، وممن لا يرون العلم إلا في درهم يوكأ عليه، أو في شهرة تطير في الخافقين، ثم ينامون ملء عيونهم، كأنهم أصبحوا في ذروة علم لا مزيد عليها، ومما قيدته عنه مثل (لمكواك مدواك) أي من لم يكوك ما داواك، بمعنى أن من يدخل عليك منفعة، وإن كانت شاقة عليك، فإنه لا يريد بك إلا الخير، وفي هذا المعنى قال الشاعر:

(1) العلم صيد والكتابة قيده ... قيد صيودك قبل أن تتفلتا

ما ناصحتك خبايا الود من رجل   ما لم ينلك بمكروه من العذل[1]

وذكر أن عنده مجموعة كثيرة من وفيات أعيان تلك الجهة، قائلًا تنتظرك متى أردت أن تؤدي لهذه المدينة حقها، فتمكث فيها مثل ما تستحق[2]، وقد كنت أعلمته بأنني لا أبقى هنا إلا بقية ذلك اليوم، فجاذبني في ذلك مجاذبة، فأبديت عذري، فلم أنفك منه إلا بعد أن وعدته بالعودة متى تيسر ذلك عن قريب، ووعد الحر دين، ومما أفادنيه أن الباشا حمو توفي في محرم 1318هـ وأنه دفن في (سدي أسدي) كما أفادني وفيات أخرى ألحقتها بتراجم أهلها في كتاب (المعسول) ثم جرى ذكر وفاة سيدي الحاج ياسين الوسخيني فذكرت أنه توفي 1327هـ فقال بل توفي حوالي 1320هـ وهو عندي مقيد فقلت إنني نقلت وفاته هكذا توفي ليلة 8 ـ 12 ـ 1327هـ نقلته عن أحد التمليين وعن أحد تلامذته، فقال أن ذلك خطأ قطعًا، فقلت له إني أقع على خطإ ممن يعتنون بالوفيات كثيرًا ثم أصحح ما أراه غلطًا، ثم أجرى ذكر المذكور وذكر أنه كان زار مرة تيوت حين كان يأخذ فيها عن أمزاركُو قال فوقع مني أحسن موقع وحصل مني على إكبار وإجلال عظيمين إلى الغاية، ولا أتمنى إلا أن لا أزول عن مقابلة وجهه، قال وقد أنشد من قصيدة قالها في المولى الحسن السلطان وفيه تورية بما يذكر في علم المنطق.

نتيجة فضل شكله متآلف   من الغر سبط السبط ذلك جامعه

من الكبر المقدمات فلم تكن   بها خسة فليس شكل يضارعه

قال زرت مرة البلد فكنت عنده في محله، فقعدت مع الخادم وقد أغلى الماء على جمر كاد ينطفئ، ولا جمر آخر، فكتبت إليه وهو مشتغل بالفصل بين أناس:

هلم إلى الغداء فهو مهيأ   وأخر مرا الأوباش فالجمر قد خبا

---

(1) وقبله:

محبتي فيك تأبى أن تسامحني   بأن أراك على سيء من الزلل

(2) أودع كل ما قيده في (الرحلة الرابعة) كما ناولنيه ولده بعده.

فأسرع بالمجيء فرحًا، ثم إنني أخبرته بأنني وقعت له على آثار وأعلمته بما أجمعه من آثار العلماء، فقال سمعت بذلك ويا ليتك صاحبت معك ما تكتبه لتتلو علينا منه، فقلت له سأفعل ذلك إن شاء الله إذا وفيت بالوعد، فقال لماذا لا تسكن اليوم عندنا، فإن المدينة شاغرة من العلم، فتوانسنا فداعبته قائلًا: لو كان لي الاختيار لما قصدت إلا المدن التي يتوفر فيها كل شيء، وتجبى إليها كل الثمرات، ولا أسكن في هذه القرية الكبيرة، وأنا الآن والعالم كما ترى، لا أبتغي بقريتنا بإلغ بديلًا. وقد تيسر لي فيها جميع الضروريات في الحياة، ثم لا أتحول عنها حتى يهدأ العالم إن شاء الله، دار كل هذا ونحن نتغدى ألطف غداء حضري في قبة حضرية، والقاضي النحيف النير أمامي كأن له في الحضر جدودًا، رقة ولطفًا، وحسن سمت وجمال بزة وخير شارة. وولده النبيه النجيب سيدي محمد المتخرج من فاس من عهد قريب معنا.

ثم استأذنته في الخروج لأجول في بعض أنحاء المدينة، فمررت مع ولده بضريح (سدي أسدي) فترحمت عليه، ثم وجدت الأخ آيبًا فجلست معه في دار سيدي العربي التزنيتي فوجدت في يده رقًا كتب فيه بعض ما لفت أنظاره من عوائد الأعراس الرودانية، فقال إنما قيدت بعضها وكان ينبغي أن تتبع كلها فقرأت القرطاس، فكان فيه ما يأتي وقد أبقيته بعبارة الأخ ليظهر اعتناؤه التام باقتناص الفائدة أين وقع عليها (والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها).

كيفية عرس أهل تارودانت[1]:

متى يخطر في بال العزب أن يتزوج، يبدي فكرته لقرنائه الذين هم أصحابه ممن لم يتزوجوا بعد، يتذاكر معهم في ذلك، ويجيلون القداح حول الأسر وكرائمها حتى يستقر رأيهم على كريمة بني فلان، فينسل أحدهم ليجس نبض والدها أو ولي من أوليائها إن لم يكن حيًّا والدها، فيداوله حتى يجره إلى أن فلانًا ربما خطر له الالتفات إلى كريمتك فما رأيك؟ فإنني كرسول خاص من قبله، فإن طاب أهل الكريمة بالخطيب نفسًا فإنهم يجيبون بالقبول وأنهم

(1) كتبت هذا لجريدة عربية لتنشرها، فحذفته الرقابة في ذلك الوقت.

يخطبونه، وإذ ذاك يأتي والد الخطيب أو أحد أوليائه إن لم يكن أبوه حيًا، فيخطب عند أهل الكريمة الخطبة الرسمية، فيقدم بين يديه هدية لا تخرج إلا من جيوب أتراب الزوج، إن لم تكن كلها فجلها، ثم إذا أظل العرس يقدمون أيضًا من عندهم ما يسمونه بالدفع، وهو عجل وكسوة تامة من قفطان ودفينة وسراويل وقميص ونعل وقطيب[1] ونقاب ورداء، وهذا كله عادة أوجبته الأعراف، ويختلف نوع هذه الكسوة باختلاف طبقات الناس فيدفع كل ذلك إلى أهل الزوجة، وفي يوم العرس يستدعي الناس بالبطاقات فيها الاسم والوقت واليوم المعين والمكان الذي تقام فيه حفلة العرس، وفي وقت الطعام تفتح الأبواب فيأتي الناس الجفلى[2] من استدعى ومن لم يستدع، وهذه الحفلة تقام ليلة يوم العرس، فيصدر كل الحاضرين أكلًا وشربًا، ثم تبتدئ الألعاب المألوفة والناس اختلط حابلهم بنابلهم، والرجال والنساء في الازدحام بالمناكب يدومون على ذلك إلى أن يطلع الفجر، هذا كله يقوم على حين أن الزوج قد انفرد مع أترابه في مكان خاص يشتغلون بالقصف وتناول كل ما لذ من طعام وشراب، والموسيقى والطبول والمزامير تملأ الجو نغماتها، يدوم ذلك كله طوال الليل، وذلك هو لب العرس ومظهره.

وعند طلوع الفجر يخرج الناس كلهم أجمعون من دار الحفلة العامة تقدمهم الطبول والمزامير، ومباخر الطيب ومراش ماء الزهر، فيقصدون دار العروس التي وقع العقد عليها أثناء الليل في دار أهلها، بوساطة والد الزوج أو وكيله، فإذا وصل الجمع الحافل أمام دار العروس، يصطفون وأصوات الطبول تزعج الآذان، مترقبين خروج العروس، فإذا بدت تختال بين أهلها أو محمولة في منصتها، يبادر أحد الحاضرين بأعلى صوته قائلًا: (بايع) يعني أدوا التحية كما يقال أمام السلاطين، لأن العروس وكذلك زوجها ينزلان في حواضر المغرب كلها منزلة السلاطين، ولذلك يحييان بمثل هذه التحايا الملكية، فإذا

---

(1) القطيب هو الخمار الملون الرومي في الاصطلاح المغربي.

(2) تلميح إلى قول الشاعر:

نحن في المشتات ندعو الجفلى ... لا ترى الآدب منا ينتقر

ذاك يصيح كل الحاضرين بقولهم: (الله يبارك في عمر سيدي، الله يبارك في عمر سيدي) ثم ينتظم الموكب فيتقدم أصحاب الدفوف والمعازف والطبول، ثم جميع الحاضرين، وهم يمشون الهوينى، ورائحة الطيب من الند والعود تفغم المعاطس، والموسيقى تشنف الأسماع، والعروس وحشمها في ذنب الجميع، يحتف بها أهلها وأربعة من الرجال الأقوياء من الشبان يلعبون بخناجرهم اللماعة المصقولة المسلولة فوق رأس العروس، فتسمع من ذلك قعقعة السلاح الممزوجة بأصوات المعازف، وبصوت المنادي الذي يكرر فينة بعد فينة (بايع). وأصوات المجيبين يقولون بصوت واحد: (الله يبارك في عمر سيدي) ولا يزال الموكب هكذا يمشي مشي الحباب على الكؤوس برفق وتؤدة حتى يصل دار الزوج، فتدخل العروس وحشمها: النساء إلى دار النساء، والرجال إلى محل الرجال، فيشتغل الكل بالألعاب، إلى أن يتهيأ فطور الصباح، فيتناوله الجميع، فيراجعون ألعابهم جميع النهار إلى العصر، لا يقطعونه إلا لأكل أو شرب، وعند العصر يتوجه الجميع إلى المحل الذي فيه الزوج الذي يطلقون عليه (العريس)[1] بمحل احتجابه ـ كما يقولون ـ فيتجلى سيدنا (العريس) في أبهته، بلباس فاخر عال، فيبادر الطلبة بافتتاح المديح، ولا يكاد (العريس) يبرز للعيون حتى يصرخ المنادي (بايع) فتسمع بصوت يصك الآذان: (الله يبارك في عمر سيدي)، هذا والطيب من الند والعود وماء الزهر مثل غمام في الجو، والمعازف والموسيقى تصدح رناتها، ويملأ الأسماع بمها وزيرها[2] والخناجر المسلولة تبرق على (العريس)، والصراخ ممن لا يملكون مشاعرهم من الطرب والقصف يصم المسامع، ثم يمشي الجميع مع (العريس) مبايعين مترنحين رويدًا رويدًا، وإن مروا بدار تسمع من نوافذها الزغاريد والصياح المتتابع، إلى أن يلجوا بالعريس داره، فيجد في وسطها كرسيًّا منصوبًا، فيتفضل سيدنا (الملك) بعد أن يحيا التحية الملوكية، فيجلس على أريكته، فيحيط به الحاضرون والحاضرات وقد انتهكت السجوف، وذاب الوقار، وغاب أهل الحياء

---

(1) العروس يطلق في اللغة على الزوج والزوجة معًا. ولا وجود للعريس للزوج.
(2) البم والزير والمثنى والمثلث أسماء أوتار العود الأربعة.

والتجهم، وقام أبو نواس ينادي في الناس:

ألا فاسقني خمرًا فقل لي هي الخمر ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهر
وصرح بمن تهوى ودعني من الكنا فلا خير في اللذات من دونها ستر

يتجلى سيدنا (العريس) على عرشه، والناس دونه جالسون، وبين يديه منضدة صفت عليها آلات الحلق، والحجام واقف يحل فوطاته، متهيأ لحلق رأس (السلطان) فيضع الفوطة على أكتافه، فيبل شعره، فيحمل الموسى، فكان كلما أقبل إلى الرأس بها، يتراجع كأن في رأسه أفعى يفرق[1] من آذاها، يفعل ذلك مرات، إلى أن يقوم أحد الحاضرين من أتراب (العريس) فيحل الباب فيلقي في فوطة ممدودة بين أيدي الناس ما يلقيه من أوراق مالية من ذوات المائة فرنك، فينادي أحد من يبسطون الفوطة: إن فلانًا حل الباب بخمسمائة مثلًا، ثم تنهال الأوراق المالية على الفوطة من الحاضرين والحاضرات، والكل متغالون فيما يلقون، لا يرضى أحد أن يفوقه غيره، فتدور المعركة في المزايدة، فيعيد الملقي أولًا مرات، والشبان يؤدون عن الشابات، وكل يشتري ود حسناء بثمن غال، ومن أدى كثيرًا عن كعاب استحق مخالتها بالمهر الغالي، هذا وقد انتهك الستار، وزالت النقب عن معارف[2] ذوات الدلال.

وكل يشتري من يريده بالأداء عنه حتى ذوات الغنج والكحل، قد يؤدين عمن يرغبن فيهم من الشبان، ثم لا يزال الحجام يتردد في الحلق إلى أن يعرف أن الجيوب فارغة. وأن حدة المسابقة في امتلاك قلوب الشبان والحسان قد فترت، فإذ ذاك حين تجمع الفوطة الواحدة أو الفوطات المتعددة الممتلئة بالأوراق يتقدم فيأتي على حلق رأس (العريس) وهذا المال يختص به (العريس) وقد يجتمع له منه آلاف، وقد أعرس أخيرًا بعض أثرياء تارودانت من التجار، فاجتمع له من ذلك زهاء اثني عشر ألف ريال.

انتهى ما كان مقيدًا وقد استخرجته من المبيضة بغير تصرف كثير، ولا ريب

(1) يفرق مضارع فرق كفرح: يخاف.
(2) المعارف: الوجوه.

أنه لا تزال هناك ذيول لما ذكر، ولم نوفق إلى كتبها، وقد يطلع بعض الأغبياء العريضي القفا على هذا، فيستبرد الاعتناء بمثله، فيقال له: ليس هذا بعشك فادرجي، ولله در المصريين الكرام المتطلعين إلى معرفة كل ما يجهلونه فإن أخانا الأديب الكبير المكي الناصري حكى لنا:

أنه حين كان يأخذ في الجامعة المصرية، كل سامر مرة مصريين، فيحكي لهم عن بعض عادات المغاربة في أعراسهم، فاقترحوا عليه أن يكتب في الموضوع ثم يلقيه في ناد من النوادي العمومية محاضرة فوقع على المحاضرة إقبال عظيم خصوصًا من الشبان، قال: ثم لم ألق بعد هذا الحين شابًّا مصريًّا إلا قال: أتمنى لو أعرس في المغرب عندكم لأستطيع أن أكون سلطانًا أسبوعًا ولو خياليًّا، وما أعذب بعض الأشياء، ولو لم تكن إلا من الخياليات.

ثم عند الأصيل، ذهبت لأزور دار البارود، وهي كل ما يزار هناك لما يذكر من بنائها، فوجدتها مسدودة الأبواب غاب بوابها، فرجعت متأسفًا، وفي ذهابي إليها مررت بدار كريم تارودانت (الحاج مبارك)، فعاتبني على أن لم أنزل عنده، فاعتذرت بأني مستعجل، فأظهر التأسف على عدم إمكان تلبية دعوته، لأنه استدعاني للعشاء، ولم أزر المساجد، لأنني كنت أعرف المسجد الكبير وعندي علم بما كان مكتوبًا في الصف الذي زاده المولى الرشيد[1] سنة 1082هـ كما كنت أعرف مسجد (مفرق الأحباب) على أن عذري الحقيقي هو ضيق الوقت، وهناك تاجر كبير من (توف لعزت) حث الأخ على أن أراه متى خطرت هناك، ولكن لم يتيسر ذلك، والحقيقة أن لهذه المدينة علي دينًا لم أوفه بعد، ولعلني أوفيه عن قريب بحول الله، حتى باشاها الأديب، فإنني لم أزره، وحتى القاضي الجديد سيدي محمد بن علي لم أره، مع أن بيني وبينه بعض معرفة، وقد سأل عني بعدما رجعت، فأرسل إلي سلامًا ممزوجًا بالعتب حين لم أره، يسر الله أداء حق تلك المدينة المحفوفة بما أسدته إليها الطبيعة من بساتين أشبة[2] ملتفة الأغصان، ومن بساتين مخضرة باهرة العمران، ولا أزال أحب (رودانة) مذ

---

(1) ذكرت ذلك في رحلة من (الحمراء إلى الغ).

(2) شجر أشب بكسر الشين ملتف.

أنبتت صاحبنا الأديب محمد بن عبد الله أخرباش الغريب في البيضاء، وقد سألت عن أخوته فلم يتيسر أن ألقى واحدًا منهم، ولله في خلقه شؤون.

الأحد 9 ربيع الثاني:

ركبنا السيارة قبل طلوع الفجر بعدما توضأنا، فوقفت بنا عند الأسفار في المسمى (أربعًا وأربعين) فنزلت أنا ورفيقي الشريف مولاي محمد صهري، فودعنا الأخ ورفيقه عبد الله الأجبوري قاصدين أكادير فالصويرة توا، فصليت ورفيقي الصبح أمام دار القائد بوشعيب الزموري، ثم سألنا عن دار مقصودنا الحاج محمد بن وكريم التملي، وقد بنى دارًا هناك بين أراض اشتراها واستعمرها، فنزلنا على الرحب والسعة في دار البعيدة عن ذلك المحل بنحو ألف متر أو أكثر بقليل، فاستعذبنا النعاس في خلوة كنا إليها محتاجين، ولم نصادف رب المثوى فلم يجئ إلا العاشرة ونصفًا، فاشتغلت بعد الاستيقاظ في تدوين مذكراتي ولم يعتم أن جاء فتناولنا الغداء، ثم خرجت معه واليوم طلق بهيج، نجول في ضيعته المتسعة، وقد حفر فيها آبارًا، وغرس فيها من كل نوع، وعند الظهر استرحنا قليلًا في الدار ريثما تناولنا شيئًا، ثم خرجت معه نحو مركز (أربع وأربعين)، فسأل عن القائد بوشعيب لأنه صفيه، فلم يجده في داره، فجلنا في ضيعة القائد الفيحاء الفينانة بالأرنج صفوفًا صفوفًا مد البصر، والأرض مخدومة أحسن الخدمة، والمضخات مطلقة العنان، فيجري جدول كبير من الماء متدفقًا، وهذا القائد من المتخرجين من المدرسة الحربية، ثم انخرط في الذين خاضوا حرب 1814م فأدرك فيها رتبة الضابط، ثم لما عين قائدًا على هوارة جاء بمتاع قليل، وها هو ذا اليوم متسع الأكناف من كل شيء، لأنه يحتوش أموال هوارة بسبب وبلا سبب، وهو الذي يتسلط على الوطنيين كشواظ من نار، وهو مهتم بالمادة وبالفلاحة وبكل شيء، وأخبرت أنه ربما ينصح الهواريين أن لا يبيعوا أراضيهم للأجانب، ومقصوده أن يشتريها هو أولًا، ثم يبيع للأجانب، ليكسب بذلك ما يملأ جيبه، وأخلاقه أخلاق أمثاله كما لا يخفى، ثم درنا حول أراضي ابن وكريم، وهي متسعة إلى الغاية، ويقدرها هو بنحو 100 هكتار، ولم يستعمر منها إلا قليلًا. وقد ذكر أنه ترك عن عمد كثيرًا منها مرعى لماشيته، وفيها كثير من

أركان، وليس هذا وحده ما عنده، فإن عنده أراضي أخرى للناس مرهونة في يده، تسقى بماء الوادي فيها بساتين الزيتون، وهذا الرجل اليوم يناهز 66 سنة - كما ذكر لي - ونشاطه الفتي، لا يعرف مللًا ولا إعياء، وله ثروة كبيرة رباها من أول فلس من سنة 1313هـ يوم خرج من داره على رجليه، وله الآن مركز في البيضاء كبير يقوم به ولده السيد أحمد من أفاضل أصحابنا اليقظين الوطنيين، ولوالده المذكور مركز في تافراوت بلده بأملن، وهو ذو صلاة يحافظ عليها، ثم ليس بعدها إلا الجري الذي لا نهاية له، ولو كان المسلمون كلهم في مثل هذا النشاط، لاستحوذوا على مالية العالم، ولتفوقوا على الاسرائيليين. ورحم الله أبا الدرداء إذ يقول: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا. وفي المروي حديثًا: ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه، بل من أخذ من هذه وهذه. وهذا الفتور الذي استولى على جلّ المسلمين مما يسمونه - كذبًا - زهدًا، من الأدواء التي أنهكت قوى الإسلام، فالمسلم متى قام بتوحيد ربه، مؤديًا حق ربه في ماله، لا يلام إن أفرغ جهده فيما يعلي شأنه وشأن أمته، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الاثنين 10 ربيع الثاني:

جئنا مع مضيفنا وقد قصد أيضًا أݣادير إلى السيارة الآتية من تارودانت فإذا هي مفعمة وليس إلا سطحها، فزعم مضيفنا إنني لا أتنازل إلى الركوب على ظهرها حسبانًا منه إنني ممن يشمخون بأنوفهم، ويزمون عن أمثال ذلك، فقلت له بل نركبها ولا بأس، فإن هذا الضباب يحجب عنا الشمس، ثم هناك الاستمتاع بالمناظر الطبيعية الجميلة، فجمعت علي ثيابي ولبست جبة أعدها للمهنة، وليلبس الإنسان لكل حالة لبوسها، فتسلقت السلم فتوسدت المتاع المتراكم على السطح بين الركبتين، فوجدت إزائي رجلين أهليين، فسرعان ما تجاذبت معهما الحديث فثررت عليهما عليًا وابن وكريم قد تلفع بذيله منكمشًا كأنه لا يرضى بمثل هذه الركبة مع أنها ممتعة حسنة، فصرت أسائل الرجلين عن أسماء ما نمر به من القرى كما أنشآ يسألاني عن أمور دينية، فعقدت هناك درسًا حلوًا في أمور سألاني عنها، فكنت أفصل لهم ثم أعود فأسألهم لأنظر

هل فهموا عني ـ كأنني توسطت فصلًا دراسيًا بين التلاميذ ـ كل ذلك من ابتهاجي بما استمع به مما أراه بين يدي من ضياع عامرة وغابات ملتفة، وديار للمعمرين حمراء جميلة، ومما أتذكر أنهما سألاني عنه، الصلاة في السيارة وزكاة الأوراق، وقد حمدت لهما بحثهما عن الديانة لعزمهما على القيام بما يجب عليهما، ومن لابس الطبقة الواطئة في بلادنا هذه، يجدها أقرب الطبقات إلى الخير، فيها استعداد عجيب لإدراك الأسرار الدينية، وتصديق لكل ما هو إلى الدين، وقد كان مما مررنا به من بعيد إثر فراقنا (أربعًا وأربعين)، دار الشيخ السيد بلعيد[1] أحد كبار الهواريين ومن أكابر متموليهم، ويذكر عنه كرم عجيب، وعقل حصيف، وتؤدة تامة، وقد حج بيت الله الحرام، وقد حبب إليه أهل الخير كلهم وأهل العلم، وعنده اليوم في مدرسة قرب داره الفقيه أحمد البوزوكي الشهير في هذه النواحي، وقد ذكر في (القسم الثالث) من (المعسول) وقد ألح علي الحاج محمد بن وكريم أن أتلبث عنده يومًا آخر لاتصل به، فاعتذرت له بعذر، والعذر الحقيقي هو أنني من أزهد الناس في التعارف بأمثال هؤلاء الرؤساء، إلا إذا جاء التعارف عفوًا، لأنه قد قر في قلوبهم إن كل من أتى إليهم إنما أتى إلى جيوبهم، وأي أبي حر عزوف يتنازل عن الرتبة الشماء من أنفته إلا لمن تواضع من هؤلاء وجاء فلا بأس، وفي المثل العامي، من جعل الناس سواء، فليس لحمقه من دواء. ومما مررنا به دار الشيخ حمو من (أزرو) وهو تحت يد باشا أكَّادير. ويذكر أيضًا بالغنى والعقل والتمييز، وقريته كبيرة رأيناها من سطح السيارة، كما نعتوا لنا أيضًا دارًا أخرى كبيرة لأحد أهلها، وقد سقط علينا رذاذ هناك وضعت فوق رأسي دونه لبدة معي، ثم وصلنا القنطرة[2] ـ قنطرة أيت ملول ـ نزلنا من السطح إلى المقاعد في داخل السيارة، فوجدت أمامي سحابة دكناء من الدخان الذي يتعاطاه المدخنون، فكدت أختنق، فقلت أين هذا مما نحن فيه آنفًا؟ وهكذا قد ينتفع الإنسان بما يظنه ضررًا، وقد يتضرر بما يخاله نافعًا.

---

(1) توفي 1365هـ كما سمعته أو في أول التي بعدها.

(2) وهي التي جرفها السيل في أول الاستقلال ثم أصلحت غاية الإصلاح.

ولربما سقط الحما ... ر فكان من غرض المكاري

والسيارة اليوم والحرب قائمة في الندرة بمكانة، ومن يسافر في مثل الأحوال، فليعول على كل ما يقاسيه، فالإنسان الذي كان خبر أحوال الأسفار، وعجم تقلبات الافتقار، فإنه يستعد لكل ما يأتي به الليل والنهار. ثم لما نزلنا بأݣادير عند إنسان كان بيننا وبينه موعد، وهو الرجل الصالح الحاج اليزيد من سكان (فونتي) قديمًا ثم من سكان (تالبرجت) اليوم، وعنده أولاد يصلني دائمًا السلام من عندهم، فأحببت والدهم رغبة في التعرف بهم والتعرف بي، فإذا بأحدهم من أفاضل شبان هذا العصر، كأنه فاسي ثقوب ذهن وغيرة على وطنه ودينه كما ظهر لي منه، ومعرفة بحال هذا العصر، وقد كان أمضى في باريز 12 سنة كما أظن أنه أخبرني به، فئاب بعقلية صافية كسته من محبة الدين، وملازمة الصلوات في أوقاتها، والتباعد عن السفاسف التي ابتلي بها كثير من شبان هذا العصر، حلة جذابة مع كونه أميًّا، كما أحسب أنه ذكره لي، فأمضينا عنده ساعة حسنة، ثم تصاحبنا معًا إلى الوطني الكبير بل أول وطني من شبان جزولة السيد أحمد بن الحاج الأمين التاجر الكبير التملي، وقد كنت رأيته في مروري هناك، فافترقنا على أن نتلاقى ثانيًا، فجلسنا ثلاثتنا مليًّا، فجالا وحدهما في أمور وأمور، وأنا أسمع وأزن العقليات، فأعجبت بالشابين اللبقين الغيورين، وقد حكى لنا الأمين أمورًا وقعت له حول وطنيته في بلده وفي أكادير مما يجب علي أن لا أسطره الآن، لأن المجالس بالأمانات، ثم توادعنا بعد شراب بنقل حضري، ثم ودعت بنت سيدي سعيد التناني، لأنها لا تزال في انتظار، فصليت العصر في (إينزكان)، فأجبت داعي الاخوان في (الدشيرة) وهي قرية إزاء (إينزكان) وقد لاقيت ذلك السيد أحمد الخليفة من الطلبة النجباء الآخذين عن الشيخ سيدي الحاج مسعود الوفقاوي، فطلعنا إلى منتزه إزاء المراقبة المبنية في دار القائد الفتاك محمد بن الحاج الحسن، وهو منتزه عجيب يشرف على كل ذلك الوادي وعلى المساكن الممتدة إلى أݣادير، وهناك مشهد على سيد يسمى سيدي مباركًا، لا نعرف عنه شيئًا، فشرعت اسأل جليسي عن الشيخ سيدي الحاج مسعود وأحواله، فذكر أنه سيجيء في الغد لنلاقي فطاب الفؤاد جدًّا بذلك، ثم صرت أقيد عنه نجباء التلاميذ الآخذين عنه، فكتبت البعض وكلفته أن

يجمعهم لي في قائمة، لألحقهم بترجمة الأستاذ حفظه الله، ثم أوينا إلى نزولنا، فتلقانا الذين ضيفونا بما هو مألوف منهم من قديم مع أسلافنا رحمهم الله.

الثلاثاء 11 ربيع الثاني:

كنت اتصلت من العشية من أمس بالفقيه الصوفي المتبرك به سيدي عبد المالك، من أحفاد سيدي إبراهيم بن علي التيغانيميني، وكان حلوًا فكهًا محاضرًا عارفًا بأخبار تلك الجهة، فاستفدت منه عن نفسه وعن أسرته آل إبراهيم بن علي وعن أستاذه أعبو وعن الشريف الكثيري وعن آخرين ما أدرجه في (المعسول)، كما استفدت منه أمورًا أخرى نودعها هنا، كأسماء علماء منهم:

إبراهيم بن علي البوزكي: عم الفقيه أحمد الموجود الآن في هوارة، فقيه حسن صوفي أخذ عن الحسن التمكدشتي ثم أرسله إلى مسجد بورج المداح في الكفيفات فلازمه إلى أن توفي نحو 1340هـ. وكان صالحًا مذكورًا بكل خير، وولادته نحو 1260هـ ويضاف إلى أهله المذكورين في (القسم الثالث) من (المعسول).

مولاي إبراهيم الفلالي: فقيه مذكور تخرج بالتمكدشتي المتقدم، وقد كان في زمن انقطاعه بتمكيدشت مقلًا إلى الغاية، فقال في نفسه: لم لا أشكو حالي إلى شيخ سيدي الحسن وهو كالملوك يتقلب في النعم، لعلي أتوصل منه بمعونة؟ قال فاستأذنت عليه، فوجدته وحده يتلو في دلائل الخيرات، فبادرني بأن أفضل الناس من اجتمع له الفقر والعلم، وهما تراث النبي حقًّا والحسن يعني نفسه ليس له من هذا التراث إلا قبصة[1] من العلم، يقول ذلك وهو يتوجع مما أقبل عليه من الدنيا، قال الحاكي: فعرفت مغزى كلامه، فاطمأنت نفسي، ثم إنه سكن أولاد دحو، وقد كان من بين المأسورين حين ذهب المولى الحسن حلل هوارة، وله ذكر كبير في العلوم، لعله توفي نحو 1320هـ.

الحسين القاضي بفونتي من أكادير: علامة جليل انفرد في عصره في

(1) القبصة: ما تتناوله رؤوس الأصابع من شيء بخلاف القبضة التي هي ملء الراحة منه.

أواسط القرن الماضي للقضاء بين الناس، لا يرد له حكم، ولا تنقض له فتوى، كان متدينًا مراقبًا لربه. غير جشع في الذي يتوصل به من الناس، أتاه إنسان مرة بمائة مثقال عن قضية حكم له فيها، فتناول منها أربعين ورد عليه الباقي قائلًا: هذا ما استحقه بعملي فقط، وقد تزوج الحاج العربي الدشيري بنتًا من بناته، فهي أم الرئيس عبد الرحمٰن، توفي نحو 1288هـ. وقد شاخ وألمت به علل، وإنما تعينه الخادم إلى أن يجلس للناس في أخريات عمره.

محمد بن الحسين ولده: يذكر أيضًا بالعلم، توفي بعد صدر هذا القرن، ولعل ذلك بعد 1320هـ.

الحسين بن الطاهر بن الحسين القاضي المذكور: تخرج بأعبو ومن فاس، ثم شارك في مدرسة (أورير) ثم أم حينا في مسجد (أكادير) وحينًا في مسجد (فونتي)، زاول النوازل قبل الاحتلال، توفي نحو 1347هـ.

محمد بن يحيى البنسركاوي الكُسيمي: تخرج بالحسن التمكدشتي، وهو الذي أرسله إلى كسيمة، كطلب من القائد الحاج أحمد الاينزكاني، فدرس في مدرسة سيدي ميمون ما شاء الله، إلى أن توفي نحو 1310هـ وكان يقضي ويفتي.

محمد بن علي أمزيل (الحداد) من أسرة كل أفرادها حدادون: عالم كبير كان ابن نفسه، عصاميًا مشهورًا، رفع راية العلم في قريته بإنزكان، كما كان يقضي بين الناس في عهد القائد الحاج أحمد، وله أخبار حسنة، توفي أواخر العقد الثاني من هذا القرن، وله ولد يسمى عبد الرحمٰن، أخذ عن الفقيه مبارك البوزوكي - من أسرة المتقدم آنفًا.

هؤلاء من جرى ذكرهم فقيدتهم عن ذلك الشريف وعن غيره من بعض المسنين الحاضرين، وأخبار علماء تلك الجهة قد ضاعت كثيرًا، مع أن فيها أفذاذًا، والعلم كان كثيرًا هناك كما كان كثيرًا في كل جوانب قبائل سوس، وناهيك بالعلامة صالح الماسكيني المذكورة مناقشته مع عيسى السكتاني في فتوى توجد في كتاب (العكاز) ولم نعلم له ترجمة إلى الآن، إلا أنه من أهل الحادي عشر لا غير، وماسكينة جارة كسيمة وأكادير من مواضع العلم، وإن

كان ذلك اليوم ضئيلًا، فإننا لا نعرف الآن من قبيلة كسيمة وأكادير إلا قليلين، كإبراهيم بن التهامي التامري المشارط في مسجد ارحالن، وقد تخرج بالمحفوظ مدرس مدرسة المحصر في زاوية الشيخ سيدي محمد التيلضيبي من قبيلة انكنافن، ولا يزال إبراهيم حيًّا وشابًّا، وكأحمد الخليفة ممن أخذ عن الحاج مسعود، ويظهر أنه عالم حسن، وهو اليوم في قرية انزكان ولا بأس بمعلوماته، وقد حدثني الشريف أيضًا عن محمد بن عبد الله الخرباني الهواري من المتخرجين بالأستاذ أحمد الكشطي، ويشارط في قرية (تيكمي أوفلا)، وفي مدرسة أيت يعزى ولا يزال حيًّا.

وحدثني أيضًا عن الفقيه أحمد البوزوكي أحد المتقدمين، وقال: إنه أخذ عن عبد الله اليفتركائي وعن أعبو، وشارط حينًا في مدرسة سيدي ميمون وفي أولاد تيمة بهوارة، وكانت له شهرة عظيمة أيام الطاغية القائد محمد بن الحاج الحسن الانزكاني، فكان يشفع عنده ويراعيه أحيانًا، وهو الذي ذكرنا أنه اليوم عند الرئيس الحاج بلعيد الهواري، وله ولد يسمى الحسين، أخذ عن أبيه ويشار إليه بنجابة، والأسرة البوزوكية من الأسر العالمية بسوس كما ترى، وهي مذكورة ـ كما تقدم ـ في (المعسول).

هذا وقد أخذت أيضًا عن آل الحاج العربي رؤساء الدشيرة قبل هذا العهد أنباء سأنظمها في مكانها في القسم الرابع من (المعسول) إن شاء الله، لأنهم من أصحاب الشيخ الوالد، وهم ورؤساء أنزكان إخوة، وقد انقطعت اليوم الرئاسة من الجميع، وقد حكى لي من أثق به من المسنين، إنه كان يسمع من نحو سنة 1320هـ أن محمدًا الكسيمي ستنال منه قبيلة ماسكينة ما ينالها، فصدق ذلك بذلك الطاغية الذي ما تولى إلا في سنة 1331هـ أو السنة التي بعدها، وعلى يده وقع الاحتلال ثم عرك الناس عركات لم ينسها أحد إلى الآن، كما سمع أيضًا إذ ذاك أن آخر رؤساء أنزكان يسمى عبد الملك، فصادف أن أخًا لذلك الطاغية يسمى عبد الملك، خالف على أخيه يوم اختلف الطاغية مع الحكومة، فنزعته من القيادة ووضعت هذا في موضعه، ثم لم ينشب هذا أن هلك فانقطعت الرئاسة منهم، وأتى الباشا الفقيه الحسن بن إبراهيم التامري الذي لا يزال إلى الآن هناك، وأمر هذا الرجل تتخله أعاجيب تدل على أن ما

قالته العرب صحيح (فقاتل بسعد وإلا فدع) فقد أخبرني من عرفه قبل أن يدرك هذه المرتبة قال أرسلني الحاج الحسن الكَلولي من أكادير إثر وصول بيعة الهيبة إلينا، لأوصل الخبر إلى أخيه القائد مبارك في (تمانار) بايداكَيلول قال، فنزلت مع أصحابي في مسجد قرية (أمي واسيف) إزاء البحر، فأمرت أصحابي أن يهيئوا لنا مأكولًا ومشروبًا، ريثما أنام نومة قليلة، فأوقدوا نارًا، فإذا بالفقيه الحسن خرج إليهم من المسجد،وكان مشارطًا فيه، فسألهم عما يفعلونه، فأخبروه عني، فأمرهم بإطفاء النار، فأرسل إلى داره، فأتى إليه منها بطعام، وهيأ الصينية المصقولة ـ وكل ما في إمكانه ـ فحين انتبهت دخل علي مرحبًا، فرأيته في أبهة مرموقة، لا تليق أن تضيع في سيف البحر، وفي ظلال المساجد وفي صيد الحوت، لأنني أسمع عنه أنه كان يتلهى في أوقاته كلها بصيد الحوت كثيرًا بالقصبة، فجاذبته الكلام، فقلت له ماذا تصنع هنا؟ ألا تريد أن أنظر لك مكانًا يليق بك؟ فقال: بلى جزيت خيرًا. وكان إذ ذاك كما تخرج من مدرسة سيدي الحاج الحسن الكزويي، ثم التحق بالقائد مبارك الكيلولي فرآه كاتب له خاص حسن القلم جيد الخط، فاحتال عند القائد حتى نفض يده منه، فأوى إلى ذلك المسجد، قال فقلت له: ما رأيك في الكتابة عند الحاج الحسن بأكادير؟ فتهلل فرحًا وقال إن التحقت بذلك المقام فإنني لا أنسى يدك ما حييت، ففارقته على أن أمر به مرجعي، فلما قضيت الغرض عند القائد ذاكرته حول المذكور، فقال القائد أنه نعم الكاتب. ثم أشار إلى كاتبه فقال: لولا سعي هذا لما فارقني، ثم كتب رسالتين: إلى المذكور أن يلتحق بأكادير، وأخرى إلى الحاج الحسن في استكتابه، قال وقد جازاني القائد خيرًا قائلًا: إن الحاج الحسن لا كاتب عنده، فإن رسائله التي يخرمشها[1] بيده تأتينا ولا نقدر أن نقرأها، ثم مررت بدار المذكور فإذا به قد سافر سفرة قصيرة ربما يروح منها العيشة، فألح علي والده سيدي إبراهيم أن أبيت فبت مرغمًا، فذاكرني المذكور ليلًا حول ولده قائلًا: إن ولدي الحسن لا بد أن يدرك مرتبة عند الحكومة، فافعل معه كل ما تطيقه اليوم من الخير لعلك تجازى غدًا عنده قال: ولا أزال

(1) خرمش الصبي الكتابة: إذا لم يبينها. وهي عربية فصحى.

اتعجب من قولة ذلك الشيخ، هل أدرك ذلك بالفراسة أو بالكشف؟ وقد كان أهلًا لكل ذلك، لمصاحبته للشيخين: سيدي الحاج الحسن التاموديزتي والشيخ سيدي الحاج علي الالغي، قال ثم حين لم يرح علينا الفقيه سيدي الحسن، أوصيت أباه أن يلازم الدار حتى تأتيه بغلة يركبها إلى أكادير، ففرح الحاج الحسن بالكاتب، فأتت به البغلة، فتولى الكتابة والخطابة في المسجد والقضاء بين الناس في الشرعيات، ورب المثوى يهتبل به اهتبالًا قال: ولا أزال أتذكر ليلة نفست فيها إحدى كرائم الحاج الحسن، فلم يندلق رأس الولد من الرحم، فيجري إلى كاتبه يستكتبه تميمة، فوافق أن اندلق المولود بمجرد كتابة التميمة، فملأ كفيه بالريالات صبها في حجره، ثم لما انقلع الحاج الحسن عن أكادير، تقلبت الأحوال بالفقيه الحسن إلى أن شارط في مدرسة سيدي عبد الرحمٰن بأيت تامر، فمن هناك استدعي ليكون قائدًا للقبيلة من غير أن يحلم بها، وما ذاك إلا لأن الشيخ سعيدًا التيكيزيريني تأبى من ملاقاة الحكومة، فتطلب من يجعله رديئة بينه وبينها، فصدقت فراسة سيدي إبراهيم والد الفقيه سيدي الحسن، وذلك في مبدإ الاحتلال.

تلك الحكاية التي تحوم بباشا أكادير اليوم، وهي حقيقة، لا مراء فيها، ثم أنه قام مقام القائد في قبيلة أيت تامر وهو يتمول على عادة القواد، إلى أن زال عبد الملك الانزكاني بموته، فنقل إلى أكادير حيث لا يزال إلى الآن.

وأقول إنني كنت عرفت هذا الباشا من سنة 1336هـ فقد مررت وأنا على جذع من الخيل بداره إزاء مخرم وادي أيت تامر، فأتذكر أننا تصاحبنا معًا إلى سيف البحر، فتغدينا هنالك، وقد كان ولده محمد هذا الجندي الضابط اليوم مع والده أمام سرج بغلة وهو صغير، وفي تلك السفرة في ذلك اليوم، رأيت والده سيدي إبراهيم، فحكى لي أن دارهم كانت ممر الفقراء أصحاب سيدي سعيد ابن همو المعدري دائمًا، ثم ممرًا للشيخين: الوالد وسيدي الحاج الحسن التاموديزتي، وكان يحفظ كثيرًا من كلامهم، ويفتخر بأنه منهم، وقد قال لي ذلك النهار: أن هذا الذي يروج فيه الولد، مما لم نجد عليه آباءنا الأولين، ولكن رضينا بحكم الله كأنه لا يرتضي مقام ولده في الرئاسة.

ثم لم أعد أرى المذكور إلا مرة لقيته في أكادير ولم أزره هذه المرة، مع أن الأمين السيد أحمد بن الحاج التملي، ذكر لي أنه كان أخبره قبل مجيئي بأن فلانًا ربما يزور هذه الناحية، ولم أزره لضيق الوقت ولإشغالي بمن هم مني وأنا منهم(1).

اليوم يوم الثلاثاء، وبعد أن تناولنا اللهنة خرجنا إلى دار بعض أصحابنا، لأنه ينتظرنا، فتلاقينا في وسط الطريق بالفقيه سيدي محمد بن أحمد ابن العم الكاتب عند القائد سعيد التيكزيريني(2)، بل هو الذي يتولى جميع أشغاله، وقد كان جاء في اليوم الذي بكرنا فيه إلى تارودانت، فلم يصادفنا فرجع موصيًا على أن نعلمه برجوعنا، فأعلمناه أمس بالهاتف من أكادير، فذهبت معه إلى دار ذلك السيد ثم توجه جميع الناس إلى سوق تقام ذلك النهار في إنزكان، فبقينا معًا منفردين، ففتحنا بيننا ما أوكأه الدهر بالفراق منذ سنوات، ثم طاب لنا أن نجول على أقدامنا فأصعدنا في المحجة الذاهبة إلى قنطرة (أيت ملول) ودونها نحو ثلاث كيلو ميترات، فقطعناها بالحديث، فوصلنا القنطرة، فصار يتعجب منها. فقلت له ما هذه بشيء إزاء القناطر الهائلة التي نرى رسومها في كتب السياحات؟

ثم جلسنا في مقهى هناك، فشربنا من شراب الرمان الذي كان هو المشروب الأثير عندي، ثم رجعنا أدراجنا ونحن في حديث يحشر كل شيء. فما تركنا مما حول شخصياتنا وأسرتينا وحول العالم وحول الحرب المتلظية إلا نشرنا خبره، ثم قصدنا إنزكان لملاقاة الفقيه سيدي الحاج مسعود الوفقاوي فلاقانا عبد للقاضي السيد الحبيب المثقال السويري، فجرى إلى صاحبه فلم ينشب أن رجع يستدعينا فقلت لصاحبي: إنني قاصد إلى الأستاذ الحاج مسعود، فاذهب أنت لنقتسم خطتينا بيننا، فدخلت على الأستاذ في دار الفقيه سيدي أحمد خليفة فبادرني منه تواضع ونبل وشرف كمين، فلم يلبث أن صار ينشد في كل مناسبة في الحديث ما يوافق، فلم نجلس إلا قليلًا حتى جاء ثانيًا

(1) أن هذا الباشا وغالب أسرته وابنه الضابط قد انقرضوا اليوم 1376هـ.
(2) توفي هذا القائد في أوائل هذه السنة 1377هـ في السويرة.

رسول القاضي يستدعيني والأستاذ معًا، فأسعفناه فتلقانا القاضي لقيًا حضريًّا في روض أريض، ورونق أخّاذ بالأبصار، فتذكرت والله الحضر ورجاله وآدابه ومآدبه، ونقاوته وكرمه في الحفلات، وقد كان عهدي بالقاضي يوم رأيته في دار القائد سعيد التيكزريني أول 1355هـ في (تمانار) وليس عليه ذلك النهار رونق الحضريين مثل هذا اليوم فلم أكن تعرفت به إلا بعد أن انقضى المجلس، فكان التعارف بيننا قليلًا، ولذلك انقبضت هذا اليوم عنه لعدم تداخل القلوب ولوجود أناس في المجلس نحو ثمانية، منهم من لن أعرفه ولا يعرفني، فلويت رأسي تحت طي الجناح، إلى أن أكلنا وشربنا، ثم رمقت إنسانًا أحسبه السيد الحسن الاخصاصي أبا المواريث في سوس كله، فتبادلنا التحية من جديد من غير استرسال، لأن المقام لا يقضى إلإ الصمات البحت، ثم ولج علينا أوروبي بين آنستين، فشاهدوا عظم طواجين القاضي، وهي حقيقة كبيرة من طواجين الجيل الماضي الكريم، ثم قصعة كبرى طافحة بالسميذ المسنم باللحم، فلم تملك إحدى الأوروبيات نفسها إن صاحت قائلة: لكن الفرنسيون يقتلهم الجوع في بلادهم، فلم يجبها أحد إلا تونسيًّا صار يبصبص لها ولمن معها. ثم خرجنا نحن تاركيهم هناك، لأن القاضي لم يشتغل بعد دخولهم بسواهم، غير أنه ألح علي إلحاحًا كبيرًا أن أتعشى عنده مع ابن العم الذي هو صاحبه من قديم فاعتذرت ثم لحقني ابن العم يقول: إن القاضي قد حثني على أن تجيئه إلى العشاء، لأنه لم يرك بعد، ولأنه يريد أن يجالسك في مجلس خصوصي، فأجبته ثم اشتغلت بالحاج مسعود الأستاذ، فحررت ترجمته، كما أقيد كل ما أنشده لأحلي به ترجمته في (المعسول)، وقد طلبت منه أن يوافيني بما توقفت عليه ترجمته من آثار، فأنعم بذلك يسر الله تمام المرام كما نريده، وقد أخجلني حين قال إنني اليوم ما جئت تحت هاطل صيب بل الثياب إلا لأراك، فجازيته بكل خير، وقد تبدت لي عظمة الرجل من نواحٍ في مجالسته وفي فوائده الكثيرة التي يفيض بها بله كرمه الذي اشتهر به اشتهارًا كثيرًا، فإنه يقيم لتلاميذه رأس كل أسبوع حفلة من حرّ ماله، كما أنه يعين كل الضعفة منهم دائمًا، مع إكبابه على التدريس إكبابًا لا يفتر، فبذلك تأتى له أن يمثل دورًا في التدريس لا

يشاركه فيه أحد اليوم أيًا كان، من جهة كثرة الطلبة والمتخرجين، وقد وسع الله عليه في ذات يده حفظه الله، ثم ودعته وودعني راجين الملاقاة في وقت آخر قريب إن شاء الله وقد كان هو أحد مقاصدي في هذه الجولة والحمد لله على ملاقاته[1] وأما السيد الحسن الاخصاصي المذكور فهو شاب ذكي من شباب سوس اليوم الذين يخطبهم المجد بكلتا يديه، نقي اللبسة بشوش الطلعة، لطيف الحديث. وقد سألته عما يمكن أن أكتبه عنه فقال: إنه الحسن بن محمد بن مبارك ولد 1329هـ بتزنيت، وأخذ القرآن عن سيدي عمر بن محمد أعراب من قرية (إيداكفا) وهو المذكور آنفًا في تزنيت وقد جمع عليه القرآن وحرف المكي، ثم لازم الأستاذ الرفاكي في مدرسة (تالعينت) ست سنوات، كما أخذ أيضًا عن سيدي محمد بن بلوش حين قتل إنسانًا في بلدة (تاݣانت) فنزل في (تالعينت) ثم تولى مع الأحباس 1347هـ إلى 1355هـ فتولى خطة أبي المواريث في تزنيت إلى 1358هـ فتولاها في كل سوس في حكومة أݣادير. ثم زاد على ذلك الكتابة في الأملاك المخزنية في أكادير هذه السنة 1361هـ وذكر لي عنه أنه من أقدر الناس على تصفية الأعمال الحسابية، قال الناظر بتزنيت: أنه يأتي إلى إدارتنا هذه، ففي حصة قليلة من الزمان يحرر كل الحسابات التي تراكمت من أشهر، وذلك لأنه أيضًا موظف في الأحباس كعدل، وذكر لي أنه الآن لم يقترن مراعاة لام له صعبة وفقه الله ويسر له[2].

ثم إننا في العشي تعشينا عند القاضي ثلاثتنا، فعرفت من نفسيته ما أجهله فإذا به أريحي كريم السجايا، وقد أعد لنا وحدنا ما يدل على أن له نفسًا عالية فلم يكف اللحم عن الدجاج، ولا كفت هذه عن غيرها مما تابعه، وقد حدثني ابن العم بأن هذا هو عادته يوسع على نفسه وعلى أهله توسعة كبرى[3]، ثم جرى ذكر

---

(1) توفي الأستاذ رحمه الله نحو مختتم سنة 1365هـ وترجمته الواسعة في (القسم الثاني) من (المعسول).

(2) أقول أن الاخصاصي اليوم ناظر الأحباس السوسية في تارودانت.

(3) ولا بأس أن نذكر هنا نادرة من ذيول توسعته على عياله، وذلك أن حاجيين تخاصما على شيء بينهما فجاءا إلى محكمته في مركز (تمانار) حين كانت هناك فمرا وراء داره حيث كناسة الدار وفيها كثير من العظام فقال أحدهما لصاحبه أولًا تريد أن نفصل ما بيننا؟ فإننا =

العلم في تلك الناحية، فتأسف القاضي على انقطاعه، ولا أدل على ذلك من أنه لا يوجد من يقوم بالدرس الرسمي الذي عينته الحكومة لأكادير إلا بعد أن أتوا بأحد الفقهاء الابوشيكريين، كان مشارطًا في مدرسة أورير. قال القاضي ذلك فجعلت أحدثه عن أسرة الابوشيكريين وما مضى فيها من العلماء، ثم قلت له إن بقية حسنة لا تزال فيهم ببعقيلة، ثم أن قلة العلم التي شكاها القاضي[1] إنما كانت فيما يحتاج إليه من الرسميات كهذه لقلة درايتها لا غير، وإلا فإن الشيخ سيدي الحاج مسعودًا ملأ كل تلك الجهة بالمعارف الزاخرة بتلاميذه، وهو والله مفخرة من مفاخر الغ، فقد انتشر عنه هناك ما انتشر عن أبي عبد الله الالغي أو أكثر.

هكذا تم اليوم فبتنا في قرية (الدشيرة) وقد أضافنا الشيخ إسماعيل[2] ابن عبد الرحمٰن ضيافة كبرى مرارًا، وهو من أكارم الناس الذين لا يعرفون قدر ما ينفقون، وقد اجتمعنا مع أخيه سيدي المدني أيضًا وهو من تلك الوشيجة الطيبة التي حيل بينها وبين ما يؤذيهم في مروءتهم أو في دينهم، ورحم الله أخاهما سيدي محمد بن عبد الرحمٰن، فإنهم والله ممن تتزين بهم المجالس، وتتعطر بأخبارهم الكتب، وسنورد إن شاء الله أخبار هذه الأسرة في (المعسول) في (القسم الرابع) يسر الله تمامه.

الأربعاء 12 ربيع الثاني:

أخبرت بأن السيد الأديب سيدي الحاج عبد الله الجراري الساكن في (انزكان) اليوم، قد فتش عني أمس، حتى إنه أتى ماشيًا إلى الدشيرة ليلًا، إذ نحن في دار القاضي، فلم يصادفنا، كما أنه فتش عني أيضًا عند بعض أصحابنا في قرية (انزكان)، فوضعت بين عيني أن أزوره اليوم أداء لحقه، لأنه من تلامذة الجد سيدي محمد بن العربي الأدوزي، وعلى يده طبعت بعض كتبه بتونس،

= إن دخلنا في يد القاضي فإن هذا الذي نتخاصم عليه سيئول كله إلى عظام كهذه، فكان هذا هو السبب حتى تناصفا بينهما فذهبا لحال سبيلهما، فاستراح القاضي منهما ومن أمثالهم (لو أنصف الناس لاستراح القاضي).

(1) توفي القاضي نحو 1366هـ.

(2) توفي أواسط 1377هـ.

فذهبت مع الأستاذ ابن العم، فلاقانا في داره وسط النهار أحسن ملاقاة طيبة، فإذا به من أطيب الناس معاشرة ومجالسة، وجدناه يقيم حفلة للفقراء الأحمديين، وقد نصب برمة تفور في وسط داره، فقلت له قولة أشعب حين اتبع موائد ولجت إلى بستان لسالم بن عبد الله بن عمر، ثم تسور عليهم فقام إليه سالم يقول: بناتي بناتي، فقال له: لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد، قلت له لا تشتغل بأي شيء، فقد كفاك آل الدشيرة كل مئونة، فاجلس معنا لنقضي واجبات الملاقاة ثم جعلت أسأله عن ترجمته وعن نسبه، فقال: إنه شريف وإنه مولود في مكة، فأدلى بكل ما تقلبت فيه حياته إلى الآن، ثم أراني مجموعًا كثيرًا فيه مقالات نشرها في الجرائد، وقصائد ومقطعات ومختارات اختارها من مطالعاته حين كان في تونس وفي الأستانة وبيروت ودمشق وغيرها من البلدان التي كان زارها، ثم وعد أن يوافيني بسلسلة نسبه وما ينتجه من ذلك المجموع، وسنسطر ذلك في (القسم الخامس) من كتابنا (المعسول) إن شاء الله، فإنه هو الذي وضع للإسهاب، وكان الحاج عبد الله موطأ الكنف متعاليًا إلى المجد، مشحوذًا بالغربة التي ركب متنها ازمنًا، وقد شكر الله أمامي على ما أفاض عليه من نعم كثيرة من كل نوع، ومن شكر فجدير بالزيادة.

وممن لاقيتهم، إنسان يتعاطى المضاربات في الأموال ويتولى السمسرة في الأملاك يسمى محمد بن أحمد التيمكيدشتي ثم الايسافني، يسكن في (إنزكان) وقد أدرك مالًا وقد كان تربى في (بووابوض) مع أبيه الفقيه سيدي أحمد، وقد حكى أن أباه هذا كان أصله من تيمكيدشت أخذ عن سيدي الحسن بن أحمد ثم اتصل بقبيلة (إيسافن) يعلم بعض أبناء الرؤساء هناك، ثم شب الذي علمه فكان شغل لم يراع فيه المتعلم حق المعلم، فأدى ذلك الأستاذ إلى ان جرح تلميذه بخنجر، وكان الأستاذ شديد الشكيمة، فقمص من هناك ناجيًا برأسه طمرة ولجام[1] وقد اتخذ الليل جملًا، فأردف وراءه ولده هذا الذي يحكى لنا على

(1) مأخوذ من قول حسان في الحارث بن هشام حين فر يوم بدر:

إن كنت كاذبة التي حدثتني ... فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ... فنجا برأس طمرة ولجام

بغلته، فالتحق بالفقيه سيدي الحسين نيت بيهي المتوكي، وقد كان يعرفه حين كانا يأخذان معًا من تيمكيدشت، ثم تطلب القائد عبد المالك من سيدي الحسين فقيهًا يصاحبه فذكره سيدي الحسين، غير أنه وسمه بالشدة وبمراقبة ربه، فلا يقدر أن يتحمل مظلمة، فقال له القائد: لا عليه فليضع كل شيء على عنقي، وبذلك اتصل ببووابوض حيث ربض كثيرًا، وكان القائد يراعيه، وقد حكى هذا ما كان يقوم به مع طلبة متوكة في أيام النزه، حتى ذكر أن كبارهم وهم نحو مائة اتفقوا مرة أن يقتسموا وحدهم ما جمعه الطلبة، ثم شرطوا شرطًا لا يتوفر إلا فيهم، فاقتسموه فتفرق الطلبة يوم اختتام النزهة، فاجتمع المحرومون وهم مئات في (بووابوض) فأعلنوا بالصلاة على النبي ﷺ على عادة الناصريين، فخرج القائد، فشكوا عليه فبثوا الأعوان يسترجعون الطلبة الظالمين من الطريق مرغمين ومن تأبى منهم أشبعوه ضربًا، ثم قال لهم القائد لماذا ظلمتم هؤلاء؟ فبادر طالب من أولئك الظلمة، فقال أيها الطلبة، ادعوا للقائد أن ييسر الله له عن قريب قبيلة (إفروكْن) فأذعن القائد لدعاء الطلبة وانشرح وانفش غضبه، وقد كان يقدر قدر دعائهم دائمًا، ثم قيل له أدّ من عندك أيها القائد للمظلومين منهم ما يريدون فأدى راضيًا، قال الحاكي فقال والدي أن ولدي هذا من أكابر الظلمة، ولا يستحق إلا الجلد، ثم يسر الله للقائد تلك القبيلة عن قرب، وفي حسن الظن سر عجيب، ثم ذكر أن والده أوى إلى قرية إزاء القاهرة (إيمينتانوت) إلى أن توفي 1344هـ.

وفي ذلك اليوم قال لي بعضهم ألم تر صاحبك أحمد البياز المراكشي في اكادير، فقلت له، إنني أستحي أن أشمت بإنسان في حال مصابه، على أنه لو تصادفنا لا يرى مني إلا خيرًا، فإنني إن لفظه خاطري فما ذلك لشيء أتحققه في جانبي منه، فإنما هو آلة مأمورة، أو متطلع إلى ما لا يدركه أمثاله من المتبصبصين إلا بالتجسس والاختلاق، وأنا أعذره من هذه الناحية، بل وأسامحه إلا إنه مشنوء بما يلاقيه منه الضعفة والأيتام والأيامى الذين يصنع بهم ما يصنع، وقد تحجر قلبه تحجرًا غريبًا، وقد كنت أعرف له قبل أن أتعرف به وجهًا لوجه سوأة لعلها تسود صفحة حياته ما حيي، إن لم يغفر له ربه، فإنه اتخذ دارًا في الاستخفاء يسرب إليها الأبكار التي يلتقطها من الأزقة نحيفة من

الجوع. فلا يزال بهن حتى يسمن ويجملن فيقدمهن لرئيس البلدية (كوجي) وقد كان هذا اليهودي الشنيع مولعًا بتلك اللذة، فيستمتع بكل واحدة منهن في ليلة، والبياز يجمع له من هنا وهناك، وهو يبتذلهن، فكل من قضى وطره منها يرسلها إلى حال سبيلها وهذا ديدنهما دائمًا، علم ذلك من علمه، وجهله من جهله، وكان البياز ممن لا غيرة إسلام تروج في قلبه، ولا علو همة تدور في نفسه، وأي مؤمن يعرف منه هذا ثم ينظر إليه بعين الرضى؟

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

يهودي نذل تقدم إليه البنات المسلمات، اللهم إن هذا ظلم فادح، وشناعة ما مثلها شناعة، ثم ما ذلك كله إلا في مقابلة البقاء في الرئاسة، فتبًّا لرئاسة لا تؤسس على مروءة وعلو همة، ومحافظة على السمعة، ومن لم يذده دين عن مثل هذه النذالة، فليذده عرضه ومروءته، اللهم لا تبتلنا بسقوط الهمم، وبالولوع بهتك الحرم، وبثلب الأعراض.

والأدهى والأمرّ ما كان ارتكبه مما يقر به كل مراكشي كيفما كانت رتبته، فلم يغادر هناك إنسانًا واحدًا يبكي على نفيه حتى أخوه عبد السلام فإنه لاقى منه ما لاقى، فبأمثال هذه الأمور تجد كل الناس لا يذكرون الرجل إلا باللعنة، نعوذ بالله من اتفاق الناس على إعلان مثل ذلك، وألسنة الخلق، أقلام الحق، على أنني لا أذكر حوله كل هذا كلما جرى ذكره حتى في أكادير فإنني لا أذكر عنه مثل هذا مما أعرف منه كثيرًا، بل ربما أذكر ما يتظاهر به من صلاة في سيدي ابن سليمان الجزولي وصيام لأيام معلومة في النافلة، إلا أن آل أكادير لا يكاد أحدهم يذكره إلا لعنه قبل لن يلعن إبليس، نعوذ بالله من المقت. وقد كان منفيًّا إلى آسفى، فسمعت أنه كان تشكى مما يلاقيه من الأسفيين من الاستعاذة منه، ومن البصاق عليه، فلم يمكن أن يحيا هناك، فخيرته الحكومة بين أكادير وبين مكان آخر أظنه وجدة، ثم أمرته بالنقلة إلى أكادير، حيث يلزم قعر بيته لا يكاج يخرج لأنه سجين مساويه، لأن المظالم التي كان يصبها على العباد، أحاطت به من كل جهة، فلا يكاد يخرج حتى يؤتى إليه إن كل الذين يمرون به يفرغون عليه سجالًا من اللعنات أو يصبون عليه شآبيب الدعوات

ليطرد من رحمة الله، وقد اختلف الناس في سبب نفيه، مع أنه ما كان يفعل كل ما يفعل مما تمجه الإنسانية إلا ليبقى مخلدًا في مركزه، فقيل إنه قال لإنسان متمول، إنني مأمور بأن أفتش دارك، واستعرض ماليتك، قد أفضى إليه بذلك سرًّا كأنه ينصحه، ولكنك إن أردت رتق هذا الفتق فسأتوسط لك عند الباشا وهات اثنى عشر ألف ريال، ولعل الباشا يقبلها، فنسد بها الثلمة، فأخذها منه، فأتى إلى الباشا بنحو سدسها كهدية من ذلك الإنسان، واسترط الباقي، ثم بسبب ما، انجلت القضية فكانت هي السبب، وقيل إنه كان ادخر في أهراء تحت الأرض سكرًا وأتايًا وشمعًا وكتانًا فيها ألوف القناطر، ثم ضرب عبدًا من عبيده ممن اطلعوا على ذلك فوشى به، وادخار مثل ذلك في اليوم ممنوع، ولكن القول الذي نرجح أخيرًا هو أن السلطان نصره الله وأعلى شأنه، أرسل بعض أصحابه لشراء ملك ممتاز في ضواحي الحمراء، فرجع إليه بخفي حنين، متشكيًا بأن البياز ينقض كل ما أبرمه، مع أرباب الملك لطمعه فيه، فاستشاط السلطان غيظًا، فهو الذي أملى كلمته العليا على نفيه بعدما دفع الباشا عنه دفاعًا مجيدًا لم يغن فتيلًا، ثم لما نفي نادت الحكومة في الناس أن يقيد كل واحد ما كان ظلمه فيه كيفما كان، فلم يبق كبير ولا صغير إلا سود صحيفة من صحائفه بما قنصه منه وحده، ثم عقل كل ماله وأحصي إحصاء تامًّا، ولا يزال الأمر على ذلك إلى الآن، وسيظهر في المستقبل كل ما ارتكبه ظهورًا بيّنًا، أليس الله بعزيز ذي انتقام؟ كما أنه أيضًا وقع على أمة اشتُريت للسلطان على يده بوساطة الباشا فصح ذلك عليه، فنقم عليه ما فوقها نقمة، هذا الرجل الذي صدر منه كل هذا بلا حياء ما سببه إلا لأنه نابت من سفلة الناس، فقد كان يسوق الحمير من جامع الفنا لمن اشترى حملًا منه، فيصاحب الحمار إلى أن يحط عنه في دار المشتري مقابل قرش، ثم اتصل بالحاج التهامي فصار عونًا صغيرًا ثم كبيرًا إلى أن عينه في البلدية، فبقي هناك إلى أن عزلته الحكومة اليوم، بعد ما كان ذاق العزل أولًا من خلافة الباشا الرسمية على المدينة، وقد صفعه الشاعر بن إبراهيم شاعر الحمراء يومذاك بقوله أثناء قصيدة زائية، وقد كانوا أبقوا له اسم الخليفة الشرفي بعد أن عزل:

منحوك إذ عزلوك وسم خليفة لقد أبدلوك حقيقة بمجاز
قالوا عزلت فقلت ذاك عن رضا هذا الرضى لغز من الألغاز

ولهذا الشاعر حسنات يرجى له بها المغفرة والزلفى عند ربه، لأنه مولع بقرض البياز في عنفوان أمره غير هياب ولا وجل، ثم لا يقدر أن يمسه بسوء من أجل انحياشه إلى الباشا، وله فيه قصائد يتداولها المراكشيون، واذكر أنه حين زارني في محلي يوم توجه إلى الحج في ذي القعدة 1355هـ كان مما ذكره لي، لا تأمنن الكلب العقور البياز، فإنه لا يولع إلا بنهش الأفاضل، فقلت له مباسطًا أحقًّا لا يولع إلا بهم؟ مع أننا رأيناه لا ينجي أحدًا، فقال: استغفر الله بل هو مولع بكل أحد، لا يحيا إلا بضرار الناس كلهم كيفما كانوا، فقلت إذن هو كما قال بعض المتعاشقين الذين لا يفرقون بين مليح وقبيح وهو ابن المعتز.

قلبي وثاب إلى ذا وذا ليس يرى شيئًا فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغي ويرحم القبح فيهواه

فقال الأديب الروداني سيدي محمد بن عبد الله أخرباش، هيهات أن تدور رحمة في قلب البياز إن كانت تدور في قلب هذا المتعاشق، هكذا دار الحديث، وليت شعري ألا يزال الأديبان يتذكران هذا؟ فإن هذا آخر يوم رأيت فيه شاعر الحمراء، فمتى ألقاه أيضًا يا رباه؟

اعلم أن البخاري قيل له لم تذكر بعض الناس في تاريخك بما يسوءهم لو سمعوه، أو ليس هذا غيبة؟ فقال أن النبي ﷺ قال: بئس أخو العشيرة في أحد رؤساء الأعراب، وهذا من الدين ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة، وهذا الذي قاله البخاري في كلام أطول من هذا، لا ينبغي أن يسلك مثله إلا في الغيرة على الدين، وفي الذب عن حرمة المسلمين، فإذا كان المجاهر لا يردع في التاريخ بالرد عليه فما فائدة التاريخ إذن؟ فلعل أحد الرؤساء يرى هذا فيتعظ فينزجر. وفي الحديث لا غيبة في فاسق، ورحم الله من قال في الذين لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون.

ذهب الذين يعاش في أكنافهم والمنكرون لكل أمر منكر

وبقيت في خلف يزكي بعضهم بعضًا ويدفع معور عن معور

هذا والمقصود أن ننبه على الحق الذي نعلمه في جانب هذا الإنسان، وإلا فإنه إذا أصلح ما بينه وبين ربه وتاب فإن الله يقبل التوبة ورحمة الله أوسع مما يظنه الناس. ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلًّا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم.

كان البياز يلازم كثيرًا من دروسي في البخاري في مسجد الكتبية، فلنحافظ له نحن على هذا، ولندع له بأن يسامحه الله ويقضي عنه التبعات بفضله ورحمته فإن كان هو إنما يحضر مع طلبة الحديث لعله يقع على ما يسود به صفحة من سجلات الاستعلامات، فإن الطلبة وأستاذهم لا يرمون إلى ذلك، ولعل هذا الدعاء يستجاب بفضل الله، فأهل العلم أهل ذكر الله، الذين قيل فيهم أولئك قوم لا يشقى جليسهم، فاللهم ارحمنا وارحم البياز إن تاب، وارحم جميع المذنبين بفضلك[1].

ثم إن «إنزكان» صار اليوم مدينة صغيرة مخططة الشوارع، والمراقبة في دار القائد محمد بن الحاج الحسن الكسيمي الشهير، لا يزال سورها الخارجي على ما هو عليه إلا بعض أبواب حدثت في جوانبه وأما داخلها فقد حدثت فيه إصلاحات تليق بالإدارات، وتقام سوق الجمعة في (إنزكان) من قديم قبل أن تصير مدينة بعد 1344هـ وأما (تالبرجت) فإنها مخططة تخطيطًا حسنًا من 1334هـ فيها بناء حضري بهيج، على صفيحة البحر الخضراء، وموقعها من أجمل المواقع، صحي جميل، وقد اتصلت بـ(فونتي) ببناء في حجر الجبل وفي كلتا (تالبرجت) و(فونتي) جامع تقام فيه الجمعة، وجامع (فونتي) قديم، وأما جامع (تالبرجت) فحديث وما بني إلا نحو 1350هـ على هيكل حضري، جميل جذاب، كما أن جامع (أڭادير) من أعلى قمة الجبل. لا تزال الجمعة القديمة تقام فيه منذ بناه محمد الشيخ، وإن كانت العمارة تقل هناك اليوم شيئًا فشيئًا،

(1) تقلب الزمان بالبياز فرجع من منفاه ذاك فاشتغل بأراضيه الواسعة بشغف ونهم إلى أن جاء الاستقلال وجاء دور المحاسبة، فدار الدولاب دورته على البياز وأمثاله فالله يحسن عاقبتنا.

وقد سكن الآن هناك عالم حسن يذكر، يسمى الحاج أحمد بن مبارك الهشتوكي من (أوتينهمو) كبير السن، علمه جم، ولم تتيسر زيارته، وقد قيل لي أنه ملازم مقعده، ثم بلغتنا وفاته بعد حين.

وهناك قرية كبرى للعملة تسمى (إيحشاش) فيها خلق كثير تجاور (تالبرجت) كما أن حوالي قرية (بنسير كاو) يحدث بناء كثير لعله يملأ ما بين (إنزكان) و(تالبرجت) في المستقبل.

وهذه القرى الكبرى متى اتصل بناء الجميع فستتكون من ذلك مدينة عظيمة[1].

وسيدي أبو القناديل المدفون في فونتي قديم، يقول الدغوغيون الوجانيون أنه منهم، وقد رأيت ظهائر تتعلق بأولاده، ويزعم الركراكيون أنه منهم والله اعلم.

وقد زرنا في مقبرة الدشيرة ضريح سيدة تسمى (تعزى) لعلها قريبة العهد يألف أهل تلك الجهة أن يطرقها الحجاج عقب تهيئتهم للحج، وعندها دفن الحاج العربي الرئيس مع ولده عبد الرحمٰن، وأما الرئيس سيدي محمد بن عبد الرحمٰن فإنه في صحن الزاوية الدرقاوية إزاء مدرسة (الدشيرة) فقد زرنا قبره وقبر الفقيه سيدي علي السباعي رحمهما الله وسامح للجميع، وترجمتاهما توجدان في (المعسول) إن شاء الله.

ركبنا في السيارة التي تقصد تزنيت عند قهوة الحاج (والحاج هذا أعرفه رجل خلاسي كان هناك ينوب عن شركة ساتيام في تفتيش سيارات الشركة وقد مات منذ سنوات قليلة) فودعنا أهل (إنزكان) كسيدي الحسين بن عبد الله وغيره والأخ الحبيب، فمررنا بأرض هشتوكة التي ألغيت زيارتها هذه المرة، فمررنا بدار الدليمي ثم (توبوزار) وفيها دار مخزنية قديمة، فكنت أمر في ذاكرتي بالوقائع الهائلة الواقعة في هذا البسيط كوقعة أبي حفص الموحدي مع

(1) وأسفاه على (أكادير) و(فونتي) و(تالبرجت) و(ايحشاش) فقد هدها الزلزال ليلة 3 رمضان 1379هـ فهلك فيها زهاء عشرين ألفًا، حتى أن هذه الأربع لا تصلح بعد للسكنى والبقاء لله.

المتمهدي السلاوي الواقعة في نيف وأربعين وخمسمائة، وكوقيعة أخرى مثلها في أيام المرينيين، وأخرى مثلها بين المولى الرشيد وآل إيليغ 1081هـ. وأخرى بين المولى سرور وبين محمد المكاوي سنة 1169هـ والمكاوي هذا طرأ إلى سوس فادعى المهدوية، وأظهر أمورًا خارقة للعادة، فغر البعمرانيين والاخصاص ومجاط وآل أزغار فبايعوه، فزحف بهم نحو هشتوكة، فلاقاه المولى سرور - كما ذكر لي - وقد كان خليفة السلطان في ردانة، ومعه الهشتوكيون، فدارت الحرب فأصيب المكاوي في رأسه برصاصة فانهزم به أصحابه، فمات في أيت جرار ولا يزال قبره معروفًا هناك في (إيدغ)، ويوم وفاته هو 5 محرم1169، وهذا الثائر هو الذي كان الحضيكي كما ذكره الجشتيمي التحق به مغترًّا، ثم لما تبيّن له منه هتك السنة فارقه، فنجا مما أصاب الفقهاء من نهب بغالهم ومتاعهم، وهو الذي كتب إليه سيدي محمد بن مبارك المحجوبي رسالته المعروفة، ووقع أيضًا في هذا البسيط الهشتوكي واقعة (تابو حنايكت) حين التهمت القبائل جنود الحكومة التي تحت رئاسة ابن يطو سنة 1313هـ. ثم واقعة (توبوزار) يوم انهزم سيدي محمد بن الحسين الايليغي أمام الكْيلولي، كل هذا يمر بذاكرتي فلم ينبهني إلا اصطدام سيارتنا وأخرى مرت بها، فتحككت بجانبها حتى اندقت منارة من منارتي سيارتنا، مع اهتزاز شديد، فسلم الله فوقها السائق، فصار يدير عينيه في الراكبين يستشهدهم على الذي فعل به ما فعل، فأبى جميع من فيها أن يشهدوا، فيتناجون بينهم أننا نعلم أن الشهادة لله، ولكنا كلنا نعلم ما يترتب على أمثال هذه الشهادات من هبوط ونزول من محكمة واليها فيبقى الشاهد بلا شغل، وربما يتوقف على أن تؤدى الشهادة في خارج البلدة التي تسكنها فتسافر مرغمًا، والنفقة عليك ولا يبالي بأي عذر منك، وقد تطلب من مجلس الاستئناف في الرباط، فما عليك إلا أن تذهب إلى هناك ولا تسأل عن المصاريف التي لا تأخذ منها شيئًا[1] مع تضييع أشغالك، وقال بعضهم وهو آسفي يقطن في تزنيت يتجر في البيض، ليستشهدوا هؤلاء الأجانب الراكبين معنا - فإن فيهم - وهم جماعة - كفاية، فإنهم متى سافروا

---

(1) إن القانون يقضي بأن النفقة على المشهود له ولكن دون ذلك خرط القتاد.

يؤدى لهم ما أنفقوا، بل يكتفي بما يقولونه في مراقباتهم ولا يسافرون. أفنحن ندخل في هذا المضيق؟ أقول: من هنا يعرف جانب مما يقاسيه اليوم الأهالي من كل جانب، حتى ليهربون مما هو واجب عليهم في دينهم كالشهادة هذه، فإنهم مأمورون شرعًا بأدائها، قال تعالى: وأقيموا الشهادة لله، ولكن الله قال أيضًا: ولا يضار كاتب ولا شهيد، ومتى كان الضرر فإن ذلك مما يبيح النكوص، والضرورات تبيح المحظورات، فواأسفًا على ما يلاقي الأحرار في بلادهم من هذا الاستعمار الغاشم، نزلنا أمام قرية المعدر فأدينا فريضة العصر. والشمس على أطراف النخيل، فتلقانا الكريم الأريحي الذي ينتظرنا سيدي الناجم بكلتا اليدين فقلت له إنني اليوم لا أضيف إلا بالاستراحة، فلم نكد نؤدي العشاء حتى تمددت في سرير وثير الفراش، فسلمت الروح الواعية لخالقها، ولا يكرم الضيف المعيي بمثل تركه والاستراحة والانفراد حتى يسترجع نشاطه.

الخميس 13:

بكّر إلينا العلامة البحاثة الفقيه النحوي اللغوي، صوفي العلماء وعالم الصوفية، أبو الحسن سيدي علي بن الطاهر المحجوبي الرسموكي من خيرة ساداتنا علماء سوس اليوم تحصيلًا، ومتانة أخلاق، وثقوب فهم، وحدة ذكاء مع تواضع ورثه عن آله الصوفية الأبرار، ومع مخالقة صافية خالية من المراءاة والمداجاة، وهو من إخواني في الله، وممن انتفعت بهم كثيرًا، وقد كان مضيفنا أرسل إليه ليلًا، فاكتست رحلتي هذه بالاتصال به حلة أخرى علمية، فنشرنا من المباحث العلمية ما لا يمكن أن ينشر أمام كل متعلم لا يعلم أين يأتي المبحث حتى إذا أراد أن يمد يده إليه مد رجله، وإذا أراد أن يسأل يتهم في سؤاله، مع أن الغرض من سؤاله أن ينجد من الذين قيل فيهم الله ساء سمعًا فساء جابة، وممن قيل فيهم أيضًا:

يصيب ولا يدري ويخطي وما درى ... وكيف يكون النوك إلا كذلكا

وممن قال فيهم أيضًا:

أقول له عمرًا فيسمع خالدًا ... ويكتبه بكرًا ويقرأه زيدا

أما العلامة ابن طاهر هذا فهو الجذيل المحكك، والعذيق المرجب، خريت فهامة نقاب ممن (يضع الهناء مواضع النقب)[1] يطيل حسن الاستماع إذا حدث، ويرتب أطراف الحديث كما يقتضيه المقام إذ حدث، يعلم بسرعة مواقع الاشكالات من المباحث العويصة، ثم يتريث حتى يرى المحز، فإذا بفيصله يصيب المحز مرة واحدة، ثم سرعان ما ينجاب الإشكال، مع دين متين، وعقل حصيف ولسان مزموم عن الإعراض، مع أنه ذو نظرة تستشف الخفايا وتدرك الخبايا:

الألمعي الذي يظن بك الظن كان قد رأى وقد سمعا

وله استحضار كبير في العربية نحوًا ولغة وبيانًا وتصريفًا، وفي الحديث والسيرة والتفسير والتاريخ وأيام الناس، هذا هو السيد الذي اجتمعت به في المعدر، كاقتراح مني، لمعرفتي بأننا نجد من الخلوة هناك ما لا نجده في غيره فكان الحال كذلك، فأكببنا على المحاضرة، وعلى تقييد كل ما سنح وهو الوحيد، الذي رأيته أيضًا حريصًا على أن يقيد عني كما أقيد عنه، فلم يسمع ما لا يعرفه إلا أودعه مذكرته، وأما كثيرون غيره فإذا جالستهم فإنني وحدي هو المعتني بالتقييد، وهو ماثل كأنه اكتفى من الاستزادة، وقصارى المنصفين من بعض من لقيتهم أن يتعجب من كثرة الاعتناء الذي يراه مني، فلا تعرض شاذة ولا فاذة إلا التقطتها بيراعي، ويقول: أحياك الله كما أحييت همة ماتت في بني هذا العصر، يقولون ذلك، وأنا أقول في نفسي: إنني أعد نفسي تلميذًا يتلقى دروسًا عن الأساتذة فيحفظ كل ما سنح عنهم، ومتى تجاوزت رتبة التلميذ بعد؟

قيدت عن الأستاذ ترجمته وتراجم آله كل علماء المحجوب، كما قيدت

---

(1) شطر بيت أوله: متبديًا تبدو محاسنه.
والهناء بالكسر: القطران، والنقب بالضم: ما نقبه الجرب من الجلد. وهذا البيت من قصيدة لدريد بن الصمة، يصف الخنساء وقد رآها تضع القطران على أنقاب جمال جربي
وأما المثل المتقدم فالجذيل: تصغير جذل بالكسر. أصل الشجرة ينصب للجمال تحتك به في حظائرها. والعذيق: تصغير العذق: وهو النخلة، وترجيبها: تحويطها بحجارة لحفظها، مثل يضرب لمجرب الأمور الذي مرت به مصائب فاستفاد منها، حتى أن له رأيًا يستشفى به. وهو مثل مشهور. قاله الحباب ابن المنذر في يوم السقيفة.

عن رفيقه سيدي محمد بن محمد بن عبد الله التادارتي ما كنت أجهله من بقية علماء (تادارت) الأدوزيين ومن أخبار آخرين في تلك الناحية، وهذا السيد من المجالسين الطيبين، لديه في العلوم يد حسنة، وله اطلاع على أخبار الناس كثيرًا، ولا أتمنى إلا أن انفرد وإياه أيامًا، فأقيد عنه كل ما عنده، ولعل ذلك يتيسر إن شاء الله، وكل هذا يكون في موضعه في (المعسول) إن شاء الله.

وقد صاحب الأستاذ ابن الطاهر معه كتابين مخطوطين تصفحت أحدهما فوجدت فيه:

أ) مختصر (حسن المحاضرة) للعلامة إيبورك بن عبد الله بن يعقوب، بخط حسن في 52 صفحة[1] وخطه مدمج، وفي الصفحة 31 سطرًا، والأصل كما هو معلوم للسيوطي، اختصره في نحو ثلثه، كتبه محمد بن عبد الله بن أحمد العباسي السملالي، للفقيه محمد بن المبارك بن أحمد في 28 ـ 7 ـ 1136هـ قال المؤلف في أوله: وبعد يقول العبد الفقير المفتقر لربه اللطيف إيبورك بن عبد الله بن يعقوب السملالي: لما وقفت على كتاب عجيب للوذعي الحافظ جلال الدين سيدي عبد الرحمٰن ابن الشيخ كمال الدين أبي بكر السيوطي الشافعي، وهو كتابه المسمى (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) تجددت لي نية اختصار ما تأكدت الحاجة إلى الوقوف عليه من فوائده تقريبًا لأفهام الطالبين، وتذكيرًا لأمثالي من المقصرين بحذف نحو سنده قصدًا لاختصاره بما أمكن على تراجمه وعبارته إلا فيما لا بدّ من تحويله إلخ.

وقال أخيره: وقد لفقت من كتابه رحمه الله تعالى أكثر فوائده في اختصار عجيب، مشتمل على ما يسر الواقف عليه عند وقوفه عليه، وعلى ما يحمله على كسب الأصل والبحث عنه في استجماع جميع غرائبه، وتعريف علمائه من الصحابة والتابعين، وكثير من جملة ملوك الدنيا الصالحة والطالحة وعلمائها الزاهرة، ورسلها الباهرة، فالله نسأل أن ينفعنا بالجميع إلى آخر كلام قليل في

(1) الصفحة الوجه كما أن الصحيفة الورقة بوجهيها.

الدعاء. والنسخة مصونة بينة لا خرم فيها من الطابع المستطيل.

ب) مؤلف لمحمد بن يوسف السنوسي في شرح التسبيح دبر الصلوات ذكر في أوله حديث مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعًا، من سبح لله دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين، وحمد الله ثلاثًا وثلاثين، وكبر الله ثلاثًا وثلاثين، فتلك تسع وتسعون، وقال تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر، فتكلم على هذا الحديث وعلى ما يؤخذ منه من اللطائف على عادة أهل الكلام، لا على قاعدة المحدثين، وربما مزج بينهما وهو في ثلاثة أوجه في ذلك القالب.

ج) أجوبة للشيخ الفقيه حسين بن إبراهيم الجزولي عن اسئلة حول زيارة القبور وكيفيتها، وعن محل أرواح الموتى وما معنى الموت؟ وهل يعرف الميت من زاره؟ وهل يجوز أخذ تراب من قبر تبركًا به؟ وكيف يدعى[1] ولد الزنى. وما الحكمة فيما ورد أن الناس يدعون بأمهاتهم يوم القيامة، وهل يلزم دفع شيء لقبور الصالحين؟ وهل يلزم نذر قبر معين؟ وهل يجوز الاجتماع في موضع معين على الذكر والتلاوة؟ وهل يجوز التوسل بالصحابة والأولياء وإن بعد موتهم؟ وما سبب اشتهار علماء الظاهر في حياتهم، والأولياء بعد مماتهم؟ هذه الأسئلة هي التي أجيب عنها بهذا المؤلف، ولا أعرف الآن من هو حسين هذا من الجزوليين؟ وقد نقل في الكتاب عن القرافي والبرنوسي والغزالي واليافعي وإبراهيم بن هلال والبرزلي وابن المواز وابن عبد البر وعياض والزمخشري وابن لب والجزولي يعني عبد الرحمٰن الكرسيفي ثم الفاسي شارح الرسالة، ويستشهد أحيانًا بالحديث، ومما أعجبني منه أنه قال: لا يمسح أحد القبر ولا يقبله ولا يمسه لأن ذلك من عادة النصارى، وكذلك الأخذ من تراب الصالح فهو بدعة، فالتبرك في الحقيقة باستعمال ما كانوا عليه من الأوصاف الدينية والأمور الشرعية، وقد ذكر هناك أن ابن عمر وقف على

(1) يعني يوم القيامة، يعني إلى من ينسب إليه.

قبر أخيه عاصم وأنشد:

فإن تك أحزان وفائض عبرة ... جرين دمًا من داخل الجوف منقعا
تجرعتها في عاصم واحتسبتها ... بأعظم منه ما احتسى وتجرعا
فليت المنايا كن خلفن عاصمًا ... فعشنا جميعًا أو ذهبن بنا معا
دفعنا بك الأيام حتى إذا أتت ... تريدك لم نسطع لها عنك مدفعا

وقد ختم الكتاب بلامية في الطويل، توسل فيها بالصالحين، من بينهم وكاك، وهي طويلة نحو ستين بيتًا، ولكنها غير محكمة النسج، مما لا يتفتح له سمع الخليل بن أحمد، وقال أخيرًا: فهذه نبذة مما أشرتم أيها الاخوان، وقليل مما إليه لوحتم، فإن قصرت فيما طلبتم أو وقفت دون ما رغبتم، فاعذروا أخاكم، واكتفوا بما آتاكم، واقبلوا جهد المقل، واستغنوا بالطل عن الوبل، فإن الخاطر ناصب، والذهن خامد، ولكن أرجو إن شاء الله أن يصيب من القلوب قبولًا، ومن الخواطر النيرة ما تنتفع به، ويكون إلى الرشاد سبيلًا، إلخ إلى أن قال بعد قليل، حسين بن إبراهيم المرابط لطف الله به، ثم لا يتوهمون أن حسينًا هذا هو حسين الشوشاوي المتوفى في آخر القرن التاسع، لأنه ابن علي بن إبراهيم، وكذلك ليس بحسين الشرحبيلي لأنه ابن محمد لا ابن إبراهيم، ولولا ذكره لوكاك ولولا أنه يلوح من أثناء كلامه في مؤلفه أنه من أهل البادية السوسية ممن ينتمون إلى الزوايا، لما ظننت أنه سوسي، لكنني الآن متوقف والله أعلم، والكتاب في 15 صفحة.

د) ورقتان من شرح التلقين ليحيى الكرامي في مسألة من البيع وفي غيرها ينقل عنه بقوله: منه ومنه، ثلاث صفحات ونصف.

هـ) أجوبة للفقيه عبد الوهاب بن أحمد الزقاق لأسئلة القاضي سعيد الهوزالي فيها الكلام على مسألة من الطلاق بلفظ الشلحة، وفي الفصل اليسير من أعضاء الوضوء، تكلم فيه على استصحاب النية من أول الوضوء إلى آخره، وعن صلاة الجنازة وسجود التلاوة بعد العصر وقبل الاصفرار، وبعد الصبح قبل الأسفار، وعن صلاة الجمعة في الجامع الذي لم يتصل بناؤه بالقرية، وعن بيع الثنيا، وعن الطلاق بلفظ التسييب، وعن استشكال في

قول المختصر، وفى كإحرام زيد تردد، وعن توهم معارضةبين قولي خليل: إن خلا عن كشرط بقاء المسلم في الجهاد، وقوله لا أحرار مسلمون قدموا بهم إلخ، وعن ذكاة المرأة، وكراهة ذكاة الخنثى، وعمن خلقت وأسفلها واحدة برجلين فقط وأعلاها تنتان ببطنين ورأسين وأربع أيد، كيف تكون فريضتها ألواحدة أم لاثنتين، وعن أشكال في خيار التروي، وعما توهم من تكرار مرارة مباح في المختصر مع قوله فيه، وما ذكي وجزؤه إلا محرم الأكل، وعن استشكال تفريق النية على الأعضاء في الوضوء وعن مسألة كيف يتصور الإيلاء في قوله إن لم أطلقك فأنت طالق، هذه الأسئلة التي أجيب عنها في ست صفحات ونصف.

و) أسئلة وأجوبة في صفحتين فقهية في صحيفتين ونصف موقعة بأسماء عبد الله بن يعقوب، وعلي بن عبد الله بن أحمد السملالي، وعبد الله بن محمد ابن أحمد، ويوسف بن يعزى بن داوود، ومحمد بن سعيد، هؤلاء وقعوا فتوى أولها، ثم تتابعت فوائد فقهية غير موقعة بأحد، وهؤلاء كلهم معروفون عندنا، فعبد الله بن يعقوب دفين (تازموت) المتوفى 1052هـ وعلي بن عبد الله السملالي المتوفى في ذلك القرن نفسه.

ز) أجوبة فقهية أخرى للقوري، كما عنونت به في 16 صفحة لعلها في احد المعيارين.

ح) ست صفحات من كتاب عظيم في تاريخ المغرب، لم توجد فيه نسخة تامة اليوم إلا وهو (مناهل الصفا، في أخبار الأئمة الشرفاء، أسباط المصطفى) فيها عناوين ثلاثة:

أولها: (ذكر ملحمة لكتاوة وسياق أخبارها) تحته نحو نصف صفحة.

ثانيها: (ذكر وقعة تيرغليل، من بلاد درعة، وأجلاب الأمير زيدان بها على الشهم البهمة القائد أبي محمد مؤمن بن يحيى تحته خمس صفحات).

وزيدان المذكور هو ابن أحمد الأعرج، وهو الذي رشحه لمحاربة عمه محمد الشيخ، وأبوه أحمد الأعرج الذي يذكر المواقعة معه في هذه الصحيفات.

وثالثها: (ذكر وقعة مسكروظا، وهو أمسكروض المشهور اليوم فوق هوارة وتقبيض الإمام أبي عبد الله محمد الشيخ على أخيه الإمام أبي العباس وولده والامتنان عليهما) وفي هذه الكلمة نفسها انقطع الكلام في هذا الموجود، قلنا أن هذا الكتاب عظيم جدًّا في تاريخ المغرب في العصر السعدي، والكتاب كبير ذكر المقري أن عهده بمؤلفه عبد العزيز الفشتالي أتم منه ثمانية أجزاء، ولا يدري كم زاد فيه مؤلفه بعد ذلك، والكتاب كان موجودًا إلى الأيام الأخيرة، ويظهر أن الناصري صاحب الاستقصاء لم يره وإلا لنقل عنه مباشرة، وصحح لنا البحاثة ابن علي السلوي أن نسخة منه كانت عند أحمد بن موسى الوزير المتوفى 1317هـ، ثم ها نحن أولاء اليوم نفقده، كما يفقده كل الباحثين سواء المغاربة والمستشرقون، إلا ما كان من كراريس منه فيقال أنها موجودة في مجموع بتطوان عند بعض الأهالي، سمعت ذلك من عند الأخ التطواني ذكره الله بخير.

وقد اشتد البحث كثيرًا حول الكتاب، فكوتب حوله إلى الجوانب المغربية، ومنذ نحو سنة كتب إلى الفقيه سيدي المدني ابن العم يسألني عنه، فأجبته بما عندي حوله، وما بحثه عنه إلا أنه كاتبه مكاتب من الحواضر في البحث عن الكتاب، كما سألني عنه آخر من أكْلو - وهو الفقيه صاحب المكتبة المشهورة هناك - فقلت له أوصلك أيضًا ذيل من ذيول البحث عنه، فقال: نعم ثم أدليت له بما عندي، فقال أن الكتاب موجود عند إنسان في جبل درن، وقد داخلته في شرائه منه، ولما أنجح إلى الآن، هذا ما قال ولا أدري مقدار ذلك من صحة، وإنما شككت في قوله، لأنني أراه لا يعرف من الكتب إلا حجبها عن مستحقيها - لا التسابق في إبرازها إلى الوجود، كما يكون من يعرفها حق المعرفة.

ومن منح الجهال علمًا أضاعه　　　ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وللمذكور خزانة تذكر، يحرص هو وآباؤه على أن يستروها حتى عن الهواء، وقد حكى لي ثقة أنها تناهز ألف سفر - غالبها مخطوط، ولا بد أن يكون بينها كتاب قيم نادر على الأقل في أي فن من فنون العلوم التي تروج وقد

كان العراقي قيم خزانة القرويين سافر على نية زيارة هذه الخزانة مع البحاثة السيد علوش المستشرق فتزودا بتوصية رسمية، فصاحبهما القاضي بتزنيت سيدي محمد اعمو فطرقوا صاحبها السيد الطيب، فعرضت أمامهم جملة قليلة مما هناك فوق حصير، وقد كستها طبقات من الغبار المتكاثف، وحين فتشوها لم يجدوا فيها إلا الكتب المتداولة أو المطبوعة، وهكذا رجعا بخفي حنين، وقد لقيت السيد علوش فصار يستهزئ بخزائن سوس قال، تسمع جعجعة ولا ترى طحنًا، وتسمع بالمعيدي خير من أن تراه، فوقع علي كلامه صخرًا ثقيلًا، ولكن ما يعمل؟ على أن الواجب على السوسيين أن يحرصوا على ذخائرهم حقًّا، حتى تظهر على أيدي السوسيين وأمثالهم من المغاربة الذين يقدرون قدر الناس.

(انعطاف) أن كتاب «مناهل الصفا» لا أحسبه يضيع بهذه السرعة، فلا بد أن يظهر كله من البوادي أو من بعض خزائن الحواضر التي لا يزال الجهل يكتنفها، فما أنس لا أنس قضية «الذخيرة» لابن بسام، فإنني كنت مرة في البيضاء، فذهبت لأركب من شركة (زكار) فصادفت تطوانيًا[1] شابًا لا أعرفه إلى الآن، فسرعان ما جرى الكلام بيننا عن عمد منه، حتى وقع في الباشا الحاج التهامي، فصار يسبه ويسب مراكش، وكل أهل الجنوب فأخذتني حمية أخفيتها بلباقة. فراودته حتى عرفت منه أن سبب ثورته على باشا مراكش، هو أنه أتاه بأعظم كتاب في التاريخ الأندلسي يعرضه للبيع، فإذا بالباشا على زعمه يماكسه فيه جهلًا منه بقيمة الكتب، فقلت له ما هذا الكتاب الذي كان أعظم كتاب في التاريخ الأندلسي؟ فصار يعمي عني اسمه، كأنه يحسب أنه لا يعرف الأندلس ولا أخباره ولا الكتب المؤرخة في أخباره إلا التطوانيون الكرام، فصرت ألاطفه وهو يقول أنه كتاب ما طرق أذن مراكشي قبل اليوم، فامتعضت لمراكش وكيف لا أمتعض لها، ومنها نبتت قوادمي وخوافي، فتدفقت أسرد الكتب النادرة التي استحضرها عن الأندلس، ولم أعرج على مثل (نفح الطيب)

(1) هذا الشخص غير تطواني، وكان في عهد الحماية من الجواسيس، وهو الآن فار من تطوان.

بل ذكرت (المسهب) و(المغرب) حتى ذكرت (الذخيرة) فجرى ابتسام بين شفتيه فقال أو تعرف الكتاب؟ فقلت رأيت منه بعض أجزاء، فعندنا في خزانة القاضي سيدي عباس المراكشي بعضها، كما في خزائن غيره بعضها ولكن لم نسمع بنسخة تامة من الكتاب، إلا أنه يذكر من باب القيل والقال، أنها توجد في تطوان، فقال وهو طافح استبشارًا، لقد صدقت فالنسخة هي التي أتيت بها، هكذا دار الحديث، ثم بعد قليل عرفت أن النسخة لم تتم، لا يزال ينقصها الجزء الرابع، ذكر لي ذلك أخونا البحاثة سيدي محمد بن أبي بكر التطواني حفظه الله، ثم رأيت الأجزاء الثلاثة في الخزانة العليا، وقد حازتها الخزانة على يد البحاثة السيد (ليفي بروفنصال) ثم علمت أن النسخة التطوانية كانت حبسًا على زاوية، وإنما طاف بها طائف وأهلها نائمون، فطار بها ذلك الشاب المذكور فباعها، وخيرًا صنع، لأنها خرجت بسببه من العدم إلى الوجود، واستمسح هنا إخواننا الورعين أو المتورعين عن تحبيذ مثل هذه السرقات، فإن كانت المصالح العامة تنزع الأراضي من أجلها شرعًا، فلماذا لا تنزع الكتب النفيسة القيمة من الذين حجبوها عن العالم، وتركوها بين حشرات الأرضة تقرضها حتى تأتي عليها[1] ثم بعد أن عرفت أن نسخة الذخيرة غير تامة، صرت أبحث بدوري، فأخبرت بأن النصف الأخير من الكتاب في الجديدة، فسافرت إليها فإذا به عند أديب من أصحابنا الأعزاء، فطالعته فإذا هو من مكتبة (تامكروت) ثم قلت له أن هذا الجزء الأخير الذي عندك لا يوجد نظيره اليوم، وأنا سأفشي سره وكأني بالبحاثين قدموا إليك فلا تبعه رخيصًا،وكان الأمر كذلك أخبرت الأخ التطواني فأوصل الخبر إلي (ليفي بروفنصال) البحاثة، فما عتم بعدما سمع ذلك أن ركب إلى الجديدة فيما سمعت، فتوصل بالكتاب، فتمت النسخة، فسافر هذا البحاثة إلى مصر فأشهرها للعالم وقدمها للطبع، هذا علمي بذلك وأنا بمراكش، ثم فارقت ذلك العالم مختتم 1355هـ وما حكيت هذه الحكاية إلا لنفي اليأس من وجود الكتاب (مناهل الصفا) فلعلنا نقع عليه

---

(1) وحذار أن يؤخذ بمثل هذا الكلام الخطابي فيسرق كتاب نفيس من صاحبه، فذلك لا تحله الخطابة وإن أسهبت ما أسهبت.

يومًا ما كاملًا، أو يقع عليه غيرنا من البحاثين[1].

ط) ثماني صفحات فيها فتاو للجزوليين سملاليين وبعقيليين ورسموكيين كمحمد بن سعيد العباسي، وعلي بن يوسف بن عمرو البعقيلي، ومن إليهم ومن بعدهم بقليل، ولعل كل هذه الفتاوي توجد في الفتاوي البرجية المشهورة التي جمعت فتاوي الجزوليين أهل الحادي عشر ونحو النصف من الثاني عشر.

ي) (النفحة المسكية في السفارة التركية) لعلي بن محمد الجزولي الأصل، الدرعي الوطن المتوفى 1003هـ وهو كتاب مشهور نسخه متداولة غير نادرة، وعندي الآن نسخة أخرى مثلها سوسية أيضًا، وهذه التي نحن في صدد وصفها، فيها 21 صفحة في ذلك القالب الذي وصفته قبل، وفي مؤخرها ما نصه: هنا انتهى بعض ما ذكره المؤلف واختصرته عن عجل وشغل بال، وهو منه ثلثه أخذت من كل موضع شيئًا ومن كل فن ما استظرفته، وختمته بما ختمه من آخره، والفراغ منه يوم الخميس التاسع من رمضان 1136هـ كتبه الفقيه سيدي المبارك بن أحمد، عبد ربه محمد بن عبد الله بن أحمد العباسي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، أقول، من هنا يظهر أن النسخة إنما هي مختصر من الأصل كما ذكر، ولم يتيسر لي أن أقابل بين هذه النسخة المختصرة وبين النسخة الأخرى التامة، لأعرف كيف اختصرها المختصر، أيحذف من المقاصد أم يختصر من الكلام فيها، ومن الأشعار والحكم التي كان الكتاب يتدفق بها، وإلى هذا الكتاب ينتهي نسخ محمد بن عبد الله المذكور في المجموع، فكل ما تقدم فبخط المذكور وبقالب واحد، وبمسطرة واحدة.

ك) نبذة كبيرة من الفتاوي البرجية، ويكون ما هناك نحو ربع مجموعها الأصلي الذي عرفناه في نسخ كثيرة متداولة كثيرًا في الصقع السوسي، وهذه النبذة بخط غير ما تقدم، وإن كانت على قالبه.

(1) ثم بعد هذا الرجاء، وجد جزء من الكتاب عند أخينا العلامة سيدي عبد الله كنون مما يتعلق بما بين 986 ـ 1006هـ.

هذا ما في هذا المجموع النفيس، وهو المجموع الأول من المجاميع التي أتانا بها الأخ العلامة ابن الطاهر، وهو الذي أتصفحه أول وهلة، ثم غرقت معه في مباحث أخرى، وتقييدات وأسئلة استفيد بها منه ما أجهل إلى أن جمدت الفكرة في الهاجرة، فاخترنا أن نجم النفوس بنومة القيلولة، فتمددت على ناموسية فتناولت المجموع الثاني، فلم أتصفحه حتى وجدت أنفس من صنوه، بل هو علق لا يقوم، فثاب إلى النشاط، وطار عني الوسن، والذي احتوى عليه:

أولًا: إجازة كبرى للشيخ الحضيكي لتلاميذه الذين سماهم وهم: عبد الله ابن الحاج أحمد التيزختي، ومحمد بن محمد الوولتي الطاطائي ومحمد بن الحسين اليبوركي الاسغاركيسي، وأبناء عمه محمد بن عمر، وعبد الرحمٰن بن عمر، وأحمد بن أحمد التاكُموتي، وعبد الله بن محمد التاسكدلتي، وأبو القاسم داوود الساموكْني، وابن عمه الحسن بن أحمد، ومحمد بن عبد الرحمٰن الحربيلي، وأحمد بن أحمد التيملي، ويدير بن إبراهيم الصنهاجي الركني، وأولها الحمد لله الكريم الوهاب العفو الغفار التواب ـ إلخ، وهي في 34 صفحة فيها من السطور 26 ونحوها في قالب وسط، وبخط واضح للمطالع وإن لم يكن جميلًا مما هو مألوف مثله في جزولة غالبًا، ومن قديم يقول الحاحيون، العلم عند السوسيين، والخط عند الحاحيين، وذلك حقيقة في الغالب، وهذه الإجازة تتبع فيها أسانيد في الكتب المتداولة يذكرها واحدًا واحدًا.

ثانيًا: ثلاث رسائل للمذكور، بعضها في النصيحة، وبعضها في تبيين حكم فقهي، وفيها نحو ثلاث صفحات.

ثالثًا: رسالة المسكْدادي الشهيرة إلى سعيد بن عبد النعيم وهي موجودة بكثرة في صحيفة.

رابعًا: بعض مناقب الشيخ محمد بن عبد الله الشهير بزيتون مبتورة وإنما منها صفحتان فقط.

خامسًا: إجازة الشيخ الحضيكي لأولاده الثلاثة أحمد وعبد الله والحسن في صفحة، وهي معروفة موجودة، ولعلها أيضًا في المجموعة الحضيكية الموجودة في

الخزانة الكتانية، وإثرها إجازة محمد بن الحسين الاسغاركيسي لهم.

سادسًا: فهرست عظيم به طرت فرحًا إلى السماء، فإنني ما سمعت به قط، ولا ظننته موجودًا، وهو للعلامة محمد بن محمد بن إبراهيم التاتلتي، من أحفاد الشيخ سيدي محمد بن يعقوب، وهذا العلامة من أهل الثاني عشر ذكره الحضيكي في طبقاته وأثنى عليه، وأرخ وفاته بسنة 1167هـ ولكن نمر بتلك الأوصاف التي وصفه بها الحضيكي معاصره مرّ الكرام، لأننا نألف أن لا يلفت أنظارنا إلا الأعمال الثابتة، والتراجم الحافلة بالآثار التي تؤيد مثل تلك الأوصاف، وقد كنت أتتبع آثار التاتلتيين من بعيد، فجمعت من علمائهم ومن أبنائهم ما أمكن، حتى بعض قوافيهم سقطت إلي، ولكنني اليوم لما وقعت على هذا العلق النفيس، أحسبني ملكت مقاليد ترجمة هذا العلامة وترجمة والده العلامة أيضًا، وقد افتتح المؤلف فهرسته بقوله: الحمد لله الذي لا توجد حقيقة حمده إلا لديه، ولا تنتهي العلوم إلا إليه إلخ.

إلى أن قال باختصار مني: فيقول محمد بن محمد بن إبراهيم من ذرية ابن يعقوب: لما خلت من العلماء هذه الديار، حاول والدنا إظهار معالم المحجة، وسعى جهده في تحصيل ما يحتاج إليه، من الكتب الفقهية، وكتب السنن والآثار، ودعته همته إلى جمعها من الآفاق باستنساخ وشراء، حتى بلغ من ذلك غاية المنى والسول، فاعتنى مدة عمره بقراءة كتب الحديث من الجوامع الصحاح، كالبخاري ومسلم والموطأ إلخ.

ثم ذكر شيوخ والده أحمد بن ناصر وإبراهيم الفيومي، وكتب له إجازة ذكرها، وأحمد الشرقي بن عبد العزيز المغربي السفاقسي، وذكر إجازته له، وقد لاقى آخرين في رحلته الحجازية، ثم ذكر أنه كان يحضه في الصغر على بذل الجهد في التعلم، ثم ذكر المؤلف اعتناءه بالفقه والعربية أولًا، ثم بغيرها، ثم أشار عليه الفقيه أحمد البعقيلي[1] المشهور بالهشتوكي بالتدريس في

---

(1) هكذا، وهو مشهور بالتملي أحوزي من أحوزين ناحية التمليين. اللهم إلا إذا كان يقصد آخر. وإن كان أحوزي هو المشهور بالهشتوكي مع أحمد بن ناصر في (تامكروت) وما إليها.

الرسالة، ثم انتقل إلى الحمراء كاقتراح منه على والده، مستعينًا في ذلك بالشيخ ابن ناصر على موافقة والده، فأخذ من هناك، ثم ذكر أن والده أول مشايخه، وأنه أجازه إجازة مطلقة، ثم أحمد الرسموكي الفرضي من المراكشيين وعبد الله الفلالي منهم، وعبد الله الووكدمتي منهم أيضًا، وذكر ما أخذه عن كل واحد، ثم ذكر وفاة والده 1134هـ كما في الطبقات، ثم ذكر مسلكه في زاويتهم، فاتبع سننه في الاعتناء بالحديث، وقد ذكر أن والده يأمره أن يعني بالقريض وذكر بعضه، ثم ذكر إجازة الووكدمتي له، ثم ذكر حجته ودخوله القاهرة، وأخذه عن علي الشريف الحنفي الأصولي، ومنصور المندمي وعن عمر الطحلاوي، ثم حج ثانيًا فأخذ من الأزهر أيضًا عن العماوي هو ورفيقه المحدث أحمد الغربي الشهير في العدوتين(1) وذكر إجازته له ولصاحبه الغربي، ولقي هناك محمد بن محمد الرفري الشافعي وإجازه بدلائل الخيرات، وساق إجازته، ثم ذكر أنه انتفع برفيقه الغربي المذكور، وأنه اغتبط بمرافقته، انتهى تلخيص ما في الفهرست وهي في 26 صفحة في القالب المذكور.

سابعًا: شرح الشقراطيسية للحضيكي، وهي منظومة لعبد الله بن أبي زكرياء يحيى بن علي الشقراطيسي التوزري في المديح النبوي، وهي لامية مطلعها:

الحمد لله منا باعث الرسل   هدى بأحمد منا أحمد السبل

وهي قصيدة تدرس في مدارس جزولة، وهو شرح بسيط يحل به الألفاظ وقلما يزيد، وقد كنت سمعت بهذا الشرح، ولكن لم أره إلا اليوم، وهو في 42 صفحة.

ثامنًا: رحلة الحضيكي الحجازية، وقد كنت رأيتها قبل اليوم، ونسخها وإن كانت قليلة توجد، وقد كنت عرفت واحدة في يد الشاعر البونعماني، والأخرى سمعت بها عند أولاد الفقيه سيدي المكي اليزيدي الآيسي، وهذه هي الثالثة، والرابعة في الخزانة العامة في الرباط، وهذه ما أعلم فقط الآن، إلا أن هذه التي بين يدي حين تتبعتها وجدتها منتهية إلى ذكر النيل والأهرام في أحوال

---

(1) هو جد صاحبنا سيدي مصطفى الغربي الرباطي سيد أقرانه علمًا وأدبًا ومعرفة بالكتب وهو يجمع كل مل يتعلق بجده هذا لوضع مؤلف خاص به.

مصر، وآخر عبارة فيها (وأخبار مصر لا تنحصر، ولقد وضع أصحاب التاريخ عليها تآليف عديدة في عجائبها اللذيذة) وهي في 46 صفحة في ذلك القالب.

تاسعًا: شرح محمد بن علي الخروبي على الصلاة المشيشية في 17 صفحة، والمذكور من أهل العاشر، مشهور مع سيدي ابن عمر والمراكشي في سفارته للمغرب.

عاشرًا: مؤلف للحضيكي حول فوائد الصلاة على النبي ﷺ في 14 صفحة عدّد فيه عن ابن فرحون فضائلها، وفيه أحاديث ونقول عن ابن عبد البر وغيره، ولم أره قط، ولا علمت به قبل اليوم.

حادي عشر: مؤلف له آخر في أصول الطريق الصوفي في 4 صفحات، نقل من أوله عن زروق، لم أره قط قبل اليوم ولا سمعت به.

ثاني عشر: رجز صغير لأحمد القاضي العباسي، ذكر فيه بعض ما في البردة من الفضائل أوله وفيه تسعة أبيات:

أعوذ بالله من الأقوال   كانت بمعزل عن الأفعال

ثالث عشر: مناقب أحمد بن عقبة اليماني الحضرمي في 21 صفحة نقله الناسخ من خط الحضيكي، ولعله لزروق، وفي أواخر المجموع بعض أخبار قليلة بقلم الحضيكي عن آل ابن ناصر، ثم ذكر أنه روى المسلسل بسورة الصف عن العجمي عن والده عن البابلي عن الشهاب أحمد بن محمد الشبلي عن يوسف عن والده زكرياء الأنصاري الشهير إلخ، قال: وأخبرني به أيضًا الشيخ الحفناوي إلخ، كما ذكر المسلسل بالمصافحة عن الحفناوي عن الشيخ عيد عن البصر عن البابلي إلخ، وبهذا تم المجموع.

بعد لأي اغتمضت عيناي، فبعد الظهر ظلت أملي على الأستاذ ابن الطاهر من فوائد المجموع، فقال إنني ما كانت أدرك حق الإدراك نفاسة ما فيه، فقلت إنه كله نفيس، وأنفس ما فيه ذلك الفهرست، ثم صرت أتمم عليه ما كنت أفتتحته آخر الجلسة في الهاجرة، فأسرد عليه أسماء المؤلفات السوسية، لألحق بالموجودات منها ما يعرفه موجودًا، فأفادني الخير الكثير، لأن له اطلاعًا كثيرًا. قد كان معنا النجيب سيدي البشير المسعودي في داره بالمعدر، مع ابن

الكريم رب مثوانا السيد العربي[1] بن الناجم، وله أيضًا جولات في الفنون، ولا يزال يتلقى عن أستاذه ابن الطاهر جليسي الآن، فصارا ينسخان لي ما أحتاج إلى نقله، كما صار الأستاذ أيضًا ينسخ، وأنا بين النساخة والمطالعة والمباحثة، فكنا في شغل شاغل، وبعد العصر لبينا البشير المسعودي، فألممنا بدار الشاعر البونعماني، ففاضت علينا خيراته، وأتذكر أيامًا مرّت لي في تلك الزاوية سنة 1332هـ ثم كنا أيضًا في شغلنا لم نزل عنه إلى أن أظل غروب الشمس، فجلت مع الأستاذ والبشير المسعودي جولة خارج القرية، فبعد أدائنا فريضة المغرب رجعنا، ثم غرقنا ثانيًا، فكنت أتلو من كتاب (المترعات) على مسامع الأستاذ من أقوال نظراء الشاعر[2] الحسن التناني، فأعجب به غاية الإعجاب، وقلت له أنه من نوابغ المغرب كله لا سوس وحدها، وكما تلونا أيضًا لسعيد الحامدي قولته التي في آخرها:

سأنصف حر الشعر مني بمجلس حبيب بن أوس فيه والى المظالم

وهي قصيدة طنانة وما تلوتها على الأستاذ في هذه العشية أو صبيحة الغد - الشك مني الآن - إلا لأنه أتى بقصيدتين له لم يرضهما لشهرته العليا في الذي يوصف به من الافلاق، فقلت له أن مجموعة من قصائده، ومن بعض أقوال ولده أحمد عندي، ومن ضمنها هاتان القصيدتان، وبينهما روائع، فحين سمع هذه الميمية اعترف له بالافلاق على الحقيقة[3] هكذا قضينا بياض اليوم كله.

الجمعة 14:

كنا على موعد مع سيدي مسعود ابن العلامة محمد بن مسعود، فبكرنا نحو مسكنه، فزرنا أولًا ضريح شيخ المشايخ سيدي سعيد المعدري فوجدنا مقامه مشعثًا، وسقوف زاويته الخالية متداعية، فقلنا أين تلك الطوائف التي كنا نعرفها هنا؟ بل أين المئات التي ترد من كل جهة؟ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾

---

(1) هو الآن من الممتازين في الكفاح ومن رجال المقاومة الكبار.

(2) هذا النابغة لم يطل به العهد فتوفي وشيكًا، وقد أوصى إلي بمجموعة أشعاره فانتقيت منها لكتاب (المعسول).

(3) هذه القصائد كلها في (المترعات).

[الرَّحمـٰن: 27]، وهذا وأحفاد الشيخ غريقون في تجارة واسعة، لا يشمون مما لجدهم أريجًا، ولا يمتون بسبب إلى نيل تراثه، إلا أن شابًّا منهم رأيته بين التلاميذ البونعمانيين على سمت حسن، لعله يسترجع الله به التراث إلى ما هو عليه، وما ذلك على الله بعزيز.

ثم جلسنا في زاوية ابن مسعود، وهي مثل جارتها الآنفة الذكر، إلا ما كان من ابنه هذا المفضال الذي له يد لا بأس بها في العلم، فإنها بسببه لم تبلغ الدرك بعد، وله ولد يسمى محمدًا يظهر أنه سينجب، وأنه سيحوز تراث، جده وهو الآن يأخذ عن العلامة الأديب أبي العباس اليزيدي في المدرسة الجشتيمية التملية[1].

والى إلينا رب مثوانا، كتبًا لعلنا نجد فيها طليتنا، فإذا بكناش صغير مما يقيد فيه والده في مبادئه سوانح فكرية، تجيش بها شاعريته المبكرة، فنقلت منه ما يأتي:

قال:

وما الخلّ الوفي بذا الزمان ... سوى مثل السراب لدى العيان
يريك وميض سن في ابتسام ... لعمرك إنه سيف يماني
يقلبه فحيث رأى انخداعا ... إليه دهاك من غير التواني

وقال أيضًا:

لام العذار بعارضيك موتر ... كالقوس والجفنان كالسهمين
عجبًا على ضعف الفتور تسابقا ... للروح كالبرقين مكتنفين

وقال:

عشقته أسود لا يتقي ... بالهجر تعذيبي وسوء البعاد
ما شانه السواد فالعين من ... نور وما يشينها ذا السواد

(1) انتقل هذا الشاب إلينا بمراكش بعد رجوعنا إليها 1365هـ ثم لازم دروسنا ودروس ابن يوسف إلى أن تجاوز السنة الرابعة في الثانوي فإذا به مرض فلم ينشب أن التحق بربه نحو 1368هـ.

وقال:

عرج نقص المحاسن منه فهو كالغصن رض بالحدثان
هو طرف ينبو عن الطرف هبه لم ترده للجري في الميدان

قال إنه ينظر في ذلك إلى قول ابن سكرة الهاشمي:

قالوا بليت بأعرج فأجبتهم العيب يحدث في غصون البان
إني أحب حديثه وأريده للنوم لا للجري في الميدان

وقال:

يسائلني لم بان عني مغاضبا ألا فاعجبوا من انقلاب الحقائق
أقر له بالذنب وهو الذي جنى عسى اجتنى من ورد روض الحدائق

وقال على لسان من شرب كأسًا من الأتاي باردًا:

أشربها بردًا وأرشف من ثغر الحبيب باردًا بردا
كي أجمع الشكل إلى شكله كأنني أسقي على بردا(1)

وقال:

عجبًا أرتجي الدنو فلما أن دنا صار غاية في البعاد
صار أقرب منه من كان في الصين وذا قرب شخصه في ازدياد

وقال:

تحاكم السود والبيض إليّ ولم يكن لحكمي بهتان ولا زور
فقلت في خال وجنة موردة ذكر من الحق بالسواد مذكور

وقال:

رام انصرافًا فقلت ويك هل صرفوا في النحو لفظة إبراهيم أو منعوا
فقال قد نقص الهوى القواعد لا تطمع ومن قبلك العشاق قد طمعوا

(1) بردى محركًا، واد إزاء دمشق.

وقال مهنئًا بولد:

ليهنك بدر بان في طالع السعد وفي الدهر منه بالأماني وبالوعد
فأبقاه من يراه ممتطي المجد ووالده حتى يرى ولد الولد

وقال:

سالم فديتك من هجر لا بد يغلب من صبر
لا بد يغلب عاشق أن الجفا أدهى أمر

هذه المقطعات كلها وإن لم يكن بعضها محكمًا، فإنه لتدل على نفسية الأستاذ الادبية في مطلع فجره، وقد تذاكرنا هنالك مذكرات فقهية وغيرها ومعنا رفيق الأستاذ ابن الطاهر المذكور قبل، والفقيه محمد بن أحمد بن مسعود أستاذ مدرسة المعدر منذ نحو ربع قرن، وهو فقيه حسن الاستحضار، حتى ليتعجب من ذلك من لا يذاكره، وكان فكهًا ممراحًا على خلاف ما يبدو عليه بادئ ذي بدء، وحين إظلال صلاة الجمعة، أديناها في الجامع بخطبة الأستاذ ابن أحمد المذكور، والمسجد يكاد يفعم[1] وقد تعجبت مع الأستاذ ابن الطاهر من تناقض عمارة هذا المسجد الذي كان مضرب الأمثال في العمارة وازدحام المصلين، وقد مررنا أمام بابه في وقت ولا ديار فيه، وقد كان ذلك يعد قبل هذا الحين من المحال، وليس هذا من قلة سكان القرية العظيمة، فإنهم يبلغون زهاء 400 دار، في نحو ألفي نسمة، وإنما ذلك لإعراض الناس عن المسجد، إلا من بعض أناس لا يزالون موفقين، والمؤذن الدائم في المسجد سيدي الحسين الويدوشي قائم بالأذان في الأسحار وفي الهواجر، وابن عمه السيد بلقاسم من أثرياء القرية، يجالسنا هناك دائمًا في دار سيدي الناجم، ورئيس القرية تزنيتي، لا يمت إلى المعدريين، ولا يمتون إليه، فلا جرم، لا يشفق عليهم إلا عرضًا، ولا يحبونه إلا لمامًا، وقد كان طاهيًا لبعض الرؤساء الأجانب في مراكش ما شاء الله، ثم اقترح عليه رياسة المعدر، فنفذ له ذلك، وبعد وفاة الفقير بريك بن همو الرئيس السابق، اقترن بزوجه، ثم أتى على كل مالها ثم ماتت، ثم لا يزال على حاله إلى الآن، والفقير بريك كان

(1) يقول المعدريون أن مسجدهم هذا من آثار الأمير بودميعة.

أخا الشيخ سيدي سعيد بن همو لأبيه، وكان أصغر إخوته، ولذلك تأخر عنهم كثيرًا، وقد كان رئيسًا زمن الكنتافي وبعده، إلى أن توفي 14 ـ 1 ـ 1350هـ، وله مأثرة وهي لزوم الصف في المسجد لا يغبه، ثم لا يخرج صباحًا إلا بعد الضحى، وقد كان فردًا بلا أولاد مع تموله ودخوله أملاك الناس بما لا يرضى من مثله من الاستدانة، فقيل له: يا فلان أما آن لك أن تتوب فترد الأملاك إلى ربها، فأنت بلا أولاد، أتتحمل الإثم ثم تترك ذلك للعاصبين؟ كأنك لا تدري ما أمامك، قال: والله إن كل ما تقوله لحق، إلا ان النفس الأمارة أبت أن تنقاد، ولكنه على كل حال رئيس يذكر بخير، فلا يقبل سجن معدري إلا رغم أنفه، وليس منه إلا التهديد بفيه فقط، رحمه الله وسامحنا وإياه، وقد كتب من عندي الأستاذ ابن الطاهر قائمة مؤلفات ابن مسعود، وهذين البيتين له: أو لأخيه السيد الطاهر:

تعال إليّ فالطجين مهيأ ... وخبز الحواري حوله يتلألأ

فقد فاءت النعمى وطاب وريفها ... فيا سعد من في فيئها يتفيأ

كما قيدت عنه الخير الكثير من غير علماء أهله، كترجمة الأديب أبي زيد الأزاريفي وتراجم العلماء الأزاريفيين الوجانيين المتأخرين، وقد أعانه في ذلك سبطهم سيدي محمد رفيقه، واعدًا أن يوافيني بوفياتهم، وما قدر عليه مما حولهم، هذا ولا يمكن لي أن نذكر كل ما جلت فيه مع الأستاذ ابن طاهر، لئلا أسهب أكثر من هذا.

السبت 15:

توادعت مع الأستاذ وسط هذا النهار، بعد أن لبينا ثانيًا حفلة أخرى للفقيه سيدي البشير المسعودي، فرحت إلى السيد محمد البعمراني من أثرياء (المرس) مرس أيت عمرو، قرية من قرى المعدر، كان اقترح علي أن أروح عنده، فوجدت في بيته سيدي الحسين المعدري أستاذ مسجد (الدشيرة) قرية من قرى المعدر، وهو من الآخذين عن شيخنا أبي العباس ابن مسعود، وهو مسكين هين لين من أصحاب الطريقة الإلغية الصوفيين، وديدنه المشارطة في المساجد، وقد رأيت في (المرس) دارًا كبرى، قيل لي إنها للقاضي الحاج

أحمد المرسي ممن قدمه المولى الحسن إلى القضاء 1299هـ. وقد دلت تلك الدار على ثروة ووجاهة، وقد مررت أيضًا في تزنيت بدار كبرى قيل لي إنها كانت قبل الآن له أيضًا، بناها في أرض أقطعها له التزنيتيون، وذلك كله مما يدل على مقامه الذي لم ينله إلا بعلمه، أبعد هذا يقول الذين لا غرض لهم إلا عرض الحياة الدنيا، إن العلم لا فائدة فيه؟ مع أنهم كما يرى مائنون، لكونه سلمًا موصلًا إلى ما يرومون، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص: 60]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 187].

الأحد 16:

بت فأصبحت مرتاحًا من الجهد الذي نالني في المجالس العلمية المعدرية التي تملأ جنبي النهار وما بينهما، وأنا دائمًا وإن كنت أحب الاجتماع في المباحث العلمية، لكن يعقب ذلك مني فتور يرض عظمي، ويذوي نشاطي، فلا بد من استجمام أسترجع به نشاط الطبع، ولم أستفد من هناك إلا بعض أخبار عن علماء في قرية (الدشيرة) كالعلماء الحصريين، وقد كان مبارك الحصري العلامة عظيم القدر يشارط دائمًا، وقد شارط في مدرسة إفرض أطاها بحاحة نحو 12 سنة وذلك في عهد الحاج عبد الله الحاحي الشهير[1]، وقد جمع هناك مالًا كثيرًا، فعزم على الفوز به بعد أن طرق أذنه أن أهل البلد قد عزموا على أن يحولوا بينه وبينه، ففرق ما عنده بين امتعته، فجعل الكل في خناشي الطلبة، فواعدهم السويرة فاستوطنها حينًا، فاشترى أمة أو أمتين فرباها على إجادة الطبخ، ومزاولة شؤون الدار، ثم حل في قرية (الدشيرة) وهو مذكور في غير هذه الرحلة، وإنما ذكرنا هذه الحكاية لأننا لم نذكرها هناك، وقد وقفت على رسالة صغيرة كتبها إلى الفقيه أحمد أضارضور نصها وهي نظمية نثرية.

سلام على خير الكرام الأماجد — سليل الفحول ماجدًا إثر ماجد
سلام محب شيق نحو صاحب — كياقوتة وسطى بوسط القلائد

(1) توفي 1284هـ.

خليلي أبي العباس أمهر عالم / من إكرار مثوى للعظام الأفارد
وبعد فما سؤلي سوى الدعوة التي / تجاب بفضل الله رب العباد[1]
وإن ترسل القاموس انظر فيه ما / أريد جزاك الله خير الأماجد

الأخ العالم النزيه النبيه شمس قطرنا سيدي أحمد الإكراري، السلام على سيدي ورحمة الله وبركاته، أما بعد فالقصد أولًا الدعاء، ثم أن ترسل الكتاب، فسأرجع في هذا الأسبوع، فإن كتبي ليست هنا وهي في المدرسة والسلام، مبارك الدشيري المعدري غفر الله مساوئه.

وهذه الرسالة تدل على انه يزاول القريض، وقد أخذ عن أحمد أجمل وفي فاس، ولم أقف إلى الآن على تاريخ وفاته بالتعيين، وإنما أظن أنه توفي قبل 1290هـ. وأما ولده الفقيه الصوفي سيدي محمد فقد أخذ عن مسعود المعدري أخذًا حسنًا، وكان ذكيًّا نبيهًا جليل القدر، حافظًا لاخبار الناس، لا يغتر، وقد تأسف العلامة ابن الطاهر الرسموكي على إضاعة الكتابة عنه في الذي كان يذكره في أحاديثه قال، لأنه باقعة في الحفظ والاستحضار لأخبار الناس، قال، وقد ذكر مرة أن الذي كتبه ابن مسعود عن الشيخ المعدري وقع فيه بعض ما ليس بالواقع، وآفة ذلك من الذين يحكون لابن مسعود، وهو من أصحاب الشيخ المعدري المذكورين، صاحبه ونال من يده أسرارًا، قال، وردت عليه مرة وأنا في هيئة مرموقة، فحملني لفتًا بأوراقه، والكل ملطخ بالطين، فوضعه على منكبي فقال: أبلغه دارك، فشق ذلك على النفس، ولكن حملتها من ذلك ما يرغمها، فداواني الله من جبروتها، وعجرفتها، وكان يشارط في المساجد، وذلك هو سببه في المعاش ولا يحرث، وقد عمد مرة إلى الحرث، فأرسل إليه الشيخ مولاي أحمد الوادنوني قائلًا: ما على هذا عاهدناك فقد غدرتنا، ألم نعقد معك أن لا تزال عزوفًا عن الأسباب؟ هذا مع أن رزقه فائض ومائدته مبسوطة، يوجد عنده كل ما يوجد عند الأغنياء، وأحب شيء إليه الأضياف يقوم بهم، وكان محبوبًا عند أهل قريته، فإذا حضر فيها يتواردون عليه بأوانيهم

(1) من جموع عبد.

الطعامية فيتناول منها قليلًا، ولا يحب من يأكل منها كثيرًا، لترجع إلى أهلها مصونة تعففًا منه، ولعلمه أن الصبيان يتطلعون إلى مثل ذلك، وتؤثر عنه كرامات وكشوفات، تتداول عند أهل قريته، سمعت منها كثيرًا، وقد أناف على الثمانين يوم توفي كما ذكر هو بنفسه قرب وفاته، وقد كان مرة ركب مع الفقيه الحاج ياسين حين سكن في قرية (الدشيرة) على فرسين فقال له الفقيه: تهيأ بنا لنجري الخيل، فتسابقا عليهما، ثم قال له انظر ذهبا لأعلمك صناعة الإكسير، فلم يجبه سيدي محمد بكلمة، ثم بعد ذلك قال: إنني ندمت على عدم تعلم ذلك، فتعلم علم أفضل على كل حال من جهله، وتوفي 22 من جمادى الثانية 1358هـ وزوجه صالحة لا تزال قائمة بالأفعال الخيرية التي كان زوجها يقوم بها، والناس يتعقدونها، ودار ابن المبارك سمعت أن السيدة تعزى الأغاروبية هي التي حمتها وجعلتها زاوية، فظهرت فيها بركتها إلى الآن، وقد بدا له أخيرًا فذهب إلى الشيخ سيدي سعيد، فاستقاله في عهده، فكان الشيخ يصفه بالصدق لذلك.

فمن علماء (الدشيرة) أيضًا أحمد بن مبارك من بني يعزى، والحاج علي ابن أحمد وآله وكلهم يذكرون إن شاء الله في (رجالات العلم العربي في سوس) ثم إننا بعد الظهر ركبنا متوجهين إلى زاوية العلامة وكاك بأكْلو، لأن عميدها الأستاذ سيدي الطاهر السماهري في انتظارنا، وكان النسيم عليلًا، وهواء البحر الطيب يتلقانا بلطفه مرحبًا، أو هي نسمة من نسمات الروح الوكاكية هي التي ترحب بأحد عشاق تراثها في سوس فترفرف فرحًا بنا، اللهم اجعلنا من أهل ذلك التراث حقًّا، وقد مررنا حين قربنا من الزاوية بدار رئيس أكْلو اليوم، وقد كان خليفة للقائد الحسن، ثم اشترى داره الكبرى ذات البروج والساحات الواسعة من أبنائه السفهاء الذين لا يعرفون أن يحافظوا على ما أسسه والدهم، فاستقر فيها، وقد كانت أيضًا للقائد قدور الشياظمي إلى أن توفي أيضًا، فبقي وحده قائمًا مقام القائد، وقد أخبرنا رجلان التقينا بهما قرب داره وماشيانا، أن الخليفة في مجمع القبيلة، وقد أقاموا اليوم الحفلة السنوية المعلومة في رأس كل سنة، في سقي القبيلة للنظر في الطاسة التي يفرق بها الماء، فينظرون ثقبها هل بقي كما كان عليه في السنة الماضية أو اتسع فيصلحونه، وكذلك يقيسون

الماء هل زاد أو نقص؟ فإن زاد يزاد لكل نوبة كبرى - وهي ري يوم وليلة - حظها، وإن نقص، نقص عن كل نوبة بمقدار ما نقص، وهذه عادة قديمة ورثتها الأحفاد عن الأجداد الأولين، ومثل هذا هو المسمى بالعرف عندنا، لا ما يهدم الشرع والعياذ بالله، فهذا من الشرع نفسه، وقسمة الماء هكذا بالطاسة المثقوبة من تحتها، من المتخلفات في المغرب عن زمن الرومان، وقد كانت ساعتهم في عهدهم يعلمون بها الأوقات.

ثم لما أهوينا إلى قرية (الزاوية) ودخلنا الدور، تلقانا الأديب ولدنا سيدي يوسف بن الطاهر من أصحابنا المراكشيين، فيهدينا إلى الصراط نحو دارهم، فقطعنا شعبة تأكلت بالماء، ثم تسلقنا إلى المكان الذي فيه دار الأستاذ والده، وقد بنيت فوق أكمة مشرقة على القبة الوكاكية في حجر الجبل، فإذا به يتلقانا، فأهويت لأنزل، فناداني ان أبق كما أنت على البغلة إلى الدار، فقلت: لا لا، وأنشدت بملء في لأنه أديب، وهل تحية الأدباء إلا الشعر؟ قول المتنبي:

ولما رأينا رسم من لم يدع لنا فؤادًا لعرفان الرسوم ولا لبا
نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة لمن بان عنه إن نلم به ركبا

ثم تبادلنا التحية، فسرنا إلى الدار على الأرجل، فإذا بثوى حسن، يثلج في البادية الصدر، فجلسنا والترحيب يلحقنا من الأستاذ ومن كل أهله، فقلنا اليوم انقطع ذلك البين الطويل، فلننسه ولنستمتع بهذا الوصل:

كأن لم يكن بين ولم تك فرقة إذا كان من بعد الفراق تلاق

دخلنا والأصيل يذهب الأفق، ونسيم البحر يعطر الجو، والقلوب ترقص فرحًا، والنفوس كادت تطير بهجة وحبورًا، وقد آنسنا من هذا المكان الذي نستحضر من أخبار دفينه (وكاك) ما استحضرناه انشراحًا عظيمًا لعل لاجتماع البر والبحر فيه واستحضار الماضي والحاضر من تاريخه تأثيرًا كبيرًا في بسط رواقه علينا، وهذا المكان من الأمكنة القليلة التي انتشيت فيها بالمسرة في كل هذه السفرة المباركة، وقد يكون للنفس انشراح أحيانًا وانقباض أحيانًا في بعض الأماكن لا يجد الإنسان لهما سببًا معروفًا، ولا أكاد أنسى هذا الانشراح الذي خامرني في مسجد سيدي (وكاك) رحمه الله.

الاثنين 17:

رأينا بعض أعيان القرية في عشي أمس، ولكنهم اختاروا أن يخلوا بيني وبين الاستراحة تكرمًا منهم وحسن أدب جبلوا عليه، لأن أهل هذه الزاوية كما يتراءى لي أفضل الناس أخلاقًا، وأدمث من رأينا شمائل، وأحبهم للغريب أيًّا كان الوارد عليهم، لا يفرقون بين المشارب، ولا يجعلون الناس طرائق قددًا، وسمعت أن الشيخ سيدي أحمد بن محمد التيمكيدشتي وولده الشيخ أبا علي والشيخ الوالد كانوا كلهم يحبون هذا المكان حبًّا جمًّا ويغتبطون بالنزول فيه، حكى رب المثوى الأستاذ الطاهر، أن الشيخ الوالد كان مرة هناك مع طائفته التي تزيد دائمًا على المائة، ثم بعد قليل رجع أيضًا، فقال: ربما يقول قائل: إننا رجعنا أيضًا بسرعة، ولكن ما المعمول؟ فإن القلوب تنجذب إلى هذا المكان، وقد كان رحمه الله تطيب مجالس ذكره ووعظه هناك كثيرًا واشتهر عنه ذلك، ولم أذكر هذا إلا لآتي بالدليل الناصع على ما اعترانا أيضًا هنا، فقلنا لعل للمكان تأثيرًا في ذلك:

إذا لم تذق ما ذاقت الناس في الهوى   فبالله يا خالي الحشا لا تعنفنا

وأفضل من هذا البيت قول الرمادي في القصيدة التي يمدح فيها أبا علي القالي نزيل الأندلس:

عجبًا لقوم لم تكن أرواحهم   لهوى ولا أجسادهم لنحول
دقت معاني الحب عن أذهانهم   فتأولوه أقبح التأويل

لهننا المضيف، ثم بكرنا إلى ضريح نبراس سوس، فحضرنا إليه سالكين بين الديار، حتى ولجنا صحن القبة، والجميع أبيض، وقبته غير متسعة، بل هي وسطى، وقد بنيت في أواسط القرن الماضي، وأحسب أن تاريخ بنائها مكتوب في أحد جدرانها، غير أنني لم أقيده، والبناء القديم انهدم فجدد بهذا، وقبر الشيخ مستقبل إلى مطلع الشمس، وفي هذا نكتة تاريخية، وذلك أن من المعلوم أن المغاربة كغيرهم كانوا غلطوا فحملوا حديث (ما بين المشرق والمغرب قبلة) على عموم البلاد ولم يدروا إن ذلك إنما هو لمن كان في المدينة المنورة وما سامتها من أهل الشمال، ولمن كانوا في مسامتتهم من

الجهة الأخرى من أهل الجنوب، وأما غيرهم فقبلة كل جانب بحسبه، وفي نحو القرن الرابع صارت المساجد توجه إلى الشرق في المغرب اقتداء بأهل الأندلس الذين اكتشفوا هذا الغلط منذ القرن الثالث أو الرابع، وأول مسجد عرفناه معتنى به كذلك، مسجد السقاية الذي سمي بعد ذلك حين بناه علي بن يوسف، مسجد ابن يوسف، فقد وجهه إلى المشرق وقد كنت اطلعت على أسماء العلماء ـ وهي نحو عشرين ـ الذين حضروا لتصحيح قبلة جامع ابن يوسف، من بينهم أبو الوليد ابن رشد، وذلك في سنة 520هـ، ثم لما جاء الموحدون ردوا القبلة إلى الجنوب كما يرى في مسجد الكتبية، وأقول الآن: إن القبور القديمة التي اطلعنا عليها قبل الخامس في جزولة كلها مائلة إلى الجنوب، وحين كان قبر وكاك إلى المشرق ظننا أنه هو نفسه ممن أيد هذه الفكرة الجديدة إذ ذاك في القبلة، فأقبر كذلك حين توفي نحو 445هـ، (كما يظهر من ابن خلدون حول وفاته) ثم اتبعه علي بن يوسف، ثم إن الموحدين عاكسوا أولًا هذه الفكرة على عادتهم في مضادة اللمتونيين في كل شيء، فأسسوا المحاريب إلى الجنوب، وقد كان جامع بن يوسف إذ ذاك معطلًا إثر فتحهم لمراكش، كما وقفت عليه في كتاب (التشوف) يوم كنت أبحث في تطور الحمراء في عصر اللمتونيين لكتابي (مراكش في عصرها الذهبي).

هذا وعن يسار الداخل إلى القبة قبر الفقيه البكريمي الشهير توفي 1300هـ وهو مذكور في كتاب (رجالات العلم العربي في سوس) وغربي هذا القبر ضريح الواعظ سيدي محمد بن الحسن من إكشرار من الجبل، وكان واعظًا مؤثرًا صالحًا خيرًا من أصحاب الرجل الصالح عبد الله العويني من الأحمديين، وكان الشيخ الوالد يذكره ويثنى عليه، وقد كان الواعظ أوصى أن يحمل بعد موته ليدفن عند شيخه بالعوينة، فحمل على البغال فرده الأَكْلوئيون من الطريق فدفنوه عندهم تبركًا به، ولعله توفي 1290هـ وفي ساحة القبة نطفية مملوءة بالماء، وقد استدارت الأقواس بالساحة، وشرقي القبة بهو حسن للزائرين، فيه نافذة كبيرة مشرفة على القرية، ثم خرجنا إلى المدرسة والمسجد، فوجدنا المسجد فسيحًا حسنًا، ذكر لي أنه لا يزال يعمر في الأوقات النهارية، وبالصلاة على النبي ﷺ ليلة الجمعة على عادة الناصريين، وأهل أَكْلو لا يزالون

على ذلك النهج، ويعلنون أن ماء عينهم ما بورك فيه إلا ببركة الشيخ أبي العباس التمكْـدشتي ولذلك يعطونه من غللهم نصيبًا إلى الآن، يأخذه بعض ورثة إحدى الآنسات من التمكيدشتيين متزوجة عند آل حسين الآتي ذكرهم. وهناك أيضًا قبر الرجل الصالح أحمد انجار البوكرفاوي الشهير بقراءات العشر وغيرها، المتوفى 1286هـ عن يمين الداخل إلى مصلى المسجد، وهو في أس الجدار الشرقي، وطرف القبر الشمالي تحت عتبة باب الصومعة، وأخبرنا أن ولدًا له لا يزال حيًّا إلى الآن، ملازمًا لداره قلما يخرج لكبره، وصنعته شعب الزجاج والآنية الرقيقة، وله صناع عجيبة تذكر، ويقصد بها من بعيد، كما أن هناك ثلاثة أحفاد لانجار أتقنوا القراءات كجدهم أحياء إلى الآن، والحمد لله على بقاء السر في محله.

رجع إلى وصف هذا المكان،وإمام المصلى هذا، مصلى الصيف في الصف أمامه محراب وسياج من البناء، لئلا يشرف من فيه على سطوح الدور المقابلة للمسجد، ثم وجدنا مكانًا جديدًا يهيئونه للأستاذ على حدة، ثم نزلنا من هذا المحل فمشينا في سرداب عليه حمل ذلك المصلى، وهو مقبو بالآجر ببناء متين، وكل ذلك غير قديم، بل بني كل ذلك مع القبة، ثم يتعهد فلا يتلاشى، وعليه رونق، ثم إلى مدرسة قديمة مشعثة بعيدة العهد بالترميم مما كان هيئ للطلبة الغرباء في العهد الذي فيه كانت هذه المدرسة تضم ما فوق المائة، وأما الآن فليس هناك إلا أفراد قليلون، وإلا صبيان كثيرون نحو المائة، لأن أهل هذه القرية لا يزالون عاضين بالنواجذ بين الجملة على بعض مآثر الجيل الماضي، وقد تذكرت حين كان هؤلاء التلاميذ يمرون بي ما كنت أعرفه في صغري قبل 1330هـ من عمارة المساجد، حتى لتطفح بالصبيان، ثم دخل ذلك كله اليوم في خبر كان، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

رجعت من هذه الجولة وكلي ذكريات، فقلت ليت شعري أين مكان الرابطة التي بناها الشيخ وكاك هنا؟ ثم سألت هل بقي مكان ينسب إلى الشيخ؟ فقيل إن ها هنا دارًا تنسب إليه من قديم، وفيها ينزل بعض زواره، ولا يسكنها إلا نساء بصدد خدمة الزائرين، وقد كان فيها قبل اليوم بناء بالآجر، فقلت لعلها هي الرابطة أو بعضها، وهكذا ذهب الشيخ وڭاك، وذهبت كل آثاره،

وكلما سألت عن أي أثر من آثاره هناك، لا أجاب إلا بالنفي، فقلت هكذا ذهب من ربّى مؤسس الدول ابن ياسين صقر سوس، إذا كان عبد الرحمٰن الداخل صقر قريش، ولمشهد وكّاك أحباس كثيرة في هذه الساقية التي تجاوره، كما له أراض تحرث لهريه، وكل هذه الدور المبنية في حجر الجبل، إنما بنيت في أرضه، وإنما يستحق البناء فيها من قدم طاسة من الماء ليستبدل بها خطة الدار.

رجعنا إلى الدار فتهيأ الأستاذ الطاهر إلى سوق الاثنين لخدمة رسمية عدلية كلف بها اليوم، فقلنا له إننا على الرواح إلى (إكرار)، فأبى غاية الإباء، ثم جاء سيدي أحمد بن العربي، وسيدي محمد بن الحسن مقدم الفقراء، فعزم كل العزم على أن أبيت ثانيًا، ولما لم يكن التملص أجبت، فتوجهوا إلى السوق، فقمت مع شببة الحي الناهضين، كسيدي يوسف، وصنوه سيدي عبد الله، وسيدي أحمد زوج أختهما، وهو طالب حسن يتجر، والسيد عمر التاجر أيضًا في تزنيت، والسيد العربي بن الناجم المعدري الذي لا يزال معنا، فركبنا إلى البحر، وبيننا وبينه نحو 4 كيلو مترات أو أقل، فذهب الأديب يوسف بالأواني والفراش، وأوصى أن يلحق بنا الغداء هناك فاستوينا في قبة فيحاء من قباب الحضر، في دار بناها هناك الشريف مولاي الحسن صنو ملكنا المحبوب وخليفة السلطان بتزنيت ليتنزه فيها، ثم لما عزم اليوم إلى النقلة إلى (أكادير) صار ينقل منها ما يمكن أن ينقله، ولكن هذه القبة لا تزال مصونة مزلجة بشراجيبها، ففرشنا فيها، فأديرت الكؤوس، وقد انشرحت النفوس، والأمواج من البحر المزبد بين أيدينا تتلاطم، كأن بينها حرب البسوس، فقلت للأديب يوسف مل بنا إلى أن نستتم البهجة في النفوس، بمراجعة ما عندنا من الطروس، فظللت أتلو عليه ترجمة شيخ الإسلام العلامة أبي شعيب الدكالي من كتابي الكبير الذي سميته (مشيخة الالغيين من الحواضر)، فافتتحت الترجمة بما افتتحت به هناك:

بأي لسان يا شعيب تترجم   فعمرو بن بحر عند وصفك يبكم
فما مسهب ألا يقول برغمه   أخيرًا وإن طال المدى(والله أعلم)

فاندلقت في التلاوة جهرًا وقد خلونا، وللصوت في جوانب القبة صدى رنان، ولزئير البحر العالي اليوم طنين يصك الآذان، فاذهب قدمًا، حتى تلوت نصف الترجمة في أكثر من كراس فأعييت، فقلت لصاحبي وقد تعجب من إطالة الترجمة:

أطال ذيل مديحي طول لابسه   إن المديح على التنبال تنبال[1]

ثم قلت له إن الشيخ شعيبًا بحر من العلوم، وهذا بحر من الماء، فما أولانا أن ننشد إزاءهما ما قاله أبو نواس الحكمي:

هذا الخصيب وهذه مصر   فتدفقا فكلاكما بحر

وعند منقطع كثبان الرمال هناك، مشاهد ثلاثة متقاربة: أحدها على من يسمونه بسيدي موسى، وقبته بنيت كما في بعض جدرانها سنة 1254هـ، وثانيها على من يسمونه بسيد مولاي، وقبته بنيت سنة 1264هـ كما كتب فيها أيضًا، وعلى كليهما دربوز ولباس، فقلت أين من يلبس الأحياء يا عباد الله في هذا الوقت الذي عري فيه الأحياء، وتلبس فيه أعواد الموتى، أهكذا يا عباد الله دين الإسلام؟ هذا مما يقبله العقل؟ فلم أشعر إن قلت:

يا ليت لي سعد القبو   ر فألبس الحلل الرفيعة

ويشاد بيتي قبة   شماء من قمم بديعة

ويطاف حولي والجيو   ب تصب في وسط الربيعة[2]

ويصونني الحجاب ممن سنهم نحوي سريعة

وتجيب آمال إذا   ناديت لبتني سريعة

فأظل طول العمر في   علم ومرتبة منيعة[3]

---

(1) التنبال: القصير.

(2) الربيعة: صندوق النذور عند الأضرحة المقدسة.

(3) ينظر إلى قول القاضي عبد الوهاب:

يا لهف نفسي على شيئين لو جمعا   عندي لكنت أذن من أسعد البشر

كفاف عيش يقيني ذل مسألة   وخدمة العلم حتى ينقضي عمري

حـتـى يـجـيء رسـول ربـي كـي أسـلـمـه الـوديـعـة
فـإذن تـقـضـي مـنـيـتـي ممـن حـيـاتـهـم خـديـعـة
فـيـكـون أمـري لـلـذي بـعـدي إذا أضحـى سـمـيـعـة
أن لا يـسـنـم مـرمـسـى وفـق الـمـحـقـق في الـشـريـعـة[1]
فـالـخـيـر كـل الـخـيـر فـي بـعـد الأنـام عـن الـبـديـعـة[2]
دعـنـي مـن الأقـوال فـهـي كـثـيـرة شـتـى صـديـعـة[3]
ظـلـم لـمـن يـرنـو فـلا يـلـقـى بـمـطـلـعـهـا صـديـعـة[4]
أمـا الـطـريـق المسـتـنـيـر لـمـن هـم مـن خـيـر شـيـعـة[5]
فـالـسـنـة الـغـراء نـو ر أبـصـروا قـومـي سـطـيـعـة[6]
ودعـوا[7] بـنـيـات الـطـريـق مـبـاعـديـن عـن الـذريـعـة[8]

---

(1) من مسلم أن عليًا رضي الله عنه قال لأبي الهياج الأسدي: أتريد أن أرسلك إلى ما أرسلني إليه رسول الله ﷺ إلى اليمن، أن لا تدع تمثالًا إلا طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته.

(2) البديعة، جمعها بدائع، وكان مالك ينشد دائمًا:
وخـيـر أمـور الـديـن مـا كـان سـنـة وشـر الأمـور الـمـحـدثـات الـبـدائـع

(3) كالبيضاوي الذي خالف الجمهور، فأباح البناء على القبور، وهو معذور ـ كما ظهر ـ فلم يمارس الحديث كثيرًا، وإلا فما يصنع بحديث عائشة في الصحيح، وهو معروف عند أرباب الفن فلا نطيل به، والصديع المصدوع.

(4) الصديع: الفجر، أي أن من يرنو لا يلقى نوره في مطلع تلك الأقوال لكونها عارية عن مستند.

(5) وهم المحدثون جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

(6) سطع البرق سطوعًا وسطيعًا.

(7) تلميح إلى قول القائل:
فـهـذا الـحـق لـيـس بـه خـفـاء فـدعـنـي مـن بـنـيـات الـطـريـق

(8) يقول بعض الناس أن في إشادة قبور الصالحين تعظيمًا لهم في أعين الناس، ونحن نقول لهم أن الشارع ما منع من البناء عليها في الأحاديث الصحاح، إلا سدًا للذريعة، لئلا يقع الناس فيما وقع فيه الجهال والنساء اليوم، من كونهم ومن كونهن، وفي الموضوع مؤلفات.

هـــذا الـــرحـــيـــق مـــروقـــا   مـن ذا يـديـل بـه مـجـيـعـة[1]

مــــن لــــم تـــشـــرفـــه الشـــــريعة   هـل تـشـرفـه الـبـديـعـة؟

رفـــع الـــنـــواوس[2] عـــنـــدنـــا   حـقًّـا مـن الـبـدع الـفـظـيـعـة

لـكـن لـدى الـجـهـال لـيـس   يـعـد عـنـدهـم شـنـيـعـة

(رجع وانعطاف)، وقد غفلنا حتى انجرّ بنا الكلام إلى ما لا نريد كثيرًا أن نقضي فيه أوقاتنا، لأن الناس ما بين من لم يعرف ما يصنع فلا يقعقع له بشنان، وبين جاهل لا يرجع إلا بالقوة الدينية، وأين تلك القوة الدينية عندنا اليوم؟ ورحم الله الشيخ التاموديزتي جنيد زمانه الذي كان دائمًا ينكر مثل هذا، فيكسر الجص على قبر شيخه المعدري، وعلى قبر سيدي سعيد بن عبد النعيم، ويأذن بأخذ الثياب التي على القبور ما أمن الآخذ أن يهتك عرضه ويأمر بقلع الأشجار التي تعتاد النساء ربط الخرق بها، والاستعاذة بالجن الذي تتوهمه ساكنًا إزاءها، ثم لما احتضر أوصى أن يدفن بين مقابر المسلمين، وأن لا يميز قبره بينهم، وقال: إنني لا أسامح من جاء يدق فوق رأسي، هكذا أحيا السنة من هذه الناحية رحمه الله، ولكن صرخته ذهبت في وادٍ، فلم تؤثر، أيحسب مثلنا من الجهال المذنبين أن يتصدى لذلك فيسمع له؟ اللهم لا، فإن الماء إذا لم يصف لا يصفى.

لنفسي أبكي لست أبكي لغيرها   بنفسي لي شغل عن الناس شاغل

اللهم وفقنا لنعمل بما علمنا أنه حق، وقيض لعبادك من تختاره لإرشادهم، فقد شغرت سبل الإرشاد وضاعت صوى[3] الحق، ونشأ هذا الجيل يجهل العلم والعمل معًا، وإن كان من بعضه متمعلم، فإنك تجده أبعد الناس عن الحق وعن اتباع ذويه.

---

(1) المجيع: لبن معجون بالتمر.

(2) الناووس: قبر النصارى وهم الذين يزوقون قبورهم باعتناء أما نحن فنهينا عن ذلك.

(3) الصوى: جمع صوة بالضم: علامة في مجهل وفي حديث في مسند أحمد: أن للإسلام صوى ومنارًا كمنار الطريق.

إيه، وهناك أيضًا إزاء القبتين المتقدمتين بيت على من يسمى الحسن بن إبراهيم ويلقب أبا زغيبة من آل جحيفة من أبناء الشيخ ابن موسى، توفي نحو 1308هـ. ولا يزال حيًا من يعرفه، وقد ساقته ميتته إلى ذلك المحل، فدفن فيه، وفي هذا المكان المسمى (تمدا أوگـلو) يقام موسم سنوي للبيع والشراء فوق سيدي موسى المذكور، وهذا وسيدي ومولاي يقال أنهما من الركراكيين القدماء جدًّا، ويقول آل سيدي أحمد الأميني القارئ المشهور أنه منهم، وقد بنيت هناك دار للقبيلة قديمة ينزل فيها رؤساء القبيلة في الموسم، وهي اليوم مرقبة الحرس على البحر، وقد مد سلك المسرة إلى تزنيت منها.

صلينا الظهر هناك، ثم طلعنا إلى الزاوية، فلبينا السيد الطيب بن حسين فأفاض علينا من خيراته جزاه الله خيرًا، واستفدت منه عن أهله ما يوجد في المعسول بين الكُرسيفيين وقد اعتذر عن زيارة خزانته بألم وجدناه فيه، واعدًا أن نراها مرة أخرى، وقد هش وبش، كما وعد أن يعيرني مؤلفًا لأحد أهله اعتذر بأنه الآن في تزنيت، ثم من عنده إلى دار سيدي أحمد بن العربي مقدم الناصريين كأبيه، وهو مقبول اللقاء أفاض ما أفاض، مما لا نقدر أن نشكره عليه، ثم تسنمنا الكدية نقابل البحر إلى المغرب، وبعده لبينا إخوانًا لنا اجتمعوا في دار مقدمهم سيدي محمد بن الحسن الرجل الصالح، الكبير المقام في الروحانيات، وهو عميد الزاوية التابعة للشيخ الإلغي هنالك، وهناك جالست العلامة الفقيه الكبير ابن الخالة سيدي محمد بن عثمان، وقد راح علينا ففاتحني مباحث منها حول المنهج الذي سلكه الشعراني في اختلاف الأمة حين يقول: هذا مشدد، وهذا مخفف، ثم تجاذبنا القول في المختلفين في النقليات، هل يصيب الجميع عين الحق في الواقع أو إنما يصيب واحد، بعدما ذكرنا أن المختلفين في العقليات إنما أصاب واحد، ثم بعد العشاء أوينا إلى راحة الأجسام.

الثلاثاء 18:

أفطرنا في دار رئيس القرية، وهو سيد لطيف هين لين، في مسلاخ أهل الزاوية وفي شمائلهم وفي كرمهم، وقد كان استدعانا أمس ملحًّا بعد أن عزمنا

على التبكير إلى إحدى حاجاتنا، وقد كنت سألته عن رياسة أكلو في العهود الأخيرة، فذكر أن القائد الحسن بن محمد بن بركي الامراغي من آل بركي في الزاوية تولى 1299هـ على يد المولى الحسن السلطان، ثم مات نحو 1310هـ، ثم ولده القائد أحمد توصل بالظهير في الدولة العزيزية، وهو الذي خدم مع الكْلولي في تزنيت إلى أن دخل رؤساء اكلو الكلولي، فسجنه في الحمراء إلى أن مات هناك، وفي عهد القائد انفلوس الحاحي 1319هـ ـ 1321هـ، أتى بابن القائد من مدرسة بونعمان عند ابن مسعود، فصار قائد القبيلة كأبيه أحمد المذكور، وقد صاحب معه الفقيه الحسن بن الحسين الباكريمي من تلك المدرسة، فاتخذه كاتبًا وفاء له في صحبته معه، ثم بعد انفلوس عدت عليه قبيلة اكلو، فهدمت داره، فالتحق بتزنيت إلى أن توفي 1324هـ. وفي تلك السنة أيضًا قتل كاتبه المذكور بيد عبده، وبعد الاحتلال تولى قيادة القبيلة القائد الحسن بن محمد (أمزور) به عرف، وكان شجاعًا جماعة للأموال كيفما تيسرت وهو الذي بنى تلك الدار التي ذكرناها قبل، وقد توسع في الدنيا وفي الرفاهية، وقد أقام مرة حفلة للقواد الأزاغاريين، فأرسل سيارته الخصوصية من أكلو إلى الشياظمة لشراء سلتين من العنب لفاكهة المائدة فقط في تلك الحفلة، فتناقل الناس ذلك متعجبين، وقد توفي 9 ـ 12 ـ 1352هـ. ثم أتت الحكومة بالقائد قدور الكريمي الشياظمي فصيرته قائدًا، وهو شيخهم ضعيف الأمور لهذا الخليفة الحي الآن فأزجى القائد قدور الأيام إلى أن دخل الحمام يومًا في تزنيت فسقط فمات بسبب ذلك في الثلاثاء 25 ـ 8 ـ 1357هـ ثم بقي الخليفة هذا إلى الآن قائمًا مقام القائد[1] يخاطب بذلك رسميًا كما يخاطب به الخليفة للشيخ عبد الله الجراري، والقائد مبارك الماسي، بعدما توفي أخوه القائد محمد بن عبد الله في الثلاثاء 11 ـ 6 ـ 1359هـ وهو ابن عبد الله أحد رجالات

(1) وبعد 1364هـ. نقلت الحكومة الأخ سيدي محمدًا ـ كمنفي ـ من الغ إلى اكلو كقائد وإن لم يكن رسميًا بظهير، فسكن في تزنيت، وقد امتدت أيامه على تلك القبيلة هادئة، فحفظه الله بسببه حتى من التوقيع ضد العرش يوم وقعت كل القبائل مع الكلاوي سنة 1370هـ، فبقي هناك إلى أن جاء الاستقلال فتولى القائد عبد العزيز الماسي.

ماسة الذين قاوموا القائد الحاج محمد الاغبالولي إلى أن سقط عبد الله يوم حيدة 13 ـ 8 ـ 1335هـ، فأخذ الكنتافي بيد ولده محمد حتى صار قائدًا إلى أن مات فتولى بعده مبارك القائد الحالي، ثم ودعنا أهل الزاوية الكرام، فتوجهنا صحبة العلامة محمد بن عثمان نحو داره، فقضينا الطريق بالمذاكرة العليا في الأصول وفي غيرها، وقد عدنا لبحثنا أمس حول المصيب عند الاختلاف، أواحد أم الجميع؟ فقلنا: أما المصيب في الحقيقة عين الواقع فواحد بلا ريب لا يشك في ذلك إلا من يجعل لكل خلاف اعتبارًا وإن لم يكن له حظ من النظر، وأما إذا أردنا أن المصيب في حقه نفسه حين بذل جهده، واستفرغ إمكانه، حتى أداه نظره إلى ما أداه، فالجميع مصيب ومأجور، وهذا لب ما هنالك من الأقوال، ثم ذكرت له: إن الواجب على من يريد أن يذوق الأصول، طلاق أبحاث أمثال العبادي واللقاني ناصر الدين وامثالهما في شروح جمع الجوامع وفي حواشيه، فرحم الله شيخنا الرافعي فقد قال: إن من لم يتعاط إلا جمع الجوامع والمحلى وما إليهما، فلم يدق بعد علم الأصول[1] ثم جرى على لساني كتب الفن المبسوطة كمختصر ابن الحاجب، وكتاب الآمدي وغيرهما من الكتب التي تبسط المسألة بعبارة واضحة نيرة يدركها كل أحد بسرعة وقد كنا بعد جمع الجوامع نقرأ (رجز الأصول) لابن عاصم وبعض كتاب الآمدي الكبير، وكتابًا مختصرًا نفيسًا عصريًا لبعض علماء المصريين وهو الخضري، ثم نجتهد في تطبيق ذلك كله على الحديث الذي ندرسه دائمًا. فإذن أمكن لنا أن نتذوق لذة الفن، وأن نتمرن على إجالته في كل مبحث، ولا يمكن ذلك إلا بما ذكرناه، وأما عبارات المختصرات التي تصعب دائمًا بادئ ذي بدء فقلما تفيد، ثم ذكرت مقالة ابن خلدون المشهورة في المختصرات ومقالة الشاطبي، فبهذا وأمثاله أمضينا الطريق مع هذا العلامة الأصولي الجليل، وقد

(1) وقد حسبت العلامة ابن الطاهر الرسموكي حدثني بمثل هذا أيضًا عن الأستاذ أبي فارس الأدوزي كما حدث عنه بأنه يقول: أن هذه المختصرات هي التي قضت على العلم في الفقه وفي غيره، أقول هذه الكلمة حقًّا قديمة ولكن يسرنا أن يتنبه لها من مشيخة سوس أمثال أبي فارس فلا ينفرد اليوم عنهم بذلك أمثال الرافعي في الحواضر.

مررنا بقرية أماراغ، فرأينا قبل أن ندخلها أطلالًا ذكر صاحبي أنها محل حقول تركها الماء منذ نحو سبعين سنة، وقد غارت العين، فوقف عليها الشيخ أبو سالم الإكراري حتى أجريت ثانيًا، غير أنها لا بد من إنسان يحرك منبعها إما بيده وإما بشيء، وإلا وقفت لا تجري، فيتولى ذلك كل من عنده نوبة ماء.

وحكي أن سبب ذلك أنهم حين وصلوا مجرى الماء في هذا العمل الذي حضر فيه أبو سالم، حضرت صلاة الجمعة، فأمرهم بترك العمل إلى أن يرجعوا بعد الصلاة، فعمد بعض من لا يخاف الله، ولا يعتني بحضور الصلاة إلى إجرائها، فلم تجر له، فلما رجع أبو سالم شق عليه ذلك جدًّا، فصدرت منه دعوة صعبة على ذلك الفاعل، فأصيب مصابًا عظيمًا يذكر، وبقيت العين على ذلك إلى الآن، ومثل هذه الواقعة تكتب تذكيرًا، فليسمعها الإنسان وليمر بها كما سمعها، فإن الله على كل شيء قدير، وقد مررنا بمنبع العين في وسط القرية ثم بمسجد كبير في القرية للجمعة، ذكر لي أن الجد محمد بن العربي الأدوزي يبطئ فيه متى كان هناك مع إنسان من أهل القرية يأمره أن لا يأتي لطعامه إلا بما هو مألوف أن يتناوله دائمًا، وقد مضت في ذلك المسجد عهود للتدريس، كما مررنا هنالك على طلل دار العلامة محمد بن عمر الدغوغي الشهير بالأدب من أصحاب مولاي علي العلوي صاح بالدار التي في جوار الكتبية بمراكش، فأنشدت لصاحبي قول الشريف الرضي:

ولقد أمر على ربوعهم ... وطلولها بيد البلى ذهب
فوقفت حتى ضج من لغب ... نضوى ولح بعذلي الركب
فتلفتت عيني فمذ خفيت ... عنها الطلول تلفت القلب

وكذلك مررنا بأطلال ديار القضاة الثلاثة الذين أرسلهم الأمير بودميعة إلى أكلو: إبراهيم بن محمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمٰن وأخويه عبد الرحمٰن وعبد الله، وقد رأينا مشهد الأول منهما في مقبرة القرية، وفي تلك القرية أيضًا سكن الشيخ عبد الرحمٰن بن إبراهيم ولد المقدم، دفين قرية إيكْرار، بعدما انتقل من هذه القرية، وطلل داره كذلك رأيناه، وممن مر هناك العلامة النوازلي أحمد بن الحاج إبراهيم أزرور الامراغي الشهير في تلك الجهة ممن تخرج بالحسن

بالراسلوادي، وبابن العربي الأدوزي، كان يشارط في مسجد اكلو ما شاء الله، ويخطب في الجمع في جامع أماراغ، ويورق فيه، وديدنه القسم للتركات، وفض النوازل، توفي 1346هـ عن سن عالية وقد تشتتت كتبه بعده.

ثم ألقينا العصى في دار الرفيق، فتلقانا والده الفقيه الصوفي شيبة الحمد سيدي عثمان بكلتا اليدين كما تلقانا العلامة المشارك الفلكي سيدي الحسن بن عبد الرحمٰن الإيكراري من أبناء عمومتهم، مؤقت الجامع الكبير في البيضاء وقته، وإنما جاء ليزور بلده، ومر بنا في تزنيت، فقال: إنني في القرية أنتظركم، وكان محاضرًا فكهًا مستحضرًا جريئًا، وقد أصيب بكريمتيه عوضه الله عنهما الجنة، ومتعنا بحواسنا بفضله حتى نتلقاه، وقد صادفنا هنالك أيضًا ابن الخالة النجيب سيدي أحمد بن الرفاكي، وقد سكن في دارهم هناك متزوجًا، وهو ملازم للأستاذ ابن الخالة ابن عثمان، يأخذ عنه في مسجد القرية. وقد باسطنا سيدي الحسن المذكور أنا وابني الخالة أحمد الرفاكي، وابن عثمان، فقال أبناء الخالات، كأنهم في وجنات المعالي خالات، فقلت لا نقبل هذا إلا شعرًا، فقال:

وأشبال هم أبناء خالة ... هم في أوجه العلياء خالة
هم الأفذاذ في علم ومجد ... عليهم سائر الأقران عالة

كان ابن عثمان يدرس مع صاحبه في هذا المسجد، فأحيينا بذلك مأثرة الأسلاف في التدريس المتواصل هناك، وقد زرت هذا المسجد، فرأيت البيت الذي يدرس فيه الشيخ أبو سالم، وأبو العباس أحمد أجمل وأبو سالم الكادورتي فرأيته ضيقًا، فقلت (السر في السكان لا في الديار)، كما زرنا مشهد الشيخ سيدي عبد الرحمٰن، ومشهد أبي سالم، وقبر الفقيه أضارضور، وقبر المؤرخ المقدام الرفاكي، ورأينا في وسط المقبرة مشهد الشريف محمد بن إبراهيم ابن علي الوارد من تافيلالت، فأنزله سيدي عبد الرحمٰن، ودار الشريف التي نزل فيها لا تزال معروفة الآن، وقد وقفت على رسم صداقة الدار من السيد محمد بن علي بن أحمد ابن الفقيه عبد الله للشريف المذكور، مخطوطًا بخط الشيخ عبد الرحمٰن، وهو خط وسط وهو مؤرخ 7 ـ 7 ـ 1185هـ ويقال

أن الشريف رحل من تافيلالت بسبب زوج له غصبها منه أهلها، فتناول صرة فتبعهم فلحق بهم في أكلو، فاتصل بها، فقطن هناك، وقد توسع وانتقل من إكرار إلى المكان الذي فيه أولاده الآن، وقد اشتراه، ووفاته بعد 1182هـ بسنوات قليلة وقد خلف أحمد وعبد الله وعليًّا، وقد وقفت على رسم تبرئة لهم من إنسان، مما صح له في إرث عندهم مؤرخ بمفتتح 1213هـ وقد خلف الشريف أولاده صغارًا فقام عليهم سيدي محمد بن عبد الرحمٰن خليفة والده في الزاوية فقدم ـ عليهم من يصلح شؤونهم حتى أدركوا، وحين أدركوا 1213هـ نعلم أنه ربما توفي والدهم نحو 1197هـ والله اعلم، وقد أرسلت إلى أحد هؤلاء الشرفاء وهو إبراهيم بن محمد بن الحسين بن عبد الله بن الشريف محمد ابن إبراهيم بن علي بن عمرو، وهو الذي حكى لي عن أهله، وعبد الله ولد الشريف عالم شريف النفس جليل القدر، يذكر بالعلم الكثير، ولا تزال محررات يده في النوازل والإفتاء متداولة بكثرة، وتؤثر عنه أخلاق لطيفة تدل على نبل ومروءة وهمة، وأقواله تعتمد في المسائل العويصة، ويعرف بسيدي عبد الله الشريف، لا ندري متى توفي بعد 1213هـ، وقد ترك ولده عليًّا وهو عالم أيضًا مشهور عاصر أبا سالم وأضارضور وطبقتهما، يجول جولاتهم، توفي في الجمعة من ربيع الثاني ـ كذا بغير تبيين اليوم ـ 1279هـ وكذلك علي ابن الشريف أخو عبد الله عالم أيضًا كأخيه، ولا يدرى متى توفي بعد 1213هـ وهو أكبر من أخيه عبد الله سنا، لا علمًا ولا أخلاقًا كما يقال، وهؤلاء العلماء الثلاثة هم الموجودون في هذه الأسرة، ثم انقطع العلم فيهم، وقد تشتتت كتبهم شذر مذر، ولهم شجرة نسب رايتها حاطبة ليل، مع أنها أطول من ليالي الشتاء، ثم إنني ظللت اليوم كله أنسخ مما عند هؤلاء العلماء ما احتاج إليه من تحرير تراجم علمائهم، وأنقل الإجازات وقصائد يذكر منها العلامة الحسن بن عبد الرحمٰن، وابن عثمان المطلع، ويعين النجيب سيدي احمد ابن الرفاكي في النسخ، وقد لبينا دعوته إلى داره، فأفاض مما هو منتظر من كريم مثله، فأنسنا بمكان المؤرخ الرفاكي رحمه الله ورضي عنه، وقد جلسنا حين أتلو على الحاضرين ترجمة هذا المؤرخ الطويلة من (المعسول) فأعجبوا بها ـ كما زعموا ـ

إلى العناية لأنني ذكرت كل ما في الإمكان ذكره من جوانب حياته، ثم تلوت ترجمة ولده ابن الخالة العالم الجليل سيدي إبراهيم[1] حفظه الله، وقد كنا نتشوف إلى أن نتلاقى معه هناك، ولكن لم يتيسر له، فاقترح أخوه النجيب والأستاذ ابن عثمان أن نزوره في (تالعنت)، فبعد الأخذ والرد عولنا على ذلك، ويوم إيكرار من الأيام المعدودة عندي فوائد في هذه الرحلة، فقد أفاض على سيدي الحسن بن عبد الرحمٰن سجلًا مفعمًا مما في ذاكرته من الأدبيات والفوائد حياه الله وبياه، كما أن النجيب ابن الرفاكي يوالي أسئلة ممتعة، فمما سألني عنه يأجوج ومأجوج وسدّه، فلما كان ما عندي واعتمد عليه لا يمكن بالإجمال سوقه، أرجأت الجواب، ثم قلت له سأجيبك كتابة، ثم بعد ذلك ذكر لي أنه يعرف تفسير الطنطاوي، فقلت: راجع فيه هذا الموضوع تر ما يشفيك، فإن الذي عندي مجموع كله بإسهاب وبراهين هناك، ثم اعتمد على ما قال والسلام، وكذلك ابن عثمان البحاثة قد تناول (إرشاد الفحول) للشوكاني، فصار يتلو علي فيه مبحث المصيب عند الاختلاف، وهو ذلك المبحث الذي تقدمت لنا فيه المذاكرة صباحًا، فإذا به قد أعجب غاية الإعجاب بالكلام السهل الواضح فقال، لقد صدقت في الذي تقوله عن كتب الأصول آنفًا، فقلت نحمد الله على أن سددنا وسددك لذلك، ولكن لضيق الوقت ولوجود آخرين لا يهمهم هذا البحث، ولاعتنائي بانتهاز الفرصة في استتمام كل ما عندهم مما أتشوف إليه في هذه الرحلة، لم يستتم الأستاذ كل ما ذكره ذلك الكتاب، وفي العشي خرجنا إلى خارج القرية مع الأديب يوسف بن الطاهر وقد لحق بنا، ومع الفقيه سيدي الحسن، فكتبت عنه أسماء ما ألفه وبعض ما حفظه من المقطعات، وهناك جاء إلينا الرئيس في الألعاب أحمد المتجول في الآفاق بين أوروبا وأمريكا، واقترح أن نروح عنده، فأمهلناه إلى الغد، ثم سرت معهم ما شاء الله تريضًا، وقد انتقلنا في الأحاديث نتجول في أمريكا الشمالية ما بين نيويورك وشيكاغو شرقيًا إلى سان فرانسيسكو غربيًا ثم إلى كندا، كما نجول في

(1) محمد بن عثمان، هو اليوم عضو في محكمة الاستئناف، وإبراهيم وأحمد ابنا الرفاكي قاضيان.

بريطانية والنرويج والدانمارك والسويد وسيلاندة وأوروبا الوسطى والغربية، وقد كان عرف كل تلك البلاد قبل الحرب العالمية الأولى 1914م ـ 1918م، ثم لا يزال يتردد إليها إلى أن اكفهر الجو بهذه الحرب الجديدة، فلزم داره وهو لا يزال شابًّا قويّ العضلات، ويتقن الانجليزية والفرنسية والألمانية، ويقرأ الأولى جيدًا، وبعد صلاة المغرب رجعنا فصادفنا شريفًا طيبًا من أغنياء القرية وهو مولاي إبراهيم ففي داره بت بعد العشاء.

الأربعاء 19:

أفطرنا في دار هذا الشريف الكريم بطعام حضري ـ لأنه كان يقطن الحمراء ما شاء الله ـ مع الفقيه سيدي عثمان، وولده الأستاذ، والأستاذ سيدي الطاهر السماهري الذي بكر علينا، ثم من هناك إلى دار النجيب أحمد ابن الرفاكي، ففي هذا اليوم كنا عنده لا أمس كما تقدم غلطًا، وهناك استجازني سيدي الطاهر كما استجزته، فتدبجنا جعلنا الله من الذين يستظلون بظله يوم لا ظل إلا ظله، ولهذا الأستاذ شعر كثير سنورد منه في ترجمته في كتابنا (المعسول) إن شاء الله، وكذلك ولده الأديب يوسف، فإن له أيضًا أقوالًا حسنة في القريض، وهي هنالك أيضًا ولا نطيل بها هنا، ثم أمضينا يومنا كله بمثل ما أمضينا به أمس، إلا أنني في الهاجرة نمت نومة استرجعت بها راحتي، على حين أن هؤلاء الأفاضل لا يزالون في أبحاثهم وفي نسخهم ما يريدون، وهكذا هكذا الهمم، ثم بعد العصر ودعنا الصالح سيدي عثمان، والأستاذ سيدي الطاهر، والفقيه الفلكي سيدي الحسن، فتوجهنا لإجابة الرئيس أحمد في قرية سيدي داوود فقيدت البغال، فاخترنا أن نسير على أرجلنا، فقطعنا أميالًا لم نشعر بها مذاكرة أخذًا وردًّا، وللأستاذ ابن عثمان ذي السيف المرهف، والجواد اليعبوب جولان في كل فن، فنستفيد ونفيد ثلاثتنا، والأديب ابن الرفاكي في إصاخة الناشد للمنشد[1] يلتقط الفرائد، ويوكئ على الفوائد، ويستوضح ما انبهم عنه،

(1) يصيخ للنبأة أسماعه إصاخة الناشد للمنشد
فالناشد: الطالب لضالته، والمنشد الذي ينادي على ضالة وجدها.

ويستبين ما استتر عنه، إلى أن وصلنا مع المغرب، فصرنا نجول في نعم متنوعة عند ذلك السيد الكريم مع أناس حضروا، منهم رئيس القرية وبعض الإخوان، منهم ممن ينتمي إلى الفقيه سيدي إبراهيم الإيكراري صاحب الرحلة الحجازية، فأتاني بها، فرأيتها بخط مقبول، كما خطها مؤلفها، غير أنها انبترت ولم تتم، وقد جلد معها كتاب منه إلى أهله من فاس، يبين فيه أحوال الطريق ورخص الطعام، ويوصي على والدته، وعلى تقوى الله، وهي رسالة حسنة ضاق الوقت عن نقلها، ثم لما تفرق الناس، وبقينا ثلاثتنا، سألتهما عما وصلا في المختصر، فذكرا التيمم، فجرى درس صغير حديثي فقهي حول آية التيمم، ثم اعتذرت لهما بأن النسيان أتى على كثير مما في صدري من عدم المذاكرة في هذه السنوات الخمس، ثم تداولنا أبحاثًا أخرى ثم استرحنا.

الخميس 20:

صلينا فتناولنا لهنة سهلة، ثم توادعنا فتوجه الرفيقان إلى إيكرار، وأنا ورفقتي صوب قرية (الارجام) حيث دار الصهر وأولادي، فمررنا بغربي (العوينة) التي منع أهلها من الخروج هذه الأيام تحجيرًا صحيًّا (كما تقدم) ثم مررنا في تراب آيت برايم بأطلال قرية ذكر أنها خربت على يد بودميعة، لأنهم أبوا أن يسلسوا لحكمه، وقد أنسيت الآن اسم سكانها، ثم نزلنا عند متوع النهار، فأقبلت على نسخ ما كنت محتاجًا إلى التفرغ له، وعند الظهر امتلأت علينا زاوية الصهر بأصحابه الذين كان من عادتهم أن يجتمعوا دائمًا مثل هذا اليوم، ثم جاء الرئيس على القبيلة السيد محمد امغار لرؤيتي، وقد كان أوصى صهري على أن أزور داره متى جئت فلم يتيسر لي المرة الأولى وكذلك اليوم لم يتيسر لي ذلك أيضًا، مع أنه قال إننا هيأنا الضيافة، فقلت له قولة الطلبة الدارجة:

وما القصد إلا أن يكون اجتماعنا ... وما الأكل إلا شيمة للبهائم

فودعناه إلى (تزنيت) لأنه بصدد الوقوف على دفع الصوف من قبيلته كما هي عادة القبائل اليوم مع الحكومة، وفي عشية اليوم جاء الأخ الفقيه سيدي محمد بن إبراهيم كزور الساحلي، مع ثلة من الإخوان، فرأيناهم وقد كانوا أرسلوا إليّ وأنا في سيدي داوود يقترحون الطلوع إلى زاويتهم، فاعتذرت لهم،

ولذلك جاؤوا وباتوا معنا، فكان اليوم والليلة للقلوب، لا للنفوس في مباحثها العلمية، وقد كنت عولت أن أتصل بالفقيه سيدي إبراهيم بن عبد العزيز الأدوزي، فأخبرت أنه خرج يجمع مع طلبته سمن المدرسة، فحرمت التعرف به مع أنه من الأفاضل الذين اشتاق إليهم لأنه من سلالة أهل الفضل، وهل ينفح المسك إلا بالطيب؟

وهل ينبت الخطي إلا وشيجة وينبت إلا في منابتها النخل؟

فمن زكا أصلًا زكا فرعًا:

وليس الجود منتحلًا ولكن على أعراقها تجري الجياد

إن الأصول إذا زكت ففروعها تزكو كذاك الشبل كالضرغام

الجمعة 21:

ظللنا هناك اليوم كله، وقد ذهب كل من كان هناك، فأدينا الحق للأهل، إلا أن الفقيه اللوذعي الصوفي سيدي بلخير التيمجاضي من أصحاب الشيخ الوالد ورد فمرت بيننا ساعات لطيفة، استفدت فيها نوادر، وبعدما حررت عنه ترجمته ذهب إلى حال سبيله، لا جعله الله آخر عهد، وكل ما قيدته عنه فسيكون في (المعسول) إن شاء الله.

السبت 22:

بكرنا نحو (تالعينت) مع البازي ولا يزال علينا سواد الليل[1] مخافة الحرارة، فإذا اليوم يوم دجن[2]، بل أصابنا رذاذ قبل أن نصل، فوجدنا النجيب سيدي أحمد بن محمد بن أحمد الرفاكي خارج زياتين (تالعينت) ينتظرنا في قرية هناك، فجرى إلينا لأننا لم نره، فكدنا نفوته، فدخلنا تحت الزياتين الملتفة والشمس قد انكشف عنها الضباب، فأرسلت كل ما فيها من الحرارة، فصار

(1) تلويح إلى قول الجاهلي ـ أعني الشطر الأخير فقط:

إذا نكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازي على سواد

(2) يوم دجن: غليظ السحاب بلا مطر.

النسيم الذي تحت ظلال الأشجار، يلاعب العذبات، ويذر الصدور منشرحات، فتذكرت أبياتًا أندلسية لبعض الشواعر - لا للمنازي المشرقي كما قيل - فأنشدتها لصاحبي:

وقانا لفحة الرمضاء واد … سقاه مضاعف الغيث العميم
قصدنا دوحة فحنا عليها … حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمإ زلالا … ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أني واجهتها … فيحجبها ويأذن للنسيم
تروع حصاه حالية الغواني … فتلمس جانب العقد النظيم

صرت أردد الأبيات بالتغني المطلق، والبغال تتهادى بنا، وجدول ماء يعترضنا فنسايره قليلًا، فتزداد النفس بهجة بخضرة الأشجار ورقرقة الماء، ثم دخلنا تحت جسر صغير ذكر لي أن الذي وقف على بنائه هو الفقيه عبد الرحمٰن ابن أحمد، فكان ذلك من مناقبه حين يهتبل بالمصالح العامة، ثم تبدى لنا باب (تالعينت) بعدما مشينا بين بساتين، فرأينا ماء (تالعينت) جاريًا أمام الباب، ثم دخلنا فوجدنا الحرس جالسين، وهذا الحرس نصب حتى لا يدخل من ليس من سكان (تالعينت) إلا بإذن من الخليفة عبد الله بن عياد، وقد قال: فعلنا ذلك لنعرف ما هو منوط بنا تحت مسؤوليتنا، أقول: كان هذا بعد أن ذهب هاربًا منه أخوه الأديب محمد عبد الرحمٰن إلى آيت بعمران، فاستاءت الحكومة من ذلك، فكأنها لامته على عدم حراسته التامة، فأقام هذا الحرس، ولم يسألنا نحن أحد، لأن ابن الرفاكي من قطان المدينة معنا، ولولا ذلك لما دخلنا إلا بعد استئذان الخليفة، أو حضور من نقصده إلينا، ثم درنا مع أزقة غير منقاة ولا منكوسة كحالة المدن، لأن المكان إنما هو قرية أدير السور بها أواخر 1318هـ فلم يدخلها من التنظيف العصري بعد شيء، ولا يزال الزبل ونفاية الدور أمام الأبواب مكدسًا على ما هو معروف من القرى، وصعب أن يعتاد أهل القرى ما اعتاده الحضريون، إلا أن كانت بلدية تعين على ذلك، والبلدية أيضًا لا تكون إلا بالمال، والمال بكثرة السكان، وكيف والسكان هنا ليسوا بكثيرين، تشق عليهم المصاريف مثل هذه لو طلبت منهم، ثم نزلنا أمام باب دار مقصودنا مع

رفيقنا سيدي أحمد بن الفقيه الرفاكي، فخرج الأستاذ إبراهيم وابن عثمان، فدار السلام بحرارة، فكان أول يوم رأيت فيه ثانيًا ابن الخالة إبراهيم منذ نحو عشرين سنة، وهو إذ ذاك كما افتتح المبادئ العلمية، ثم دخلنا فعلونا إلى غرفة عليا جميلة حضرية بما يدل على سراوة همة أبي هذه الأسرة سيدي محمد بن أحمد المؤرخ الرفاكي الذي هيأ كل هذا من أول يوم، ثم لم ننشب بعد أن جلسنا، أن انتشبنا أيضًا في المباحث، فقال الأستاذ ابن عثمان أنني راجعت «بداية المجتهد» فرأيت فيه حول التيمم كل ما كنت ذكرته تلك العشية، فقلت إنه كان من مراجعنا المعتمدة أيام الدراسة، ثم أفطرنا، ثم أتت كتب طلبتها من مخطوطات الأستاذ الرفاكي، فأتي إليّ بكناشة فيها أدبيات ومحاورات له، فإذا فيها عينية له يرد بها على الفقيه أبي العباس الكشطي التناني، ومعها أخرى من الفقيه الطيب البيمنصورني وآخرين، ورجزية للأستاذ علي بن الطاهر الرسموكي، ثم رجعت المذاكرة حول موضوع مناقشة هؤلاء الأساتذة، وهو الصلاة في السيارة، فقال الأستاذ ابن عثمان، إنك كنت ذكرت لي في الحمراء ما كنت تؤيد به الأستاذ الكشطي في جواز الصلاة في السيارة، فقلت له، إنني ذكرت لكم ما عندي من أن الذي ركب السيارة التي ليست له، ولا يمكن أن تقف متى أراد أن يصلي، وقد كان على طهارة ترابية أو مائية، فإنه متى خاف خروج الوقت، وهو مستحضر للصلاة غير ناس لها، يصليها كيفما تيسر له، مستقبلًا أم لا، قائمًا أو جالسًا، ساجدًا أو مؤمنًا، ولا أظنكم ترتابون في الصورة التي على هذه الكيفية، ولا أنكم تتوقفون على إيراد أدلة فقهية عليها، وأما الذي كان على هذه الحالة نفسها[1] ثم ليس على طهارة ترابية أو مائية، ثم إنه لا يمكن له أن يقف ولا أن ينزل لأن السيارة ليست له وقد تذكر حتى خرج الوقت، أو ليست هذه المسألة هي التي اختار مالك فيها بعينها سقوط الصلاة، فقالوا بلى، ثم قلت: إنني إلى الآن لم أر كلام الكشطي، فإن كان يتكلم حول هذه الصورة فالحق معه بلا ريب، وإن أطلق فإن إطلاقه في غير محله، فقال الأستاذ ابن عثمان إنه أولًا أطلق ثم رد عليه، فقيد بعد ذلك بهذه القيود، فقلت

(1) أي وجده الوقت أواخر الوقت راكبًا، وهو غير ناس.

إن معه حينئذٍ الحق، فقال، وما نقول في الإقدام على مثل هذا الركوب الذي يؤديه إلى الصلاة إيماء، أو ليس أن الحكم هنا كما قيل في الإقدام على الحج في السفن الضيقة التي يحمل ضيقها الركاب، حتى يصلوا إيماء، فإنهم نصوا على أن ذلك الحج يسقط عن الإنسان ما دام يضيع ركنًا من أركان الصلاة، فقلت الآن جاء منتطح الفحول ومصطدم الأفكار، ثم قلت: مهلًا احك لكم ما قاله الشيخ شعيب الدكالي وقد سألته عن هذه المسألة بعينها، فإنه قال، لا أقول لك حتى أحكي لك حكاية وقعت لي، وذلك أنني خرجت سحر يوم من فاس، وأنا على الوضوء في سيارة شركة عامة، وقد أعطاني بعض أصحابي حقيبة صغيرة فيها حلي كثير يساوي إذ ذاك عشرين ألف ريال حسني ، لأوصله إلى أحد أهله بالرباط، فوضعت الحقيبة إزائي، فحين وقفت السيارة في مكناس، وقد أسفر الضوء، وأنا وحدي بلا رفيق، نزلت لأصلي، وقد ابتلت الأرض أول ذلك السحر بمطر نزل فيه، فأول ما فعلته، إن فرشت سلهامًا جديدًا من الملف العالي على الأرض فأصلي عليه، وفي وسط الصلاة أثيرت السيارة، فأسرعت في الإتمام، ولكن لم أسلم حتى ذهبت السيارة عني فحرت في أمري، وخفت أشد الخوف على الحقيبة، فساق القدر إلى بعض معاريفي، فحكيت له، فركبنا سيارة له صغيرة مسرعة، فسبقنا سيارة الشركة إلى الخميسات، فيسر الله حفظ الحقيبة حيث وضعتها فجلست في مكاني وقد لاقيت مشقة عنيفة، وما ذلك إلا لمخالفتي للسنة التي راعت السفر، فأتت فيه برخص كثيرة توسعة ودرءًا للمشقة، فإنني أولًا أفسدت سلهامي الجيد، مع أنه منصوص عند الفقهاء على جواز الصلاة إيماء في الطين، لمن خاف إفساد ثوبه، وثانيًا فارقت مجلسي ولم أؤد الصلاة كما تيسر لي للمحافظة على عدم فراق آلة السفر وحوائجي، مع أن المضطر يجوز له أن يؤدي الصلاة كما تيسر له، كمن كان هاربًا على بهيمة من اللصوص أو من السباع، فخاف إن وقف أو نزل فإنه يصلي عليها دائمًا ولا ينزل، وما الاضطرار الذي في السيارات مثل هذه التي تكون لشركات لا تعتبر ديننا، إلا مثل ذلك الاضطرار، ومن فرق بينهما، فلم يعرف بعد موقع القياس ولا إسناد جزئية لجزئية قياسًا، قال الشيخ ذلك، فأوردت عليه الشبهة التي يتوهمها كل متوهم في عدم جواز الإقدام على

مثل هذا السفر الذي يضيع فيه ركن من أركان الصلاة، قياسًا على ما ذكروه من عدم الإقدام على الحج إن كان يؤدي إلى ضياع ركن من أركان الصلاة بضيق السفن، فقال الأستاذ إنني أولًا أسلم تسليمًا جدليًّا عدم الإقدام على ذلك الحج كما ذكروه، وأحكم بالفرق بين ذلك السفر الذي لا يضيع فيه مواد حياة الإنسان، وبين مطلق سفر التجار الذي تضيع فيه مواد حياتهم، وللشارع اعتبار كبير لفتح باب عدم تضييع الأموال التي جعلها الله قيمًا للناس وقوامًا لحياتهم، وبعدما أقول هذا وعندي ما أرجحه به كثيرًا، أعود فأقول أن المسألة تدور على قاعدة أصولية، وهي هل يجوز للإنسان أن يتسبب في مانع حكم من أحكام الشرع قبل أن يخاطب به خطابًا تنجيزيًّا أو لا، فهنا منبع الحكم في المسألة، فمن أتلف ما يستر به عورته، أو سكب ماء وضوئه قبل دخول الوقت الذي لا يخاطب خطابًا تنجيزيًّا إلا بعده، أو أنفق ما يتم به نصاب الزكاة في ماله قبل أن يحول عليه حول بساعة، أو أنفق ما يستطيع به الحج قبل أن يبلغ بقليل، فهؤلاء كلهم تسببوا في مانع ضد شرط الحكم الذي سيخاطبون به بعد، فهل عليهم شيء في ذلك؟ فلا شك أن المالكية حين قالوا: إن من صبوا ماء الوضوء بعد دخول الوقت، فإن صلاتهم بالتيمم صحيحة مع عصيانهم، أي أنه تسبب في ضد الشرط وهو المانع (كما يكون المانع أحيانًا ضد الشرط أو نقيضه) ثم قالوا: إن صلاته صحيحة، ثم إذا كان كل هذا، فكيف لا نقول لهذا الذي ركب السيارة قبل دخول الوقت، ثم أداه ذلك بعد دخول الوقت إلى أن يبقى بلا صلاة إن لم يكن على طهارة إلى أن خرج الوقت (وتسقط[1] صلاة وقضاؤها بعدم ماء وصعيد) وهم يقولون لا يجب على الإنسان السعي في إيجاد الشرط قبل أن يخاطب بحكم، ثم قال بعد أن أطال رحمه الله، وأسهب بالأدلة الأصولية في الموضوع، مائلًا إلى أن الإقدام على حج يسقط فيه ركن من الأركان يدخل تحت هذه الكلية، مباحثًا الفقهاء فيما قالوه في هذه الجزئية، ثم إن عرفنا كل هذا نحكم بجواز ركوب هذه السيارات التي تكون على هذا الوصف المذكور، وإن أدى ذلك إلى الصلاة فيها كيفما تيسر من صلاة بإيماء

---

(1) هذا مقول ما تقدم أي معمول جملة فكيف لا نقول الخ. . . وهو لفظ مختصر خليل.

أو سقوط صلاة على الشرط الذي ذكره الفقهاء، سواء ركبها راكب قبل دخول الوقت أو بعده، إلا أننا نقول لمن ركب بعده، وقد ظن أو تيقن عدم تيسر الوقت الذي ينزل فيه إلى الأرض لأداء الصلاة التامة عليها، كان يجب عليك أن تصلي الصلاة تامة قبل الركوب لأن الوقت قد ضاق بحسبك كالذي يظن أنه سيقتل في وسط الوقت أو في آخره، أو يأتيه شغل شاغل يحول بينه وبين الصلاة، أو بين إتمام أركانها، كما في المأسور إلى سارية، وكما في صورتنا هذه، ولكن إن وقع ونزل، ولم يصلها إلى آخر الوقت فأداها كما تيسر له، فإنه عصى وصحت، هذا ما كنت قلته بتفصيل للأساتذة أمامي ناقلًا عن الأستاذ الدكالي، وربما زدت الآن أو نقصت، ولكن المدار واحد، وقد ظهر لي من جلسائي أنهم صدقوا هذا النظر، ثم إنني بعد هذا رأيت مؤلف الكشطي، فرأيت فيه التقييد ثانيًا، كما ذكره الأستاذ ابن عثمان، وكلام الكشطي حسن وقد ذكر لي أن الأستاذ الرفاكي مع غيره من مؤيديه أنه قال يحرم على الإنسان أن يركب هذه السيارات ما دامت تؤديه إلى الصلاة إيماء، وأنه قال أيضًا يؤدي الأجرة للسائق حتى يوقف السيارة للصلاة، فقلت إن هذا التضييق في السفر الذي ترى الشارع يرخص فيه كثيرًا بالتيمم والجمع بين الصلوات جمع تقديم أو تأخير أو صوري، والتنفل على الدابة، وقد رجح أيضًا العلماء اليوم التنفل على المركوبات الحديثة كلها رادين القول بالخصوصية للدابة وحدها حتى المحفة، وكلام هؤلاء جدير بالقبول، وإلا فلا نلوم الظاهرية على عدم القياس بعد الآن، فإن مذهب مالك وإن لم يكثر فيه القياس على الرخص كما قال العاصمي في أرجوزته الأصولية.

ثم على الرخصة لا يقاس والشافعي شأنه القياس

فإنه قد يقاس فيه عليها في جزئيات كثيرة ظاهرة واضحة كما قاس السوسيون مسألة السعاية على القراض مع أن القراض رخصة[1] فيما ذهب إليه المالكية لأنه إجارة بأجرة مجهولة، فجعلوا الساعي كالعامل فيما للقراض سواء

(1) هذا وقد حقق ابن القيم أنه شركة محققة لأن العامل قدم عمله والآخر قدم رأس المال وذلك واضح.

بسواء، فإن السوسيين وحدهم هم الذين قالوا بهذه السعاية وجرى بها العمل عندهم، لا عند غيرهم كأهل الحوز، قاله ابن سليمان الرسموكي(1) ثم إننا ندرك أن العلة التي أبيح بها التنفل على البهيمة للمسافر إنما هو التوسعة له، ليعمل في سفره مثل عمله في حضره، وأي فارق واضح بين البهيمة وبين السيارة مطلقًا (كانت لك أو للشركات) في هذا التنفل، فهكذا يقول أشياخنا ويحققونه رضي الله عنهم، فإن كان السفر موضوع رخص كثيرة، حتى صار مظنة لكل رخصة، فلماذا نحن نعمد إلى التضييق فيه، اللهم إلا إذا أردنا أن نقول للمسافرين التجار الذين يغدون ويروحون في مهماتهم، فارقوا دينكم ودعوا الصلوات حتى تجمعوها في الرواح، على أن كل هذا قلما يقع إلا في الصبح لمن ركب في أيام الشتاء قبل الفجر في مثل الحمراء، ثم لا تقف السيارة حتى تطلع الشمس في مثل ابن كرير أو سيدي المختار، أو القلعة، وأما ما سوى الصبح فهناك وقت متسع وجمع تقديم وجمع تأخير، ووقوفات كثيرة في أمكنة شتى وقوفًا أكثر مما يصلي فيه الإنسان، وكثيرًا ما ركبنا سحرًا من الحمراء إلى البيضاء فنصلي إيماء قبل بنكرير وكنا نستعد بالوضوء، أقول، هذه المسألة ومسألة زكاة الأوراق صارتا تدوران اليوم كثيرًا في سوس، والتانية(2) مما استقر فيه رأي العلماء في الحواضر على الزكاة بعد خلاف طويل، وأما عندنا بسوس فلا يزال بيننا من يقول بعدم الزكاة، ولكن ذلك عما قليل ستنقشع سحابته، فيظهر الحق من أن الحكم فيها بالزكاة هو المتعين، والله أعلم. وقد جاذبت في الأولى بعد هذا الوقت الكلام أيضًا مع الفقيه البحاثة سيدي أحمد الناظر التزنيتي حتى ظهر لي أنه مال إلى ما أقول، بهذه المسألة افتتحنا الكلام ثم تلونا القصيدة العينية للأستاذ الرفاكي رحمه الله، ثم ملنا إلى الجو الأدبي، فقدم لي سيدي إبراهيم قصيدة لي بائية كنت قلتها في العيد الألفي للمتنبي 26 رمضان 1354هـ وقد جاءني استدعاء في ذلك الحين من

(1) ذكر ذلك في فتوى له تحت أيدينا.
(2) الزكاة في الأوراق.

دمشق، ثم اكتفيت بأن جعلتها بين القصائد المغربية المنشورة في هذا الموضوع من تطوان في كتاب خاص، ولكنها غير محررة هناك فإذا سردناها هذا النهار لأن الأستاذ ابن عثمان لم يرها بعد، فلنودعها لتكون هذه النسخة الصحيحة هي المعتمدة.

نصها:

هزت قبور بني حمدان[1] في حلبا ... ذكرى تسابق فيها السن الأدبا
اليوم تسترجع الآداب دولتها ... يا سعد من يستلذ الشعر والأدبا
ماست على الراحة الأقلام من طرب ... ومن ينل مبتغاه فليمس طربا
تختال بين سطور الطرس مشية من ... نال انتصارًا على الأقران والغلبا
فازت على السيف فاختالت بغبطتها ... والسيف في غمده ينقد مكتئبا
كانا معا يعرفان ابن الحسين إذا ... ينشي القصائد أو يستلئم اليلبا[2]
هذا إذا جاءه وحي[3] وذاك إذا ... ضاق الفضاء على الفرسان واضطربا
لم يصطحب قط إلا صارمًا خذما ... تمضي ظباه إذا نصل الكهام كبا[4]
أو مرقمًا كعصى موسى يقود به ... أن أرسل الشعر عن نفثاته العربا
لكن ظبا السيف حسن العهد يوم نبت ... في كفه لأمضت[5] من بعد كل ظبا
لم يرض بالصحب[6] واختار الجزار ومن ... يغتر يمض سدى أقدامه وهبا

(1) هم ممدوحوه زمنًا طويلًا، يعني أنهم يفرحون اليوم حين عرفت لشاعرهم مكانته العليا، وأنه فوق الشعراء كلهم.
(2) اليلب محركًا: الدرع.
(3) من قديم يطلق الأدباء ما يلهمه الشعراء بالوحي، وإن كان ذلك إنما شاع في هذا العصر.
(4) السيف الكهام، الذي لا يقطع، ضد الخذم الذي هو القاطع.
(5) وذلك يوم قتل، وقصته مشهورة، ولا يمكن أن يتفهم هذه القصيدة إلا من عرف ترجمة المتنبي حق المعرفة، وخاس العهد: إذا نقضه.
(6) بات المتنبي عند أناس فأخبروه بأن أعداء له يترصدونه، فطلبوا منه أن يرسلوا معه حراسًا، فأبى من ذلك كل الإباء، فقال ما دام لي هذا الجراز فلا أخاف أحدًا، ثم ذهب مع غلامه وولده فقتل يومه، والجراز بالضم السيف القاطع.

قد باكرته على بيداء[1] تعرفه ... زعانف[2] تنكر الأمجاد والأدبا
حز الهجاء بها[3] فاستغفلته إلى ... أن باغتت تطلب المسلوب والسلبا[4]
فصادمت بطلًا يلقى الردى قدما ... وكان يدرك منجاه لو انسحبا[5]
ويثبت الرجل في مستنقع[6] وخم ... ويبصر الفر فوق الموت والهربا
فساورت منه ليثًا كاد يهلكها ... لو أن أظفوره فيها قد انتشبا
لكنما الليث خانته أظافره ... والليث أظفوره لولاه ما رهبا
لو لم يخنه قضيب الهند ما شمتت ... أعداؤه أكذا المستأمن القضبا؟
أما اليراع فمذ ألف يفوح على ... طرس الخلود بذكرى ابن الحسين كبا[7]
ألقى به السيف منبوذًا وقام به ... ذود اليراع إلى العليا بكل إبا
والى له ذكريات ما خلا زمن ... لم يوح عنه بحوثًا تغمر الكتبا
يعني ذوو الندوات الحافلات به ... كأن غدا بحثهم في شعره قربا
درسًا وشرحًا[8] وتعليقًا ومنتخبا ... والدر لولا شفوف منه ما انتخبا

---

(1) تلميح إلى قوله:
الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

(2) قال:
بأي لفظ تقول الشعر زعنفة ... تجوز عندك لا عرب ولا عجم

(3) وسبب قتله أنه هجا أناسًا، وذكر أمهم بما ساء، فتعرضوا له فقتلوه.

(4) تلميح إلى قول أبي تمام في بائيته:
إن الأسود أسود الغاب همتها ... يوم الكريهة في المسلوب لا السلب
المقصود منها أن هؤلاء ليسوا بشرفاء كما ذكرهم أبو تمام فيريدون نفسه وسلبه معًا.

(5) كان هم بالانصراف لما لاقاه أعداؤه فقال له غلامه ألست القائل: الخيل والليل، البيت، فقال له قتلتني، قتلك الله، فوقف مستميتًا، حتى قتل، ولو هرب لنجا.

(6) قال أبو تمام:
واثبت في مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت أخمصك الحشر

(7) الكبا بالكسر: العود.

(8) ذكروا أن لديوان المتنبي نحو 40 شرحًا، ثم لعل هؤلاء الذين ذكروا هذا العدد، لم =

ما بين ممتدح مطر ومنتقد | صار التحامل في أبحاثه قطبا
حتى غدا المتنبي في الورى مثلا | أعلى إذا ذكر الأفذاذ في الأدبا
ذا شهرة في نواحي الأرض ضاربة | في شرقنا طنبا[1] في غربهم طنبا
يزوى لها (شكسبير) وجهه ويرى | هيكو يصعر منها خده كئبا[2]
شناشن عرفت من أخزم ومتى | ترى الأعاجم ممن ينصف العربا؟
لكن كفى المتنبي الشرق حين درى | للعبقريين والأفذاذ ما وجبا
ها هم بنو الشرق لاستقباله انتدبوا | فاستقلبوا منه جيشًا جحفلًا لجبا[3]
كأنما نال ملك المشرقين كما | قد كان يهوى فيغضى عنده رهبا
أو كان رزق بني الآداب في يده | (وعاد سمحًا) فكل أمه رغبا[4]
اليوم للمتنبي يوم معجزة | أجل لحاظك كيما تبصر العجبا
أحيا لنا الأدب الحي النضير وقد | أمسى زمانًا يبابا دارسًا خربا
وهكذا فلير الإعجاز إذ رجعت | سبا إلى عهدها بعد افتراق سبا[5]
آي الخلود قرأنا في صحائفها | في اليوم أن قد أمنا فقدنا الأدبا[6]

= يذكروا عن السوسيين مختصر ابن جني لعيسى الجزولي، وشرح ديوانه للنابغة الهوزالي، وترتيب ديوانه للماغوسي الكدميوي، وأما الكتابة حوله من الأدباء والمؤرخين والمنتقدين والمثنين من الشرقيين والغربيين فكثيرة جدًّا.

(1) في اصطلاح اليوم أن ذكر الغرب فالمقصود به بلد الفرنج، والشرق بلد المسلمين حتى المغرب الأقصى، فافهم وكن ابن زمانك.
(2) شكسبير شاعر انكليزي ذو شهرة عظيمة عندهم، وهيجو شاعر فرنسي كذلك ذو شهرة طنانة لديهم.
(3) اللجب بكسر الجيم، الجيش العظيم الكثير وقد وضع في البيت أن أفردها عن اسم الإشارة.
(4) اشتهر المتنبي بالبخل الكثير ولذلك لوح له هنا.
(5) يعني أن معجزة المتنبي كانت في إحياء أدب كان مضى واندرس فكأنه أحيا الموتى بذلك وهي أعظم معجزة.
(6) حقًّا كانت الحركة الأدبية حول المتنبي سببًا كبيرًا في إحياء الأدب خصوصًا في المغرب.

فلتحي ذكرى نبي الشعر حافلة   نقتض منها عذارى الشعر والعربا[1]
ذكرى يرى المغرب الأقصى بطلعتها   ثغرًا تألق معسول اللمى شنبا
والشرق أجمع وضاء يفيض سنا   كأنما ائتلقت أبهاؤه شهبا
قامت محافله في كل عاصمة   نثرًا بديعًا وشعرًا رائقًا عجبا
مصر وتونس الخضراء في أدب   طارت به فاس الغرا إلى حلبا
كأنما حلب الشهباء عاد لها   في اليوم ما احتجبته وحدها حقبا[2]
إذ كان للمتنبي في مقاصرها   ما يخضع الشعراء في عصرنا الذربا
ما زال ينشر فيهم ما يسلسله   فكر حباه من الإبداع ما وهبا
محلقًا في سماوات الخيال إلى   أن جاوز الأفق في التحليق والشهبا
حتى رأى العمي منه بله ذي بصر   من كان في عصره خنذيذ الذربا[3]
فطؤطئت أرؤس كانت تناطح في   عليائها بالنظيم المجتوى السحبا[4]
غرتهم كلمات من قصائد لا   نبعًا تعد إذا قيلت[5] ولا غربا
وقد هجا نفسه من لا يفرق أن   يسمعهم[6] ويرى أشعاره النخبا

---

(1) عذارى ج عذراء والعرب ج عروب، وهي الضحاكة المتحببة إلى زوجها والاقتضاض هو الافتضاض يقال بالفاء والقاف.

(2) كانت حلب عصر المتنبي حافلة بالشعراء كاحتفال بغداد أيام الرشيد، وكان سيف الدولة لا يقيم الوزن إلا للمتنبي ولابن عمه أبي فراس والمقصود من البيت أن الشعراء كلهم اليوم ولوا وجهتهم نحو حلب كما كانوا إذ ذاك.

(3) تلميح إلى قول المتنبي:
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي   وأسمعت كلماتي من به صمم

(4) اجتوى المكان إذا لم يستطب جوه.

(5) النبع والغرب من الشجر البادية، وذلك تلميح إلى قوم أبي تمام:
تخرصا وأحاديثًا ملفقة   ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

(6) قال المتنبي:
وهاجي نفسه من لم يفرق   كلامي من كلامهم الهراء

من ذا يسوي ابن عباد الحسود به؟ من ذا يسوي بأنف الناقة الذنبا[1]
والراكب الثور من بعد الجواذيري منه فيستنكر الأظلاف والغببا[2]
يأتي إليهم بعقد الدر متسقا ويعرضون أمام الناس مخشلبا[3]
في كل يوم يقاويه شويعرهم كأنما طاولت شم الجبال ربى[4]
وأحمد في تعال عنهم ومتى قالوا يصد عن الإصغاء بكل إبا[5]
والترك للرد أنكى في الخصوم وقد شبوا حقودا فيزدادوا بها لهبا
قالوا تنبأ إلحادًا ومخرقة وأظلم الكفر في سودائه فصبا[6]
الله يعلم أن الإفك ما زعموا نستشهد العقل والتاريخ والأدبا
لكن تنبأ عجبًا بالقريض ولو فازوا بآياته تألهوا عجبا[7]
صموا عن الوحي وحي الشعر ثم عموا وابن الحسين يلقى وحيه صببا
وحي الضمير إذا نار الشغاف به فالقلب يخترق الأستار والحجبا[8]

---

(1) كان الصاحب ابن عباد يتحامل على المتنبي كثيرًا، وألف في مآخذ معانيه، والشطر الثاني تضمين من بيت الحطيئة:
قوم هم الأنف والأذناب كلهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا
وعباد ممنوع من الصرف ضرورة.

(2) المتنبي:
ومن ركب الثور بعد الجوا د أنكر أظلافه والغبب
والغبب: الجلد المتدلي تحت عنقه.

(3) المخشلب يشبه الدر وليس به وقد ذكره المتنبي في شعر له.

(4) قال المتنبي:
أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف أقاويه قصير يطاول؟

(5) هجا المتنبي كثيرون فلم يجبهم تكبرًا.

(6) صبأ خرج عن الدين.

(7) تلميح إلى قول ابن وهبون في حضرة المعتمد بن عباد وقد أنشد من شعر المتنبي فأعجبه:
لئن جاد شعر ابن الحسين فإنما تجيد العطايا واللهى تفتح اللها
تنبأ عجبًا بالقريض ولو درى بأنك تحكي شعره لتألها

(8) الشغاف بالفتح: غلاف القلب.

يشاهد الغيب رأى العين عن كثب ... ويلمس العالم العلوي مقتربا
فينتحي الملأ الأعلى بأخيلة ... جذابة تستمد السبعة الشهبا
فينفح الشعر عنها روضة آنفا ... مخضلة صافحت وهنا نسيم صبا[1]
فيخلب القلب معناه وروعته ... حتى يطير وأعلى الشعر ما خلبا
ويعجب الناس من أني مآخذه ... ولو دروا ذاك لازدادوا به عجبا
ذياك مصداق قول ابن الحسين ومن ... قال الحقيقة يا للناس هل كذبا؟
فاجأه في صعر أن استبان له ... في الشاعرية ما عن غيره احتجبا
ولم يجد عنه تعبيرًا يقربه ... فقال ما قال لا كفرًا ولا كذبا[2]
أيه أبا الطيب المغبوط في همم ... كالبحر يزبد في أمواجه عببا
هل طبت نفسًا؟ فكم من شهرة نشرت ... أما ترى الشرق عنها هب فانتدبا؟
قد كنت تطلبها فوق الظبا فأتت ... تحت اليراع خلودًا فوق ما طلبا
أن يغلبوك على الدنيا وقد شحذت ... منك المآثير والدنيا لمن غلبا[3]
فأنت وحدك فيها اليوم منفرد ... استرجع القلم السيال ما اغتصبا
تستوهب العبد ضيعات تناط بها ... فأيكم يستحق اليوم أن يهبا[4]
ما مصر ما الشام مما أنت مالكه ... يا عاهلًا فوق عرش الشرق منتصبا
الشرق أجمع في يمناك فاقض بما ... ترضى فلست تلاقي فيه أي إبا
هبت به ذكريات منك حافلة ... ففاض في ذكر ما أوتيته أدبا
فلتحي ذكراك ولتحي العروبة في ... تكريمها نبغاء الشعر والأدبا

---

(1) الروضة الأنف بضم النون: هي التي لم يرع بعد نباتها والوهن بالسكون نحو وسط الليل.
(2) كلام خطابي شعري كأنه كلام صوفي.
(3) قال المتنبي:
الناس كالناس والأيام واحدة ... والدهر كالدهر والدنيا لمن غلبا
المأثور: السيف ذو الأثر.
(4) تلويح إلى البيت المشهور للمتنبي في كافور:
إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية ... فجودك يكسوني وشغلك يسلب

هذه هي القصيدة التي خلفتها في الحمراء، فإذا بي وجدتها عند أدباء (تالعينت) وقد رأيت أيضًا عندهم قصائد متعددة لأدباء آخرين، مما يدل على أن الأدب الجراري يتتبع الحركة الأدبية في كامل المغرب، ويقتنص منتوجاته بكل لهف. هذا وقد توسعنا بعد تلاوة تلك القصيدة في مباحث أخرى علمية، منها أنني سألتهم في معرض حديث عن مصداق الحكاية المتداولة من أن أعمى يقوده ولده، فوصلا جدولًا متسعًا، فقال الولد لوالده اقفزن ـ بنون التوكيد الخفيفة ـ فقفز الأعمى قفزًا متوسطًا، فإذا به في وسط الجدول، فعنف ولده فقال: لم لم تؤكد لي بالنون الشديدة، قلت لهم هل تدل حقيقة نون التوكيد على كثرة الحدث؟ أو ليس أنها إنما تؤكد أصل وجود الفعل فقط؟ فمن قال: اضربن فإنما أراد منك تأكيد إيجاد الفعل. فمن أراد التأكيد كثيرًا إذا كان ذلك يقتضيه الحال، فلا بد أن يزيد ما يفيد ذلك، فمن قال اضرب فكأنما قال أوجد الضرب، ومن قال اضربن، فكأنما قال أوجد الضرب ولا بد ولا بد ولا بد، ومتى أتى في كلا الأمرين بما يطلق عليه الضرب وإن لم يكن كثيرًا، فقد امتثل، ومتى أريدت الكثرة أو القلة فليقل اضرب قليلًا أو كثيرًا أو مثل ذلك، فحكاية الأعمى إذن غير سديدة، فقال كلا الأستاذين: إبراهيم وابن عثمان، إن هذا الذي قلته هو الحق الذي لا ريب فيه، فقلت أنني كنت سمعت مرة الحكاية من فم أحد العلماء، فقلت هذا فباحثني فيه، وإذ لم يكن عندي مراجع إذ ذاك بقيت من غير نص أدلي به على ما أقول، فقام الأستاذ إبراهيم، فأتى بالمطول مع الأطول، ويكتب من البيان. ولكن قبل أن يستخرج منهما النص المراد، دخل رئيس الجراريين اليوم، فطويت الصحف، ومدت الموائد فقدم الغداء، وقد حضر مع المذكور أخونا الحاج عبد الله الجراري الذي تقدم ذكره في (إنزكان) وقد ورد من كسيمة، ثم تم التعارف بيننا وبين الخليفة فإذا به من أفاضل الناس أدبًا ومخالقة على ما رأيناه منه.

ما زلت أسمع عمري عنك كل ثنا — أحلى من المن بل أجلى من القمر

حتى رأى بصري ما قد وعت أذني — فوفق الله بين السمع والبصر

ثم لما أتممنا الغداء، وصلينا الظهر، استنهضنا الخليفة بعد أن جاءنا الأستاذ المؤرخ سيدي علي بن الحبيب، لأن الخليفة أرسل إليه منذ علم أننا

هناك فدخل بنا الخليفة بستانًا لهم، شقه جدول العين متدفقًا، بل هو جعفر[1] لا جدول فخضنا في حقول ومزارع تحت ظلال وريفة، والأستاذ يلهث، لأن ركبتيه تؤلمانه لا يقدر على المشي بهما كثيرًا، ثم خرجنا منه إلى (الرياض)[2] وهو كبير جدًّا يقل مثله اتساعًا في الحواضر، وفي شرقيه وغربيه حنيات ممتدة مع أرباعه المترامية وهو مقسم على مزاهر كثيرة متنوعة الأزهار والأشجار، تشقها الممرات المستقيمة، والأغصان تتهدل عليها من الجانبين، وعن الركن الأيسر من الربع الشرقي منه منبع العين الفائرة الفائضة الصافية إلا من منبعها فإنه أخضر، وقد أدير به بناء مربع نحو أربعة أمتار في كل ربع، فرأينا اليوم ما كنا نسمع به دائمًا، والمكان حقًّا من الرياضات القليلة النظير، وقد احتفت به بساطة يدوية لها أيضًا موقعها في الجمال والنضرة، متى جالت في جوانبها النظرة، والقباب منبثة في الجوانب الأربعة، وفي شماليه قبة خضراء عظيمة مزلجة واسعة الأركان، أمامها بهو[3] داخلي والكل مزلج بزليج نفيس، ومفروش بفراش فاخر كأحسن أثاث الحضر، وأمام القبة للداخل إليها وعن يمينه مرآتان كبيرتان في الجدارين، وقد تناولنا هنالك حلويات مع كأس دهاق من الأتاي، ولو كان الرياض معتنى به اعتناء حضريًّا خاصًّا لكان ثانيًا بديعًا[4] آخر قلما يوجد له نظير في الحواضر بكل أوصافه المتقدمة، بل ينفرد بتلك العين التي تفور في وسطه، ثم يشق ماؤها المكان الأفيح في جعفر واسع، جمع الربع الشمالي منه، لكن هل هذا كله شغلني عن الاستفادة من مثل الأستاذ ابن الحبيب؟ كلا وألف كلا، فإننا كنا رأينا في الحواضر بين الأبنية ما كان استوفى منا الباكورة من العجب الذي يندفع من الإنسان متى رأى شيئًا يعجبه أول مرة، فقد ظللت أسأله ونحن ندخل إلى هذا الروض الأريض عن يحيى الجراري صاحب الفهرست، فقال لي: أنه من إدبن شعيب، في قرية

---

(1) الجعفر: النهر الصغير.

(2) اعتاد الناس اليوم أن يطلقوا لفظة الرياض جمعًا على الروض فنتبعهم أحيانًا، وهذا الإطلاق قديم من القرن الثامن.

(3) البهو: البيت الذي كانوا يقيمونه أمام البيوت أو الخيام منزلًا للغرباء والأضياف.

(4) البديع بناها أحمد الذهبي بمراكش.

الركادة، ولا يزال ابن ابن ابنه حيًّا وسماه ورفع نسبه، وسألته هل يعرف عنه شيئًا آخر فقال: لا، أقول، أن فهرسته رأيناها عند الفقيه ابن كبور بمراكش، ثم أنني رأيت له إجازة أخرى لشارح المرشد الأدوزي وهي كبيرة ولعلنا بعد اليوم نقف أيضًا على آثار له أخرى. وقد وقف بنا الخليفة أمام خزانة الكتب في جنوبي هذا المكان، وقال إن مفتاحه كان لا يفارق والده، ولذلك كان معه في سفره الذي لم يرجع منه إلى الآن منذ نفته الحكومة مختتم 1356هـ قال وقد أرسلنا إليه مرارًا ليرسله، فنتعهد الكتب من الغبار والأرضة فقال، إن بركة الكتب تدفع عنها، وقد أطللنا عليها من نافذتين فتحتا للهواء فرأينا الكتب مصفوفة، وقد سألت قيمها الأديب محمد بن سعيد عن عددها فذكر أنها تناهز ما فوق الألف وفيها مخطوطات قيمة وأكثرها مطبوع.

ثم رجعنا فوقفنا ثانيًا على منبع العين الشرارة فحين تبينت صفاء المنبع وعذوبته وبرودته تذكرت الماء الذي فاظت نفس المأمون العباسي إزاءه كما في التاريخ فقلت: يا سبحان الله ما أعظم ملكوت خالق السمٰوات والأرض، ثم أقبلنا إلى الخروج من الرياض العجيب، فتلقانا الرجل الصالح سيدي أحمد بن السائح من أصحاب والدنا المرتوين منه، وهو شيخ مسن يتعهد أولاد القائد بالتعليم، ويؤذن نهارًا، ثم يروح إلى داره ثم يأتي صباحًا وهكذا دواليك منذ نحو 20 سنة أو أكثر، وقد كان في شبيبته لصًّا مخيفًا يذكر قبل أن يتوب على يد الوالد ثم استحال إلى ما نراه عليه فإن لم يكن الإكسير هو هذا فلا إكسير في الوجود، لص مخيف لا يبقي على أحد، فإذا به بين عشية وضحاها تقيّ نقيّ زاهد في كل شيء ممن يمشون على الأرض هونًا[1] ثم ودعناه فصرنا إلى رياض آخر دون الأول سعة وإن كان يشبهه أو يماثله في تنظيمه، فتمشينا في مماشيه ما شاء الله، ثم أوينا إلى قبة فيحاء جرداء بيضاء، ريثما تهيأ السيارة، فقد أمر بها الخليفة أن تخرج، وآلة الغازوجين الموجودة اليوم لا بد من سعة وقت في تهيئتها، فهذان الروضان الكبيران كل ما رأيناه بين مباني (تالعينت) الكثيرة الشاهقة، وفي بعضها قصور كهذين المكانين، تستحق أن توصف بما

(1) هو مترجم في كتاب (منية المتطلعين، إلى من في الزاوية الإلغية من المنقطعين).

قاله خالد البلوى الأندلسي في رحلته «نزلنا في قصر من الديار». ودار من القصور، تخجل منها الدور، ويتقاصر عنها القصور، وتقر لها بالقصور:

دار مشى الإتقان في تنجيدها حتى تناسب روضها وبناؤها

مرقومة الجنبات ذات قرارة يمتد قدام العيون فضاؤها

ما زال يضحك دائمًا نوارها في وجه ساحته ويلعب ماؤها

ثم ركبنا السيارة أنا والخليفة والأستاذ ابن عثمان، والفقيه علي بن الحبيب، فمررنا بعد خروجنا من باب من أبواب (تالعينت) بمقبرة عن يسارنا في وسطها مشهد للفقيه محمد أبي الأذن صاحب فتوى حول هذه العين الفائرة هنا، منذ انبعثت حوالي 1130هـ وفتواه (أورد عليها الشك مني الآن) في الفتاوي العباسية، كما رأينا مشهد (إيجو) الأدوزية، زوجة الفقيه موسى الدغوغي المتوفى 1250هـ كما مررنا أيضًا بمشهد سيدي محمد الأغرابويي المتوفى 1251هـ روينا ذلك كله عن مفيدنا مؤرخ الجراريين الفقيه ابن الحبيب، ثم وصلنا (الركادة) حيث المنزه الذي ذهب بنا إليه مضيفنا الكريم، فضلًا منه واحتفاء واحتفالًا وأداء لحق الضيافة، فوجدنا سواد الزيتون طويلًا عريضًا، وعلى رأسه من الجهة التي أتينا منها منبع عين (الركادية) الشهيرة، وهي عين وقع عليها خافر لبير فسدها الجراريون، فإذا بعين تزنيت غاضت إلا قليلًا، فتبين أنها هي، ثم بعد التي واللتيا قسمتها الحكومة بينهما، وهاك ما كتبه العلامة الإكراري حول هذه العين، انقله من خطه، قال: (ليعلم أن عين الركادة مستخرجة منتصف المحرم 1330هـ ثم سدوا مجراها منتصف الثانية بعد زوال يوم الخميس 30 من المحرم 1331هـ فطلعت على وجه الأرض بمقدار ثلث ما فيها من الماء، إلى أوائل رمضان 1336هـ ففتح مجراها الكنتافي، فيراود عياد أمرها، فتم الأمر على أن تجري كلها فوق الأرض، فيبقى النصف للجراريين، والباقي إلى تزنيت، فصار الشغل فيها نحو عام تحت نظر المهندس، فبني صهريج قسم فيه الماء قال وقد تبين أن 67 سنتيمًا ذهبت إلى تزنيت و30 هي الباقية، ثم لما أصلح الجدول إلى تزنيت وبينهما ساعتان بغليتان أجري الماء، فوصل في 10 ساعات وذلك في 19 ـ 5 ـ 1345هـ. وفي أول ذي الحجة 1349هـ أتم عياد الصهريج بعد شغل

دام ثمانية أشهر، فأقام فيه نزهة لرؤساء القبيلة في 22 ـ 2 ـ 1350هـ بعد أن أحاطه بسياج. انتهى ببعض اختصار مني، أقول: إن أشجار الزيتون صارت الآن سوادًا عظيمًا ممتدًّا في طول من حول الصهريج، وكل من غرس أو أروى حقوله بالماء، فإن نصف غلته للقائد عياد، وقد قاوم بعضهم ذلك بعد نفي القائد، فدفع هذا الخليفة في صدورهم، والأمر لا يزال على ذلك[1] وقد مررنا على منقسم الماء في مسيل واطئ حين قربنا من الصهريج، فنسمع منه خرير الماء، ثم دخلنا ودرنا حول الصهريج الأفيح، وفي ربع من أرباعه منزه، ولا ريب أن الذي هندسه قد رأى صهريج (المنارة) في الحمراء، فإن لهذا شبهًا كبيرًا بها، وبها تبدو همة المشيد ما دامت الهمم لا تظهر عظمتها إلا بألسنة البنيان، كما يقوله أحد ملوك الأندلس[2] وقد طلعنا فوق المنزه وجلسنا في القبة المواجهة للصهريج وللبسيط الأخضر بالزيتون، فأتذكر حفلاتنا في منتزه (المنارة) مع إخواننا المراكشيين البررة، وكان الوقت وقت الأصيل، فلا تسأل عن تأثير هذه الذكرى في قلب الغريب النائي:

ما جال بعدك لحظي في سنا القمر ... ألا ذكرتك ذكرى العين بالأثر

وقد أديرت علينا هناك الكؤوس، وحلاوة حديث الفقيه علي بن الحبيب كانت نعم النقل، على ذلك الشراب، ثم لما خرجنا وقفنا وقفة نسرح أبصارنا في صفحة الماء وأسارير وجهه يداعبها النسيم الذي يهب علينا عليلًا، ولكنه لا يروى من أشواق قلبي إلى الذين استحضرهم وحدي غليلًا فتذكرت البيت الذي دار بين المعتمد وبين الرميكية إذ قال الأول:

نسج الريح من ماء زرد

فقالت، هي إذ ذاك بين الغاسلات المبتذلات في ساحل النهر:

أي درع القتال لو جمد

---

(1) ثم وقع النزاع في المحكمة الشرعية في تزنيت، فحكم فيها لآل القائد عياد، ثم استؤنفت الدعوى فنقض الحكم فحكم للآخرين.

(2) إن الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان

ثم جرى على لساني وقد أهوينا للتنزه من ذلك المنزه الحضري لا البدوي ما قال أستاذنا مولاي عبد الرحمٰن البيزكرني في منزه صغير في دار شيخنا سيدي الطاهر:

هذا لعمري منزه قد صارا لحسنه يستوقف الأبصارا

وقد أخبرنا الخليفة أن في كل ربع من أركانه 80 مترًا وهو من المنزه أطول من الجهة الأخرى وإن كان يظهر أنه مربع وقد اقترح علينا الخيلفة كما يقترح بكل مناسبة أن ندعو الله أن يعجل برجوع القائد، فدعونا الله اللطيف المجيب لدعوات المضطرين[1] هذا فقد ظللت كل هذه العشية هناك، وقد سألت ابن الحبيب عن (سيدي بعبدلي) فذكر أنه فقيه، وقد وقف له على مؤلف شرح فيه المقولات العشر، قال: كنت ذهبت إلى تونس فهناك علمت أنه تونسي وأنه خرج من هناك مع قرينته، فمات هنا فرجعت زوجه مع ابن له صغير فمات هناك وعليه مشهد معروف، هكذا قال، ولكن ذلك فيه ما فيه، وقيل أيضًا أنه من أهل القرن السابع، وأنه صالح، وهناك ما يدل على هذا القول، كما علمت منه أيضًا أن سيدي موسى التادايغتي كان عالمًا يدرس العلم ويتعبد في مسجده وهو من أهل الحادي عشر. كما قال أن ابن عبد الجبار دفين الأبير، كان مع المولى الرشيد 1081هـ فمات[2] هناك كما أفادنا قصة المكاوي وقد تقدمت، كما ذكر أن سيدي عبد الرحمٰن التزنيتي اشتهر أنه من (فم إيسي) وأنه من أصحاب سيدي أحمد بن موسى، وأنه توفي في حدود 1090هـ هكذا قال، ولو قال توفي (999هـ) لقرب الحال، ولعل مقصوده 990هـ أي في القرن العاشر فغلط، لأن أحمد بن موسى توفي 971هـ وكما أفادني الخير الكثير بلسانه وبقلمه في كتابه الذي أعاره لي طوال هذا السفر (تحلية الطروس وبهجة النفوس في مناقب آل سوس) فقد كان أتى به إلى تزنيت، فلم يتيسر أن نتلاقى إذ ذاك، فتركه لي فوجدته طافحًا بالغرائب والعجائب وهو كاتب منشئ ساجع، يحلي كلامه بالحكم والأمثال ولطائف الأخبار والأشعار، مع نزاهة حاول أن يلازمها

(1) رجع القائد في تلك السنة ثم مات قريبًا.
(2) هذا يخالف ما قاله في تاريخه من أنه من القدماء وأنه إدريسي.

في كل كتابه، وله خط رائق، بل قال إننا آل بو سليمان كلنا خطاطون حتى شببة نشأوا الآن في الكتاب، ومن أعظم ما استفدته من ذلك الكتاب، الأب الجراري الزاخر، فهناك عشرات فعشرات من القوافي ترسل في كل مناسبة، وذلك كله من تنشيط القائد عياد وولده الخليفة هذا، ثم رجعنا وأنا أسأله عن كتب أفتش عنها، فقال لم أسمع عنها قط، فصلينا المغرب في مسجد القائد، ثم بعد الحرب تلاقيت مع الأديب محمد بن سعيد الذي تقدمت لي به معرفة فجددناها اليوم، ثم جاء الخليفة وعليه قميص من قمصان الصحراويين المفتوحة الجوانب في لون كموني لبسه وحده للحرارة، فقدمنا من المسجد، ثم مرّ بنا إلى الزاوية الأحمدية إزاء المصلى مفروشة فراشًا حسنًا، ثم إلى روض صغير إلى داره الخاصة، فهناك تعشينا، وقد سردنا هناك بعض قصائد أتى بها الأديب ابن سعيد منها قصيدتان لي إحداهما الزائية الأبزوية التي مطلعها:

أهذا جنان الخلد أم هذه أبزو ... منى كل نفس لو يدوم بها الفوز[1]

وليست من منتقيات القصائد لولا أبيات فيها وهي آخرها:

هنيئًا لكم يا آل أبزو فهكذا ... يفوز ذوو السعدى ويستكمل الفوز
ظفرتم ببنت الشام طيبًا ونضرة ... وآية ذا إن كان عندكم الأرز
ظلال ظليلات وماء وخضرة ... فلله ما أحرزتم ساكني أبزو
وجو طليق مستطاب نسيمه ... أمنه استمد اللطيف نسجكم البز؟
معاشكم الروض الأريض وغيركم ... مدى سؤله في كوخه الحيس والخبز
فيا ليت لي من منطق ابن خفاجة ... فيغدو بالوصف المشخص لي فوز
فآتي بالسحر الحلال بوصف ما ... لكم وحدكم من بين من ضمه الحوز
ليعلم كل الناس أن بلادكم ... إذا لم تك الفردوس فهي له رمز

(1) ينظر في هذا الشطر إلى قول ابن خميس:

تلمسان لو أن الزمان بها يسخو ... منى النفس لأقصر الرصافة والكرخ

كما سردت أنا أيضًا لهم قصيدة نونية نبوية لشيخنا المفلق الإفراني وهي التي مطلعها:

تألق برق شق جيب الدجا وهنا فشاق لعهد في الأبارق فالدهنا

وهي قصيدة مشهورة من فضليات قصائده النبوية التي تناهر ثلاثين، وتستحق هذه القصائد النبوية أن تكون على حدة في محل خاص تنفرد به[1] وقد كنت حاضرًا حين قالها شيخنا فأخذتها عنه، وذلك في مولد سنة 1336هـ ثم سرد ابن سعيد أخرى للأديب عبد الرزاق السكرادي من أدباء الجراريين المكثرين، ولم تحضر عندي هنا لأثبتها، وهي قصيدة فكاهية لطيفة يعتذر بها في يوم زاره فيها أدباء من إخوانه، فيصف فيها كيف قابلهم، وذلك قبل العشاء، وقد حضر معنا الأستاذ إبراهيم الرفاكي، والأستاذ ابن عثمان، والأخ الفقيه الحاج عبد الله الجراري، وابن سعيد، وأحسب أن الفقيه محمد بن محمد بن عبيل الغرمي حضر معنا أيضًا مع الفقيه ابن الحبيب، وهكذا أحيط الكاتب بنخبة من العلماء الجراريين وقد أعدهم المضيف لإكرامي، وقد عرف أنه لا يناسب الأديب إلا الأدباء، وشبه الشيء منجذب إليه[2].

ثم أخذ الخليفة أثر صلاة العشاء بيد الأستاذ ابن الحبيب قائلًا له مداعبة أن حديثك الشهي ينسي الأضياف شهي النوم المريح، فدعهم يستريحوا، فبقيت والأستاذ ابن عثمان، مع رفيقي الشريف محمد بن إبراهيم خال أولادي فامتددنا في مضاجعنا وحول وجهي على عادتي دائمًا عند النوم كتاب «الخصيب» وهو كتاب آخر جمعه الأستاذ ابن الحبيب في آثار والده، قال: وهي كلها مصونة، فرأيته يحشر فيه الأدبيات إزاء الفقهيات، مع أمور أجنبية عن آثار والده، فاقترحت عليه أن يفرد آثاره الأدبية على حدة وحدها في ذلك الكتاب ثم يجمع للآثار الفقهية جمعًا آخر، فربما يفعل ذلك، فيزداد الكتاب ازدهارًا وقد رأيت فيه بعض آثار قيمة لذلك الأستاذ الأديب الكبير، ومن تتبع آثاره واستخرج منها المنقحة، فإنه يخرج لنا صفحة أدبية جميلة من الأدب

---

(1) أفردناها في ترجمته في (المعسول) على حدة بين آثاره.

(2) للمتنبي، وتمامه، وأشبهنا بدنيانا الطغام.

الجراري الذي له لون انفرد به من بين آداب جوانب سوس.

الأحد 23:

أصبحنا بنعمة شاملة نتجاذب أنا والأستاذ ابن الحبيب مباحث وفكاهات لأن له في الفكاهة آيات، وبعد الإفطار قلت إنني محتاج إلى رياضة على رجلي وقد أحسست بما تعشيت به ثقيلًا علي، فقال الخليفة: كم يكفيك؟ فقلت: نحو خمس كيلومترات بين الذهاب والإياب، فقال: أنا لك بذلك، وكان لا يزال شابًا جلدًا وولادته كما أخبرني به 1317هـ فهو إذن في الرابعة والأربعين فخرجت معه والحاج عبد الله بعدما تلكأ هذا، يتبعنا الشريف رفيقي، فصرت أتحدث مع الخليفة حول أمور وأمور فظن خيرًا ولا تسأل عن الخبر[1] فمررنا أيضًا بالعين الجارية من ذلك الرياض بعدما خرجنا إلى خارج السور، وهي عين كبيرة، ولكن لا تكون هكذا إلا بالتعهد فينة بعد فينة، لأن في أسفل منبعها شقوقًا لا بد من تعهد سدها وإلا فيتسرب الماء منها، وقد كانوا من قديم يلاقون عرق القربة متى زاولوا ذلك إلا أنهم اليوم أتوا بمغطس عصري يستمد النفس من عل بآلة تعين الغاطس، وقد رأينا الآلة في الرياض الكبير إزاء منبع العين، ثم إننا دخلنا في بساتين وحقول يتصل بعضها ببعض، بطرق ومنخرقات، يظهر أنها محدثة، وقد رأيت أن كل هذه البساتين والحقول التي مشينا فيها متصلة للقائد، ولا يكون الأمر إلا كذلك وخذ ما وجدته بخط الرفاكي حول قسم ماء العين، يظهر أن جلّ ذلك الماء قد حازه القائد وأهله على عادة كل القواد إذ ذاك، قال في 11 ـ 12 ـ 1343هـ زاد عياد على فرديات الماء ثلثها 14 على أن يقوم بمصالح العين، فرتبت الجماعة الماء على هذا: الأحد والاثنين للقائد، الثلاثاء لدحمان والبشير، الأربعاء والخميس للقائد، الجمعة لسعيد الأزاريفي وإدبيه، السبت للقائد على أن تكرى هي وليلتها

(1) لابن المعتز وأوله:
فكان ما كان مما لست أذكره ... ...
كان المتكلم في السياسة إذ ذاك يخاطب بمثل هذا التكتم، ولو كان بسيطًا ما يقول وقد أعجبني هذا الرجل إذ ذاك ولم أدر كيف انقلب على عقبه حتى صار على ما يقال فيه.

للجماعة، الأحد للقائد، الاثنين لأحمد وجبيري، الثلاثاء والأربعاء للقائد، الخميس لعبد الله ومحمد الاغرابويي، الجمعة والسبت للقائد، الأحد لأولاد التهامي مع أولاد عباس، الاثنين والثلاثاء للقائد، الأربعاء لإد بن داوود وإد المدني، الخميس والجمعة للقائد، السبت بليلتها لعبد الله، انتهى توزيع الماء على 42 فردية يدور على اثنين وعشرين يومًا كتبه محمد بن أحمد هـ.

ودحمان والبشير وأحمد والتهامي من أسرة القائد، وعبد الله هو هذا الخليفة، وقد اختصرنا قليلًا من كلام الرفاكي، ثم إننا سرنا نقطع تلك الحقول إلى أن ابتعدنا كثيرًا، فرجعنا في طريق آخر، وقد أنشد الخليفة إذ ذاك لمناسبة:

فسيروا على سيري فإني ضعيفكم ... وراحلتي بين الرواحل ظالع

وقد أفادني أنه سبط القائد إبراهيم الديلمي، فقلت من هنا هذه التربية، والأم هي المدرسة الأولى. وقد ذكر الحاج عبد الله أنه حضر يومًا للطلبة الجراريين وقد طلبوا من القائد عبد السلام تحريرهم، فرفعوه على يد خليفته عياد فطلب منهم أن يدعوا له بولد، فقال طالب بل خمسة، فقال آخرون بل فوق العشرة، قال فازداد عنده هذا الخليفة، ثم تتابعوا إلى أن كانوا على القدر الذي ذكره الآخرون من الذكور فقط، ومثلهم من الإناث، حفظهم الله من العين، وقد كان لأبي الحسن المريني السلطان الأكحل ما بين سقط وميت وحي زهاء 3000 ولد، ذكر ذلك من تتبع ولادتهم وهو ابن مرزوق، هذا كما أن ابن زيري مؤسس مدينة وجدة، ذكروا أنه اتفق أن بشر في يوم واحد بسبعة عشر ولدًا ذكرًا، كما أن لمولاي إسماعيل خمسمائة من الذكور ومثلها من الإناث، ولعبد العزيز السعودي أزيد من ثلاثمائة ولد ذكر وولد ولد، عرفوا كلهم وبلغوا بين يديه، وهذا من أثر التسري، أو من التزوج الكثير، وما كثر أولاد الشيخ ماء العينين إلا لكونه تزوج مائة وست عشرة امرأة، وقد انشدنا الحاج عبد الله إذ ذاك:

إذا منح الإلٰه لك العطية ... فإن الولد أفضلها هدية

ثم رجعنا في حمارة القيظ، وقد أتى الارتياض بالسؤل، فحين حضر الغداء ظهرت آثاره، ثم إن رب المثوى أحضر نسخة من البخاري، فطلب مني وإن لم أكن لذلك أهلًا، أن نتبرك بإلقاء درس حديثي، فافتتحت حول الحديث

إنما الأعمال بالنيات، فأمليت حوله قليلًا مما استحضر، وهيهات هيهات، لعبث الخمس سنوات بالمحفوظات، فقد توقفت أثناء الدرس على اسم بريرة في حديث، ما بال أقوام إلخ.. وعلى اسم أم قيس التي كانت سببًا للحديث، فلم أنتشلهما من أعماق الذاكرة إلا بعد جهد بعد ذلك، هذا مع أن مثل هذا كان عندنا إذ نحن نحن على طرف الثمام، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وهكذا تأتي البادية على العلم، ولا ينبئك مثل خبير.

ثم عند الظهر عزمنا على السفر فقال الخليفة: لا بل ننتظر إلى العشي فنحملكم على السيارة إلى تزنيت، فلنرسل البغال الآن، ولكن الله رحمنا فبقيت البغال حتى ركبناها لعدم صلاح آلة السيارة وتحتاج إلى عمل، ثم لبينا أيضًا دعوة الأستاذ أبي الخالة إبراهيم، فأحضر أيضًا ما طاب، فحررت تراجم الفقهاء الحاضرين، كلهم للكتاب الكبير إن شاء الله، وقد لاقينا سيدي أحمد ابن الحميدي فقيه المدرسة بعدما زرت مع الخليفة صباحًا تلك المدرسة فلم نجده وقد وعد الخليفة بإصلاح المدرسة لتعود جديدة وفقه الله، والمصلى في الجامع متسع حضري الرونق، ذو بهجة ونضرة، ثم بعد صلاة العصر خرجنا، وقد ودعنا (تالعينت) منشدين بلسان الحال، وقد خفنا أن يحملنا كرمهم العظيم الذي هو فوق مقامنا الواطئ بكثرة حتى لا نعود، عملًا بقول المعري:

لو اختصرتم من الإحسان زرتكم والعذب يهجر للإفراط في الخصر

وقد والله أخجلنا من هؤلاء ما نراه منهم من التواضع حتى أنهم ليخدموننا بأيديهم، كأنهم عبيد ويقدمون الأطعمة الكثيرة المتنوعة مع مراعاتهم للأدب في الحديث وفي الجلوس وفي كل شيء مع انبساط وانشراح وطرح الحشمة وعدم التصنع، فقد والله أنجب الجراريون ما تقر به العيون، فشباب كهؤلاء منحاشون إلى التواضع مع الغنى وبسطه اليد من النعم العظمى:

نعم الإله على العباد كثيرة وأجلهن نجابة الأولاد

فأين من هذا الشباب الجامع لكل هذه الأوصاف (وما شهدنا إلا بما علمنا مشيدين للحق، لا مرققين عن الصبوح) بعض شباب مترفين، نشأوا نشأة مشنوءة، فأول ما يستنكرونه الأخلاق الدينية والعبادات المفروضة، وأهل العلم

وأهل الدين، وأول ما يستعظمونه الأخلاق السافلة مما تجيش به حضارة اليوم من حماة هذه المدينة الغربية الكافرة الفاجرة فلا حياء ولا أدب ولا أخلاق (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وأن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم، هم العدو، فاحذرهم، قاتلهم الله، أنى يؤفكون) هداهم الله ووفقهم لدينهم ولوطنهم ولرفع شأن شعبهم الأبي.

خرج معنا المضيفون ويدهم في أيدينا نتناجى بما تتناجى به من نصح ثمين بيننا، حتى قطعنا كثيرًا، ووصلنا إلى قرية خارج (تالعينت) فهناك توادعت معهم ثم ركبت بل أبوا إلا أن يأخذوا الركاب بأيديهم، حتى ركبت جزوا كل خير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، ثم سرت مع الأستاذ إبراهيم والأستاذ ابن عثمان، نتجاذب أبحاثًا إلى أن وصلنا قدام (الركادة) فتوادع معنا سيدي إبراهيم، لأنه مكلف بشغل تقتضيه وظيفته، فأخوض مع الأستاذ الآخر في مباحث إلى تزنيت، وهو يتأسف على عدم أخذه للحديث وعلمه كما ينبغي.

الاثنين 24:

وصلت أمس فصادفنا العلامة الناظر وأخاه القاضي في انتظارنا، فدخلت مع الأول حول كتاب كان الأستاذ ابن الطاهر أرسله إليّ بتزنيت، فتناولته فإذا فيه إجازات كثير للأزاريفيين وفهرست الهشتوكي أحوزي المشهورة (بقرى العجلان) وهو مجموع نفيس أخذته لأنسخ ما فيه لكتاب (المعسول) إن شاء الله، ثم بعد أن أفطرنا ذهبنا إلى نظارة الأحباس، فأتانا آت بكتاب فإذا به إجازة ابن العربي للتاموديزتي، وبعد العصر ذهبت معه إلى الأستاذ الفقيه سيدي أحمد بن صالح التادرارتي البعمراني، وقد سكن في تزنيت فأصابه فالج أعاذنا الله، فخرج إلينا ولا يكاد يستمسك، فأعنته مع صاحبي حتى أجلسناه على كرسي، فظللت أقيد عنه العلماء التادرارتيين، ولا أكتب عنه إلا الملخص خوف أن ينقطع دون أن يكون لي طرف من حياة كل واحد منهم، فأتتبعهم إلى آخرهم، وقد ذكر أن تحت يده قصائد وآثارًا لا يمكن الآن أن يستلها من القمطر لمرضه، فعذرناه متأسفين على عدم استيفاء كل ما نريده ولكن نعود فنقول: إن لم يصبها وابل فطل.

الثلاثاء 25:

كنا تغدينا هذا اليوم عند السيد عبد الله المقدم فصادفنا هناك عبد الله الجراري وقد أخبر أننا هناك، فأتى إلينا، ومعه أخ صغير ذكر أنه أصيب بجنة وأن أختًا له دخلت المتوضأ فإذا بها مغمى عليها، فحملت وهي تهذي وتصرخ فأتى إليها براق، فحين شرعت في البرء صار أخوها هذا يأخذه مثل ما كان يأخذها، فأتى به إلى الطبيب، غير أن الطبيب الأوروبي يعجز في مثل هذا، فقلت له يجب على الإنسان أن لا يدخل المستراح إلا بعد أن يقول: بسم الله مع قوله: اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث، كما في الحديث، وفيه أيضًا أن هذه الحشوش مسكونة فبادر بكتابة ذلك الدعاء، وذلك مما يدل على عنايته، وفي هذا اليوم كتبت عن السيد الحبيب التزنيتي ترجمة والده الفقيه محمد ابن أحمد بن علي من أيت محمد (فتحا) كما حررت ترجمة القاضي أعمو، وقد كنت حررت ترجمة صنوه الناظر في المرة الأولى، والكل في (القسم الرابع) من (المعسول)، وفي هذا اليوم توصلت بكناش كله بخط أبي فارس الأدوزي، انتقيت من فوائده للكتاب المذكور الشيء الكثير، وقد رأيت فيه مشجرات اليعقوبيين على تشعبهم اليوم، وفي الكتاب أيضًا مؤلف في علم الزناتي مبتور وكان الأستاذ الأدوزي يتعالى إلى تعاطيه، غير أنه لم يتقن فنه، كما رأيت فيه (الأمنية في إدراك النية) للقرافي، و(المذهبة في الحلي والشيات) لابن مناصف والكناش الآن في يد سيدي عبد الله العويني.

الأربعاء 26:

زرت اليوم الأستاذ الكبير المتطلع الحاج أحمد الجراري أستاذ مدرسة تزنيت فحررت عنه لكتاب (المعسول) ترجمته وترجمة والده وأخ له واستفدت منه الخير الكثير: من ذلك عالم يسمى إبراهيم بن أحمد بن عبد الرحمن الشاهدي السملالي الكجكالي التازروالتي مسكنًا، أخذ عن بعض السوسيين ثم في الحمراء: عالم حسن نحوي مشارك لم يعقب، وربما اتجر، توفي 1340هـ وأخذ أيضًا من بونعمان عن مسعود وعن ابنه محمد، وهو ينسب نفسه إلى تومانار، ومن ذلك أيضًا العالم سيدي إبراهيم الألمتني الرسموكي، أخذ عن

الحسين الأزاريفي، مشارك يعين في التدريس بآزاريف عصر أستاذه، وربما زاول النوازل مع أبي فارس في قبيلته، وقد ضرب مرة برصاصة ظنًّا من الرامي أنه أبو فارس في غلس الصبح يتوضأ أو يصلي فحفظه الله، وكان سنة 1303هـ. مشارطًا في أيت برايم، فأخذ المقولات عن ابن المواز حين جاء مع الملك المولى الحسن، وله خط عجيب، قطن أزاريف في المدرسة إلى أن أسنّ، فسكن في بلده يزاول نوازل قبيلته إلى أن توفي نحو 1350هـ قال الحاكي: رأيت له مجموعة في «أخبار الهيبة» قدر كراسين وهو في أزاريف اهـ.

وقد كنت أجالس في كل عشية هذا الأستاذ فيفيض علينا بأخبار الحجاز، ودارت مذاكرات في المجلس منها التجاء المجرم إلى أضرحة المشايخ، كما ذكره التسولي، وأن ذلك لا يصونه، وقد سهرت معه عشية في هذه الليالي مع العلامة أحمد اعمو الناظر والأستاذ ابن عثمان الإيكراري أتلو عليهم رسالة الكرسيفي التي رد فيها على الفاسي، فأعجبوا بها إلى الغاية، وهي رسالة فذة والجراري دراكة مطلع غريب في مطالعاته في الكتب السلفية القديمة التي طبعت حديثًا، فيتفوق بها في المباحثة، وكان وهابيًّا جريئًا في إعلان الحق كما يراه، لا يحترم أحدًا، فوجدت له في تزنيت ما وجدته مما لا يكون حوله لو كان يعرف كيف يأكل الكتف، وهو من أودائنا من قديم، وترجمته الواسعة توجد في المعسول إن شاء الله[1].

الخميس 27:

كنت توصلت أمس بكتاب قديم من عند الأستاذ علي بن الطاهر الذي واعدته على المجيء إلى تزنيت، فحصل له عذر فكتب من رسالته إلي منها: هاك مع حامله ما تيسر مما أكدت عليه، مع كتاب فيه رسائل، وبعض فوائد لإبراهيم الظريفي، وفيه رسالة لابنه محمد بن إبراهيم الذي قلت فيه هيان بن بيان حين ذكرته في بعض كتبك، أرسلها إلى أبيه حين قراءته على شيخه الشرحبيلي بدرعة، فالحمد لله على اكتشافه، وكذلك عبد الله الأزاريفي صاحب

(1) توفي هذا نحو 1374هـ.

(المقامة) فهو ابن محمد ابن يحيى الأزاريفي وقد أنعم سيدي الحسن بعرض كل خزانته أمامك متى وردت عليه، وقد أخبرنا بأن منظوم (أخبار الزمان) للكرامي وهو منظوم (بدء الدنيا)، ينيف على 1900 بيت وسيرسل ما وجد منه في خزانته، وكل ما تيسر على ذلك المنوال عن قريب فالله يجزيك بأحسن جزائه حين نبهتنا بعد أن نمنا بل متنا، وقد وجدت في كتاب مؤلفًا في آداب النكاح، شرح بعضه مؤلفه وأكمله ابنه، وقال الابن في آخره بيت:

لخصه محمد بن الحسن وقاه مولاه جميع الفتن

قال في الشرح، أن اسم الناظم أحمد بن محمد بن الحسن الحامدي القبيل البكراوي الأصل الماسي الدار وبها نشأ وهو رحمه الله ذو علم وحلم وتبحر في علوم شتى، فقهًا وحديثًا وتفسيرًا ونحوًا ومنطقًا وطبًّا وعروضًا وغير ذلك، وصنف تصانيف عديدة، منها هذا وشرح الميراث للرسالة، عمل فيه جداول، وتذييل للخزرجية في العروض ذلل فيه صعبها، وشرح الوتريات البغدادية، وشرح لامية الزقاق، ولم يتمه وتآليف «كذا» على الميراث وتأليف في الطب ولم يكلمه، وقال لي بعضه أصحابه بدأ نظمًا في السيرة النبوية ونظم فيه 3000 بيت ولم يتم، ولكن ما رأيته في كتبنا، وغير ذلك، وله أشعار وقصائد وكان رحمه الله ممن سهل عليه النظم أخذ عن شيوخ أجلة، وممن وجد بركته ظاهرًا وباطنًا، شيخه السيد محمد ابن يحيى الشبي الحامدي، وكان قد دعا له وتكفل له بكل فن من العلوم، لقصة طويلة لا يسعها هنا، وله إجازات من علماء وقته كالشبي المذكور، والسيد أحمد الغربي السلاوي وأبي عبد الله جسوس الفاسي وغيرهم، إلى أن قال في آخر الشرح المذكور: قال ناسخه عبد الله بن محمد بن محمد بن الحسن الحامدي إلخ ما بأعلاه، هنا تمام ما رمنا من إكمال هذا الشرح، وقد تبعنا فيه ناظمه على قدر الاستطاعة اهـ الغرض منه، والغالب على الظن أن هذا السيد جد الإلياسيين الماسيين، فليبحث سيدي عن ذلك.

فنبه لها عمرًا ثم نم[1].

---

(1) شطر بيت لبشار، وأوله: إذا أيقظتك حروب العدا.

هذا ما أفادناه أيضًا الأستاذ ابن الطاهر، والمذكور ليس بجد الإلياسيين كما علمته من الفقيه أحمد بن محمد الإلياسي، وأما كتابه فقد بكرت في دار القائد مبارك التزنيتي وقد تناولنا اللهنة عنده أورقه ورقة ورقة، فوقعت فيه على كنوز لا تقوم، من رسائل علماء الحادي عشر وأوائل الثاني عشر، جمعها أحمد بن إبراهيم أحد الأدوزيين مع أمور أخرى كنت أطالعها بتلهف عظيم والأستاذ ابن عثمان الجالس إزائي يشاركني أحيانًا في ذلك فمن جملة ما في ذلك الكتاب:

أولًا: محرر في مشيخة أحمد العباسي في صفحة وبعض أخرى.

ثانيًا: أجوبة له في 15 صفحة لعلها توجد في فتاويه المشهورة المطبوعة.

ثالثًا: شرح (نتيجة الإلهام في دار السلام) وهو منظومة خالد الكرسيفي الشهيرة، والشرح لحسين التاغاتيني، وقد كنت رأيت الشرح الصغير له، فهذا هو الكبير، وقد ملأه بنقول، وسماه (وسيلة الأحلام إلى نيل الأفهام نتيجة الإلهام) ينقل عن كتاب (زهر الأكمام) وقانون ابن العلابي ويذكر أبا المعالي والغزالي وابن العربي والباجي والجزولي وابن عطية والزجاج وغيرهم من أمثال مجاهد والكلبي ومقاتل والحسن البصري، ويذكر الأحاديث والآثار، على أن الشرح مع ذلك بسيط، لا يدل على تضلع، وقد يوجز كثيرًا فلا يتجاوز حل الأبيات وهو في 138 صفحة في نحو 29 سطرًا، وفي ورقات بالوسط خرم مستدير، كتبه محمد بن علي بن أحمد بمنكب موسى لطف الله به في تاريخ 27 ـ 2 ـ 1159هـ كما قال، وقد وجدت في آخره ما يدل على أن هذه النسخة التامة، لا نسخة أخرى كان عليها خط أحمد بن سليمان الرسموكي الفرضي، وهذه النسخة الموصوفة مكتوبة لأحمد بن إبراهيم الأدوزي الذي جمع كل هذا المجموع.

رابعًا: شرح سينية ابن بادس لابن الحاج المشهور في 78 صفحة مصونة بلا خرم، كتبت 1149هـ بخط أحمد بن إبراهيم صاحب المجموع.

خامسًا: قصائد لإبراهيم الظريفي ستة وأخرى لأحمد بن محمد الاسغاركيسي وأخرى لأحمد الصوابي.

سادسًا: متن الألفية في السيرة للعراقي المطبوعة.

سابعًا: مجموعة الرسائل والفتاوي في نحو 95 صحيفة، فيها نحو 27 سطرًا، فيها نفائس من بينها مرثية عبد الله بن يعقوب اللتاغاتيني أحمد الشاعر وأخرى للقاضي التامانارتي فيه أيضًا ورسائل في تأبيناته بل كل ما في المجموع نفيس غير أن ست صفحات في الوسط اختلط فيها الحبر في أعاليها، حتى لا يقرأ وفي أخرياتها ما ألحق بالجموع الأصلي الذي كان جمعه ككتاب أحمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن يعقوب.

هذا هو الكتاب العظيم الذي أتحفني به من جديد الأستاذ علي بن الطاهر جزي عن إحياء الآثار خير جزاء، فأين لنا كثيرون من أمثاله.

وفي وسط النهار تغدينا في دار الفقيه سيدي أبي بكر معين القاضي، وقد كان حاضرًا الأستاذ العلامة الناظر والأستاذ ابن عثمان والفقيه المطلع الحاج أحمد الجراري، والأديب يوسف بن الطاهر، فدارت المذاكرة حول التوسل والاستغاثة، فتجاذب البحث حولهما زمنًا، الجراري وابن عثمان، وقد أقر الأخير بأنه لم يكن اطلع على الخلاف في الموضوع قبل بين المحدثين، غير أننا ختمنا المجلس بذكر ما يراه الألوسي من الجواز في التوسل، ومن أن الاستغاثة بغير الله هي الطامة الكبرى التي يقع فيها بعض الناس ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: 73-74] صدق الله العظيم.

ثم ختمنا أخيرًا البحث على جواز التوسل على خلاف فيه، وأما الاستغاثة فلا يمكن أن يتوقف مسلم في أن المستغيث كافر إن اعتقد المستغيث مدلول ما يقول، ورحم الله الوالد الذي كان يمنع أصحابه من ذلك منعًا باتًا، وله في ذلك حكايات معهم ثم تلوت عليهم بعض ترجمة الجد ابن العربي وأرجوزة إتائية من رحلته وهي ممتعة ثم جاء الأخ من سفره ذلك النهار فتبدى لنا قرب الرجوع.

الجمعة 28:

ظللت مشغولًا بالبني عبد الله لضرر بعينيه، بعدما أفطرنا عند الفقيه العدل

سيدي محمد السماهري وقد أفاض علينا خيرًا كثيرًا، وحررت ترجمته[1] ثم أدينا صلاة الجمعة في الجامع والخطيب هو الفقيه سيدي الحسن السنطيلي ولا يكاد يسمع مع قربنا إليه في الصف الثاني، ويذكر بكل خير، ثم تغدينا عند الفقيه الحسن العفياني[2] صاحبنا وصفينا ثم آويت الولد إلى الدار من أجل عينيه، وفي هذه العشية أظن لاقيت وزير الخليفة السلطاني وهو فقيه مراكشي يسمى محمد الجبابذي فقابلني بحس ملاطفة قائلًا: جزيت خيرًا عن الخير الذي تركته بمدينتنا، فقد بكى عليك يوم نفيك حتى المخدرات، فقلت ذلك فضل الله، وهو هادئ الطير منحاش إلى العزلة[3].

السبت 29:

تهيأنا ليلًا فقد راح علينا الأهل والأستاذ الناظر يتأسف على قرب الفراق وينشد:

لا مرحبًا بغد ولا أهلًا به　　　إن كان تفريق الأحبة في غد

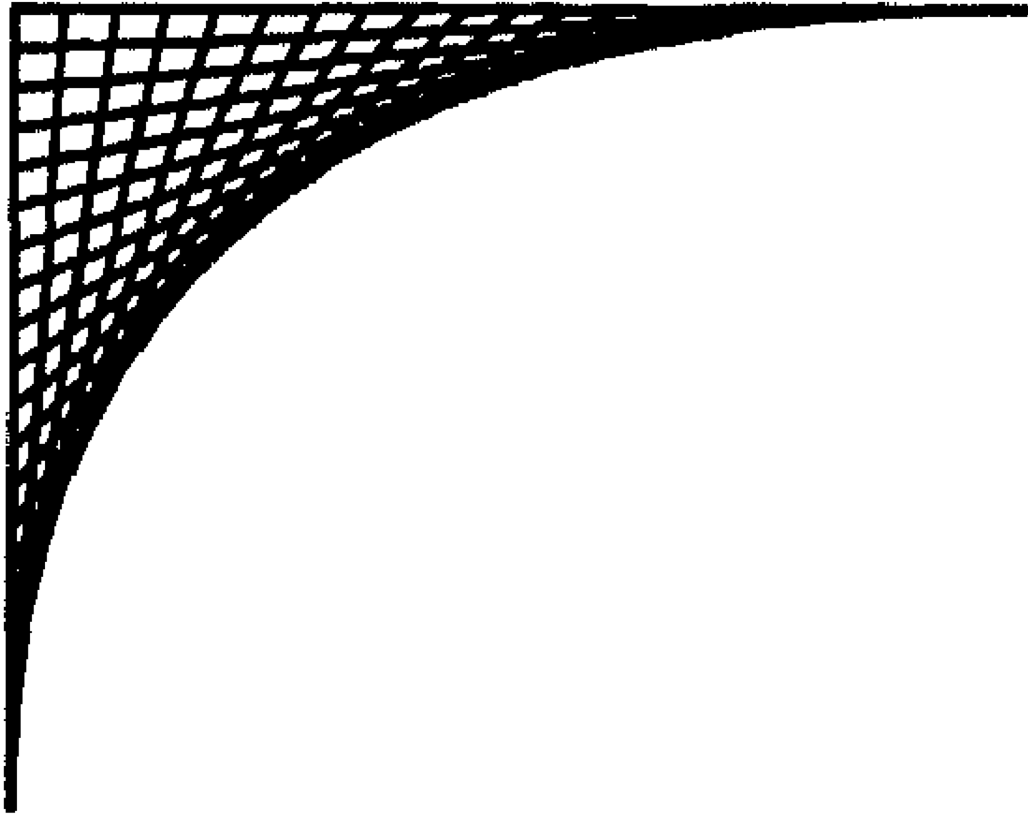
فأجبته:

سلا أحبته من لم يمت كمدًا　　　يوم الفراق وإن أجرى الدموع دما

فحين صلينا الصبح وتناولنا القهوة غسلنا بالمسير فطلعت علينا الشمس في جهة (تيغمي) ثم نتسلق أفود، فإذا بالسيارة تقف مرات من الحرارة الجوية التي بكرت في اليوم، فتركت الآلة حتى بردت، فأصلحت فطلعنا ثم لم نقف إلا في إلغ عند الضحاء العالي فنزلنا شاكرين الله على الوصول بسلامة.

كملت الرحلة صبيحة الأحد 15 ـ 5 ـ 1361هـ بعدما كنت أكتب فيها في بعض الأيام أوقاتًا ختم الله علينا بالإيمان والإسلام وجعلنا سعداء في الدنيا والآخرة.

(1) توفي هذا السيد بعد ذلك وشيكًا وترجمته في (المعسول).
(2) توفي نحو 1371هـ.
(3) توفي بعد ذلك بقليل.

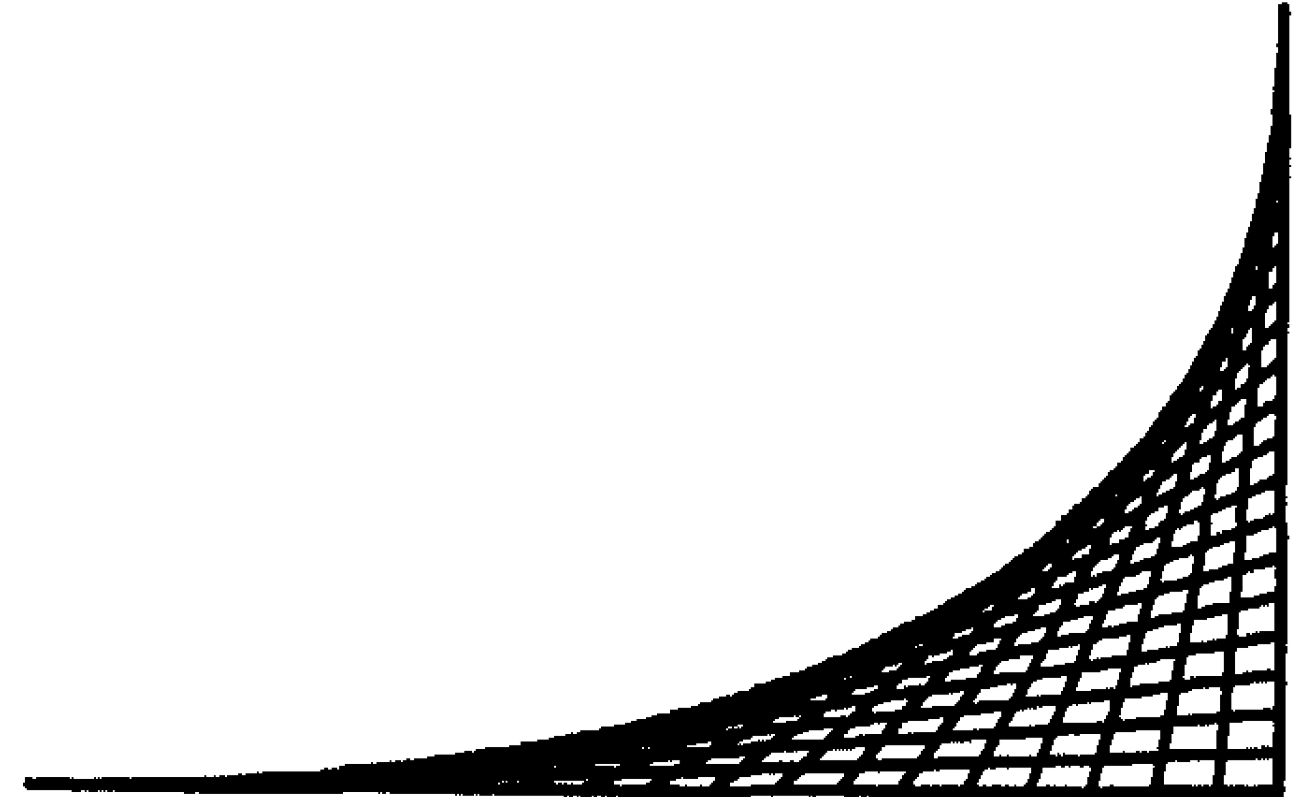


فهارس
الرحلة الأولى من خلال جزولة

الأول في الفهرس العام

الثاني في المترجمين في ثنايا الرحلة

الثالث في عناوين الأيام التي أسست عليها الرحلة



الفهرس الأول
في تتبع عناوين ما في الرحلة، ورؤوس كل ما يذكر فيها في عرض الأحاديث

الفهرس الثاني
في المترجمين في ثنايا الكتاب

الفهرس الثالث
في عناوين الأيام التي أسست عليها الرحلة

مجموعة أعمال العلامة الأديب محمد المختار السوسي

خلال جزولة

للفقير إلى الله تعالى
العلامة الشيخ محمد المختار السوسي

الجزء الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرحلة الثانية من كتاب «خلال جزولة»

الذي أودعه مشاهداتي من الآثار ونوادر الكتب، ومؤلفات السوسيين مطلقًا وأسماء الرجال، في جولاتي التي أخوض فيها قبائل سوس كلما وجدت لذلك فسحة، وقد حرصت على أن أودعها كل ما يلفت نظر مثلي من المولعين بمعرفة الكتب، وبتراجم الرجال النابهين علماء كانوا أو رؤساء، مما أجد اسمه حديثًا، ومما أقع عليه من الآثار الأدبية من نثر ونظم، ما دام ذلك مقبولًا، وإن لم يدرك الشأو العالي من البلاغة، وبوصف المجالس الأدبية التي أراها، فأسوق ما يروق لي من الفوائد والإنشاءات والإنشادات ولا قصد عندي إلا أن أنشر حسب ما في طاقتي من تاريخ هذه الجهة التي اصطلحت بأن أطلق عليها «جزولة» ما أؤدي به لعشاق التاريخ المغربي العام والخاص ما يقر به الطرف، ويبتهج بمعرفته الفؤاد.

وكل من لم يكن له هذا الولوع المؤسس على كل ما اعتنى بذكره فالأولى له أن لا يشغل نفسه بمراجعة هذا الكتاب، لأنه يراه تافهًا ساذجًا من فضول الأعمال، لأنه لا يكتب كتابة عصرية، ولا يذكر هذا العصر الحديث الذي يرفل في الحضارة الحديثة، ويرفع هامته بالفكر الجديد الشامخ بأنفه إلى السماء.

محمد المختار

السوسي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

(من إلغ إلى ماسة)

الحمد لله الذي بذكره تتحلى الطروس، وبمعرفته تبتهج النفوس، والصلاة والسلام على سيد العالم قاطبة. من أتى من الشريعة النيرة الخالدة بما يجلو دين العالم غياهبه، وعلى آله وأصحابه نجوم الاهتداء، وأئمة الاقتداء.

أما بعد، فقد حبب إلي الجولان في البلاد، ومخالطة كل الطبقات في كل نادٍ، ومجاذبة الحديث العلمي بين كل جماعات من حاضر وباد. لعلي أستفيد ما لم يكن به علم قبل، فأقنع بالطل إن لم أصادف الوبل. فما يقل عند الصديان ما صداه به ينتقع، وكل الحذاء يحتذي الحافي الوقع[1] فأكبر اللذات عندي، المجاذبة حول تحرير مسائل المنقول أو المعقول، وهل بقي من اللذات إلا محادثة الرجال ذوي العقول[2].

ثم لما كانت في هذه الزاوية المغربية بقايا لا تزال بكرًا لما تفترع بعد، وهي مكنونات مصونات كدرر غوال يصونها السعد، عزمت على أن أجتني بالتجوال بين مدارسها وخزائنها، ورجالات عملها، ما أحييه بقلمي لهذا العصر العجيب، وأجلوه على منصة المطالعة لكل قارئ نهم طلعة طالما يهيب بمثلي بلسان الحال فيقبح أن لا يجيب، فإن من مزايا هذه الناحية، أنها لا تزال تعيش كما يعيش أهل القرون الوسطى[3] في الأفكار، والإمعان في الإخلاص لما

(1) مثل معروف، والحذاء: النعل والوقع: الذي أثرت الأحجار في أرجله بالسير حافيًا.

(2) وما بقيت من اللذات إلا ـــــ محادثة الرجال ذوي العقول

(3) كان هذا الحكم على سوس سنة 1361هـ وأما اليوم 1377هـ فقد تبدلت حالة سوس.

يجدونه بين أيدي آبائهم من علم وعقلية، ومتوجهات صارت بها سوس اليوم أعجب العجاب بين الأقطار، فكانت بذلك منتقى صافيًا لمن يريد أن يتملى بما كان الأسلاف من أهل تلك القرون يتخذونه المثل العليا، ويرونه من أفضل النظرات التي يستحق بها عندهم أن ينظر بها إلى الدنيا، وأتمنى لو يفسح لي المجال لأترسم أيضًا الأفكار الاجتماعية ممن ألقاهم، كما أترسم أفكارهم العلمية، لكنني الآن قصرت عملي حول العلم ورجاله فقط، جمعًا للجهود في جهة واحدة فأتخطى ما يستحق كل الاستحقاق عدم إغفاله من أفكار غريبة عن هذا العصر الذي يصدق فيه قول أبي تمام:

على أنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

وأحمد الله حمدًا كثيرًا حين هيأ ما أعرف به هؤلاء الرجال الذين يرفعون اليوم ألوية العرفان من جزولة، وكيف اتصل بهم فأمازحهم، وأعرف لهم مكانتهم وأقدر لهم قدرهم، وأدرك قيمة ما لا يزال في أيديهم من تراث السلف الذين لا يزالون عاضين عليه محافظين كل المحافظة على كنزه، فتراه في أيديهم مصونًا كما كان رونقه في تلك العصور الماضية، فلم تمازجه أفكار اليوم ولا عقليته، ولا دهمت عليه بعد من الغرب مدنيته، بل لا يزالون يجهلون تطور العصر الحديث، فلولا أن الطيارة يرونها بأعينهم فوق رؤوسهم تطير محلقة، ولولا أن الهاتف يشاهدونه في مراكز الحكومة بين ظهرانيهم يصل ما بين متكلم وصاحبه، ولولا أن السيارة تمر بهم في الطرق المرصوفة يمنة ويسرة كل يوم، لما قدر مخبر أن يقنع بعض المتعاقلين من بعض فقهائهم ـ فضلًا عن غيرهم ـ بأنها في الوجود. ولاستبعدوا أن مثل هذه المحالات تدخل في حيز الموجود، ثم لا يكون ذلك لهم وصمة عيب عند أخلافهم الذين سيدركون كل هذه عن قريب[1] إلا إذا وصم بالعيب أسلاف أبناء السين[2] الذين يشهد أخلافهم بأن هارون الرشيد أهدى فيما أهدى ـ من أعاجيب مدينة العرب ـ ساعة مدققة تتحرك من عند نفسها فحين وضعها

---

(1) أن أهل سوس الآن بعد الاستقلال، غيرهم إذ ذاك.

(2) السين: واد شق باريز.

الرسل بين يدي (شارلمان)[1] ورأى هو وجلاسه كونها تتحرك من عند نفسها أجفلوا عن المجلس خائفين يترقبون، وهم: «إن هذا إلا عمل شيطاني».

لهذا يجب على كل من يريد أن يعاشر قومًا أمثال هؤلاء، يعرف منهم حسن النية وإخلاصًا في العمل، وتشبثًا بالدين كما وجدوه، ويريد أن ينال منهم ما لا يناله إلا منهم ـ أن لا يحدثهم إلا بما يفهمون، وقديمًا قال علي بن أبي طالب: «حدثوا الناس بما يفهمون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله»؟

كأين من خريج في الحواضر اليوم من السوسيين. صدر بفكرة مشبعة بصور هذا العصر، وبمرآة لا يتمثل فيها إلا رسوم المدنية ورونقها الخلاب، وميسمها البراق، وقد أعجب بما يراه من أبنائها من أفكار تنطح السمٰوات، وتحاول أن تخترق السبع الطباق، وتدعي أنها أدركت كل ما وراء السجوف، وأنها هي التي وقعت على لب العقل ونموذج الحياة العليا، فيعود وقد حمل لآله في جزولة تنكرًا غريبًا، وإعراضًا عجيبًا حتى لا يعرف إلا أن ينكر كل ما يعرفونه، ويدفع في صدر كل ما يتقبلونه بكلتا اليدين، فلم يزل يجاذب هذا مجاذبة عنيفة، ويقابل ذاك بما لا يقبله عقله، ويحتج على آخر بما لم يطالعه قط في كتاب من الكتب التي يعرفها، ولا سمعه من أستاذ من الأساتذة الذين يراهم منتهى المعارف، وعنوان العقل، وسماء الفهم، وبحر العلم، ثم لا يزال في مصادمات حتى يبقى فريدًا منبوذًا بين أهله في العراء، وقد حرم أهله النفع المنتظر من أمثاله. لو كان يعرف أن يتأنى في أموره.

حنانيك يا ابن اليوم حنانيك، فإن لهؤلاء الذين لا يزالون يصونون هذه القبصة[2] من معارف جزولة، وهذا الخلق العلمي الوقور، وهذه الحرارة الدينية التي نراهم بسببها يحاولون أن يلبسوها كل فكر، ويزنوا بها كل عادة مزية عظيمة لا يقدرها قدرها إلا من كان مازج قبل بعض أبناء هذا العصر الذي فاض فيه الإلحاد فيضًا، فعرف منهم بعجمه كل الأعواد، وبمثافنة ما بينهم في

(1) من ملوك فرنسا، ويعاصر هارون الرشيد، وسلفه هو الذي رد موجة العرب عام 114هـ في جنوب فرنسا كما هو مشهور.

(2) القبصة بالصاد: ما تأخذه برؤوس أصابعك.

كل ناد، ميعًا في الاخلاق، واعوجاجًا ظاهرًا في الآراء والأذواق، ورقة بارزة غريبة في الدين وما إليه، إلا بعض أقوال اصطلحوا على تداولها، جعلوها دثارًا، دون ما اتخذوه تحتها شعارًا، فلئن كان في الجزوليين اليوم بعض ما يؤاخذهم به الحق الصراح، فما هم إلا من بقية القرون التي قلّ فيها تعاطي تفسير القرآن والحديث وما إليهما، فلا يمكن أن يزول كل ذلك لو ـ أمكن أن يزول ـ إلا بمراجعة دراسة ما يثور به الشعور والتفكير الصادق.

على أن هذا مما لا بد أن يكون دائمًا بين الطبقات، وهيهات أن يزول كله أو آثاره هيهات، وما نحن الآن بصدد هذا وإنما نحن بصدد تبيين فضيلة هذا الجيل الوقور الدين الذي لا يزال يعيش حوالينا، فلا ينبغي لابن اليوم أن ينكر مقامه، ولا أن يزدري من كل ناحية ذوقه، ويرمي ظهريًا جميع نظراته، فإنه نعم الجيل إخلاصًا لدينه، وغيرة على قوميته، ودفعًا ـ وبكل ما في جهوده ـ لكل ما لا يقبله عقله، فقد خالطته فرأيت صدورًا رحبة، ونفوسًا طيبة. وقلوبًا صافية، ودينًا متينًا، وترفعًا عن السفاسف التي يقع في كثير منها أبناء هذا العصر الممعن بعض أبنائه في الإلحاد هنا وهناك، والدين الخرافي خير من لا دين، كما ينسب للأستاذ الإمام في القطر المصري في منامه، ونحمد الله على قلة هذا الإلحاد الآن في قطرنا هذا.

هذا فإنني كنت قدمت رحلة قبل هذه في أوائل هذه السنة، وهذه رحلة ثانية أحررها أيضًا على غرار تلك، متتبعًا فيها ما سلكته من تاسع شوال إلى مفتتح ذي القعدة، ذاكرًا كل ما أراه مفيدًا للقارئ من وصف كتاب، وتقييد مذاكرة، وتعريف بشخص ظفرت به من علماء هذه الجهة، وتسطير أبيات فزت بها، حرصًا على أن تبقى في صوان كتاب.

والله أسأل المعونة والتوفيق، والهداية إلى سواء السبيل.

صبيحة الأحد 2 ذي الحجة 1361هـ

م. خ. س.

تاغلولو:

خرجنا على البغال إثر صلاة الصبح، بعدما أفطرنا قبل طلوع الفجر، وهيأنا كل المتاع. فلم ينبثق الفجر حتى كنا على أوفاز، فقلت في نفسي هاأنذا رجعت إلى البداوة الحلوة بكل حلاوتها ومتعتها، فيا طالما كنا نتوسد الأرائك في دواخل السيارات في أمثال هذه الساعات، ملتفين في الأردية، متكئين يمنة أو يسرة. وقد حالت ألواح الزجاج في جانبي السيارة بيننا وبين الاستمتاع بنسمات الصباح الأرجة، أستغفر الله ـ بل يمنعنا من ذلك الاستمتاع جريان السيارة الذي يأتينا اصطدام شديد بالريح الذي يؤول إليه ذلك النسيم، فأين ذلك منا نحن الآن، وقد مشينا الهوينى، والركائب ترفل بنا في بسيط ألغ والهواء ساكن ، واليوم طلق[1] فلا حرارة ولا برودة، وأول ما تذكرت، وقد وخدت بنا البغال، ونحن نتجاذب الأحاديث بيننا، قول الشاعر حين صدر من موقفه في الحج:

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المطايا رحالنا ... ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح

سرنا مغربين حتى وصلنا ثنية (تيزكي نحمو عيس) فوقفت وقفة قليلة ألقيت فيها نظرة عجلى على مسقط الرأس الذي نغتبط به متى كنا فيه، وتتطلع إليه الأفئدة إن كنا عنه مبتعدين، فأجيل بصري في ذلك البسيط الأجرد، فأقول سبحان من حبب لكل إنسان منبته، وإن لم يكن ذا مياه جارية، ولا ذا جنان وريفة الأغصان، فتذكرت ما قال الشاعر:

بلاد ألفناها على كل حالة ... وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن
كما تؤلف الدار التي لم يطب بها ... هواء ولا ماء ولكنها وطن

اليوم يوم الاثنين، تاسع شوال، وقد كنا نقصد قرية (بيعلاش)، ثم بدا لنا

---

(1) اليوم طلق: لا حرارة فيه ولا برودة أي معتدل.

فصمدنا صوب وادي الاكماريين، عازمين على أن لا ننزل دون مقصودنا خوف أن ينال منا التعب، فلا نقدر على معاودة الركوب، لحدثان عهدي بالبغال الموكفة (وصعب على الإنسان ما لم يعود) ثم لم أنشب أن رأيت قبل أن نصل سقي (تنزار) قرى، إذ بنا تيامنا فوصلنا قرى (تاغلولو) فسألت إنسانًا مرّ بنا عن الفقيه سيدي بريك بن عمر، فأخبرني أنه اليوم في مدرسة سيدي محمد بن يدير فقلت في نفسي حسنًا، فقد حمدنا تيامننا عن الطريق، وأنشدت:

ولـــربـــمـــا ســـقـــط الـــحـــمـــار فـــكـــان مـــن غـــرض الـــمـــكـــاري

ثم ولجنا على الفقيه بالمدرسة بغتة، فوجدناه يتهيأ لملاقاتنا في الطريق فكفيناه مؤونة ذلك، وبعد لأي خرجت معه فزرنا ضريح الشيخ ابن يدير، وهو مدفون في محل منخفض عن سطح الأرض بنحو ثلاثة أذرع، وقد اكتنفه قبران أحدهما يقال لزوجه، أو لابنه علي، والآخر للرئيس صاحب الشيخ داوود بن محمد الفالي جد هذا الفقيه الذي معي، وقد كان رئيس إخوانه بمجاط، ثم زوى الشيخ ابن يدير وجهته إلى الاشتغال بما يعنيه، فكان له مع الشيخ صحبة دائمة، وفي يوم ذكر له الشيخ أنهما سيسافران معًا، فذهب داوود فهيأ الزاد في داره، فأتى محل الشيخ إذا بالشيخ يوضع قبره، فلم يملك نفسه حزنًا على شيخه أن تردى بمحل معلوم هناك عن البغلة، فهلك فدفن، وإزاء مدفن الشيخ بناية مقبوة، مفروشة بالحصر، ينزل فيها الزوار، وحول المسجد قبور كثيرة قديمة ومحدثة وكل التاغلولوئيين من أبناء الشيخ، إنما يدفنون في هذه المقبرة، والمدرسة صغيرة، ومصلاها قديم، وقد صلينا هناك الظهر، فرأيت المسجد والمحراب متيامنين عن سمت القبلة إلى الجنوب، ولعل هذا مما يدل على أن المسجد قديم جدًا، له زهاء ألف سنة، لأن المغاربة قبل اللمتونيين كانوا يصلون إلى الجنوب، كما هو معلوم في التاريخ، وأعني بالمسجد ما أسس عليه أولًا، لا هذا البناء الذي يقوم فيه الآن، فإنه غير قديم، وبين المدرسة وشفا الجرف الذي يطل على الوادي حقول فيها سعة، كلها لأبناء الشيخ إلا قليلًا، وذكر الفقيه أن الشيخ هو الذي اشترى أولًا ما هناك، ثم توالى على الشراء أولاده، وقد مشينا قليلًا إلى شفا الجرف أنا والفقيه فانحدرنا من أعلى الجرف في ترهة إلى غار متسع مسامت لبسيط (تازاروالت) الفيحاء فيهب علينا

نسيم عليل وقد عاد بعض الحرارة إلى الجو، فحكى لي أن غارًا آخر أوسع من هذا بكثير في جهة أخرى من الجرف القائم كحائط عظيم مشمخر البناء قال كنت دخلت إليه في شبيبتي، فحسبت فيه ستة عشر بيتًا من جانب، يناوحها مثل ذلك من الجانب الآخر، وكلها منحوتة من الحجر، وبينها مثل الحائط الرقيق يفرق بين كل بيتين، قال وقد كنت رأيت فيها إذ ذاك ما يدل على أن ذلك كله من آثار البحر من قديم الدهر، فقلت إن علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) يقولون إن الأرض تتراكم بتكرار الأزمنة، كما أن علماء تقويم البلدان (الجغرافية) يقولون إن البحر ينتقل بتؤدة من جانب إلى جانب، فيسيح إلى جهة برفق شيئًا فشيئًا، كما أنه ينطوي عن جهة أخرى كذلك، وكأني بهذا الوادي منذ آلاف مؤلفة من السنين، كان مثل بعض هذه الشعاب التي نشاهدها الآن بكثرة إزاء البحر، وإنما هذا العمل من البحر قلما تعرفه الأجيال المتقاربة، لأن ذلك لا يتم إلا بآلاف من الأعوام، وكأني ببعض من سقط إليه ما يقال من أن عمر الدنيا من أولها إلى اليوم معدود بآلاف من السنين فقط ـ كما يحكى عن الإسرائيليين، ثم دخل في كتب المسلمين غلطًا ـ ينكر هذا، فنقول له أن المحدثين صرحوا بأن النبي ﷺ لم يتكلم في تحديد عمر الدنيا قط، ولا بينه قط بحديث ثابت، كما نبه عليه المحدثون، بل هذا ابن العربي الحاتمي صرح بهذا أيضًا في فتوحاته، وهذا العلم اليوم (الجيولوجيا) يؤيد ما ذهب إليه الحاتمي وما هذه الخرافة إلا أخت من يظنون أن الأرض على قرن الثور، وهي أيضًا إسرائيلية محضة دخلت على بعض المسلمين، مع أنه لا أصل لها في الإسلام، كما نبه عليه المحدثون من قديم أيضًا، ثم جاء الواقع وأيد ذلك بالحس، وهل بعد الحس والعيان من بيان؟

صادفت هناك بين كتب الفقيه مجلدة من مجلدات أساتذة القرآن، فصادفت فيها مؤلفات للسوسيين وما تحتوي عليه:

1) السراج في الحذف في رسم القرآن لأحمد الجاكاني الملقب طير الجنة وهو أحمد المصطفى بن طوير الجنة التشيتي، كان سافر إلى الحج عام 1245هـ وقد كان ذكره شيخنا العباس المراكشي في تاريخه.

2) منظوم رواة أبي رويم المدني لمن سماه عبد الكريم بن ياسين، وهذا أيضًا مجهول عندنا، ولعله سوسي.

3) تحفة الطلاب في قراءة ابن كثير، وهو رجز لمحمد بن يوسف التملي، وهو الناشئ في الحمراء المشهور بالمهارة في القراءات وغيرها، توفي عام 1048هـ ولعله ولد بسوس، وهو الذي ذكر في (نفح الطيب) وساق المقري ما كتب به إليه بعد ذهاب المقري إلى مصر، وهو صاحب الأرجوزة التي تضمنت أشطارًا من ألفية ابن مالك، كما له منظوم في السيرة، وهذه النسخة من تحفة الطلاب، كتبت في جمادى الأولى عام 1075هـ، بيد محمد بن يحيى بن محمد بن موسى البعقيلي.

4) مشكلات القرآن لسعيد بن سليمان الكرامي الشهير المتوفى عام 882هـ.

5) وسيلة النشأة لفهم الملخصة، لداوود بن محمد التملي على رجز شيخه عبد الواحد بن الحسين بن إسماعيل الميموني الركراكي الوادنوني الشهير المتوفى بعد 830هـ وأما داوود بن محمد فالمقصود به التونلي الشهير المتوفى نحو 899هـ وهو ممن أخذ حينئذٍ أيضًا عن الوادنوني هذا ـ كما رأيت ـ كما أخذ أيضًا عن الشوشاوي والونشريسي.

هذا ما كنت قيدته بسرعة من المجموع، ولم يتسع الوقت لأصف هذه المؤلفات السوسية وصفا يلقي عليها ضوءًا للباحث، وقد عزمت منذ الآن أن أفعل ذلك بكل كتاب سوسي أصادفه أمامي، كما سألزم ذلك إن شاء الله في الكتب النادرة التي أقع عليها في الخزانات الآتية، والله الموفق.

أما الشيخ سيدي محمد بن يدير فهو من رجالات هذه الناحية في أواخر القرن العاشر وأوائل الحادي عشر، وذكر لي أن له باعًا في العلم على ما عند أولاده، وإن لم نر عند الذين ذكروه إثارة على ذلك.

صحب الشيخ سيدي أحمد بن موسى التازاروالتي، ويقال إنه هو الذي أمره بسكنى (تاغلولو) وأصله من قرية (تانامرت) برسموكة، كما حدثت به وهناك بلا ريب إخوانه بالنسب، وكان من عادته الجري في إطفاء النائرات بين الناس، والإصلاح ما بين المتشاغبين، والناس يقصدونه لذلك، وبذلك وسم،

وقد وضع الله عليه القبول، فلا يتخطى من سعى بينهم بالصلح أمره إلا وقفوا في العاقبة على مرارة فظيعة، ويؤثر عنه كل ما يؤثر عن صوفية ذلك العصر المتموج بالصوفية، وهو الذي وقف حتى صفى تركة الشيخ ابن موسى بين أولاده، ولعل ذلك يدل على أنه عالم، لأنه لا يتصدر لمثل ذلك عادة إلا من له باع في العلم، ومقدرة على تصفية الفرائض.

وأما نسبه، فقد ذكرت لي سلسلة نسبه في مشجر لم أتصل به إلى الآن، إلا أنني وقفت على مشجر عام له ولكل من شاركوه في عمود نسبه ممن انبثوا في نواحي سوس، وهاك ملخص ما وقفت عليه، وسنأتي بملخص الجميع للفائدة.

عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن عبد الله ـ مكرر ـ بن أحمد بن عبد الله بن علي ابن مسعود بن الحسن بن عبد الله بن عبد الرحمٰن، بن محمد بن محمد ابن عمرو الاسريري الشهير من أهل القرن السادس، وهو من رجال التشوف وهو محمد بن عمرو بن زيد بن الحسن بن علي بن محمد بن أبي القاسم بن عبد الله بن محمد بن إدريس بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

ولمسعود بن الحسن المذكور من الأولاد: أحمد والشيخ جعفر ومحمد دفين تامسنا وعلي، ثم كان لعلي بن مسعود: منصور ومحمد وأحمد والحسن وعبد الله، كما كان لعبد الرحمٰن بن محمد بن محمد بن عمرو: ولد آخر اسمه أيوب، هو جد آل (ووكدمت)، وهكذا نسبهم:

الحسن بن محمد بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود بن محمد بن يوسف بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن عبد الكريم بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن أيوب بن عبد الرحمٰن الخ..

ومن إخوانهم أولاد بوحدو بماسة[1] وأولاد محمد بن علي، وآل سيدي محمد بن يدير، مع آل (تامرووت) في أسفل شعبة رسموكة، هؤلاء الثلاثة أخوة بالدم والنسب، وقد نقل ذلك كله وحرره بلقاسم بن محمد بن عمرو المفتي البعقيلي في جمادى الثانية عام 1083هـ وكتبه عبد الكريم بن مبارك بن عبد الله

(1) وينتسب آل (اغبالو) بماسة هذه النسبة، ولعلهم من أولاد بوحدو.

ابن عبد الكريم الأونايني أصلًا، كما كان هناك نقل لطرف من ذلك أيضًا من كتابة بلقاسم المذكور 1134هـ ثم أعلم به أحمد بن عبد الله السكتاني، ثم عبد الكريم المذكور ثم عبد الله بن أحمد الوكدمتي الشهير من سكتانة[1] ثم سكن مراكش، ثم عبد الله بن محمد السكتاني، ثم أبو زيد بن إبراهيم ثم محمد بن أحمد ثم محمد بن أحمد التينزيتي، ثم عبد الله بن محمد الرجالي، ثم الطاهر بن عبد الله التيدسي، ثم علي بن الحسن بن أحمد الاسماني، ثم محمد بن أحمد التفنوتي، هؤلاء كل واحد منهم يقول: اعلم بما في أعلاه.

هذا ملخص ما هناك، وهو في صفحة كبيرة، ولا بأس بكل هذه الفوائد التي عرفنا من بينها أن محمد بن عمر الاسريري شريف من أولاد محمد بن عبد الله الثائر على أبي جعفر المنصور، ويلقب عندهم بالنفس الزكية، كما عرفنا كيف تشعب أولاده في سوس، وأن الشيخ ابن يدير ـ كما هنا ـ شريف. وقد علمت من أحد أولاده، أن للشيخ من الأولاد المعروفين بالعقب أربعة: عليًا وهو الكبير المذكور بعد الشيخ والبارز في مركزه أثره، وقد دفن مع الشيخ في ذلك المكان الذي دفن فيه، والأولاد الآخرون إبراهيم وسعيد والحسن ومن أولاد علي الأول: أبو بكر بن علي بن محمد بن يدير، ويظهر أنه معمر فقد وجدنا أحد من قيد عنه شيء عن أهله هؤلاء 1081هـ والناقل عنه في ذلك التاريخ ابن أخيه أحمد بن المحفوظ بن الحسن بن محمد بن يدير، وأحمد هذا ذكر أنه عالم ويسمى الطالب أحمد على عادتهم إذ ذاك في تسمية عالم من العلماء بالطالب، ولأبيه المحفوظ أيضًا ذكر هناك، ولعله أيضًا عالم، ثم لا وجود للعلم البتة ـ فيما علمناه ـ في هذه الأسرة ما عدا ما يظن من عند هؤلاء وآل الشيخ اليوم الموجودين في (تاغلولو) في قرية كاور، وفي إد يحيى نحو 200 دار، وهناك في (فلغاس) من متوكة من أبناء الشيخ أيضًا، وهم أبناء سعيد ابن نصر من آل الطالب إبراهيم بن محمد وابن عمه عبد الله بن يحيى ومسعود ابن بلعيد وهذا هو الذي قيده في المشجر المذكور أبو بكر بن علي بن محمد ابن يدير والأربعة من أولاد الشيخ لهم جميعًا اليوم عقب وأكثرهم نسلًا علي،

(1) ووكدمت في وادي نفيس، وما بعدها من سكتانة.

وقد ضاعت اليوم سلسلة مشجرات آل الشيخ ورسومهم القديمة، ويقال إن ذلك صار إلى الورحمانيين المجاطيين لأنهم استولوا على أملاك (ادكارور) من أبناء الشيخ نزلوا عندهم. وكان ذلك المحل عزبة للشيخ في حياته، وقد توفي الشيخ سيدي محمد بن يدير يوم الأربعاء ـ 29 شوال عام 1012هـ.

(ثم بعد كتبي هذا وقفت عند أولاد سيدي محمد بن عمرو الاسريري على ما يخالف هذا النسب. وبذلك نعلم أن كل ما ذكر لم يكن محررًا، وإنما يستأنس به، أو محمد بن عمرو المذكور هناك غير محمد بن عمرو المشهور وفي (المعسول) في تراجم آل محمد بن عمرو الاسريري في (الفصل الثاني) من (القسم الرابع) ما نقلناه عن أهله).

إداكّاكّمار:

خرجنا بعد صلاة الظهر، فمشينا متوجهين على شفا ذلك الجرف الهائل على أقدامنا، فتركنا عن يسارنا جرفًا آخر عاليًا غاية العلو، وكأنه جدار هيكل يناطح السحاب وتحته مستوى قليل تناثرت الصخور حواليه، فقال الفقيه، كان الشيخ سيدي إبراهيم بن صالح التازروالتي ربما أتى إلى هذا المحل بين الظهرين في الرمضانات يسرد فيه للناس البخاري، أن أرى المسجد والمدرسة يضيقان عن الناس الذين ينثالون إليه من كل صوب لسماع الكلام النبوي فقلت في نفسي: رحم الله تلك الهمم، فبأمثالها قام الدين، وبانطواء أمثالها انطوى الدين، ولله الأمر من قبل ومن بعد، فتركنا سقي تاغلولو الذي يسقى بعين كبيرة تفرق ساعات تقدر من النهار فيقال ثلث النهار ونصفه، ومثل ذلك في الليل وقد صادفنا إنسانًا عند دخولنا إلى الفقيه يسأله، هل مضى ثلث النهار فقال لنا هذه عادتهم مع الفقهاء في المدرسة، يرضون بهم دائمًا في الحكم في مثل هذا، ثم أقبلنا على سقي (تينزار) ولعله أوسع مما قبله وقد حكى لنا الفقيه عن حروب كثيرة وقعت حول هذا المكان حوالي أواخر القرن الثاني عشر ـ كما يظهر من كلامه ـ قائلًا إن هذا المكان للحربيليين حتى نزعه منهم المجاطيون وبعد زمن فتك البعقيليون بالمجاطيين الذين كانوا يسكنون في أطلال ديار يمر بها من يهوى إلى النزول من (تينزار) أثر مروره بمجرى العين وآثار الديار لا

تزال واضحة فكأنها لا يبعد خرابها بأكثر من قرن قال فدامت الحرب زهاء سبع سنوات ثم لم ترجع هذه الأرض المسقية إلى أربابها حتى تصالحوا مع البعقيليين إلى تفاصيل أخرى قالها وقد وجدنا الماء يسيل كثيرًا من العين منذ سنتين بعدما كادت الأشجار تيبس وهذه العين مشتركة بين آل تينزار المجاطيين وبين آل (اسكيوار) فالنهار لأولئك والليل لهؤلاء ولا طاسة[1] لهم في قسم الماء كما نراها عند غيرهم لكثرة الماء ولقلة التنازع حوله وقد شاهدنا الشلال الذي يتدفق من أعلى الجرف مبيضًا كأنما ثوب منشور أبيض طويل ممتد من أعلاه إلى أواسطه وبيوت الأرحاء حفافيه في ذلك المنحدر الذي لا يسلكه إلا أهله المتمرنون عليه فتراهم صاعدين منحدرين ليلًا ونهارًا وعلى رؤوسهم قفف الطحن الذي يطحنونه دائمًا بالأجرة.

هذا وخرير الماء يملأ صداه الأذنين فوقفت في وسط جبل (تينزار) وأنا أصوب بصري وأحدره في ذلك المكان فإذا بالفقيه يريني شجرة في أفق الجرف فقال أرأيت صبيرا[2] نابتًا تحتها، فإن على ذلك الصبير سقوط فلان ـ وسماه وقد عرفته ـ منذ ثلاث سنوات وذلك أن حارسًا من المجاطيين يحرس الخضر في حقله ليلة، فإذا بأحد الأكماريين يسرق من الحقول، فقفز عليه ليأخذه فإذا بالآخر ناهضه، وكانا قريبين إلى حافة الجرف، فتجاذبا فإذا بهما أفلتا معًا في الجرف، فتناثرت أشلاؤهما بين صخوره، فعمد بعض ذوي قربى الأكماري إلى بعض أشجار على شفا الجرف، فنشرها بالمنشار إلى أن لم يبق لسقوطها إلا قليل، فتركها ناويًا أن يستند إلى بعضها بعض المجاطيين، فيسقط في الجرف فيثأر لأخيه، فساقت الأقدار ذلك الرجل المسمى فاستند إلى شجرة من تلك الأشجار، وكانت تلك عادة الناس هناك، فمالت به الشجرة فتردى من الجرف إلا أن الله رحمه، فلم يبعد كثيرًا، فسقط على ذلك الصبير فبقي هناك مغمى

(1) كانت الساعة الرومانية طاسة مثقوبة من أسفل يدخل منها الماء شيئًا فشيئًا، وقد قسمت جوانب الطاسة بعلامات الأرباع والأنصاف والأثلاث والأخماس والأسداس، فيعرف بذلك مقدار الوقت وهذا هو الذي شاع في كثير من نواحي سوس لتفرقة المياه فيجعلون مثلًا ستين طاسة بين الليل والنهار فتباع كذلك وتشترى.

(2) الصبير: نبات يشبه (اكناري) وأما اكناري فاسمه التين الشوكي.

عليه لا يشعر، فأطل إنسان عرضًا، فرآه على حافة طرف من الصبير، سرعان ما ينقطع به أن تحرك أدنى تحرك، ولم يكن مستويًا في وسطه، فنادى من أعانوه، فسلكوا ترهة حتى قاربوا الصبير، فأهووا بشبكة، فيسر الله أن استوى الرجل فيها، وهو لا يزال في إغمائه، فرفعها من كانوا فوق الجرف بالحبال رويدًا رويدًا، حتى اطلعوه سالمًا، فبقي ملقى على الفراش ما شاء الله إلى ان برئ، فكانت حياته الممتدة من أعاجيب القدر، وهذا الرجل أخو الفقيه الحاكي، وهذه الواقعة وقعت عام 1357هـ. كما أظن.

نزلت من تلك الثنية مع الفقيه راجلين اخترنا ذلك على خضخضة البغال في هذا المنحدر الصعب، وإن كانت الحكومة سوت منه تسوية ما، ثم نزلنا على قريتي (إسكيوار) فتذكرت إيامًا كنت فيها سادرًا بين صبيان هذه القرى، فأحسست بعاطفة تنفتح صفحتها لذلك من صدري، فقلت أبعد ما رأيت من بسائط الحوز والشاوية وتادلة ومكناس، ومن أزقة الحواضر كالحمراء والرباط وفاس حيث وادي أبي رقراق ووادي الجواهر، تطيبني هذه القرية الساذجة الملتوية تحت أجنحة هذا الجبل الهائل؟ فإذا بي أتذكر قول حبيب:

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدًا لأول منزل
نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

وكان المامي بإحدى قرى إيسكيوار في عواشر نحو 1333هـ. عند الأستاذ سيدي عبد الله الأكماري رحمه الله، وهو من أصحاب الوالد.

ففي وسط هذا المنحدر لقينا رسالة من الأديب الفقيه سيدي أحمد بن سعيد الذي إليه نقصد يرحب بنا، ويطير فرحًا بورودنا، لأننا كنا كتبنا إليه من (تاغلولو) وهذا هو الجواب:

«الأستاذ الأفخم الفقيه الأديب سيدي محمد المختار، السلام الأطيب على سيادة سيدي ومجادته، هذا وقد وصل كلامك، فقمت وقعدت إجلالًا وإعظامًا وفرحًا بهذا اليوم السعيد، فقد والله أهدى إليّ الدهر ما لا أتيقن قبل اليوم حظوره ببال الأقدار، حتى أسعدتني به اليوم حقيقة».

لم نزل نتلوى في تلك الطرق بين الحقول، وتحت أغصان الزياتين، حتى

نزلنا أمام مدرسة تاكاترت فدخلنا المدرسة فإذا بها خالية، لا عريب فيها ولا ديار، لأن الوقت وقت العواشر، فطافت بي ذكريات شتى حول ما يقال من أن تاكاترت التي بنيت هذه المدرسة بجوارها، وموزايت التي بنيت أيضًا مدرسة أخرى إزاءها في بعقيلة اختان كانتا في طليعة من عانقوا الإسلام في (جزولة) من أول يوم ثم صرت استنبط من ذاكرتي من أعلمهم درسوا في هذه المدرسة من أوائل القرن الماضي إلى الآن. فقلت: (السر في السكان لا في الديار) وعلى المدرسة روعة وبهجة من آثار من سلفوا. ثم ذهبنا قدما على أقدامنا إلى قرية (تاضكوكت) حيث منزل الأستاذ، وهي قريبة من المدرسة فانحدرنا إلى مسيل الماء، ثم صعدنا إلى الدار، فتلقانا الأستاذ ببهجة وبشاشة وسرور وحبور كانت عنوانًا بارزًا عما يكنه من كرم وسماحة وطيب سريرة، ثم لم ننشب بعد صلاة العصر، أن قربت الدفاتر فازدلفت إليها، والكتب الكثيرة المخطوطة التي فيها غالبًا طلبتي تغازلني من بين مطبوعات شتى، فحاولت أن أمعن كما ينبغي إلا أن الإعياء وتأثير الركوب على البغال الموكفة في ست ساعات قد بلغا مني مبلغًا عظيمًا، فقلت أرأيت كم بيننا وبين الرجولة؟ ولو كنا نخشوشن دائمًا كما يقول عمر بن الخطاب تمعددوا[1] واخشوشنوا فإن الحضارة لا تدوم، لما وقعت الآن في هذا ولكن صدق بيهس حين قال: (لو خيرت لاخترت) فصابرت في المراجعة مصابرة نهم وقع بغتة على طعام لذيذ بعد ما لعب به السغب، وقد عرف أنه لا يجد الطعام بعد، فحبست نفسي مرغمة، وأني على أمثالها لحابسها[2] مرغمة.

(1) تمعددوا: تشبهوا بمعد بن عدنان، وقد كان بدويًا خشن المعيشة.

(2) من قول أبي نواس في قطعته المشهورة التي هي - وقد حفظناها يومًا ونحن في زورق على أبي رقراق:

ودار ندامى عطلوها وادلجوا	بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى	وأضغاث ريحان جني ويابس
ولم أدر من هم غير ما شهدت به	بشرقي ساباط الديار البسابس
حسبت بها صحبي على مطيهم	وأني على أمثال تلك لحابس
أقمت بها يومًا ويومين بعده	ويومًا له يوم الترحل خامس
تدار علينا الراح في عسجدية	حبتها بأنواع التصاوير فارس =

قرب المغرب فصلينا في بعض الحقول خارجًا، فإذ ذاك لاقينا شيخنا سيدي عيسى التاضكوكتي ممن مررنا أمامه في طور أخذ القرآن، وفي الصباح استدعانا ابن الفقيه سيدي الطيب بن إبراهيم ابن عم مضيفنا، فصادفت الفقيه سيدي محمد ابن العلامة الشهير سيدي محمد الغرمي الجراري، وقد بكر إلى القرية لبعض أغراضه فتصاحبنا فاستفدت منه ومن رب مثوانا ابن الطيب بعض ما أتوقف فيه منذ أعوام، وذلك موجود في تراجم الغرميين في القسم الخامس من كتاب (المعسول). ثم ورد علي هناك بعض طلبة من أخلاف الأسرة البوشيكرية العالمة، ومعهم مشجر نسبهم، ومؤلف للعلامة عبد الله بن إبراهيم البوشكري شرحًا للبردة، ذكر في أوله أنه اختصره من شرح عليها لأحمد العباسي المفتي الشهير، ومن شروح أخرى، وقد سماه (تنبيه الطلبة على معاني البردة) فرغ منه وسط ربيع الأول عام 1110هـ وهذه النسخة التي هي بخط المؤلف في 128 صفحة في نحو 20 سطرًا في كل صفحة، في قالب يميل إلى الصغر، وفي منتهاه بعد اختتام الشرح دعاء في الطويل على روي التاء المكسورة في ثلاث صفحات مطلعه:

حمدتك لا أحصي ثناء بلهجتي ... عليك إلٰهي يا من أحسن فطرتي

ولا أدري أهذا الدعاء لهذا الشارح أم لا؟ وقد أخبرني البوشيكريون أن لأحمد بن عبد الله البوشيكري شرحًا على مختصر خليل لم يتمه، وشرح العباسي موجود أيضًا رأيته عند شيخنا أبي محمد التامانارتي في تانكرت.

ثم أنني حررت عن البوشيكريين ما تيسر حول علماء أسرتهم وستوجد تراجم رجال هذه الأسرة إن شاء الله في (الفصل الأول) من القسم الرابع من (المعسول) ثم لم نبطئ هناك، فراجعنا دار الأديب أبي العباس، فأقبلت أيضًا على كتب ما سنح، وقد وقفت هناك على مؤلف لابن يحيى الاضريفي في النكاح ذكر فيه سننه وفرائضه ومستحباته، وهو صغير في ورقات في القالب الكبير، كما وقفت أيضًا على نقل عن أجوبة فقهية للعلامة أحمد بن عبد

=
قرارتها كسرى وفي جنباتها ... مها تدريها بالقسي الفوارس
فللماء ما زرت عليه جيوبها ... وللراح ما دارت عليه القلانس

الرحمٰن التيزركيني، كما استفدت أيضًا من كلام لابن عدي العركوبي أن هناك عالمًا يسمى عبد الله بن سعيد الاكماري، ينقل عنه أحمد بن إبراهيم الاكماري كلامًا حول علو الهمة المطلوب لكل ذي علم، ولعل أحمد هذا هو أحمد بن محمد بن إبراهيم البوشيكري، وأما عبد الله المتقدم فلم أعرفه إلا أنه عالم كبير القدر ذو شهرة ولعله من أهل الثاني عشر، أو أوائل الثالث عشر، ولعله صاحب العباسي الآتي ذكره، كما كان هناك أيضًا الحسين بن أبي بكر بن أحمد الإيلالني، نقل عنه العركوبي المذكور بواسطة آخر كلامًا لمحمد بن مبارك الكدسي المحجوبي، فأما هذا المحجوبي، فهو شارح الآجرومية الشهير وتوجد ترجمته مع أهله في (القسم الرابع) من (المعسول) وأما الحسين بن أبي بكر فلا أعرفه إلا من هنا، وهو على كل حال من أهل أوائل القرن الماضي، كما كان هناك أبو بكر بن محمد بن عبد الله الدفلاوي ـ الاليلي ـ السملالي نقل من خط محمد بن يوسف بن أحمد الجزولي التملي وكلاهما عندي الآن نكرة، وهما على كل حال عالمان كبيران، إلا أن يكون محمد ابن يوسف هو المقري العلامة المراكشي المتقدم فيكون حينئذٍ معروفًا عندنا، وكذلك أبو بكر بن محمد بن عبد الله، الغالب أن يكون ابن ذلك الذي ذكره العلامة أبو حفص الكرسيفي في مؤلف له في كيفية قسمة التركة، فيكون ولده هذا من أهل أوائل القرن الماضي، كما كان هناك الفقيه محمد ابن إبراهيم التوماناري، وكان مفتيًا كبيرًا مذكورًا، يصار إلى إفتائه، واستفدت من الأديب أبي العباس رب مثوانا اسم محمد بن عبد الله بن سعيد الاكماري من قرية آيت محمد، عالم كبير ذو مقام عال في عصره كما تدل عليه فتاواه[1] وأحكامه وربما أدرك أوائل الثالث عشر، وقد وقفت له على فتاوٍ أخرى في هذه الرحلات، وأبوه عبد الله بن سعيد، كان علامة مفتيًا عاصر الأستاذ أحمد العباسي الشهير، وقد رد عليه العباسي محررًا حرره. وبيتهم في قرية (اد محمد) بيت علم، ويقال لهم اد الطالب سعيد، ولعل سعيدًا أيضًا عالم كولده وحفيده، وليس سعيد هذا بسعيد ابن علي بن أحمد الحلواني تلميذ الشيخ عبد الله بن يعقوب المذكور بين

---

(1) الفتوى يجمع بالفتاوي والفتاوى.

تلاميذه في ترجمته (في المعسول) في (القسم الثالث)، كما وقفت هناك أيضًا على فتوى في عدم الاعتماد على البارود ليلة الشك في رؤية الهلال، وقعها إبراهيم بن إبراهيم، وأحمد بن محمد التاوريرتي الرسموكي والحسن بن محمد ابن الحسن البعقيلي وعبد الله بن عبد الواسع وهؤلاء كلهم من أهالي القرن الحادي عشر، وقد وقفت على مثل هذه الفتوى كتأييد لها لسيدي أحمد بن سليمان الرسموكي قائلًا: لا يعتمد على البارود إلا إذا كانت العادة تقضي أن لا يعلن بالبارود حتى يثبت الهلال بما يثبت من عدلين أو جماعة مستفيضة وهو تفصيل معقول مانوس، وقد وقفت هناك أيضًا على كتب نسخة إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن يونس بن يحيى السملالي، من بني ألني أتمه في 18 - 3 - 1060هـ وعلى آخر نسخه إبراهيم بن عبد الله التودماوي لشيخه عبد الله بن سعيد الحاحي، أتمه عام 996هـ وعلى كلام لأحمد بن محمد ابن إبراهيم الايلالني، ثم من فجة (تاراڤاتين)، وعلى آخر لعبد الواسع بن بلقاسم التملي، وكل هؤلاء لا أستحضر الآن أنني عرفتهم، وهكذا يقع كل يوم المطالع على عشرات بل مئات من علماء جزولة، لا يزالون مغفلين غير موسومين بمعرفة، مع أن لهم آثارًا من أقلامهم، وتأثيرًا في محيطهم.

وقد كتبت ما تيسر عن الأديب أبي العباس رب مثوانا الكريم مما يتعلق بتراجم آله الكرام، وإن كان ذلك لا يزال دون المطلوب حولهم، ويوجد ذلك إن شاء الله في الفصل الأول من القسم الرابع من (المعسول).

بهذا ملأت ما بين الأسفار إلى أن كادت الشمس تزول عن كبد السماء، فشغلت عن مراجعة عشرات من المخطوطات حولي، فأرجأت مراجعتها إلى فرصة أخرى، لأننا مضطرون أن نسافر رغم إلحاح مضيفنا الكريم على البيات ثانيًا، ولهذه الخزانة ـ على كل حال ـ دين علينا، لا يزال قضاؤه منتظرًا يومًا ما[1].

إيليغ:

خرجنا من (تاضكوكت) وهي موضع الرئاسة لأهل هذا الوادي في القرن

(1) أقول الآن سنة 1380 أننا لا نزال محرومين من الاستمتاع بأمثال هذه الخزائن السوسية.

الحادي عشر من أسلاف هؤلاء الشرفاء التاضكوكتيين ـ فيما أسمع ـ فذهبنا قدمًا وقد استبنا غالب القرى، وقد سمعنا بأن غالب سكان هذا الوادي من (اداوسلام) وذكر أنه كان هذا الوادي أقفر حينًا من جميع أهله، لنضوب العيون والآبار وجفاف الأنهار وإذ ذاك دفت إليه دافة من السلاميين، فاستولوا على غالبه، ويقولون أن ذلك كان قبل القرن العاشر وبمناسبة مرورنا بهذا الوادي تذكرت ما حدثني به أستاذي سيدي عيسى وأنا أسأله ليلة عن أخبار أهل هذا الوادي، فذكر الدماء التي تجري بينهم فصار يعد ما بين قتيل وقاتل ممن في جيله والجيل الذي أدركه، فوصلوا مائتين عدهم لي عدًّا فليسمع التاريخ وليسجل.

ثم لما سامتنا مشهد الشيخ سيدي إبراهيم التازاروالتي المطل فوق قرية (أنكران) وقفت مليًّا معتبرًا من تفرق تلك الجموع من الفقراء الذين كانوا يموجون في زاوية هذا الشيخ إلى 1353هـ ثم سرعان ما ذهب ذلك بالكلية عام 1357هـ. يوم إقفال زاويتهم بإذن الحكومة، فانطوى ذلك المكان وأقفر، حتى كأنه الآن مرت عليه قرون، مع أنه لم يمر به بعد إلا أربع سنوات، وعند منفتح هذا الوادي، مشهد سيدي عمرو الاغرابويي جد آل تاضكوكت وعليه بيت ثم اندفعنا في أوساط البسائط التي تتخللها وهاد غير عميقة فيها آثار لعمارة كثيرة مرت هناك، وجداول وحقول تشهد بأن استعمار هذه الأراضي كان غير قديم والسدر يوجد هنا وهناك، وبسائط تازاروالت الفيحاء، لو تيسر لها استعمار كثير من أيد عاملة محبة للاستثمار، سرعان ما ترجع إلى عهدها القديم الذي تشهد له هذه الحقول والجداول، ولو كانت سدود قوية عصرية صائنة للمياه في نحور كل هذه الجبال، لسهل هذا الاستعمار الدائم، لأن العلة الواضحة في هذه القحولة البائسة التي اكتست بها هذه الأراضي، هي عدم الماء الدائم لأن غالب مياه وادي الاكماريين وكل ما يسقى بالماء إلى الآن في تازاروالت، إنما كان من آثار الأمطار، فإن كثرت في عام من الأعوام أزهرت الحقول وربت، وإلا رجعت قفرًا يبابًا، ويعود ما كان نبت فيها قبل مصوحًا هشيمًا.

كانت البغال تخب بنا صوب إيليغ، وأنا أجيل فكري حول العظمة التي تكون لهذه الجهة في القرن الحادي عشر، حين كانت تازاروالت مركزًا كبيرًا لمملكة امتدت إلى سجلماسة، وإلى بوريقي بحاحة وإلى تخوم السودان في

الصحراء فكم من جيوش تتموج هنا وكم أعوان بخيول مطهمة تتجارى في هذه الهضاب الواطئة المتواضعة كأنما استمدت الهضاب من أخلاق هؤلاء السكان اليوم المتواضعين الذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا، فكانت هذه الأفكار وما إليها تساورني باطنًا وإن كنت أجاري الفقيه سيدي بريك بن عمر بأحاديث متنوعة، فتارة بجزوى، وتارة بالخليصاء(1).

نزلنا نحو الواحدة ونصف بعد الزوال، فتلقانا أهل (إيليغ) بكل ترحيب كان معتادًا منهم لكل وارد، فإنهم لكرمهم الفياض، يغشون حتى ما تهر كلابهم ولا يسألون عن السواد المقبل(2) فتجلى لنا أخونا الشريف المحترم ذو الفكر الوقاد والهمة العليا، الرئيس الجليل سيدي علي بن محمد بن الحسين بن هاشم، في أبهة براقة بيضاء كأنما احتفل بمقابلة ملك من الملوك، تفضلًا منه وصحة وداد، ومتانة أخوة، ثم قدمنا إلى قبة مؤثثة أثاثًا حضريًّا فلا أدري من أي شيء أقرأ كيف سروره بنا، أمن حسن استقباله بأبهة وتهيئة هذه القبة الفخمة الأثاث، أم من برقان البشاشة في محياه المتلألئ بالبشر، حتى أنني لأحس به يطفح حبورًا، وأما ما والاه علينا فحدث عن البحر ولا حرج، وهكذا هكذا يكون أبناء العظام، تتجلى عظمتهم في كل جهة.

ألقينا عصا التسيار، والشريف المولى الحسن ابن رب المثوى قائم على ساق حولنا، وقد كاد يطير بهجة بهذا اللقاء، وكأنه تذكر أيامًا قضيناها معسولة بين اليراع والدفاتر والأبحاث العلمية في الحمراء، حين كان بين الآخذين من تلك الدروس، فأراد أيضًا أن يستنبط مثل ذلك الاستمتاع الذي كنا فيه إذ ذاك، فقلت له اكتب أبياتًا حضرت، فتناول اليراع فكتب:

إليكم بني إيليغ جبنا التنائفا نلقى لحر الهاجرات المعارفا(3)
رحلنا إلى أبوابكم رحلة بها شمخنا على الدنيا نجر المطارفا

---

(1) من بيت قديم:
يومًا بحزوى ويومًا بالعقيق يو ما بالعذيب ويومًا بالخليصاء
(2) يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل
(3) التنوفة: الفلاة التي لا ماء فيها ولا أنيس، والمعارف: الوجوه.

أتينا وقد كنا عرفنا تليدكم ... من الشرف العد اللباب وطارفا
لتستمتع الأبصار أيضًا بما درت ... يراعاتنا فاستودعته الصحائفا[1]
أروني مجالات الملوك جدودكم ... وأين أدروا في الأنام العوارفا؟
وأين استظل العلم منهم بوارف ... وهل عندهم إلا الظلال وارئفًا؟
وأين ميادين الجيوش إذا أتت ... على كل جرد لم تكن بمقارفا[2]
أروني أروني كي أكون مشاهدًا ... لما كنت منه في التواريخ غارفا
فإني - ولا فخر - تفردت عنهم ... بكل نبأ فلق[3] يضم لطائفا
فيا طالما كانوا بني سمرى اشي ... طروسي بما عن مجدهم كنت عارفا
فما زلت في بحث المثابر قاطفا ... هنا وهنا عما قضوه قطائفا
إلى أن أحيوا بين التواريخ فانثنوا ... بذلك بين الباحثين معارفا
فما منهم إلا رجال إذا احتبوا ... فليسوا يبالون الرياح القواصفا

وهي أبيات ملفقة كما يراها القارئ البصير، إلا أنها قوبلت من الشرفاء الكرام بكلتا اليدين تكرمًا منهم وتنازلًا حياهم الله وبياهم، ثم سرد علي المولى الحسن هاتين المقطعتين الفذتين لوالده في الترحيب:

القطعة الأولى:

أسيدنا الندب جاء الفرح ... لجانبنا وأزيل الترح
فمذ زرتمونا بمهجتكم ... علانا السرور وجاء الفرح
عليكم سلام يطيب كما ... يطيب الرياض نسيم الصبح[4]

القطعة الثانية:

لقد زارنا خير الحجاحجة الغر ... فنحن من الأفراح نسبح في البحر
فأهلًا به ومرحبًا ثم مرحبًا ... به من نزيل نسحب الذيل بالفخر

---

(1) إشارة إلى الكتاب الذي جمعته وسميته «إيليغ قديمًا وحديثًا».
(2) المقرف من الخيل غير الجيد.
(3) فلق كحمل: عجيب.
(4) جمع صبحة.

محمد المختار خير أحبة لنا فجزاه الله بالفضل والخير
سقانا بهذه الزيارة شربة مذاقتها أحلى لدينا من الخمر
هو السيد الميمون في كل حاجة به نرتجي من ربنا منة الشكر
فيا أهل إلغ قد حباكم إلهكم بروِيا الهمام الندب فيكم بلا حجر

وقد لاقينا هناك تلك الحضرة، السيد الناسك الهادئ الباش الهاش الموطأ الأكناف، سيدي محمد الأنصاري، ويا طالما كنت أسمع به، ثم لم يتيسر اللقاء إلا اليوم، فكان أسعد الأيام، وقد كتبت عنه ما يلي:

أنه محمد بن محمد بن مبارك بن سيدي علي بن محمد الأمين بن سيدي عمر ابن عبد الكريم، من قبيلة الأنصار من أحفاد سعد بن عبادة، وذكر أن في بلدهم (ولاتة) مشجر أنسابهم مرفوع السلسلة أبًا عن أب، ولد عاشر ذي الحجة عام 1290هـ، وأخذ القرآن من سيدي المختار بن مبارك الولاتي وبه تخرج، ثم المبادئ العلمية عن محمد يحيى بن سلمة، الورع الزاهد وأثنى عليه، ثم عن محمد المختار ابن العلامة الشهير، محمد يحيى الولاتي، شارح (مرتقى الوصول، إلى علم الأصول) أخذ عنه بعض مختصر خليل، وبعض الألفية وهذا كله في قاعدة (ولاتة) عاصمة الحوض، والحوض عمالة كبيرة في متسعها نحو 15 يومًا طولًا ومثلها عرضًا، وأميرهم أحمد محمود بن محيميد، وهو أمير مستقل، وكان معاصرًا للمولى الحسن، وبعد وفاته انقسم أهل الحوض، فتحاربوا ـ 10 ـ سنوات وبسبب هذا الانشقاق وقع احتلال بلادهم عام 1322هـ صلحًا لا عنوة، وقد شرطوا على المحتلين ألا يحتلوا الحوض إلا بعد أن يحتلوا أدرار وشنكيط، وقد غادر الحاكي مسقط رأسه قبل الاحتلال، فأوى إلى الشيخ ماء العينين في الصمارة زائرًا ثم تاجرًا في 1317هـ. وفي 1319هـ ورد إلى إيليغ، فنزل على هؤلاء الكرام الذين لا يزال متقيدًا بإحسانهم (ومن وجد الإحسان قيدًا تقيدًا) ويذكر عن ولاتة كثرة العلم، قائلًا عهدي بها عام 1316هـ. تحتوي على زهاء ـ 200 ـ عالم، أعرفهم كلهم معرفة العين، والعلامة محمد يحيى من كبرائهم، ثم ذكر أن النقص سرى إلى ذلك بعد 1330هـ[1].

(1) توفي هذا الفقيه ورب مثواه سيدي علي بن الحسين متقاربين عند مختتم سنة 1376هـ.

إثر العصر خرجت مع المولى الحسن وسيد ناصري ممن نشأ تحت كنف أولئك الكرام، كان سكن الحمراء ما شاء الله ثم أخيرًا حين التقت حلقتا البطان بسبب هذه الحرب العوان، وعادت البادية أفضل من الحاضرة بمراحل، فصرنا ندور في موضع المدينة المهدمة، فأرياني برجين لا يزالان إلى الآن، أما أحدهما فكان متعبدًا للشريف العالم سيدي أبي بكر ابن السلطان بودميعة صاحب المشهد المطل على (إيليغ) فوق أكمة في شرقيها الشمالي، والبرج مبني بالآجر، ولا يزال مسقفًا، وهو مزارة اليوم. والبرج الثاني يسامت هذا شرقيًّا في زاوية من زوايا السور، وهو مبني باللوح المختلف طولًا وعرضًا، وذكر أنه مركز المدافع (الصقالة) ولا يزال يعرف بالصقالة ولم يزل طرف منه ماثلًا، وبين البرجين دار الأمير الكبرى لا يزال بعض جدرانها قائمًا كأنه نادبة من نوادب الدهر الذي لا يرحم من يمد إليه براثنه وأنيابه، وتحتها سرب مقبو ظاهر ومكان حمام الدار وهناك في الدار ما يسمونه هرى سيدي علي بودميعة، يقولون أنه انهدم بقنابر مدافع مولاي الرشيد يوم حاصر هذه المدينة 1081هـ، فسقط على كل من فيه فمات الكل تحت الهدم، ولا يزال الناس يترحمون عليهم إلى الآن.

هذا وشوارع المدينة طولًا وعرضًا لا يزال بعض آثارها واضحًا، وقد استفاض عند السكان اليوم مواضع الأبواب في منتهى الشوارع الرئيسية في المدينة، والمدينة مستطيلة، ولكنني أستصغرها حتى قيل لي إنَّ القبائل السوسية إذ ذاك، قد دفعت كلها فرقًا فرقًا منها للسكنى هنا، فانفردت كل قبيلة بقرية إزاء هذه المدينة، فأروني هضابًا كثيرة من جوانب إيليغ، كلها مسكونة إذ ذاك، وقد عينوا موضع سكنى الافرانيين والصحراويين وغيرهم، وكانت مساكن هذه الأوزاع من القبائل تحيط بالمدينة من كل الجهات الأربع، فظهر لي بذلك كبر العمارة واتصال السكان كلهم على كثرتهم بالمدينة، فأمكن حينئذٍ أن أتصور عظمة هذه العاصمة، كعاصمة دولة كل جنوبي المغرب، وقد رأيت مزارة في يسار المدينة منسوبة إلى من يسمونه عبد العلي، فتذكرت أن الرسموكي ذكره في وفياته فراجعتها فإذا فيها:

(المؤدب سيدي عبد العلي بن عبد الرحمٰن بن علي الدرعي الأنصاري

رجل مسكين متواضع لقي جماعة من الصالحين، كالصالح المشهور سيدي أحمد ادفال، وسيدي يحيى بن عبد الله[1] وغيرهما، وتوفي رحمه الله بإيليغ ودفن بالزاوية بالقولنج، في جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وألف، أخبرني رحمه الله بوظيفة سيدي زروق بإسناد عالٍ، عن ختنه سيدي أحمد ادفال عن سيدي بركة الحطاب، عن الولي الصالح سيدي زروق، وإن شئت قلت عن النبي ﷺ في حكاية يضيق هذا الموضع عن استيفائها.

ذلك ما ذكره الرسموكي تلميذه، ولكن يعكر في كونه هو هذا، قوله أنه دفن بالزاوية، لأن الزاوية إذا أطلقت هنالك يعنى بها المكان الذي فيه مشهد الشيخ سيدي أحمد بن موسى، ويبعد أن يكون الزاوية المعنية هذا المكان الذي دفن فيه في المدينة، اللهم إذا ثبت أن له زاوية كان فيها ساكنًا ثم دفن فيها، ويكون المقصود زاويته هو، ولا يبعد هذا والله أعلم.

وهناك أيضًا مزارة لمرابطات ينسبن إلى سيدي محمد بن إبراهيم الشيخ لا ندري كيف وجدن هناك، ولعلهن تزوجن إلى هذه المدينة، أو ولدهن أبوهن هنا، فذاع عنهن ما أبقى لهن هذه الشهرة.

ومما لا يزال هناك ظاهرًا معروفًا، موضع السجن الذي يذكر بسجن مكناس الإسماعيلي، أو بمطبق البديع بالحمراء لأن الكل محفور تحت الأرض ومقبور في دهاليز، كما لا يزال يظهر موضع مسجد المدينة الكبير، الذي كان انهدم مع المدينة، ومكانه لا يزال معروفًا عندهم، وحدود المدينة ظاهرة في غالب جهاتها وقد أروني كدي في الشمال الغربي بينها كدية في وسطها عالية القمة، ذكروا أنها محط مدافع المولى الرشيد الفيلالي العلوي يوم حاصر إيليغ، كما ذكروا أن هذه السوق التي تقام إلى اليوم قديمة من ذلك العهد. والمدينة المهدومة تأتي في شمالي إيليغ المحدثة التي يسكنها أهلها الآن ووراءها مجرى ماء في الفصل الشتائي، وإلى الغرب آثار ديار ومجارٍ قديمة يقولون أنها كلها أراضي المدينة في ذلك العهد ولا يزال محل جدول ينعتونه معروفًا هناك، أجرى فيه الأمير الماء، فوصل به ما بين تلك

(1) لعله يقصد يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد النعيم.

الديار والمدينة، وبهذا كله يتضح متسع هذه الخطة اتساعًا يوافق ما يحسب لتلك العاصمة التي غار منها الدهر، فكاد بإغارته المتوالية عليها يلحق منها الأثر بالعين.

وفي شرقي المدينتين القديمة والحديثة، عيون جارية امتدت بها البساتين الملتفة بالأشجار والخمائل من اليمين إلى الشمال، وفي وهدة متصلة إلا أن عمارة البساتين اليوم تراجعت أيضًا للتفريط فقط، وفي أعلى من هذا المكان العوينة التي كان فيها مسكن الرئيس سيدي الهاشم بن علي لأن إيليغ الحديثة ما عمرها ولا أشاد قصورها إلا الرئيس سيدي الحسين.

هذا ما لا أزال أستحضره في حافظتي الآن عن إيليغ بعدما جلت فيها وحولها في هذا اليوم وفي الغد.

جلت في اليوم الثاني في باحات إيليغ الحديثة، فينعتون لي من الاصطبلات الواسعة والميدان العام لمسابقة الحلبة ما مر أيام يعسوب إيليغ الحديثة سيدي الحسين بن هاشم المتوفى عام 1303هـ. من عمارة هائلة والأرض تميد بالعبيد والأعوان والأضياف من كل صنف صنف، صحراويين، وجزوليين، وحضريين ورؤساء القبائل وكبار علماء ذلك العهد، فأرى بالتصور عظمة ذلك العهد الذي زال بكل سرعة، ولا يزال من أدركوا ذلك العهد أحياء إلى الآن، ذلك العهد الذي تفوق فيه إيليغ بووابوض أيام القائد عبد المالك المتوكي وازغار أيام القائد الحاج عبل الحاحي، ولكن دوام الحال من المحال، ولكن إن ذهب سيدي الحسين، فما ذهبت عظمته ولا صنائعه ولا آثار روعته وأبهته التي تزال مجالات الأسمار في كل النوادي إلى الآن على أن تلك الصفحة إن انطوت فقد تفتحت صفحة أخرى لها لون آخر براق خلاب من رئيس إيليغ اليوم سيدي علي حفظه الله فقد كان كله في رياسته حلوًا لكل الناس، ودائرة حلم وإغضاء مع علمه الذي كون له هالة لم تكونها لأهله الأولين والآخرين تلك الجيوش الجرارة، ولا مآت من أولئك الأعوان الذين يذهبون ويجيئون في الإيراد والإصدار.

طفنا في تلك الباحات نلج الأبواب إلى أن وقفنا أمام المجلس العام الذي

يجلس فيه سيدي الحسين، وديار الأضياف الكثيرة منتشرة يمنة ويسرة في بناء يميل رونقه إلى الحضارة في هندسته وحسن معماره، ومن هناك يدخل إلى الدار الكبرى لسيدي الحسين، وقد ذكر لي أن فيها ثمانين مسكنًا وكل ذلك في دائرة واحدة بالبناء المتين، وإزاء هذه الدار الكبرى ديار أخرى، منها دار لسيدي أحمد بن سيدي محمد بن الحسين بارزة الزوايا يعلو سطحها وهي بيضاء ناصعة اللون وأحسب أن فيها سكنى الشريف سيدي الحسين خليفة سيدي علي اليوم في إدارة شؤون القبيلة، وسياسة من إليهم ففرغ والده لأن يولي وجهه لعبادة ربه، وهناك مسجد صغير في وسط هذه الديار كان مقام الصلوات الخمس إلى الآن، وكان سيدي محمد بن الحسين لا يغيب فيه أي صلاة حتى الصبح في صبارة الشتاء يحضر إليه سحرًا مبكرًا قبل الناس، وفي مقابلة هذا المسجد عند باب الدار الكبرى دويرة تسمى دويرة العود لأنها محوطة في داخلها بإطار من العود في نحو ذراعين في أسافلها ففيها جلست حينًا هذا اليوم فأتوني بكل ما في خزانة إيليغ من الكتب فأمرت أن تماز لي المخطوطة وحدها، فأقبلت إليها مفتشًا.

ومما وقفت عليه من المخطوطة:

1) مرائي الزواوي محمد بن محمد بن عمر الفراوسقي المسماة «تحفة الناظر، ونزهة المناظر» بخط الأستاذ العلامة أحمد بن إبراهيم السملالي نسخها عام 1281هـ للرئيس الحسين بن هاشم، فاستفدنا من ذلك همة هذا الرئيس في هذه الجهة، وهذا الكتاب رأيت منه نسختين أخريين في جولتي هذه، وهو يذكر الرؤى التي رأى فيها سيد الوجود ﷺ.

2) مجلد ضخم جميل الخط في أخبار سيدي محمد السنوسي مبتور أخيرًا نسخت هذه النسخة عام 1016هـ وقد أطال في أخباره، وأتى بقصائده، وقد كتب إلى العلامة ابن الطاهر الرسموكي بما نصه:

ذكر الهلالي في شرحه على القادرية: أن الملالي تلميذ الشيخ السنوسي ألّف مجلدًا في مناقب شيخه المذكور، ثم اختصره الشيخ أحمد بابا، ولعل ما تقدم كتاب الملالي، وقد جلد معه «مبهمات القرآن»، للسهيلي بذلك

الخط الجميل إلا أنه مبتور أيضًا، وقد رأيت من الكتاب ـ في هذه الجولة بخزائن جزولة ـ نسخًا متعددة قديمة، مما يدل على انتشاره بين الجزوليين الأسلاف والكتاب مطبوع أخيرًا.

3) كتاب أدبي حسن بخط وسط بيد الأديب سيدي الحبيب البوسليماني، ويسمى «روضة الأزهار، ونزهة الأبصار، الجامع لفنون الآداب، وسحر الألباب»، ولم أر الكتاب قبل، فتتبعت أبوابه فكانت هذه:

الشعر والشعراء، البلاغة والبلغاء، أخبار الحكماء، الأجواد، البخلاء، الأمداح، الهجاء، الشجعان، الجبناء، الأمثال السائرة، طرائف الأخبار، الأجوبة المسكتة النساء، نوادر الغلمان، العشاق، المغنون والمغنيات، المضحكات أخبار الأعراب النوكى والمغفلون، ظرفاء المجانين، المتخنثون، المتنبئون، النهمون والطفيليون، الثقلاء، الأسارى والمسجونون، المراثي، الشعر النفيس، ضروب المخاطبات، الزهاد، أشعار الزهاد.

والكتاب أدبي ، ولعله موجود معروف، وربما كان مطبوعًا من حيث لا أدري.

4) «المنهاج في أسرار الإيلاج» يتضمن عشرة أبواب في جزءين صغيرين كما يظهر في آخره، حين قال ناسخه سيدي الحبيب المذكور، هذا آخر الجزء الثاني، وهو مع المتقدم في مجلد واحد، ولم يتسع الوقت لأستوفي مرامي أبحاثه في هذا الموضوع، ولم أسمع به قط.

5) مجلد ضخم بخط بين واسع، فيه أواخر السيرة النبوية وفتوح الشام، ولم يكتب عليه مؤلفه شيئًا، وأحسبه الجزء الثالث من الكلاعي إن كان ضم للسيرة النبوية أخبار الخلفاء الراشدين، ولم أكن طالعت قبل الكلاعي، وقد انقضى هذا المجلد بعد غزوة اليرموك، وقال ناسخه ويليه المجلد الرابع في فتح مصر وأيًّا كان فمؤلفه في نحو آخر القرن السادس وقد رأيت هنالك مجلدًا أو مجلدين في هذا النمط لعلهما أخواه وقد كنت عزلت بعض هذه المخطوطات حتى أتفرغ إليها بإلغ، وقد أوصيت أن تصلني إلا أنها اختلطت بكتب الخزانة بعدي، فلم يصلني إلا المجلد المذكور مما

عزلته، وربما أتوصل بها أيضًا فألحقها هنا إن رأيت فيها ما يستحق الذكر، والذي أهمني من هذا المجلد، أنني رأيت حواليه توقيفات مما يدل على أنه يسرد منظمًا في مجلس الرئيس سيدي الحسين، مما له من همة في الأخبار النبوية وما إليها، فكان ذلك ترجمة مذهبه له ولآله (ثم تحققت أنها سيرة الكلاعي وطالعتها وقد كان سيدي الحسين معنيًا بها).

6) مجموعة عجيبة تتعلق بالرماية، كانت لشيخ الرماة في عصره، بسوس أحمد ابن إبراهيم الماسي، وفي أول المجموعة مؤلف يتعلق بالرماية، سقطت صحف من أوله، فكان مما سقط: الفصل الأول من المؤلف، وفي الموجود منه ما يدل على أن الفصل يذكر فيه ما ورد في فضل الرماية من القرآن والحديث وعن السلف، والفصل الثاني في صفة المدافع التي يرمى بها، ـ يعني المكاحل ـ فأورد فيه كيف تصنع مستقيمة، ومن حديد جيد، من معدن رطب، لا خشونة فيه فأثنى على المكاحل الرومية وفضلها على الأهلية وقد ذكر أنواع (ابوري) (وتاسدا) و(املوح) و(اجوان) و(ظهر السطح) ـ كذا ـ و(جوهر الدار) و(مجدام) و(اعسال) وهذه كلها أنواع المكاحل إذ ذاك وقد قال أن للناس قصائد في الملحون في تفضيل بعضها على بعض، ثم ذكر الزناد، ففضل الأهلية على الرومية، وقال إن المكناسي والفاسي أفضل.

قرأت هذا الفصل فتذكرت ما كنت أعرفه قبل 1330هـ من أرباب هذا الفن في بلادنا، حين لا تزال هذه البندقيات الأهلية معتنى بها، وتصنع في سملالة وتحلى بالفضة قبل أن تغمرها المكاحل الرومية القرطاسية.

والفصل الثالث في صنعة البارود، وقد ذكر أن البارود مستحدث عام 768هـ الموافقة نيفًا وستين وثلاثمائة وألف ميلادية، هذا ما قال وليس بشيء فإن التاريخ قد روى أن أبا الحسن المريني قد حارب أخاه أبا علي في سجلماسة بمدافع البارود قبل سنة 740هـ، بل ذكر ذلك في القرن السابع فعلمنا أن البارود كان قبل هذا الوقت، بل وقفت له على ذكر ما يشبهه في الحروب الصليبية قبل هذا الوقت، وقد جرى في كلام لسان الدين بن الخطيب ذكر استعماله عام 724هـ في عهد أبي الوليد

إسماعيل بن الفرج من بني الأحمر في منازله لمكان في نواحي (بسطة) وذلك في «اللمحة البدرية» وقد وصف ابن الهذيل آلة النفط بقوله:

وظنوا بأن الرعد والصعق في السما فحاق بهم من دونها الصعق والرعد
غرائب أشكال سما هرمس بها مهندمة تأتي الجبال فتنهد
إلا أنها الدنيا تريك عجائبا وما في القوى منها فلا بد أن يبدو

وأيًّا كان فالبارود من صنعة العرب، ويقال إنهم أخذوا أسس هذه الصنعة عن الصينيين، ويقال أن الشيخ يعزى وهدى، هو الذي استحدث البارود ويوجد ذلك في ترجمته، وتوفي 727هـ. والله أعلم.

ثم إن المؤلف ذكر كيف يصنع البارود، وأطال في ذلك ثم ذكر بعد ذلك، (الفصل الرابع) في صفة الشيخ الذي يعلم الرماية فذكر أن أول واجب حسن النية وتطهير السريرة فقال إن من الأشياخ المعلمين للرماية سعيد بن محمد الناصري القاطن فوق زيمة بموضع يقال له (عين عريض) يعني في قبيلة حمر وكان راميًا فارسًا تقصده الوفود للأخذ عنه، ثم أتبعه ذكر آخرين، ثم ذكر أن آل حمر سيدي علي بن ناصر، وسيدي سعيد بن ناصر أخذوا الرماية عن الشيخ سيدي أحمد بن موسى التازروالتي وقد كانا معه في ذهابه إلى المشرق، ثم ملأ الفصل بفضائل آل حمر، ثم ذكر بعد ذلك (الفصل الخامس) في كيفية تعليم الرماية على الوجه الأكمل، وفيه أول ما يجب على الشيخ أن يعلمه لمن يعلمه، الدين والتوبة، وأن يقصد برمايته الجهاد والمعاش، فإن كان كذلك وإلا فلا يعلمه ثم ذكر كيف يعلمه بالتدريج، وكيف يصيب المرمى من قريب أو بعيد، وقد ذكر فيها ما شاء الله مما يدل على المهارة كما ذكر أن المولى إسماعيل العلوي كان يرسل عبيده ليتعلموا الرماية من آل حمر، قال ثم بقيت هذه العادة إلى الآن، فمنهم يتعلم عبيد الملوك.

أقول: هذا إذن هو الأصل الأصيل حتى رأينا الملوك المتأخرين يرسلون أولادهم ليتعلموا ولينشأوا في حمر، وآخر من تعلم هناك المولى عبد الحفيظ وطبقته فقد كانوا يتعلمون هناك الركوب على الخيل والرماية من شيوخ حمريين، كما يتعلمون من آخرين العلم والقرآن في دار هناك، ثم ذكر بعد ذلك، (الفصل

السادس) في حكم الاصطياد ببندقية الرصاص، ثم ذكر جواز ذلك كما هو مشهور، ثم ذكر كيفية صنع الرصاص المكور والرصاص المنهال المسمى بـ(الرش) ثم ذكر بعد ذلك (الفصل السابع) في كيفية اصطياد الوحوش وأخذها في حال غرتها، وفي معرفة طبائعها ثم ذكر أولًا أنواع الغزلان ثم طرق صيدها، وحذر كثيرًا من إتيانها من مهب الريح عليها، لأنه أكثر الحيوان شمًّا، ثم ذكر الأرنب والظربان، والقنفذ والأسد والضبع والخنزير، وقد قال المؤلف لا بأس بصيد الخنزير لقصد التمرن على الشجاعة والإقدام وألفة ما تنفر منه النفس من البطش والقوة والجرأة، بل إن ذلك مستحب مع هذه النية، فقد حضرنا غزوة (مليلية) و(سبتة)، فما رأينا أشجع ولا أعرف بحرب العدو من الصيادين للخنزير.

هذه الفصول السبعة هي الموجودة في هذا المؤلف، وكأنني رأيت عند المرحوم الكانوني مؤرخ آسفي بعض هذا المؤلف، ونسبه للخلاطي، وفي آخر هذا الذي عندنا أنه نسخ عام 1261هـ لأحمد بن إبراهيم المقدم الماسي.

ومما كان أيضًا في هذا المجموع مؤلف في فضل الرماية عن الكتاب والسنة في زهاء ـ 30 ـ صفحة في القالب الصغير، ونقل فيه عن السلف كل ما يتعلق بالموضوع ولعله للسيوطي، لأننا نعرف أن له كتابًا في الموضوع.

ومما هناك أيضًا ما يأتي: هذه شجرة وسلسلة لأصحاب الرماية والمدافع لمن أرادها وأحب أهلها، لأن أصلها وفرعها في غربنا هذا هو سيدي محمد ابن موسى الخلاطي وهو شريف في نسبه، أخذها السيد محمد بن أحمد بن زعيم، عن السيد محمد المذكور أعلاه، والسيد محمد أخذها عن السيد علي ابن ناصر، وعلي بن ناصر عن أحمد بن موسى، عن الزبير بن العوام، عن عمرو ابن العاص، عن مالك بن أنس عن المقداد عن رسول ﷺ عن جبريل عن رب العالمين انتهى باختصار.

ذكرنا هذا للاعتبار فقط من هذا السند الذي جمع كل العلل التي تذكر للاسانيد، من انقطاع وإعضال وكذب وإلا فكيف يأخذ عمرو بن العاص عن مالك ابن أنس، وهذا عن المقداد فهذا هو الذي لا دواء له، أن اعتذرنا عما بين الشيخ أحمد بن موسى وبين الزبير بما عسى أن يعتذر به من يريد تغطية

العيوب، ومثل هذا السند في الحديث ريح في ريح غير معتد به أصلًا وإنما الذي نستفيده من هذا ما كان سبب انحياش آل حمر إلى الشيخ سيدي أحمد بن موسى حين يخدمونهم ويصلونهم فيدفعون لهم إلى الآن في كل سنة ما يدفعون، وهي فائدة حسنة تاريخية غير قليلة فبسبب كونه شيخهم في الرماية يخدمونه هو ويخدمون آله بعده.

ومما في المجموع أيضًا مؤلف مبتور الآخر، فيه مناقب أهل الرماية، والطرق التي ينال بها الرماة الخصال الحميدة والمناقب الكبرى والمنازل الربانية العظمى.

ومما هناك أيضًا خطوط لعلماء جزوليين، ممن يلقاهم المقدم أحمد بن إبراهيم الماسي صاحب هذه المجموعة كلهم بخطوط أيديهم نأتي بها كلها للإفادة ولمعرفة أعيان بعضهم، ونصها:

سئل راقمه أمده الله بتوفيقه، وأصابه الحق وتحقيقه، عن أصل الرماية في الكتاب والحديث والسنة والإجماع، فأجاب:

ومن الله العون والتوفيق والتسديد إلى طريق الرشاد: أن الرماية لها أصل أسس على الكتاب والسنة والإجماع، أما الكتاب فقال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: 17] الآية، وأما الحديث[1] ففي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: (ارموا الحديث)، وأما الإجماع فمن باب التعليم دخل وأما من خالف هذا فليس له حظ في هذا النمط، ومنكر ما ذكر من الراعية[2] كذا من السادات، فقد أخطأ طريق الحق والصواب، فعليه أن يتعاهد الأدلة والنصوص في أماكنها، ومن تخبط في طريق الحق فإنه يخوض مع الخائضين والعياذ بالله، والسائل منا أعمال الواجب الرئيس أحمد المرسي على وجهها (كذا) وكان راميًا متعلمًا (كذا)[3] له في ذلك منال، ولا يحرم له ما أكل من هذا الوجه لأنه

(1) هناك أحاديث عدة صحيحة في الموضوع، غابت عن المسؤول أو تركها اختصارًا.

(2) لعله المداعبة، ويعني المداعبة بالرماية، كما هو مألوف بين الشباب في عشايا الاعياد والأعراس.

(3) لعله معلمًا.

من باب التعليم كما لا يخفى، وكتبه جوابًا له بعد السؤال عن ـ 5 ـ بقين من معظم رمضان عام 1269هـ عبيد ربه: إبراهيم بن محمد الويداني، الله وليه.

أقول أنه لم أعرف قط هذا العالم الويداني وهو ـ كما نرى ـ عالم يقصد في أمثال هذه الأجوبة ويظهر أن يده في العربية ليست طولى، فإن فيها لحنًا والويداني معرب الإيسافني نسبة إلى إيسافن نيت هرون، القبيلة المشهورة إزاء مركز (ايغرم) اليوم.

وتحته ما يلي: وبعد ففي صحيح البخاري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال لقوم من قريش وجدهم يرمون بالنبل ما نصه: (ارموا يا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميًا) اهـ لأن سيدنا إسماعيل جد النبي ﷺ وجميع قريش، وفي محل آخر من البخاري أن النبي ﷺ، وجد قومًا على فرقتين، كل فرقة ترمي على أختها، ثم دخل فرقة منهم، فأمسكت الفرقة الأخرى عن الرمي، وقال لهم: لم أمسكتم عن الرمي؟ فقالوا: كيف نرمي وأنت من أولئك؟ فقال لهم: ارموا وأنا معكم كلكم. انتهى فدل ذلك كله على سنة تعليم الرمي، وأنه ليس ببدعة، وكما ذكر الشيخ أبو الليث السمرقندي، وبوب في حديثه للرمي، والمريب يطالع كتب الجهاد في الحديث والفقه، وإن أحدث الناس في حنة (لعل الكلمة في حالة) الرمي شيئًا فلا كلام مع من أحدثها، والأعمال بالنية، ولكل امرئ ما نوى مع أن المدافع ـ يعني البندقيات ـ في هذا الزمان هي القائمة مقام النبل في الزمان الأول، والمسألة واضحة والله أعلم والسلام، وكتبه إعلامًا به العبد الضعيف محمد بن عبد الله بن محمد الحضيكي ـ بزاوية الفيلالي لطف الله به (وهذا معلوم عندنا يذكر مع أهله في (الفصل الأول) من (القسم الرابع) من (المعسول)).

وبعد ذلك يظهر أن صحيفة تامة سقطت من الكتاب ويليها بعدها ما يأتي. . . . قع ويجب على متعلم الرمي أن لا يقصد به إلا ما قصد به أهل الزمان الأول من جهاد الكفار والصيادة ودفع الإنسان عن نفسه وأهله وماله وأولاده، كما في الحديث والفقه، وبه كتب مسرعًا به محمد بن عبد الله لطف الله به في المقام والرحيل (هو هو المذكور).

واعلم بصحة ما في أعلاه بإذن شيخي وسيدي أحمد بن محمد التيمكيدشتي لطف الله به في المقام والرحيل، انتهى. وانظر هل محمد بن عبد الله هو الحضيكي المذكور؟ وأما أحمد التيمكيدشتي فقد ذكر مع أهله في (القسم الثالث) من (المعسول).

وبعده بعد الحمد لله:

صح كل ما سطر أعلاه ومحوله، نسأل الله تعالى أن يحشرنا في زمرتهم ومن جهل هذا القول ونكره، فعليه عقوبة دائرة الناصرية، ودائرة الأولياء، عبد ربه الراجي عفو مولاه عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن علي بن يوسف الله وليه.

أقول: هذا أحد السادة الناصريين أخو شيخ الزاوية التامكروتية سيدي أحمد بن أبي بكر المشهور رحمه الله ورضي عنه.

ثم بعده بعد الحمدلة:

وأعلم به عبد الرحمٰن بن عبد الله التملي، والله وليه في الدارين. ثم تحته أعلم بصحة ما سطر أعلاه، ولا يستراب فيه ولا يتوقف في مطلوبيته إلا الجاهل والغافل عن سنن أولي الفضل والعلم والبصائر من السلف الصالح، قاله عبد الله بن عبد الرحمٰن التملي لطف الله به انتهى، وهذا هو الحاج عبد الله الشهير أخو سيدي الحاج أحمد الجشتيمي، والمذكور قبله العلامة أبو زيد والدهما، وهم مترجمون في (القسم الثالث) من (المعسول).

ثم إثر ذلك بعد الحمدلة:

وما أجاب به الأجلة الأعلام بمقلوبه،أن تعليم الرمي وتدريب الخيل له أصل مستند وأصل صحيح حديثًا وفقهًا، لا مرية فيه ولا ينكره إلا الجاهل، فمن أين يكون سبب الاستيلاء بالدين وعلى الدين إلا بآلة التدريب على الحروب وتعليمها، ولذا قالوا يجب على الإمام أن يهتم بأمور الرماية في الجهاد، فيأمر كل قبيلة بتعلم الحرب والتدريب نص عليه العلامة التسولي الفاسي في كتاب الفصول، وكتبه مسرعًا عبد ربه محمد بن عبد الله المجازي الافراني، أمنه الله بمنه اهـ، وهو الجد للأم للعلامة شيخنا سيدي الطاهر التامانارتي حفظه الله وهو مترجم بين أهله الاساكيين في (الفصل الثاني) من

(القسم الرابع) من (المعسول).

وبعده بعد الحمدلة، والصلاة على سيد الوجود:

قد أخذنا الرماية من الأب الأبر الأرضى الرئيس أحمد بن إبراهيم العمري السوسي، ثم أخذها من الأبر النحرير أبي العباس السيد محمد بن موسى الخلاطي الشريف، ثم أبو العباس المذكور عن سيدي أحمد بن زعيم عن سيدي علي بن ناصر الذي أخذها عن سيدي أحمد بن موسى نفعنا الله ببركة الجميع وكتبنا له إجازة، واعلم به في 5 بقين من رمضان عام 1269هـ عبد ربه إبراهيم بن محمد الويداني وفقه الله انتهى، وهذا هو عين المتقدم الذي قلنا أننا لا نعرفه إلا هنا.

وتحته ما يلي: وكتبها إجازة للرئيس أحمد بن إبراهيم العمري الماسي وبه كتب من أخذها منه الشريف المقدم محمد بن عبد القادر الساكن بتانارت السباع، لطف الله به بتاريخ أوائل شهر الله رمضان عام 1269هـ انتهى.

ومحمد بن عبد القادر هذا لم أعرفه والخط خطه وكذلك لا أعرف مسكنه وبعد ذلك بعد الحمدلة والصلاة:

قد أخذنا الرماية من يد الفاضل المفضل أبي البركات المجاهد الورع الزاهد في زماننا وهو المقدم الرئيس أحمد بن إبراهيم العمري ثم الماسي كما أخذها عن أشياخه الذين ظهرت بركتهم في بلاد المشرق والمغرب، وقد أخذها عن سيدي محمد بن موسى الخلاطي الشريف عن سيدي أحمد بن زعيم وهكذا نفعنا الله ببركتهم آمين. وكتبنا عنه ذلك يوم الثلاثاء الذي هو 25 من ربيع الأول عام 1270هـ عبد ربه الحسن بن سعيد بن محمد من بني زكرياء من منكب المرتني، ثم الويداني انتهى وقد وضع شكلًا لم أهتد إلى حله، أقول: إنني لا أعرف أيضًا الحسن بن سعيد هذا إلى الآن.

وقبل هذا كله بورقات ما نصه:

سئل كاتبه أمده الله تعالى بمعونته، وأخذه بيده أخذ الكرام، وسلك به منهاجًا قويمًا وسبيلًا رشدًا، عن نازلة رجل له معرفة وبال بحكم الرماية المأمور بتعليمها سنة مؤكدة، فأخذ في تعليمها للناس على نية الجهاد وبتسليم

(كذا) فأخذت منه بشواهدها عند الخاص والعام، فيأمر الذي يعلمها له بالانقياد والطاعة لله تعالى وإقام الصلاة بأوقاتها، فأجاب والله المستعان، وعليه التوكل، ولا حول ولا قوة إلا بالله:

إن تعليم الرمي فرض عين يجب على كل من عرف أمرًا من أوامره المباحة المنتفع بها للإسلام أن يأمر به ويعلمه للناس، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: 2] كيف وقد أمر ﷺ بتعليمها: (ارموا واركبوا، وإن ترموا أفضل إليّ من أن تركبوا..) الحديث. وعلى هذا ومن أجله يجب على الرئيس أحمد بن إبراهيم العمري ثم الماسي ان يزيد على تعليمه للناس الرماية. على نية الجهاد لله وسنة رسوله ولا يقصر من ذلك أو يغتر بأفواه العامة والجهال الذين لا يعرفون فضل ذلك ولا يقدم من لم يعرف ذلك الفن وأحواله أمام من يعرفه كحكم الأمانة، وبه كتب عن سؤال صدعًا بالحق محمد بن عبد المالك، وعبد ربه تعالى محمد بن عبد المالك الزكراوي لطف الله به. انتهى وهذان لا أعرفهما الآن، ويظهر من هذا الكاتب الجيد العبارة والفهم أنه علامة كبير، وربما أحسب أن الأول سيدي محمد بن عبد المالك اليزيدي الشهير في تامازت وإن كان متأخرًا عن إعصار الكاتبين قبله.

وبعده ما يلي:

اعلم بصحة ما رسم أعلاه، ففي المعيار والفشتالي، والبرزلي والغرناطي أن المسألة المشهورة تغني عن الاستشهاد، ولا يحتاج إلى جلب النصوص المذهبية وكتبه حجة قوية لماسكه عبد الله سبحانه الرئيس أحمد بن إبراهيم بماسة أعانه الله على الصراط المستقيم، عبد ربه سبحانه أحمد بن يوسف بن محمد المرابط الداوودي الدغسي الهرفالي، وفقه الله آمين انتهى أقول كذلك لا أعرف الآن هذا العلامة الآخر والهرفاليون العلماء نسمع بهم في جهة القبلة من سوس.

هذا ما في المجموعة القيمة، وقد سقنا هذه الآثار لأمرين:

أولهما: لنعرف أربابها، لأننا ـ كمؤرخين ـ نستشف رجال سوس من أي جهة عنت، ولا يعرف الرجال إلا بآثارهم وكل هؤلاء مشهورون في عصر واحد.

وثانيهما: إدراك مقدار التفريط في هذه الناحية عند المغاربة حتى يحتاج

فيها إلى الاستدلال مع أن الله تعالى قال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60] وقال النبي ﷺ: «إلا أن القوة هي الرمي» كرر ذلك ثلاث مرات، والتجنيد الإجباري والتعليم العسكري من أبرز الواجبات على المسلمين إن أرادوا أن يشاركوا في حياة هذا العالم بين الأمم القوية، فما المسابقة بالخيل ـ وهي مشهورة في أيام الإسلام الأولى ـ وما الملاعبة بالرماح بأيدي الحبشة في المسجد النبوي، وما أمره ﷺ بالرماية، وما قوله: أن السهم ليدخل به الجنة الرامي به وناحته، إلا الأدلة الواضحة لهذا الواجب الكبير الذي كان فرض عين في زماننا هذا حتى تستحيل المساجد ثكنًا وأفنيتها ملاعب لتعليم الرمي والركوب فوق الدبابات والطيارات فتكون أسياف البحار مساكن للتدرب على البحار في البوارج والنسافات والغواصات، ويرحم الله آخر ملك مغربي له هذه الهمة، ألا وهو سيدي محمد بن عبد الله، باني السويرة.

هذه نفثة مصدور عرضت قد تعد لغوًا عند كثيرين ممن لا يزالون أبناء أمس وهزة عنيفة لأبناء اليوم الذين ينظرون ويسمعون ويعقلون ويتدبرون ويشعرون.

ومما لفت نظري أيضًا إلى هذه المجموعة، وحملني على أن أمعن فيها النظر، سماعي من شيخنا العلامة شعيب الدكالي أن قال طالما فتشت عن سند للرماية المتداولة الآن في هذه البلاد، فلم أجده ثم قال لكنني أحسب السند يتصل بسعد بن أبي وقاص المسدد الرمية بدعوة من النبي ﷺ هذا ما قال فحملني ذلك على إكبابي على هذه المجموعة، فإذا بي خرجت منها صفرًا من سند يعتمد على مثله.

وللرماة في قبائل الحوز أيام معلومة يجتمعون تحت أنظار مقدميهم فيتبارون في الرمي وإصابة الأغراض، فيقيمون لذلك الحفلات ثم لما نزعت الحكومة ـ بعد الاحتلال ـ البنادق من الناس ومنعتهم من مداولة البارود، لم يبق إلا تلك الاحتفالات الطعامية السنوية وهذه الحفلات كثيرة في سفوح درن إلى الآن وربما كانت أمثالها في سوس في تيمولاي بافران تقام حفلة سنوية للرماة إلى الآن ويجري مثلها في فاس، وفي الرباط في الأعياد قبل هذا العهد.

* * *

بهذا أمضيت ما قبل الغذاء ثم تغدينا فاسترحت ما شاء الله ثم لما صلينا العصر أتيت بالكناشة المشهورة في رسوم بودميعة فصرت أتتبعها فانقل منها ما ألحقه بكتاب (إيليغ القديمة) ثم (إيليغ الحديثة) ففي أثناء ذلك أتداول مع الفقيه سيدي مبارك التوماناري الذي كان ورد علينا قبل الغذاء فأستفيد منه عن أهله وعن أخواله التومانارييين ما أدخله في تراجمهم في كتاب (المعسول) إن شاء الله وقد تفضل فناولني هذه الأبيات مع هذا النثر الذي ذكره قبلها، ونص الجميع ـ غاضًا الطرف عما فيه ـ اللهم اجعلني فوق ما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون.

في تاريخ 11 شوال عام 1361هـ ورد علينا الإمام العالم الهمام السيد الجليل والبارع المتقن المشارك في جميع فنون العلوم الإسلامية الذي لا يأتي الزمان بمثله السميدع البحر الخضم سيدنا وأستاذنا الشيخ سيدي محمد المختار ابن الشيخ سيدي الحاج علي الإلغي، وهو من سلالة الأخيار ومنابع العلم والهدى ومطالع الأسرار والأنوار إلى حضرة إيليغ ذات المجد والشرف والعماد الرفيع وصاحبة الفضل والأفضال على كل هذه الآفاق بالاتفاق، فأجرى الله على لسان العبيد الضعيف مبارك التومانارتي عند التلاقي شبه أبيات نصها:

كل عصر بحمد ربي كفيل — أن يسل مهند مصقول
يلبس الدين حلة من حرير — وشيها تحت كل طرف جميل
فإذا ما اهتديت فهو إمام — وإذا ما ضللت فهو الدليل
وإذا ما عريت فهو لباس — وإذا ما ظمئت يشفي الغليل

وهي أكثر من هذه، فأجبته بما يلي بديهة:

أزلال أثر الظمأ سلسبيل — أم مدام مزاجها زنجبيل
أم رضاب ممن يعانق مرشو — ف وظل الوصال ظل ظليل
أم قريض من شاعر إن تصدى — لميادين كل قول يصول
فلقد جاءنا بشعر بليغ — ما له في البيان قط مثيل
كرياض مفترة الزهر عنها — مر ذيل النسيم وهو بليل

نتحسى الكأس الدهاق به سمـــعا وكأس الأسماع شيء جليل
شعر بدر العلا مبارك من فكـــر سواه عما يقول كليل
سمت فكري بأن يجاريه لكـــن به دون ما يراد نكول
دام للمجد والمعارف والشـــعر به فارس أبي صؤول
وسلام عليه من صاحب ليـــس له عن أخي الصفاء عدول

وفي الأصيل جلنا أيضًا جولة حول المسجد الكبير المنسوب لسيدي عبد الله بن عمر بن بودميعة، وقد صلينا فيه المغرب، وزرنا منه قبر الفقيه سيدي علي بن عثمان، وبهذا المسجد يقتدي أهل إيليغ، وقد سمعت الرئيس سيدي علي رب مثوانا يندد على إمامه في تكبيره بصلاة الصبح، قبل تحقق طلوع الفجر فأمره بإعادة الصلاة، وهذا مما يدل على اهتمام الرئيس بالتكبير سحرًا كما هو ديدن أهله جميعًا من قديم، بل ذلك عادة مؤكدة عند والده وعند جده، وهذا ديدن كل أهل المخزنية القديمة الحسنية.

هكذا قضينا يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال، ثم بكرنا يوم الخميس على السفر فبعد أن تناولنا الفطور ودعنا أولئك الكرام شاكرين إحسانهم وحسن ضيافتهم الجمة العظيمة، ثم صمدت مع سيدي الحسن ابن الرئيس إلى مشهد الشيخ سيدي أحمد بن موسى رضي الله عنه، فانتظرنا ريثما أتى البواب فأدور حول قبور العباسيين وحول القبة فرأيت أعمالًا تعد عظيمة في بيئتنا وقد كانت قبة الشيخ مبنية على عهد سيدي الحسين، ثم دخلناها فترحمنا على الشيخ العظيم حيًّا وميتًا، وكأن روحه تطل علينا من قبره وفوق الدربوز أغطية كثيرة من بقايا زمان رخص المنسوجات فتصدقنا على مساكين ضريح الشيخ ومن معه بما تيسر ثم نزلنا في زاوية الشريف سيدي محمد ابن سيدي الحاج إبراهيم في قرية آيت عروس فبعد ساعة استقبلنا الطريق في نحو العاشرة أو قبلها بقليل.

أدوز:

أقبلنا وللبغال وخدان وذميل في تلك البسائط البطحاء المستوية كأنها راحة، وقد قلّت فيها الأشجار إلا بقايا قليلة منفردة من أركَان مما يدل على أن هذه البطائح

كانت كلها قبل اليوم غابة أشبة ثم لم تزل بها الأيدي حتى عادت قاعًا صفصفًا، فلعل ذلك هو السبب، حتى قلّ نزول الأمطار في تازاروالت فإن علماء طبائع العمران يقولون أن للغابات في كثرة الأمطار سببًا ظاهرًا ولهذا نرى الأمم الحديثة تعتني بتنظيم الانتفاع من الغابات حتى لا تأتي عليها اليد فتتضرر الأرض كما تذهب الغاب التي كانت ذات منافع للناس، وهذا هو أحد الأسباب حتى نظمت الحكومة المغربية أمر الغابات وجعلت عليها إدارة خاصة، ولعل ذلك في المستقبل يأتي بنفع عظيم لهذا القطر السعيد، ثم دخلنا في تراب بعقيلة فتغيرت هيأة الأرض وغلبت الحزون على السهول والأراضي الشعراء على المكشوفة فنتسلق جبالًا ونجودًا وننحدر في ثنايا ووهاد حتى أطللنا على (أدوز) فقلت سلام على دار العلم والعلماء سلام على مدرسة العلوم الكثيرة سلام على مثابة السنة ومقاومة البدع وإحياء ما اندثر من شعائر الإسلام سلام على الأجداد الذين تجري في شراييني دماؤهم الحارة سلام على تلك الأرواح الطاهرة التي لا تعرف في حياتها إلا العمل للصالح العام، سلام على سيدي إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن يعقوب وعلى ابنيه سيدي علي بن إبراهيم وسيدي أحمد بن إبراهيم وعلى حفيده سيدي محمد بن أحمد بن إبراهيم وعلى سيدي محمد بن أحمد المرابط وعلى سيدي محمد بن محمد ولده، وعلى أبي حامد سيدي العربي بن إبراهيم وعلى ابنه سيدي محمد بن العربي، وعلى سيدي عبد العزيز وعلى سيدي المحفوظ وعلى البقية الباقية من هذه السلالة المباركة الطيبة سلام تام على كل من في أدوز وعلى كل من مضى في أدوز وعلى كل من أخذ من أدوز، وعلى كل من أحب أدوز فأحب أطيب بقعة رفعت لواء العلم والإرشاد والسنة ما يناهز قرنين ونصفًا.

نزلنا هناك عند الظهر فتلقانا الفقيه عميد أدوز اليوم ومدرس مدرسته الخال سيدي أحمد بن محمد بن العربي مع ابنه النجيب سيدي الحسن ومع من هنالك كالخال سيدي إبراهيم بن محمد بن العربي وابن الخال سيدي الطاهر بن العربي بن محمد بن العربي فرحبوا بنا ترحيب من أوى إليهم من هو من أنفسهم (وابن أخت القوم منهم).

نزلنا على الرحب والسعة وقد وجدناهم في انتظارنا لأن الإعلام سبق إليهم بتعيين اليوم ثم أتانا الخال ببعض كتب ولكن بعد العصر حدث أن ذهب خادم معي ببغلة من بغال الرئيس الجليل سيدي علي بن محمد الإيليغي وهي التي ركبناها ليوردها، فإذا بها تردت في نطيفة[1] خالية من الماء وقد أمرها عليها جهلًا منه، فحفظها الله، فما زالوا بها إلى مغرب الشمس حتى اطلعوها.

ومن أغرب المصادفات أنني كنت أحدث بعض من معي بأخبار عن الشيخ سيدي عبد الله بن يعقوب جد الأدوزيين هؤلاء، فكان مما حدثته به ما وقع له في مجلس الحديث، وقد مر حديث «إن المؤمن يصاب» فقال نحن إلى الآن محفوظون، وكأننا لا حظ لنا في هذا المقام، فإذا ببعض أصحابه يخبره بموت بغلته، فحمد الله على ذلك، أخبرت صاحبي بهذا ثم لم ننشب أن سمعنا بما وقع للبغلة، فقلت عجبًا؛ (إن البلاء موكل بالمنطق) فطلبنا من الله السلامة والعافية.

تفاءل بما تهوى يكن ولقلما يقال لشيء كان ألا تكونا

بعد العصر وقد علمنا بسلامة البغلة، وقد اشتغل الناس بها، قطعنا الوهدة من الديار إلى تلك الثنية التي في سفحها المدرسة، فدرت فيها ورأيت بيوتها البدوية الواطئة، فقلت: (بجيرانها تغلو الديار وترخص) فمن يقول أن هذه البنية البسيطة كانت ممر طبقات من الطلبة حتى أنها في حين من الأحيان تضم مائتي طالب، كما كان فيها عام 1286هـ يوم توفي أبو حامد سيدي العربي وهذه المدرسة قيل إنها أقدم من هؤلاء الأساتذة اليعقوبيين، فقد كانت قبل الحادي عشر، وربما كان يدرس فيها الأستاذ سيدي محمد بن محمد بن عبد الله بن يعقوب سنوات 1110هـ قبل أخيه إبراهيم حين كان أهله الآخرون يدرسون في مدرستهم بتازموت بسملالة، ويظن أن أصل أملاكهم المؤثلة كانت من ذلك العهد، لأنها لم تكن إلا لأبناء سيدي محمد بن عبد الله فقط ثم اشتهرت المدرسة بعد بسيدي إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن يعقوب، فابنه علي وحفيده محمد بن أحمد بن إبراهيم فسيدي محمد بن أحمد المرابط فسيدي

---

(1) النطفة: الماء الصافي، وهو المنسوب إليه فالكلمة عربية فصيحة وتجمع على نطفيات وجمع الكلمة على النطافي خطأ محض.

محمد بن إبراهيم الووشاني، فأبي حامد العربي فابنه ابن العربي إلى آخر الأساتذة المتأخرين، والعادة المتبعة أن يتولى المدرسة من كان أسن في علماء الأسرة، ولذلك تولاها الآن الخال أبو العباس حفظه الله، وفي المدرسة الآن ثلة يقرأون التسهيل والمختصر والتفسير أحيانًا.

صلينا المغرب في المدرسة ثم توجهنا إلى المثوى منحدرين من الثنية وإنها لعقبة صعود كأداء وذلك عذر واضح للجد ابن العربي حين كان يتخلف في إسنانه في الدار، فينيب عنه من يدرس في المدرسة مطلق الدروس، إلا التفسير والحديث، فيذهب الطلبة إلى داره، فيتلقونهما عنه وقبل أن نصل المثوى تلقانا العالم الجليل سيدي المدني بن أحمد الاكراري صنو المؤرخ مع النجيب سيدي أحمد بن محمد ولد المؤرخ، وقد كانا وردًا مع قرينتيهما لصلة الرحم في أدوز، فالأول اقترن بكريمة الخال أبي العباس، والثاني بكريمة الخال أبي سالم، فتلقيت منهما من كنت في أشواق إلى لقائه، ولم أكن قبل اليوم تلقيت بسيدي المدني، وما أشد فرحي اليوم حين لاقيته، وقد ذكر أنه ما حرص على زيارة أدوز الآن إلا رغبة في هذا اللقاء، فكان له أكبر الفضل، وبعد جلوسنا أتينا بصبرة من الكتب المخطوطة. وهي التي أوصي أو أوتي بها فقط، لأن فيها وحدها طلبتي، وبعد العشاء خرجت مع سيدي الحسن ابن الخال، فقد وجدنا أنوار البدر ارتد بها الليل نهارًا، فصمدنا إلى مقبرة (تاماشت) حيث بقيع جزولة ـ فيما يرون ـ وقد كانت هناك الليلة حفلة عامة، فوصلناها وأوزاع الشباب يقفزون تحت أنوار البدر المنير وربما يتقاذفون بهجر الكلام، وهم مغرورون بشبابهم، وقديمًا قالت العرب، الشباب أبله أي لا يبالي بما صنع:

فإن يك عامر قد قال جهلًا ... فإن مطية الجهل الشباب

زرنا المشاهد فرأينا ضريح الشيخ أبي حامد وابنيه أبي عبد الله وسيدي المحفوظ ومن قبلهم كسيدي إبراهيم اليعقوبي وسيدي علي بن إبراهيم وكأن تلك المقبرة مدفن القباب في فاس لكثرة القبور المعلمة فيها، إما بقوس وإما بقبيبة صغيرة للذكور وللإناث من هذه الأسرة اليعقوبية المباركة، فبعد أن ترحمنا على الجميع مررنا بالمسجد راجعين، فجال في ذهني زيارة النبي ﷺ

للبقيع قرب وفاته ليلًا، فقلت ما أحسن الزيارة لأمثال هذه المشاهد في سكون الليل، حين تصقل مرآة القلب، وتطهر النفس من شوائب النهار.

وفي صباح الجمعة أكببت على استعراض المخطوطات أمامي فأمر ما كان لا يؤبه به وهو الذي أعنيه بالكتاب العادي، إما لكونه موجودًا بكثرة وإما لكونه مطبوعًا متداولًا ثم لم أقع منه على نسخة قيمة فذة وإلا فأذكره ذلك ما أتخطاه وأثبت ما سواه وبهذا قضينا بياض نهار الجمعة إلى الأصيل فجلت مع الفقيه سيدي المدني وسيدي الطاهر بن العربي جولة انتهينا فيها إلى (تاماشت) فأوفينا من سطح المسجد الأنيق، وقد اعتنى بتشييده هكذا الجد ابن العربي رحمه الله من ذي همة، فكان هو المهندس وربما زاول العمل فيه بيده خصوصًا في الذي يتعلق بالزخرفة وكانت له يد صناع ثم رجعنا بعد ما استوفينا أنحاء المسجد إلا ما كان من داخل المصلى، فإن ثلة من أصحاب الطريقة الأحمدية يذكرون فيه وردهم فتجنبناه لأننا لا نريد التهويش[1] عليهم، وفي تلك العشية اقترح علي إلقاء درس حديثي على الكيفية الحضرية ويتعجب البادون من تلك الكيفية بل يتخذونها هزءًا وسخرية فامتثلت جهد المستطاع وبمثل هذا أمضينا كل نهار السبت والأحد بين كتب مختلفة وتقاييد مما أعجبنا، فمما وقفنا عليه هناك:

1) مؤلف لعمر بن عبد العزيز الكرسيفي في تفسير الدينار والدرهم والقيراط والدانق والنواة والنش والأوقية والمثقال، وهي التي ترد في لسان الشرع فبين مقاديرها بسكة عصره والمؤلف في ست صفحات طويلة وهو في مجلد فيه فتاوي العباسي بجمع سيدي أحمد بن إبراهيم وقد (طبعت) وقد رأيت هنا نسخة من هذه الأجوبة، نسخت لسيدي أحمد بن محمد القاضي من بني يحيى وقد وصف بالناسك الفقيه النبيه الخير وتاريخ النسخ عام 1201هـ ولا أعرف هذا القاضي الآن.

2) مؤلفه الشهير في السكك في خمس صفحات، وهو مشهور.

3) رجز في الوزيعة لأحمد أحوزي الهشتوكي الشهير في صفحة فقط لأنه مبتور لم يتم هناك وكأنني رأيت الرجز تامًّا في ورقات.

(1) نبهوا على أن التهويش هو الفصيح، لا التشويش.

4) العلم المبسوط في حكم بيع الملقوط رجز رفعه الهشتوكي المذكور إلى عبد الملك ابن السلطان المولى إسماعيل حين كان خليفة والده في تارودانت وقد توسط عنده في قضية رجل وهو صغير.

5) مختصر للرحلة العبدرية الشهيرة لم يذكر هناك المختصر ـ وقد أخبرت أن ابن الخطيب بن قنفذ القسمطيني اختصرها، ولعل هذا له، والنسخة سالمة من الخرم مخطوطة بخط حسن في قالب كبير طويل ويأتي هذا المختصر ـ في ما يظهر ـ في نحو ثلثي الأصل وهذه النسخة مجلدة مع نسخة من الشفاء لعياض، وقد رأيت هناك نسخة من الرحلة نفسها كما رأيتها أيضًا في (آزاريف).

6) شرح الهمزية البوصيرية لسيدي أحمد العباسي في القالب الكبير الطويل في نحو أربعين سطرًا وهذه النسخة غير تامة وقد وصلت قول البوصيري وأبو جهل إذ رأى عنق الفحل الخ ولا يعتمد الاختصار، والنسخة في ـ 80 ـ صفحة في ذلك القالب الذي وصفناه.

7) مؤلف لسيدي محمد بن إبراهيم (اعجلي) في ضبط الكلمات التي وقف عليها الهبطي في القرآن في ـ 40 ـ صفحة في نحو ـ 20 ـ سطرًا والنسخة بين مجموع مملوء بمتون في القراءات والرسم وهو مجموع وسط غير كبير.

8) الأمثال لأبي عبيد وهو كتاب مشهور رأيته بالخط مرارًا ولعله طبع اليوم وإنما ذكرته لأنه بخط الشاب المعتبط في شبيبته الأديب سيدي الحبيب الخال أتم نسخه عام 1298هـ وقد كتب بعده (إنشاء العطار) و(دوحة الناشر) فرغ من نسخ هذا الأخير عام 1295هـ فدل كل هذا على همته الفائقة مع صغره إذ ذاك له خط جميل كأنه خط والده وقد اعتبط فجأة في درس التلخيص عام 1306هـ ولكون همته تتعلق بهذه الكتب في ريق شبيبته ذكرته لا لغرابتها فافهم، ومقصودنا قدر الرجال مقاديرهم ـ خصوصًا نجباء الأبناء.

9) أنس الفقير لابن قنفذ نسخة مصونة كتبت عام 1050هـ للفقيه إبراهيم ابن الحسن الهوزالي والكتاب نفيس ونسخه وإن كانت توجد إلا أنها عزيزة، وفي الخزانة الإلغية الصالحية ـ في يد سيدي المدني ابن علي ـ نسخة

أخرى من الكتاب صحيحة، وفي الكتاب فوائد مغربية جليلة، تتعلق بالقرن الثامن حين كان هذا قاضيًا في (دكالة).

وقد ذكر السيدة عزيزة الشهيرة بوادي القاهرة إزاء (امينتانوت) ولم نر من ذكرها سواه، كما ذكر أبا زكريا الحاحي من أهل القرن السابع، وقد كان شيخًا عظيمًا صوفيًّا في عصره، كما ذكر رباط شاكر وما يقع فيه، والكتاب ألف أصالة في أخبار أبي مدين ومن إليه (وإبراهيم بن الحسن الهوزالي لا أعرفه إلا هنا).

10) شرح الشفاء للزموري، وقد سماه (إيضاح اللبس والخفاء في الكشف عن غوامض الشفاء) والكتاب وإن لم أعرفه كثيرًا غريب، والنسخة في مجلد كبير طويل لم يؤرخ نسخها والمؤلف ألفه عام 832هـ وخطه بين ولا بتر فيه ولا خرم، فالنسخة سالمة، وقد ذكر لي بعد أن الشرح عزيز جدًّا.

11) (تقييد البيان لمعاني عقيدة البرهان) شرح عبد الرحمٰن الكرامي على عقيدة السلالكي، ذكر في الخطبة أنه يعتمد على ابن الخطيب الرازي والآمدي والمازري والإسفراييني وأمثالهم، والنسخة في قالب صغير بخط بين جميل مقبول، يكون في الصفحة ـ 25 ـ سطرًا والناسخ عبد المالك بن سعيد بن علي بن عبد الله الأياوي التملي في رمضان عام 1179هـ والمؤلف من أهل القرن التاسع في أواخره وهو أخو سيدي سعيد الشهير وقد ذكرت رجالاتهم في (المعسول).

12) (أجوبة) لسعيد الهوزالي ومحمد بن محمد بن إبراهيم التامانارتي وعبد الله ابن يعقوب وعيسى السكتاني وسعيد بن عبد الله السملالي قاضي الجماعة رتبها هكذا سيدي ييبورك بن عبد الله في 48 صفحة في زهاء ـ 30 ـ سطرًا، والنسخة توجد في مجموعة صغرى.

13) (كتاب تاريخ) فيه مشاهير المالكية كعياض وإسماعيل القاضي وعيسى ابن مسكين، وابن شبلون وأبي عمران والبرادعي، وأبي طالب المكي وابن مغيث والسيوري والباجي وابن عبد البر وابن بطال وابن وهب وابن القاسم وكالبخاري والأئمة الأربعة ألفه سيدي عبد الله بن يعقوب

والنسخة في قالب وسط مائل إلى الصغر في أكثر من 30 صفحة، وهي محفوظة من الخرم والبتر، وخطها عادي حسن.

14) شرح المذكور على رجز سيدي محمد بن إبراهيم الشيخ التامانارتي الذي أوله (الحمد لله الغني المنعم) أتمه الشارح عام 1029هـ وهذه النسخة كتبت عام 1180هـ فيما يظهر وقد سمى الشرح (عمدة البيان في إيضاح دعاء الصبيان) والشرح غير كبير جلد مع ما قبله في مجلدة.

15) شرح سيدي يبورك على عقيدة المهدي الموحدي المذكورة في الطبقات السبكية في 13 صفحة صغيرة قال اختصره من شرحيها لمحمد بن يحيى الطرابلسي وابن النقاش وهو في تلك المجلدة والنسخة كتبت عام 1130هـ وقد رأيت نسخة أخرى من الكتاب في إلغ بخزانة سيدي الحسن التياسينتي.

16) (المفيد في شرح أرجوزة ابن سعيد) للمرغيتي والأصل رجز في الأوقات لمحمد بن سعيد العباسي القاضي والنسخة في زهاء 100 صفحة في تلك المجلدة.

17) (فتح الوهاب فيما استشكله بعض الأصحاب من السنة والكتاب) لسيدي يبورك في 26 صفحة في زهاء 25 سطرًا ويظهر أنها مجموعة بخط بعض أصحابه ثم سماها هو وقد انقطع الكلام فيها قبل تمام جواب سؤال فعلمنا أن هذه النسخة مبتورة.

18) (واسطة الفرائد في شرح كبرى العقائد) لأبي فارس الرسموكي رأيت النقل عنها.

19) (رجز الأكمه المراكشي وشرحه) نسخه محمد بن محمد بن عيسى البعقيلي لشيخه عبد الله بن يعقوب في 25 رمضان عام 1031هـ ولا أستحضر الآن - وأنا أجمع مقيداتي هذه - أهذا الشرح هو المذكور لسيدي إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الشيخ التامانارتي أم غيره (ومحمد ابن محمد هذا هو جد أهل تادرارت البعمرانيين).

20) (شرح رجز الفرائض) لابن ميمون لعلي بن أحمد الرسموكي والنسخة كتبت عام 1025هـ وقال ناسخها قابلتها مع المؤلف والأصل بيده وفيها

زهاء 40 صفحة في نحو 33 سطرًا في القالب الكبير وهي حسنة الخط محفوظة من الخرم والبتر.

21) (تحصيل المنى في شرح تلخيص ابن البنا) ليعقوب بن أيوب الجزولي وذكر في أوله أنه قرأ الأصل في حاحة عام 755هـ أخذًا، ثم تصدر للتدريس عام 761هـ فلخصه لتلاميذه ويعقوب هذا لا نعرفه، وهناك ما يدل على أنه شلحي اللسان، فالغالب أنه من سوس، والنسخة في زهاء 112 صفحة في 35 سطرًا في القالب الكبير وهي بخط العلامة عبد الله ابن يعقوب نسخها عام 1000هـ وهو إذ ذاك لا يزال يأخذ وخطها حسن بين، ومن الكتاب نسخة أخرى رأيتها في خزانة شيخنا سيدي عبد الله بن محمد الإلغي.

22) رسالة في المسألة المعروفة بالسبتية لمحمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الشيخ، وهي صغيرة مجلدة مع ذلك المؤلف قبلها.

23) فيصل التفرقة، بين الكفر «كذا» والزندقة للغزالي، وهو صغير كتبه أحمد ابن يحيى بن عيسى الرسموكي عام 1028هـ ويظهر من كلامه أنه عالم حسن سلس العبارة ولا أستحضر ذكره إلا هنا.

24) (شرح سيدي يبورك على صغرى السنوسي) في زهاء 116 صفحة في 25 سطرًا في قالب صغير بخط جميل إلا في ورقة آخره.

25) (كتاب عادي) نسخه عبد الرحمٰن بن إبراهيم بن محمد بن يوسف التملي عام 1130هـ ويظهر أنه عالم كبير، ولا نعرفه الآن إلا هنا.

26) نسخة من الأحكام الكبرى لابن العربي رائقة لعلها أندلسية مبتورة أولًا وآخرًا والكتاب مطبوع.

27) (كتاب عادي) نسخ للعلامة الكبير ـ كما وصف به ـ أحمد بن محمد بن عبد الرحمٰن بن محمد التودماوي التملي حي عام 1081هـ ولا نعرف الآن هذا العالم، وتودمي مثابة العلماء من قديم، إلا أنهم غير معتنى بهم في التاريخ، ومن هناك أصل البوشكريين الاكماريين.

28) (كتاب عادي) مكتوب للفقيه العلامة الناسك كما وصف به سيدي

محمد بن أحمد بن إبراهيم السكتاني التافانكولتي الآخذ عن العلامة سيدي عبد الكريم التورغي زوج أخت سيدي أحمد بن ناصر، وأجازه بالبخاري، هذا ما وجد هناك، والكتاب منسوخ عام 1163هـ.

29) (مقدمة الفتح) بخط أحمد بن علي بن محمد البوسعيدي الهشتوكي كتبها في زاوية تافيلالت بجبل (درن) زاوية سيدي يحيى بن عبد الله بن سعيد وأبيه عام 1014هـ في أواخر جمادى الأولى، والبوسعيدي هذا هو المشهور الصوفي الورع المتزمت المذكور في شرح ميارة على المرشد، هذا وهنا في أدوز بعض أجزاء من الفتح بخط شرقي، والبوسعيدي هذا انتقل إلى أبزو عند سيدي الصغير فقد وجدنا بخطه في خزانته مؤلفًا له في القراءات، ثم إلى زاوية الدلائيين حيث بقي ما شاء الله، ثم إلى فاس حيث ربض إلى أن مات، والبوسعيديون أسرة علمية، وله أيضًا من المؤلفات «بذل المناصحة» وذيل على ألفية العراقي والجميع موجود. وقد ذكر في «سلوة الأنفاس».

30) كتاب عادي منسوخ للحسن بن مسعود الهشتوكي قاضي تارودانت وقد وقفت له هناك على نقل من فتاوٍ نسبت إليه لم نعرفها، كما أنني وقفت أيضًا في هذه الجولة على مؤلف في سورة الإخلاص، لابن مسعود قاضي تارودانت، أخاله هو، كما وقت أيضًا في إزاريف على أن الحسن هذا كان مشيخة أحمد بن سليمان الرسموكي الفرضي فلنعرف ذلك فيكون في تارودانت حوالي 1080هـ وقد وقفت على رسائل للرسموكي المذكور كتبها إلى أهله من تارودانت.

31) منظومة في بحر الطويل لسعيد الكرامي ذكر فيها قصة منسوبة لابن عباس مرجعها إلى الشفاعة في نظم ليس هناك وهو صغير.

32) شرح لأبي زيد التامانارتي القاضي على لامية أحمد بن عبد الله الزواوي الجزائري التي أولها:

الحمد لله وهو الواحد الأزلي   سبحانه جل عن شبه وعن مثل

وهي قصيدة طنانة في التوحيد كما يظهر من لحظة أمررتها عليها مع سوق

نصائح، والنسخة كتبت بخط غير جميل بيد محمد بن إبراهيم الصوابي تلميذ المؤلف عام 1071هـ وهي في نحو 260 صفحة في 36 سطرًا في مجلد طويل، والمؤلف يطيل النفس ويستشهد بكل ما تيسر عن الأئمة والشعراء، وهذا المؤلف لم أره قبل ولم أسمع به وكذلك لم أعرف هذا الناسخ إلا هنا.

33) نظم علوم الآخرة لأبي فارس الرسموكي والأصل للثعالبي وهو في بحر البسيط، كتب النسخة ذلك الصوابي عام 1074هـ في 18 صفحة في زهاء 35 سطرًا وهذا النظم شرحه محمد بن إبراهيم الرسموكي الثوري المتأخر وقد رأيت الشرح كله في يد الفقيه سيدي عبد الله بن محمد الكرسيفي الاسكاوري في مجموع، وعندي بعضه كما شرحه الحضيكي أيضًا.

34) كتاب عادي نسخه داوود البعقيلي عام 985هـ ولا أعرف الآن داوود هذا مع أنه من علماء بعقيلة في عصره كما يدل عليه هذا وأثر آخر رأيته له وهو عالم بلا ريب.

35) وجدت في كتاب هناك ما نصه: في 23 شعبان عام 1133هـ توفي الفقيه أحمد بن إبراهيم بن سليمان الاماسيني وهو من نجباء تلاميذ سيدي عبد الله بن يعقوب، هذا ما وجد، فيكون حينئذٍ معمرًا لأن سيدي عبد الله بن يعقوب توفي عام 1052هـ فيعيش بعده نحو ثمانين سنة وذكر أن المقصود اماسين بأسيف ادرار.

36) الجواهر لابن شاس بخط مدمج رائق والنسخة مبتورة أولًا وآخرًا مجموعة الأوراق بغير دفتين وهو وسط غير صغير ولا طويل ويظهر أنها نسخة قديمة.

37) شرح بعض أبيات عمدة الموثق لأحمد العباسي مما أغفله شارحها سيدي يبورك وهو صغير.

38) مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب نسختان إحداهما كتبت عام عام 881هـ والكتاب توجد نسخه أو لعله مطبوع.

39) براءة الذمة من قول بعض الأئمة، للجد ابن العربي لا يزال في مبيضته في زهاء 75 صفحة بخط المؤلف المدمج وهو مؤلف ضد الدين يظهرون

الكسرة في الإمالة عمدًا في الصلاة وسمعت أنه ألفه ضد الأستاذ سيدي الحاج علي أبي الوجوه من القراء الكبار الذين كان ينهاهم عن ذلك فلا ينتهون، وقد رأيت لأبي فارس الأدوزي نقضًا لمضمن هذا الكتاب فأجاز الصلاة وراء الحاج علي المذكور حين كان مشارطًا في أساكا اوبلاغ وقد كان ابن العربي يفسد الصلاة وراءه.

40) شرح مسعود التفتازاني على مختصر التصريف للزنجاني بخط جميل حضري مبتور أخيرًا، والكتاب قد يكون غريبًا وقد يكون موجودًا فذكرته للاحتياط ولكون الخزائن السوسية توجد فيه أمثال هذه الكتب.

41) حاشية لسليمان المغربي الجربي المالكي على شرح مختصر السعد على التلخيص وقع في النسخة بتر.

42) منظومة السبيل الأحمد في علم الخليل بن أحمد، لإبراهيم ين أحمد الجعفري والنسخة بخط حسن.

43) حاشية سيدي علي بن أحمد الرسموكي على المكودي على الألفية والنسخة انتهت إلى باب العطف، ثم انبترت، ولكننا نسمع بتمامها.

44) كتاب عادي استفدنا من بعض الطرر فيه أن عيسى السكتاني كان قاضيًا في أحواز مراكش قبل أن يكون في تارودانت التي منها انتقل إلى قضاء مراكش وأحفاده لا يزالون يقطنون الآن في سكتانة الحوز.

45) فوائد حديث الإفك للجد ابن العربي في صفحات بخطه المدمج ذكر في أوله أن النووي ذكر في شرحه على مسلم أنه استنبط من الحديث 54 فائدة ثم زاد هو عليها حتى وصلت 137 فيتتبعها تبيينًا، والنسخة هي المبيضة ولم يتم فيها العدد المذكور، ولعله أتمها في نسخة أخرى، وهكذا ضرب الأدوزي مقياسًا لعله أسمى من استنباط ابن الصباغ المكناسي من حديث: يا أبا عمير ما فعل النغير أربعمائة مسألة أن قيس كل واحد منهما ببيئته، وهذا الاهتمام بمثل هذا الاستنباط من الحديث يقل عند المتأخرين الذين لا يعتنون بالحديث، فكان مزية عظيمة لهذا العلامة الأدوزي الجزولي المتربع بين شعاب قمم هذه الجبال وما أعظم

بعض من تكنهم هذه الجبال الجزولية، إلا أن البادية تئد أبناءها وتأتي على جهودهم.

46) حاشية أحمد العباسي من جمع بعض أصحابه على خليل مجلد ضخم والنسخة مبتورة ولعلها كانت تامة في الأصل وفي بالي أن جامعها هو تلميذه سيدي أحمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن يعقوب، وهو الذي جمع منشداته في مجالسه كما جمع فتاويه المشهورة المطبوعة.

47) كتاب عادي في إحدى دفتيه مسعود بن سليمان بن إبراهيم البعقيلي السطحي، ويظهر من أثر له هناك أنه حي عام 1066هـ وهو عالم مذكور رأيت له أثرًا آخر يدل على شفوفه بين علماء عصره.

48) شرح لسيدي محمد بن أحمد المرابط الأدوزي على اليوسفية في 24 صفحة في زهاء 30 سطرًا والشرح يدرس به في أدوز في الصفوف الابتدائية.

49) شرح لسيدي يبورك على المبنيات البرجية الفلالية وهو مشهور وقد شرحها أيضًا سيدي محمد بن أحمد بن إبراهيم الأدوزي وهو موجود أيضًا، وذلك الشرح اليبوركي في 38 صفحة.

50) شرح حدود شهاب الدين الأبدي لسيدي علي بن أحمد الرسموكي في 12 صفحة في 27 سطرًا ونسخه متعددة.

51) شرح للحاج الحسن بن عبد الله بن سعيد الهشتوكي على مؤلف الحساب للقلصادي في 26 صفحة صغرى في 22 سطرًا، وهذا المؤلف لم أعلمه قبل ولم أره إلا الآن.

52) جامع التحصيل لأحكام المراسيل لخليل بن العلاء كيتخدي الشافعي في مجلدة والنسخة قيمة لأنها بخط المؤلف نفسه، على ما غلب على ظني وهو خط مشرقي فيه بتر قليل في أوله أتمه خامس صفر عام 746هـ ببيت المقدس، وعلى النسخة خط أبي زرعة الشافعي بأنه أخذ الكتاب عن مؤلفه في 13 صفر عام 747هـ وفي مؤخره فوائد، والنسخة من أحباس المدرسة من سيدة كرسيفية، حبست كتبًا غير قليلة عليها، والنسخة المذكورة مما

يتغالى فيها، وعليها مكتوب انها سمعت بين يدي الحافظ الذهبي، ولضيق الوقت لم يتيسر إلا أن أصفها هذا الوصف الذي لا يفي بقيمتها الغالية وهناك نسخة أخرى قديمة في الخزانة الكتانية اختلسها الكتاني من خزانة السويرة، وقد ترك كراريس كان ينسخ فيها، فذهب بالأصل كله.

53) نسخة من البخاري ملوكية ذهب أولها محلاة بذهب وهاج، وأولها: أخبرني الفقيه الحافظ أبو علي حسين بن محمد بن فيرة الصدفي في قراءة مني عليه بدانية حرسها الله، قال أنا الفقيه القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي قال أنا الشيخ أبو ذر الهروي إلى آخر ما هو معلوم في هذا السند وإطار كل صفحة من الجوانب الأربعة المربعة ثلاثة خطوط وهي بخط حضري جميل عال في النفاسة، ولا غيب فيها إلا أنني لم أقف هنا على تمامها، فخلت من تاريخ نسخها، وهذا الجزء وصل إلى قوله: باب أمر النبي ﷺ بالسكينة الخ. ولضيق الوقت لم يتأت وصف المجلد كما ينبغي، هذا وقد رأيت هناك نسخة أخرى ملوكية الخط والتسفير من سنن النسائي حديثة النسخ لم يزالوا محافظين على رونقها.

54) جزء من تفسير ابن عطية كتب بمراكش عام 995هـ.

55) الوجيز لابن غلاب مجلد ضخم مبتور أولًا وآخرًا، وهو بين الخط ويظهر أن الذي ينقص النسخة أولًا وآخرًا قليل.

56) شرح ابن الناظم على التحفة العاصمية، كتب عام 1094 والكتاب موجود.

57) مصابيح الجامع للدماميني على البخاري في مجلد ضخم جيد الخط كتبه الحسن بن علي بن سعيد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الله الأندلسي الغرناطي المشهور بالسراج في صفر عام 997هـ.

58) شرح على موطأ مالك مجلد ضخم ـ وصنيعه هكذا: بوب للعينة ثم ساق كل ما في الباب من المتن ثم قال التعريف فيذكر رجال الحديث ثم قال اللغة وما كان في معناها فيأتي بكل ما يتعلق بلغة الحديث ثم قال السند وما يتعلق به فيتكلم عليه بالصناعة الحديثية ثم قال المعنى وما يدخل فيه

من الفقه فيطنب في التفريع وبعد كلام كثير قال الفصل الأول ثم الثاني ثم الثالث هذه كلها أطال فيها النفس والمؤلف على كل حال لا يغادر ما في إمكانه فيحشر كل ما يعرفه مسهبًا، إسهابًا والموجود من هذه النسخة: من باب الصرف إلى منتهى الإجارة في 300 صفحة في زهاء 29 سطرًا في قالب يميل إلى الاتساع والطول بخط حسن لعله فاسي وهذا المجلد سالم إلا من بعض ثقوب قليلة بالأرضة، إلا أن ورقة في الوسط اسودت وتمزق بعضها وكثيرًا ما يقول أثناء كلامه أبو الوليد يعني قال أبو الوليد: وأحسبه الباجي لأنه أحد من يكنى به، وقد ذكروا له على الموطأ هذا المنتقى المطبوع وهو مختصر من كتاب آخر أطول منه سماه المجتبى ولعل هذا جزء من المجتبى ولا أخاله من التمهيد.

59) كتاب عادي كتب الجد ابن العربي ما يأتي: سيدي رحال البدلي توفي آخر العشرة الخامسة من القرن العاشر ونسبه، رحال بن أحمد بن حسن ابن القاضي بن عبد الواسع بن إبراهيم بن عبد السلام بن عبد الواسع بن إبراهيم بن عبد السلام بن محمد بن عبد الله بن سفيان بن جاهر بن علي ابن سليمان بن عبد الله الكامل الخ النسب المشهور، أصل أسلافه من تامدولت وهي مدينة قديمة عظيمة، كان منها معظم قبائل جزولة خربتها قبائل مجاط ثم تفرقت قبائلها. انتهى ما كتبه الجد مختصرًا وقوله خربها قبائل مجاط أطلق مجاط على أرض تيزلمي من باب المجاز المرسل، وإلا فإن القبائل التي خربت تمدلت هي قبائل حربيلة فيما شاع وذاع، وكانوا إذ ذاك سكان تيزلمي ويقولون أن مجاط لم تأت إلا بعد ومحمد ابن علي المنصاكي الذي ينسب إلى رياسته خراب تامدولت حربيلي بلا ريب، وكان يسكن في منازل قبيلة اد بنيران نبهنا على هذا لئلا يأتي من لا يفهم فيتخذ هذا حجة، ووقت خراب تامدولت الذي نفتش عنه لم نجده إلى الآن ويؤتى إليّ حدسًا أن ذلك وقع إما في آخر القرن الثامن وإما في أوائل التاسع وقد جربت ذلك بسلسلة من يقولون أن آباءهم انتقلوا منها وعينوا المنتقل فأجد ذلك صحيحًا بقسم ثلاثة ثلاثة من رجال النسب على كل قرن قرن على القاعدة الخلدونية، وقد شاع عند الناس

في جهة أقا أنها خربت في التاسع[1] والله أعلم.

60) نسخة من التلقين في مجلد غير طويل يميل إلى الضخامة كتبت عام 899هـ في كل صفحة 12 سطرًا بخط بين واضح، والنسخة سالمة لا خرم فيها ولا بتر.

61) فتاوي محمد بن علي المنابهي ثم المراكشي تلميذ أحمد بن سليمان الرسموكي، جمعها علي بن أبي القاسم بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمٰن البوسعيدي وكان تلميذًا للمنابهي والبوسعيديون من هشتوكة ينسبون إلى جدهم أبي سعيد ذي مشهد مشهور عليه مدرسة قائمة إلى الآن ومن هذه الأسرة الأستاذ الورع العلامة أحمد بن علي البوسعيدي وقد تقدم ذكره قريبًا ومحمد بن علي المنابهي مترجم في الجزء الخامس من تاريخ شيخنا العباس المراكشي.

62) كتاب عادي وجدت فيه أن عبد الله بن أحمد بن أبي القاسم الزعنوني ممن أخذ عن جسوس الفاسي الشهير حي 1113هـ ولم نعرف له ترجمة إلى الآن إلا أنني كنت رأيت من نقل ذكر مؤلف في البيوع للزعنوني فلعله لهذا والزعنونيون من رسموكة تسلسل فيهم العلم ولا يزال فيهم البعض حيًا وقد ذكرنا من عرفنا منهم في الفصل الأول من (القسم الرابع) من (المعسول).

63) مؤلف فيما يحتاج إليه المكلف في التوحيد والعبادات فيه 6 صفحات ثم انبتر لمحمد بن عمر بن عبد العزيز بن عبد المالك بن ابي محلى ولا أدري من هو الآن.

64) الإتقان بنسخ الأديب أحمد بن محمد بن يعزى بن عبد السميح التاغاتيني هاجي امزوغار ويوجد التاغاتيون إن شاء الله في القسم الخامس من المعسول.

---

(1) في الجزء الثالث من هذا الكتاب ذكر تامدولت ووصفها ومعاينة آثارها وما عرف عنها في التاريخ، وقد ذكر أيضًا أن الذين خربوا تامدولت هم الصنهاجيون، وقد جرى أيضًا ذكر ذلك في الجزء الرابع عند ذكر سيدي بعبدلي البراييمي.

65) كتاب عادي نقلت من طرر فيه، توفي سيدي محمد بن محمد أبي بكر ابن يحيى الواغزني عشية الأحد سابع رمضان عام 1190هـ والواغزانيون وهم إخوان البوشواريين أسرة علمية ذكرنا أفرادها في المعسول في الفصل الثاني من القسم الرابع.

66) أجوبة لسيدي أحمد العباسي غير المشهورة من جمع تلميذه الحضيكي في 110 صفحة صغيرة بخط مدمج إلى الغاية في 26 سطرًا وليست هذه النسخة إلا ملتقطة مما جمعه الحضيكي فيكون الأصل الذي لم نقف عليه أكبر من هذا بكثير.

67) شرح ألفاظ الغنية الناصرية للحضيكي في 46 صفحة على غرار ما قبل لأنهما في مجلدة واحدة.

68) أرجوزة للجد ابن العربي لعلها تناهز مائة بيت أو أكثر يحث فيها على الحرص في ازدياد العلوم لا سيما التاريخ وأولها:

فهاك بعض ما على الإنسان يعلمه من خبر الأعيان

69) الحقائق والرقائق للمقري جد صاحب النفح كله لطف إلى لطف يغلب عليه السجع ومزج الشعر بالنثر وهو خفيف الروح وما رأيناه هنا في 4 صفحات في القالب الكبير وقد نقل بعضه في النفح فينبغي أن يقابل به ليعلم أهو كله هذا، أم أن هذا ما هو إلا طرف منه وخطه جميل.

70) أجوبة لسيدي عبد الله بن يعقوب في 22 صفحة بخط رائق في قالب وسط، وهي من جمع بعض أصحابه، ولم نعرف الآن اسم الجامع وقد جلدت مع الأجوبة الروضية من مسائل مرضية لعمر بن عبد العزيز الايرغي الكرسيفي وهذه في سوس أشهر من قفا نبك ونسخها أكثر من عديد الطيس.

71) شرح لسيدي أحمد بن عبد الله بن يعقوب على مورد الظمآن في زهاء 100 صفحة صغيرة في نحو 26 سطرًا نسخت النسخة عام 1085هـ وأحسب الآن وأنا أقيد هذا أنها بخط المؤلف.

72) شرح لسيدي يبورك على فرائض المختصر في زهاء 60 صفحة في ذلك القالب، لأنهما في مجلد، ألفه عام 1029هـ.

73) شرحه على نظم التصريف لمعاصره سيدي عبد الله بن إبراهيم التيخفيستي السملالي في 24 صفحة في ذلك القالب لأنهما في ذلك المجلد والتيخفيستيون مذكورون بين تلاميذ عبد الله بن يعقوب في (القسم الثالث) من (المعسول).

74) تلخيص المقال في بيوع الآجال لأحمد بن علي من تحت السطح البعقيلي أصلًا، وهو شرح باب بيوع الآجال في المختصر في 18 صفحة في ذلك القالب من ذلك المجلد، والمؤلف من أهل الحادي عشر من العلماء المحققين، وقد قال سيدي عبد الله بن يعقوب عقمت البعقيليات أن يلدن مثله وله شرح على التلقين كذا بخط الجد ابن العربي، وهو من العلماء الكبار في النصف الأخير من القرن الحادي عشر، وقد ضاعت ترجمته وآثاره، ثم رأيت له في هذه الجولة حاشية على المغني في مجلد في 282 صفحة في 23 سطرًا.

75) موازنة الوتريات البغدادية لأبي فارس الرسموكي، رأيت منها نسختين في (أدوز) وفي (ءازاريف) وفي الأولى مكتوب آخرها أنها قوبلت بنسخة قال فيها مؤلفها هي العمدة وقد نسخت بيد أحمد بن إبراهيم بن عبد الله عام 1089هـ وأحمد هذا لا أعرفه الآن.

76) كتاب عادي استفدنا من طرة فيه اسم الفقيه سيدي محمد بن علي ابن أبي القاسم المزواري، ويظهر من هناك أنه في أوائل الثالث عشر والمزواريون أسرة علمية من رسموكة يذكرون إن شاء الله في (القسم الثالث) من (المعسول).

77) إعراب بعض كلمات القرآن منسوخ عام 1052هـ بخط موسى بن عمر بن إبراهيم الساموكني، ولم ينسب الكتاب ولا ندري أهو للسملالي المذكور، ثم رأيت في الخزانة (مفاتيح المغاليق) في إعراب أوائل الأحزاب، فعلمت أن هذا غير ذاك، وهذا لداوود بن محمد السملالي الشهير، والنسخة من إعراب أوائل الأحزاب تامة في 44 صفحة، اختلفت فيها أعداد السطور وهي في قالب صغير بخط غير جميل إلا أنه يقرأ. وفي أوائلها وأواخرها ورقات كتبت حديثًا، وموسى المذكور لا أعرفه.

78) مجلد ضخم طويل من مختصر ابن عرفة اوله الطلاق نسخ عام 977هـ وقد سلم من أي خرم.

79) مجلد ضخم طويل قديم النسخ من التنبيهات لعياض على المدونة وصل فيه باب السلم، وخطه بين فيه ثقوب قليلة من الأرضة ولم يوقت نسخه ونسخ كتاب التنبيهات قليلة جدًّا.

80) مجلد ضخم ملوكي الخط يتضمن مؤلفات شتى منها «حسن المقصد في عمل المولد»، و«الإنافة في رتبة الخلافة»، و«بذل الهمة في طلب براءة الذمة»، و«المعاني الدقيقة في إدراك الحقيقة» و«القول المنجلي في تطور الولي»، و«رفع الصوت بذبح الموت»، و«قطف الثمر في موافقات عمر» ومؤلفات أخرى كلها للسيوطي كما هو معلوم بعضه من الحاوي المطبوع وهي كلها بخط تقصر عبارتي عن وصفه كما أريد لجودته وبراعته وقد سال الماء على بعض السطور فيها حتى لا يقرأ، فكان هذا التفريط حزازة في نفسي فقلت آه يعطي الفول من لا سن له، وأثرها «الغماز على اللماز» للسنهوري في الأحاديث الموضوعة والضعيفة في 5 صفحات، والكتاب أعرف منه نسخة أخرى في إلغ عند الفقيه المرحوم التياسينتي ومنها نسخت نسختي، وبعدها «فهرست القاضي عياض، المسمى «الغنية» ذكر فيها 100 ترجمة على حروف المعجم، والفهرست كنت عرفته ولكن الذي استهواني هذا الخط الرائق الخلاب، والفهرست سالم لم يصله ذلك الأثر الناشئ عن سريان الماء من السقوف البدوية الواكفة ثم يلي كل هذا طرف من كتاب عظيم لا أعرفه الآن، وأول ما فيه (كشف المشكل من مسند زيد بن أرقم) ثم ذكر حديثه الأول (كنا نتكلم في الصلاة) إلى آخر الحديث المشهور في الصحيحين، ثم الثاني (غزا رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة) ثم الثالث (خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر أصاب الناس فيه شدة) ثم الرابع (نهى عن بيع الذهب بالورق) الخ وهذا صنعه فيبين بعد كل حديث حديث ما فيه من الإشكال بكلام واضح عال ثم ينتقل إلى حديث آخر إلى أن يأتي على كل الأحاديث التي يرويها ذلك الصحابي، فإنه بعدما ذكر أحاديث ابن الأرقم، انتقل إلى أبي بشير الأنصاري قائلًا كشف المشكل من مسند أبي بشير الأنصاري فذكر له أربعة

أحاديث، ثم انتقل إلى البراء ابن عازب قائلًا كشف المشكل من مسند البراء ابن عازب الخ الخ ينقل عن أبي عبيد وابن قتيبة والخطابي وابن السكيت والزجاج ونظرائهم وليس الكتاب بمشارق الأنوار بلا ريب، وقد مر بي أن كثيرين ألفوا في هذا الموضوع ولكنني الآن في غربة لا يمكن فيها تحقيق ما يراد لأعواز المراجع وما في هذا الكتاب هنا لا أول له ولا آخر. ويأخذ من المجموع الضخم 116 صفحة وهو أيضًا مصون من أثر البلل الذي أثر في أوائل المجموع ذي الرونق الجذاب وبخطه الجميل الرائع واحسب هذا الطرف من كتاب التمهيد لابن عبد البر ولو أمكن المقابلة لأدركنا حقيقة الكتاب وأثر ما تقدم رحلة العبدري بذلك الخط ومؤلف لعمر بن خليل الاشبيلي ثم التونسي حول أسماء الله الحسنى في 16 صفحة في ذلك القالب الطويل وأواخره تأثرت بالبلل حتى عفا بعضها، هذا ما في ذلك المجلد الضخم، وكله ـ كما في آخره ـ بخط عبد الله بن أبي بكر بن إبراهيم الكرسيفي أتم الكل كما يظهر في 14 صفر عام 1046هـ قال كتبته لسيدنا الإمام القائم بوظائف الإسلام عمدة الأنام وملجأ الضعفاء المرتضى الأسد سيدي أحمد ابن السيد الأصيل الأبر الحفيل سيدي إبراهيم كان له بمنه آمين فعلمنا الآن أن هذا الخط الرائع لهذا السوسي النبيل العثماني وأنه كتبه لأحمد ابن عم السلطان بودميعة فاستفدنا من ذلك همة إيليغ القديمة من هذه الجهة أيضًا ومرتبة هذا العلامة أحمد بن إبراهيم المتوفى في 11 ـ 6 عام 1065هـ كما وقفت عليه في هذه الرحلة، فالكتاب إذن من ذخائر إيليغ المنهوبة لعل يوم ثل عرش إيليغ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرَّحمٰن: 27] وقد علمنا من تاريخ الدلائيين أن بودميعة يرسل إليهم في استنساخ الكتب القيمة.

81) شرح لعقيدة سيدي سعيد بن عبد النعيم لسيدي يبورك في 12 صفحة صغرى وقد كنت رأيت من الشرح قبل اليوم نسخة أخرى في إلغ في خزانة التياسينتي.

82) شرح الممدود على قراءة ابن كثير لسيدي عبد الله بن يعقوب وهو شرح لنظم سيدي محمد بن أحمد المصمودي وهو في زهاء 100 صفحة ألفه عام 1029هـ وهو مع ما قبله في مجلد.

83) كتاب مسمى بـ«ابوتونورات» هكذا يفسر الألفاظ العربية بالشلحة كالرجل: أركاز المرأة: تامغارت وهكذا في 8 صفحات وقد أخبرني الفقيه سيدي عبد الله بن محمد بن علي الايكدماني الغشاني مدرس مدرسة بومروان أن عنده كتابًا صغيرًا على هذه الكيفية منسوبًا لابن تومارت الشهير ولعله هذا. ثم توصلت به فوجدته أوسع من هذا في تعريف الكلمات الشرعية وليس لابن تومارت المشهور وهذا كتاب غير كبير ولكنه مبتور، كما أفادني الفقيه المذكور أيضًا أن عنده ديوان ملك أندلسي فأرسله إلي، فإذا هو مجلد ضخم بخط نفيس لملك يعيش عام 818هـ من بني الأحمر وهو ذخيرة نادرة ظننت أنه يشتمل على أزيد من خمسة آلاف بيت، وله فصاحة وبلاغة وبيان أندلسي عجيب توصلت به وهو يطبع اليوم في تطوان[1].

84) كتاب عادي نسخه أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن يعقوب عام 1089هـ[2] فاستفدت من ذلك همة هذا العالم الذي لم أكن أرى له تلك المكانة حتى رأيت له آثارًا منها هذا.

85) كتاب عادي مخطوط في دفتيه سؤال القاضي ابن يوسف المراكشي للسوسيين عن مسائل فأجابه محمد بن الحسن اللكوسي، ومحمد ابن سعيد العباسي القاضي وعبد الرحمٰن التامانارتي القاضي وعبد العزيز الرسموكي القاضي وعبد الله بن سعيد السملالي الولتيتي يعني التيخفيستي وهذه المسألة النظمية توجد كلها أو جلها في المجموعة الفقهية التي جمعناها في الجزء الأول منها.

86) شرح الجمل للمجرادي لإبراهيم بن الحسن النظيفي ثم المراكشي ولم نعرف هذا إلا هنا ثم توقفت على أنه خطيب في جامع ابن يوسف بمراكش وأنه من أشياخ سيدي محمد بن إبراهيم أعجلي الشهير، كان

(1) تم طبعه فانتشر في العالم.

(2) هكذا التاريخ في مسودة الرحلة مع أن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن يعقوب توفي 1068هـ ولعل أحمد بن إبراهيم غير المتقدم.

يأخذ عنه في حدود 1120هـ كما شرحها أيضًا سيدي إبراهيم بن محمد الشيخ التامانارتي كما يوجد ذكر ذلك في شرحها لسيدي يبورك الشهير، وهذا موجود هناك في مجموعة، وقد أتمه عام 1052 كما شرح الجمل أيضًا سيدي علي بن أحمد الرسموكي، رأيناه هناك صغيرًا يجمع الأبيات بخلاف سيدي يبورك.

87) شرح لقواعد ابن هشام لأحمد بن يحيى السوسي، وقد رأينا النقل عنه، وسمى الشارح هذا شيخ الجماعة في زمانه، ولم أعرف الآن كل المعرفة أحمد هذا.

88) كتاب عادي عرفنا منه أن عبد الله بن يعقوب أخذ أولًا عن سيدي محمد ابن إبراهيم بن محمد الشيخ في مبادئه في تامانارت كما أخذ عن أخيه أحمد هناك قبل أن نذهب إلى تارودانت.

89) شرح لسيدي يبورك على عقيدة سيدي يحيى بن عبد الله بن سعيد المناني وقد عرف في أوله به، والنسخة في 6 صفحات صغرى كتبت عام 1085هـ فعلمنا أن سيدي يبورك شرح عقيدة سيدي يحيى كما شرح عقيدة جده سيدي سعيد الحاحي، كما شرح عقيدة ابن تومارت.

90) كتاب عادي استفدنا منه أن صالحًا المشهور تلميذ السكتاني هو صالح الامسداكني لا المسكيني كما كنا نتوهمه في الرحلة الأولى، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114].

91) رجز في نقل الخبر بالواحد أو شهادته لا يزال في مبيضته وأوله:

الحمد لله العليم الحاكم   بعدله على كتاب قائم

ولعله لبعض الأدوزيين.

92) عمدة الناجب في شرح ابن الحاجب في مجلدين ضخمين طويلين كان قد نسخه كما يظهر داوود بن يعزى بن يوسف عام 892هـ والكتاب سالم من الخرم والبتر وهو غير شرح التاغاتيني الذي يذكر وقد ذكر للزموري شرح على الكتاب أهو هذا؟ وهل يوافق تاريخ الزموري هذا الوقت؟

93) مختصر الفوائد والصلة والعوائد لمحمد بن أحمد البعقيلي ثم الروداني

ويتضمن هذا المختصر آيات يستشفى بها في زهاء 30 صفحة ووجدت في محل آخر أن هذا المؤلف يسمى منقوط العرائس والعوائد من كتاب الفوائد والصلة والعوائد.

94) كتاب تاريخ وجغرافية يسمى الاستبصار في عجائب الأمصار لم أستحضر الآن مؤلفه وقد ذكر عن مصر كثيرًا وعن آثارها القديمة كما تتبع كل أقطار المغرب والسودان ولسوس فيه نصيب كبير فقد ذكر من مدنه تامدولت واكلي، والكتاب مؤلف نحو عام 589هـ وهو مجلد بخط قديم وفيه بعض بتر، وهو في يد أولاد الخال سيدي العربي وقد علمت بعد أنه كتاب نادر ومنه نسختان في المكتبة العليا بالرباط مبتورتان ثم صارت إلي النسخة المتقدمة فاستتممت منها إحدى النسختين في المكتبة والكتاب مطبوع ببتر.

95) شرح سيف النصر لحسين الشرحبيلي، والأصل لأبي عبد الله ابن ناصر ذكره في الدرر المرصعة التي رأينا منها نسخة هناك حسنة الخط.

96) شرح الجوهر المكنون لأحمد العباسي في 66 صفحة في قالب طويل في نحو 38 سطرًا.

97) مسوغات الابتداء شرح لنظم بعضهم لسيدي علي بن أحمد الرسموكي في 5 صفحات ألفه وهو ناشئ عام 1004هـ.

* * *

هذه هي الآثار القديمة التي لفتت بصري أثناء تصفحي السريع لكتب الخزانة الموجودة عند الفقيه الخال أبي العباس ولكتب الخزانة بالمدرسة زيادة على مؤلفات الجد التي منها كتاب الحيل في مجلد غير صغير بخطه، ويسوق فيه حكايات الاحتيال ويلم أحيانًا بالحيل الميكانيكية وببعض أمور صناعية يتوصل فيها بالحيل إلى المقصود، ومنها رحلته إلى الحمراء وشرحها ولكن كل ذلك إنما مررت به مرورًا، لأن هذه المئات من الكتب تحتاج إلى أسابيع لا إلى الأيام القليلة التي قضيناها هناك، ولا يعلم إلا الله كم فوائد تستخرج من تلك الخزانة أن تأتى

فيها متصفح متمهل يمشي الهوينا لا أمثالنا الذين كانوا على أوفاز، وكلما تذكرت أنني الآن أفوز بما لم يفز به غيري من هذه الخزانة أصابر ساعات طوالًا حتى يكل كل من معي، وجزى الله من كانوا يعينونني هناك في نسخ رسائل وقصائد مما احتاج إلى نقله إلى «المعسول» كابني الخال الفقيه سيدي الحسن، وسيدي الطاهر وسيدي أحمد الاكراري وسيدي المدني ظللنا هكذا بياض الجمعة ثم ألبست وقد ورد علينا الفقيه الشاب الأديب سيدي أحمد العوفي حين سمع بورودنا إلى أدوز، وقد كان ينتظر قدومنا وعند العصر خرجت معه إلى تاماشت فكان يفضي إلي بأخبار الحمراء، لأنه حديث عهد بزيارتها وعند الرجوع تلاقينا مع الفقيهين سيدي المدني وسيدي أحمد الاكراري، فقضينا ساعة في مجاذبة الحديث حول أخذ العلم حتى صلينا المغرب فأبنا إلى المثوى ولم ينشب أن ورد علينا العلماء الكبار سيدي علي ابن الطاهر المحجوبي، وقد كان تواعد معنا أدوز وسيدي أحمد بن الطاهر من مشيخة الأسرة اليعقوبية المسنين وقد كنت كتبت إليه رسالة أن تيسر له الورود للتعارف فتفضل على كبر سنه، فأنعم علينا بنعمة ما مثلها نعمة وثالثهم الأديب الأريحي سيدي المحفوظ سبط الشيخ ماء العينين الحافظ السيال إنشادًا وهو يقطن في (وجان) فحمدنا الله على جمع الشمل بهؤلاء الأفاضل العلماء الخناذيذ، فلم يعتم الأديب سيدي المحفوظ إن سال بالإنشاد في كل مناسبة على عادته، فكنت أقيد بعض ما ينشد، فمما وجدته عندي مقيدًا مما أنشدنا في أدوز في معرض ممازحة الأصدقاء:

ممازحة الصديق تزيد ودا ... إذا كانت تضاف إلى الملاحة

فمازح من تحب وتصطفيه ... فمزحك مع صديقك فيه راحة

وأنشد أيضًا في ذكرى الوطن:

ذكرتني وطنًا شطت مرابعه ... فالدمع منسكب والشوق يزداد

وأنشد أيضًا في فصاحة فصيح:

تلهو بأطراف الكلام فلم تدع ... قولًا يقال ولا بديعًا يدعى

وأنشد أيضًا في هذا المعنى:

لك في المحافل منطق يشفي الجوى ... ويسوغ في أذن الأديب سلافه

فكأن لفظك لؤلؤ متنخل وكأنما آذاننا أصدافه

وأنشد أيضًا في كرماء:

لا عيب فيكم سوى أن النزيل بكم يسلو عن الأهل والأوطان والحشم

مثله مما أنشده أيضًا:

ولا عيب فيكم غير أن ضيوفكم تلام بنسيان الأحبة والوطن

وأنشد أيضًا:

واهًا لها من ليال هل تعود كما كانت وأي ليال عاد ماضيها

لم أنسها مذ نأت عني ببهجتها وأي أنس من الأيام ينسيها؟

وأنشد أيضًا:

وما عبر الإنسان عن فضل نفسه كمثل اعتقاد الفضل في كل فاضل

وأن أشد النقص ان يرمي الفتى قذى العيب عنه بانتقاص الأفاضل

وأنشدنا لمحمد بن محمد الأمين بن أحمد بن بيا الجاكاني الشنكيطي والد الأستاذ العلامة صاحبنا محمد بن العقب نزيل مراكش:

رب خود عاينتها وهي تقرأ بعد عصر دلائل الخيرات

وعلى ثغرها وفي النحر منها والمحيا دلائل الخيرات

والتجافي عن وصلها لسواها لم يكن من دلائل الخيرات

وأنشدنا أيضًا في مثل هذا للأديب ابن العتيك في كتاب (المشرب الزلال في الصلاة على أفضل الرجال) يوري باسم هذا الكتاب:

لست أنسى عشية زرت سعدى ما أحيلي عندي وأعذب فيها

سردها[1] المشرب الزلال ولكن يعذب المشرب الزلال بفيها

وأنشد أيضًا للشيخ سيدي ابن حمدو ابن سليمان الديماني الشنكيطي في كتاب (ملذة الحبيب في الصلاة على النبي الحبيب) وهو كتاب مطبوع وقد

(1) يظهر أن هناك التضمين، فسردها مفعول ما أحيلي.

سمع زوجه تتلو فيه فقال موريًا أيضًا:

سمعت قراءة فأتيت أسعى لربتها وقلت لها أجيبي
من القارئ وما المقروء قالت مجاوبة (ملذذة الحبيب)

وأنشد حين رأى كتاب (سوس العالمة):

جميع الكتب يدرك من قرأها ملال أو فتور أو سآمه
سوى هذا الكتاب فإن فيه فوائد لا تمل إلى القيامة

وأنشد أيضًا إذ ذاك:

طالعت فيه وإنني أرجو البقاء لصاحبه
فوجدت كل بلاغة وفصاحة يا صاح به

وبين ما أنا في الكتابة هناك إذا بنقطة من الحبر سقطت على ثوب علي أبيض فأنشد الخال أبو العباس:

مداد الفقيه على ثوبه أحب إليه من الغاليه

فأنشد الأديب المحفوظ:

وما شيء بأحسن من ثياب على حافاتها أثر المداد

ولبعضهم فيما يشبه هذا:

أمدعي الكتابة أنت منها مكان النمل من نسل الجراد
فدع عنك الكتابة لست منها ولو لطخت ثوبك بالمداد

وأنشد المحفوظ أيضًا في الدواة ورائحتها:

وما روض الربيع وقد زهاه ندى الأسحار يأرج بالغداة
بأضوع أو بأسطع من نسيم تؤديه الأفاوه من دواة

وأنشد للبستي:

دعوني وأمري واختياري فإنني بصير بما أفرى وأبرم من أمري
إذا ما مضى يوم ولم أصطنع يدا
ولم أقتبس علمًا فما ذاك من عمري

ووجدت في مذكراتي من بين الأدوزيات هذه الأبيات، ولعله هذا الذي أنشدها لمن أهدى لغيره آلة من آلات الفلك.

نوه بقدر ولي الله يا فلكه   فالله هو الذي أولاه ما ملكه
وسر بسرعتك العظمى لمدحته   فمنتهى السير منك مبدأ الحركة
فوائد وموائد لزائركم   أنسته منزله وكل ما تركه

وحكى الخال أن ابن الخطيب قيل له بم نلت ما نلت من العلم؟ فقال بالجلوس إلى المصباح إلى الصباح فقال الجد ابن العربي عاقدًا لذلك وقد أنشده الخال:

العلم بالجلوس للمصباح   إلى الصباح مدرك يا صاح
العلم محسوب من الأرزاق   وليس مأخوذًا من الأوراق
وإنما ينال بالأشياخ   وغيره عار من ارتساخ

وأنشدنا له أيضًا:

وقائل صف لي أدوز باختصار   قلت نعم بلد أمن وقرار
فقال هل يوجد ماء جار   قلت بأثر ديم الأمطار
فقال هل من عنب عجيب   قلت نعم إن نسبوا للذيب
فقال هل مرجانه مدخر   فقلت بل هرجانه يدخر

وعنب الذيب نبات مشهور في البوادي والهرجان هو الذي يتخذ منه زيت أركان المعلوم وأنشد أيضًا في معرض الإشادة بالتاريخ:

إذا ما روى الإنسان أخبار من مضى   ستحسبه قد عاش ألفًا من العمر

وأنشد الخال سيدي إبراهيم عند الترحيب بنا للجد ابن العربي:

يا مرحبًا بكم فالدار داركم   والأهل أهلكم والكل لله

فبين هذه الكتب وهذه الإنشادات قضينا أيام أدوز الزهراء الغراء، وقد راجعت المدرسة، فمررت على كل كتبها يوم الأحد كما أن ابن الخال سيدي الطاهر ابن العربي، قد استدعانا فأنزلنا في ثوى الجد ـ الدويرة ـ الذي كان

هيأه في حياته للأضياف، وهو بهي أنيق بحسب بيئة البادية وهو هو بنفسه القائل في رحلته المراكشية:

ليس على أهل البوادي من ضرر   إن فقدوا بعض محاسن الحضر

وقد تذكرت أيام الجد حين كان الوالد يذهب بنا لزيارته ونحن صغار رحم الله الجميع، ولا تزال باقية مصونة تلك القبة التي يعتاد منه بوقاره وحسن سمته أن يجلس في ركن معلوم من أركانها، وكان هذا الاستدعاء من سيدي الطاهر قبل يوم الأحد فأفاض علينا ما أفاض، جزاه الله بالخيرات، وهذا الشاب لهج اليوم بالتلقي، وقد ظهرت منه بارقة نبوغ وهو يأخذ الآن في المدرسة الإلغية وقد قلت أخاطبه في يوم من رمضان الماضي وهو 18 من عام 1361هـ قصيدة أولها:

تسف عزيماتي وإن فاقت الشعرى   إذا كان أعلى ما تحاوله الشعرا

يرى العنب المسكي أسمى حلاوة   عريض قفا ما ذاق في عمره خمرا[1]

أبى أن أرى الشعر البليغ مداي ما   جبلت على قبل أن أرضع الدرا

فهبني أجدت الشعر كابن الحسين أو   حبيب بن أوس هل أجد به فخرا

(فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن)   بحور خيال لا مياه ولا درا

إلى آخرها وتوجد في ترجمته في (المعسول) بين أهله اليعقوبيين في (القسم الثالث).

كنا أرسلنا يوم الأحد رسالة إلى الفقيه سيدي الحسن الأزاريفي نعلمه بورودنا عليه، فحين رجع الرسول من السوق - سوق الأحد بأنزى - وقد علمنا بوجوده في داره ودعنا أدوز بقلوب واجفة وأكباد كبرى، فذهبت مع الفقيه سيدي علي بن الطاهر والأديب سيدي المحفوظ لنروح إلى قرية (ميرة) وقد كان الفقيهان سيدي أحمد بن الطاهر وسيدي أحمد بن العوفي غادرانا قبل متوجهين إلى مثواهما فذهبنا نحن على بغالنا ومعنا سيدي الطاهر ابن الخال الذي لم يفارقني إلا من (اكال ملولن) فدخلنا في شعب (نصركي) الامزوغاري حين يستفسره أي الطرق أسهل إلى

(1) كان الأديب الحامدي توقف في معنى البيت حتى بينت له أن هناك في الرباط نوعًا من العنب أبيض، يسمونه بالمسكي من ألذ أنواع الأعناب طعمًا ففهم حينئذٍ المراد.

(إيليغ) حين هم أن يزحف إلى يحيى؛ أول نابغ من إيليغ الحديثة[1].

نزلنا بين العشاءين في (ميرة) عند سيد يظهر عليه أثر الخير وهو الفقير محمد بن مسعود من الذين يحبون العلم وأهله فيخدمهم بماله وبنفسه، وكان من صاغية العلامة سيدي المحفوظ الأدوزي وأمثاله ثم صار اليوم مثل ذلك للفقيه البركة سيدي علي بن الطاهر حفظه الله والرجل عليه سيمى الخير[2].

أزاريف:

كنا نظن وقد دخلنا إلى (ميرة) قرب العشاء أننا لا نلبث أن نقع على المضاجع كلالًا وإعياء إلا أن رب المثوى الذي أظهر من الفرح ما أحسسنا به خامرنا فأطال لنا الرسن في المسامرة فكان الأديب المحفوظ الصحراوي قطب النادي وفي يده مقواد المحاضرة لأن الرجل غريب في الاستحضار للأدبيات استحضارًا عجيبًا فقلما يقع شيء او تعن حادثة، أو تجول مذاكرة أو تعرض شاذة أو فاذة إلا استرسل إنشادًا وقد قلت له ذكرتني ما كنت رأيته من النفح للمقري أن بعض الحفاظ من الأدباء كان يستحضر ما ينشد عند كل حادث مما يستظرف ويستلطف، فعطس عنده عاطس فلم يحضر له ما يقول فيه فاقترح على بعض الشعراء أن يقول ما يوافق المقام، فقال:

يا عاطسًا يرحمك الله إذ أعلنت بالحمد على عطستك

في قطعة معلومة في (نفح الطيب) فكذلك هذا الأستاذ الحافظ الاريحي الذي يكاد يطير أريحية عند سنوح كل معنى طريف أدبي، لا سيما ما يتعلق بالنسيب الرقيق الذي يتململ به ولا يملك معه عطف الوقار فتراه يتمايل تمايلًا مفرطًا ويفرقع بإبهامه ووسطاه على عادة الصحراويين عند إعجابهم بشيء وهذا ما كان منه تلك الليلة وقد خلا المجلس من الثقلاء فما هناك إلا الفقيه ابن الطاهر والخال سيدي الطاهر والعبد الكاتب فملأ جو القبة بطنانات من قوافي آله وآل ماء العينين، وكان في الحقيقة راوية تلك الأسرة يحفظ لهم آلافًا وقد

(1) يوجد كل ذلك مفصلًا في كتاب «إيليغ قديمًا وحديثًا».
(2) توفي سنة 1379هـ، بعدما سقط من سلم.

قال إنه كان مرة يعد ما حفظه مع بعض أهله من المتون والقصائد وما إلى كل ذلك فوصل أربعين ألف بيت: 40000[1] وهذا غير مستبعد منه بعدما رأينا منه ما رأينا، ولا تفارقه لويحة صغيرة يحفظ فيها كل ما أعجبه من القصائد، فكم متنبئيات وبحتريات وتماميات يمليها عن ظهر قلب وما رأى كمن سمع، وقد حدثني كثرة إنشاداته أن أعييت من الكتب عنه إلا قليلًا.

ومما كتبته عنه تلك الليلة وقد رآني أعد اليراعة والقرطاس لأكتب عنه بعد إنشاده بيتًا طريفًا، ما أنشده اليوسي في تلميذه ابن زاكور:

لله در ابـن زاكـور وشـيـمـتـه ... ومـا أعـد لـجـمـع الـعـلـم مـن عـدد
تـراه فـي كـل مـا وقـت وإن سفـرا ... فـي جـيـبـه آلـة الـكـتـاب أو بـيـد

وأنشد أيضًا ما أنشده الشيخ النعمة لمحمد بابة الشهير، وقد طاف به جذب قوي، كأنه يقولها عن لسان حاله:

أصبحت ألطف من مر النسيم سرى ... عن الرياض هبوب الريح يؤلمني
من كل معنى لطيف احتسى قدحا ... وكـل صـوت مـن الأكـوان يـطـربـنـي

وحكى أن الشيخ الهيبة ومحمد بن عبد العزيز المولود عام 1284هـ بشنكيط ومحمد العاقب ابن الشيخ سيدي عبد الله بن مابابا الجاكاني دفين فاس المتوفى عام 1327هـ ومحمد بابة بن محمد مبارك الديماني المتوفى 1343هـ اجتمعوا في مجلس شراب فقال محمد العاقب:

أتاي هـو الـسـحـر الـحـلال ارتـشـافـه ... وحـاشـاه مـن أن يـسـتـذم ويـمـنـعـا
مـنـافـعـه تـنـبـيـك فـاسـتـفـت شـربـه ... ولا سـيـمـا مـا كـان مـنـه مـنـعـنـعـا

وقال الهيبة:

ومـعـجـمـه إن كـان جـمـع أحـبـة ... فـسـحـر حـلال لا تـحـد عـنـه أجـمـعـا
وكـاسـاتـه نـعـم الـكـنـوز وأهـلـه ... ولا سـيـمـا مـا كـان مـنـه مـنـعـنـعـا

(1) لا يزال الرجل حيًا (1380) وكثيرًا ما يطرق باشا (سلا) وأمثاله وعلى من يشك في حافظته أن يتصل به ليرى العجب العجاب.

وقال محمد بن عبد العزيز:

أتاي شراب لا يمل حديثه ... فكن بالذي يهوى المقيم ممتعا
وإبريقه إن كان من حر معدن ... وكان مصب الكأس منه منعنعا
فذلك الذي تهوى النفوس شرابه ... وأحرى إذا غنى المقيم ورجعا

وقال محمد بابه:

شراب أتاي الوندريز منعنعا ... من أشهى شهيات اللذائذ أجمعا
ولكننا نشكو إلى الله شربه ... بشرب على غير المعالي تجمعا

ومما أنشدناه أيضًا:

لا تقبلن الشعر ثم تعقه ... وتنام والشعراء غير نيام
واعلم بأنهم إذا لم ينصفوا ... حكموا لأنفسهم على الحكام
وعداوة الجاني عليهم تنقضي ... وكلومهم تبقى مدى الأيام

وأنشد أيضًا:

وعداوة الشعراء داء معضل ... ولقد يهون على الكريم علاجه

توجهنا صباحًا بعد لهنة مستعجلة فملأت مع الأستاذ الصالح سيدي علي ابن الطاهر الطريق بالمذاكرة من هنا وهناك وقد ذهب عنا الأديب المحفوظ إلى داره بوجان حيث ينتظرنا فكان مما جلنا فيه ما كان الشيخ ماء العينين يصنعه من التعجيل بصلاة العشاء قبل الوقت المعهود عند الكافة، فقال إن الشيخ أحمد الشمس ألم بذلك في مؤلف له مطبوع فحرصت على إدراك مستند الشيخ رضي الله عنه في ذلك، لأن الرجل بحر العلوم وجبل المراقبة لله فحاشاه أن يعسف في الطرق بالجهل أو يتنكب عما ألفه الناس إلا عن دليل قوي ناصع يقبله كل منصف فتداولنا بيننا مليًّا ما نعرفه من الخلاف بين الأئمة حول الشفق الأحمر والأبيض، ثم أرجأنا القول النهائي إلى أن نراجع المسألة في مؤلف الشيخ أحمد الشمس رحمه الله وقد حكى لي الأستاذ ابن الطاهر المذكور أن عادة آل ماء العينين أن يصلوا المغرب أثر غروب الشمس ثم يقرأ حزبان بقراءة وسطى بلا عجلة ولا إهمال، وسورة يس وسورة الصف ثم يؤذنون هذا حالهم دائمًا.

ثم وقعت بعدما تقدم على الكتاب المتقدم وهو مجلد كبير مطبوع في مصر فرأيت فيه ما يأتي ـ ملفقًا من مواضع من ص. 45

فصل وفي السدراتي على الموطأ؛ والشفق الحمرة الباقية في ناحية غروب الشمس من بقايا شعاع الشمس، وهو ما يرى عند غروبها كالقضبان، فإذا لم يبق في ناحية المغرب حمرة ولا صفرة فقد دخل الوقت الاختياري، قال شيخنا ـ يعني ماء العينين ـ:

وصل للعشاء عندما تغيب ... من شفق حمرته ولا تريب

وهي ما بقي مثل الأغصان ... من الشعاع لا سواه مستبان

إلى أن قال:

واليوم في زماننا يخفى على ... أكثر ما من فقهاء نبلا

لأنهم يرونه الصفرة مع ... ما من بياض بعدها قد يلتمع

وذاك جهل منهم لحده ... وإلفهم تهاونا من بعده

ابن شاس؛ الشفق الحمرة التي تلي الشمس دون البياض والصفرة وقول الرسالة فإذا لم يبق في المغرب حمرة ولا صفرة الخ. زاد الصفرة احتياطًا فقط وهو أي ماء العينين راقبه أكثر من خمسين عامًا وسيأتي بعض قليل من معرفته للوقت تجربة وكشفًا، وأما رواية ودراية فهو أبو عذرهما. . .

الحمرة وصفوها بالشعاع، والشعاع وصفوه أيضًا بضوء الشمس الذي تراه عند ذرورها كأنه الحبال والقضبان مقبلة عليك إذا نظرت إليها وإن من أبى أن تكون الحمرة هي المراد بالصلاة ـ يعني لا الصفرة ـ إنما عللها لسرعة ذهابها في أول الظلام، والظلام عرفوه بأنه أول الليل وإن كان مقمرًا فإن تأمل هذا النصف مع الذي تقدمه، وما سيأتي بحول الله يتضح عنده سرعة انقضاء الشفق قبل الساعة كما جاء في الحديث، يعني حديث، ثم «صلى العشاء حين ذهب ساعة من الليل» من حديث أبي هريرة المشهور.

هذه أدلة المذكور في ذلك المؤلف النفيس باختصار ولكن ينبغي أن يبحث بحث جديد في موقع المغرب، وفي موقع مسكن الشيخ الأصلي بأقصى

الصحراء حيث كان قبل أن يأتي إلى الساقية الحمراء لأنه ثبت أن الشفق يغيب بسرعة عند خط الاستواء، بخلاف غيره ولعله اغترّ بذلك الله أعلم وأيًّا كان فالمغاربة مذهبهم في ذلك واضح.

أقبلنا من ذلك الوادي الطويل الذي يشبه حلقوم الجمل فرأينا ديار (أزاريف) فوق قمة جبل إمامنا، فقلت مع صاحبي يا سبحان الله أما هؤلاء فقد فروا بدينهم إلى شعف الجبال، كما هو مأمور به في الحديث ثم صرنا نتسلق في طريق وعرة، ثم لم نسر كثيرًا حتى رأينا الفقيه سيدي الحسن رضي الله عنه من كريم يتلقانا بعيدًا عن الدار منحدرًا إلينا فرأيته نحيفًا ألحفه الشيب برده فأكبرت نفسه وعظمت همته، فبعد التحية والسلام بشوق زائد، استرحنا قليلًا لأننا نطلع على أقدامنا من أسفل الجبل ثم ذهبنا صعدًا فإذا بالديار التي كانت خير صوان لسر أزاريف المتسلسل من القرن الثامن فمال بنا الأستاذ إلى ثوى جميل، وجدنا أمامه طلبة المدرسة واقفين مصطفين فحييناهم وحيونا وكل ذلك من الأستاذ إظهار لمنتهى الحبور الذي يقابلنا به، وهل يعبر الشريف الهمة عن سراوته وعلو شأنه إلا بمثل هذا؟ فأنشدته بعدما استوينا على فراش أنيق في قبة حضرية مجللة بالبياض الناصع بيتين قلتهما ارتجالًا في ذلك الصباح:

بني حامد هل تقبلون بفضلكم ضيوفًا لهم شكر بكل لسان
قراهم على من ينزلون لديهم (بملء جفوف لا بملء جفان)

وهذا الشطر من القطعة المشهورة التي كتبها الصاحب بن عباد إلى الأديب العسكري:

ولما أبيتم أن تزوروا وقلتم ضعفنا فلم نقدر على الوخدان
أتيناكم من بعد أرض نزوركم وكم منزل بكر لنا وعوان
نسائلكم هل من قرى لنزيلكم بملء جفون لا بملء جفان؟

وقد قال لي الأستاذ ابن الطاهر أن البيتين لا يزالان دون التحية التي يتطلبها أزاريف وسكانه المبتهجون هكذا فبعد لأي كتبت هذه الأبيات:

ما حوى مجد كل قدر منيف غير أهل العلا بنى أزاريف
من ترى منهم ترى أي فذ حائز الخصل في المدى غطريف

ضارب في الندى بسهم مصيب رائق الخلق مستطاب لطيف
لين الجنب من يميل إليه مال في القيظ نحو ظل وريف
مسرع للنزيل يطفح بشرًا فكأن الحبيب بين الضيوف
رشحته إلى المجادة والعليـاء والفضل نفس شهم شريف
أصلهم راسخ الوشائج والفر ع له في السماء كل شفوف
ما بنو أزاريف إلا بحار واسعات ما أن لها من سيف
دأبوا في العلوم والدين من عهـد قديم على الهدى المألوف
ذلك يحيى ونجل يحيى وإبرا هيم كل بحر العلوم وصوفي(1)
سلسلات مذهبات حوت من منفسات الخصال كل الصنوف
مزجت منهم المعارف بالزهـد فكانوا على المقام المنيف
كل فد منهم خليل بن اسحا ق وإن شئت قلت كان المنوفي
فالأحاديث منهم كحديث أثروا عن سحنون أو معروف(2)
رضي الله عنهم فهم أهـل لكل التقى وكل العزوف
طلقوا المسلك المخوف ودانوا عمرهم بالسلوك غير المخوف
هكذا هكذا تكون سيوف الـعزم والحزم يا لها من سيوف
فبإخبارهم يعطر من إلـف في طرسه ذيول الحروف
زينة في الحياة كانوا ولما درجوا أصبحوا حلى التأليف
أيها السيد الذي حاز منهم تالدًا ضمه لخير طريف
قد أتيناك زائرين لنحظى عند مغناكم السني الشريف
فأقبلن زيارة من محب زار لله لا لجني القطوف

قال لي الأستاذ سيدي إبراهيم بن أحمد ابن العم فيما بعد، حينما رأى

(1) محمد بن يحيى هو الشيخ الشهير، وأبوه كذلك من مشاهيرهم وكذلك سيدي إبراهيم افلول جدهم الأعلى.
(2) معروف الكرخي.

هذه الأبيات أرجعت إلى هذا النمط من النظم بعدما كنت وكنت؟ فقلت آمنا بالله، أو لا ترى أننا أيضًا رجعنا إلى مثل هذه البيئة؟ فلنقبل مثل هذا النظم إن فاتنا ذلك الشعر الحي البليغ، ولو خيرنا لاخترنا:

فاقبل من الدهر ما أتاك به — من قر عينًا بعيشه نفعه

لم ننشب بعد جلوسنا أن دخلنا في المقصود، فأول ما أرانا الفقيه، ظهائر الملوك التي تشمل من ظهير المولى عبد الله الغالب بالله السعدي إلى ما دون إلا أن بعضها تمزق، والبعض لملوك ذكر الفقيه أنه لم يكن تحت يده، ثم رأينا بعد ظهائر أخرى عند سيدي عابد من هذه الأسرة المباركة، وبعد الإفطار قدمنا رب المثوى إلى دويرة داخل الدار، وهي محل الخزانة، فأقبلت مع الأستاذ ابن الطاهر على التصفح، وقد أعانني لأنه يدري ما أريد، فمررنا على ما شاء الله من الكتب ذلك النهار وما بعده من الثلاثاء، وقد راح علينا الأديب الكبير سيدي محمد بن الحاج الحامدي، فتم عقد الأدب وقد انهمرت الأمطار يوم الثلاثاء، فرأيت الفقيه ابن الطاهر بالفراسة يتطلع إلى الحرث، فقلت له وداعًا إلى حرثك، فهذا حرثي أنا، فإنه لا يليق أن نفوز بهذا الكنز ثم نفلته قبل أن نستوفي منه كل ما يرام، فبكر لطيته يوم الأربعاء، فركبت أنا والفقيه سيدي الحسن إلى (انزي) لأسأل عن الدار بالهاتف، فوصلنا أنزي عند الواحدة بالتوقيت العربي، فرأيت موقع أنزي جميلًا، ومبانيه رائقة، وما أليق ذلك المكان بمدينة حسنة تتوسط جزولة، وتتبحبح ولتيتة، ثم لم يتيسر لنا الرجوع ذلك النهار، فبتنا هناك، ثم بكرت مع الفقيه منفردين فلم يصل الضحى حتى أشرفنا على آزاريف، ثم أكببت أيضًا على الكتب بقية يوم الخميس وصبيحة الجمعة، فتأتي المرور المستعجل عليها كلها مع أنها مئات من المخطوطات فشكرًا عظيمًا لهذا السيد الكريم النفس والمائدة والخلق، فقد رأيت منه ما ملك مشاعري واسترق عواطفي فقد لازمني غاية، ويصابر معي بياض النهار وسواد الليل مع أنه مطوق بالدراسة لبعض الفنون بالمدرسة وبمقابلة أضياف كثيرين بمناسبة عرس ولده سيدي محمد، فقد صادفناه معرسًا يوم وصولنا ولما يمض على إعراسه أسبوع فتتوارد الوفود من الناس مهنئين، فأفردنا الفقيه في تلك الدويرة مع أكداس من الكتب العتيقة العدملية[1] ونحن نقاسي أولا ما نقاسي من نفض الغبار

(1) العدملي القديم العتيق.

عنها بالضرب بالأيدي مخالفين من يقولون أن ضرب الكتب من سوء الأدب، ولكننا تأولنا قولهم بأننا حسنو المقاصد، وأهل هذه البلاد كثيرًا ما ينتبهون إلى مثل هذه الصغائر فيجسمونها فيعدونها من الكبائر، وكثيرًا ما أحافظ على شعورهم وأراعي عواطفهم جهدي ولكن لا أدري حتى أقع مع بعضهم - فلتة - فيما يكرهون، والعيب كل العيب لمن لا يراعي الناس ولكن العيب الذي هو أعظم لمن لا يعذر الإنسان ويحمل فعله على غير محمل حسن، ولا يقع أهل هذه البلاد في هذا وأمثاله إلا لكونهم لم يجولوا ولم يخالطوا عادات وأخلاقًا. فضاقت منهم الصدور، وخرجت منهم الأخلاق، ولكن من يعرف منهم حسن النية، وطهارة السريرة، يلبسهم على ما هم عليه.

لبست بني بشر على بلالاتهم وذلك خير من لقاء بني بشر

وهاك ما وقعت عليه في الخزانة الآزاريفية، بعدما أتخطى مئات من الكتب العادية على عادتي من أنني أقف عند كل كتاب لسوسي فأصفه إن لم يتقدم وصفه في أدوز، وعند كل كتاب غريب، أو عند نسخة قيمة منه، وإن لم يكن ما فيها غريبًا، فأفهم المقاصد، وأحمل أفعال الناس على محامل حسنة ويحك إن لم تكن من عشاق أمثال هذه الآثار التي تضرب الأكباد دونها، وإنما أعتني بالكتب السوسية وإن كانت عادية لأنني ذكرت في كتاب (سوس العالمة) في فصل منه هذه الكتب السوسية بأنها موجودة، وهنا أبين محل وجودها مع وصفها فهذا مقصودي الخاص فاعلم ذلك وإنما الأعمال بالنيات.

فإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

1) سيرة نبوية صغيرة لأبي بكر بن العربي ذكر فيها أحوال النبي ﷺ من نسبه ومولده ومبعثه وأحواله في مغازيه وأسماء أولاده وعمومته وأزواجه وما إلى ذلك وكل ذلك بإيجاز كثير من 14 صفحة في قالب صغير في 20 سطرًا والكتاب غريب لم نسمع بنسخة أخرى منه.

2) مؤلف في البسملة في الصلاة في 3 صفحات بخط مدمج للجد ابن العربي، منكرًا على من يبسمل في الصلاة وقد ذكر لي الفقيه سيدي علي ابن الطاهر أن الجد يقول: (عجبت لمن يرى نفسه مالكيًّا ثم يبسمل: ويقول الأستاذ أبو فارس الأدوزي رادًّا عليه هذا هو الأعجب، لأن مدرك

ترك البسملة ضعيف في المذهب، فقلت له مجاذبًا حبل المذاكرة إما كون مدرك ترك البسملة ضعيفًا كما يقول أبو فارس في المذاهب فإنه يقال له بل هو المشهور في المذهب والأحاديث التي تشهد له شتى وأوضحها حديث «قسمت الصلاة الخ» وأما كون مدركه في الحديث ضعيفًا ـ إن أراد ذلك ـ فإنه يدفع في صدره ما حرره[1] المحدثون كابن القيم من أن النبي ﷺ يبسمل ويترك والترك أكثر، أفلا يدل هذا على عكس ما يقول أبو فارس؟ وأما قول الجد عجبت لمن يرى نفسه مالكيًّا ثم يبسمل أفليس أنه لا بأس بتقليد بعض الأئمة غير إمام المذهب في جزئيات باتفاق الأصوليين، ولم يمنعوا إلا التلفيق من الرخص من بين المذهب على خلف فيه أيضًا كما يعلمه من مارس الأصول، ثم قلت للفقيه أن في البسملة في المذهب أربعة أقوال أو خمسة مذكورة كلها والقراءة أحدها كما في بالي وقد كان الفقيه سيدي علي بن طاهر يتعجب دائمًا ممن يبسمل سرًّا كما يقول المازري احتياطًا للخروج من الخلاف، وهو إشكال قديم وأيًّا كان فالذين يعضون بالنواجذ على البسملة لا يعتبرون المذهب ولا غيره إنما ذلك من اتباعهم لما يعلمون من طريقتهم الأحمدية، كما نرى الآخرين يقبضون ويرفعون أيديهم في الهوي من الركوع والرفع منه ومن القيام من اثنتين لذلك أيضًا لكونهم كتانيين فهؤلاء كلهم لا يحتج عليهم بالمذهب كما يحاول الجد فإن لهم وجهة أخرى هم مولوها ولا يمكن أن يتفق الناس في أمثال هذه الجزئيات إلا إذا كانوا يجعلون قدوتهم الوحيدة هي النبي ﷺ فيفعلون ما يفعله دائمًا بلا خلاف أصلًا كالقبض مثلًا ويفعلون ويتركون ما كان يأتي به ويذره فكان جائز الفعل والترك كالبسملة ويتركون ما كان لا يفعله قط كالسدل، فإذ ذاك فقط يزول الخلاف إن شاء الله ولكن هذا بعيد جدًّا جدًّا فلم يبق إلا المسامحة وتطلب حسن المحامل للناس وكثرة سعة الصدر والإغضاء وحسن المخالفة وترك كل طائفة وما اختارت ما دام في الحديث أو في مذهب من المذاهب ما يوافق ما تصنع فلا يبادر بالإنكار إلا من قل علمه وكثف جهله.

---

(1) لابن عبد البر المالكي: «الإنصاف، فيما في البسملة في الاختلاف» وهو مطبوع.

3) كتاب عادي استفدت مما حواليه، إن هناك الفقيه أحمد بن أحمد الركراكي وأنه لا يزال حيًّا عام 1158هـ ولا أعرفه إلا هنا.

4) زبدة المستطرف اختصره من كتاب المستطرف المشهور سيدي يبورك في زهاء 90 صفحة صغيرة في 18 سطرًا بخط جميل حسن التنسيق والنسخة نسخت عام 1114هـ.

5) غريب القرآن لمحمد بن عزيز السجستاني، نسخة جيدة كتبت عام 925هـ جزء حسن قيم في قالب صغير وخط مرونق في كل صفحة 20 سطرًا، وهو مطبوع.

6) إحياء الميت لفضائل أهل البيت ستون حديثًا للسيوطي جزء حسن صغير، والكتاب مطبوع بفاس.

7) جزآن ضخمان من شرح ابن مرزوق على مختصر خليل وكانت النسخة في ملك الشيخ سيدي محمد بن يحيى الآزاريفي المتوفى نحو 1163هـ.

8) جزء من أحد الشراح المجموعة عن أبي زيد الجزولي الكرسيفي ثم الفاسي على الرسالة كتب عام 939هـ والجزولي توفي نحو 742هـ.

9) كتاب عادي استفدت منه اسم محمد بن سعيد بن محمد بن إبراهيم الأصابعي الحامدي، فذكر لي سيدي الحسن الآزاريفي رب المثوى أنه من أصحاب سيدي محمد بن يحيى فيكون إذن من أهل أواخر القرن الثاني عشر لأن شيخه محمد بن يحيى توفي نحو 1163هـ كما تقدم.

10) نسخة من شرح الأجهوري على المختصر ولعلها تتم نسخت بخط مشرقي في مجلدات ضخام صغيرة، هذا وفي أدوز بعض أجزاء من الشرح إلا أنها بخط مغربي كما أخال الآن.

11) بعض أجزاء من (شرح الشبرخيتي) على المختصر بخط مشرقي، وإنما اعتنيت بذكر أمثال هذه الكتب، لنعلم أن الأسلاف من السوسيين كانوا يجعلون نصب أعينهم في حياتهم استيراد الكتب من مصر بخط مشرقي، وما أكثر هذا الخط في هذه الخزانة الآزاريفية كما سترى.

12) نسخة عتيقة قيمة من رحلة ابن جبير بخط جيد كتبت عام 738هـ كانت

في ملك سعيد الحامدي الشاعر الشهير، ثم في ملك محمد بن عبد الرحمٰن بن الحسن بن سعيد حفيده، والرحلة مطبوعة اليوم.

13) أجوبة سيدي محمد بن محمد بن عبد الله بن يعقوب، مجلدة حسنة وقد كنت رأيت قبل من الكتاب نسخة أو نسختين.

14) شرح موجز على المقامات الحريرية لأحد السجلماسيين، وصلت النسخة إلى 36 ثم انبترت عن المقامات الباقية، وقد ذكر لي أن نسخة أخرى مثلها في تيزنيت.

15) كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء لابن القيم بخط مشرقي في جزء لطيف، كتب نحو عام 800هـ والنسخة قديمة كما ترى والكتاب غير موجود وهذه النسخة لا نعلم لها إلى الآن ثانية وهي من غرر الكتب.

16) جوهر العقدين في فضل الشرفين للسمنهودي جزء كبير بخط بين محفوظ من الخرم والبتر والنسخة كتبت نحو عام 1018هـ وكانت حينًا في ملك الهشتوكي أحوزي الشهير ولا أدري جلية الخبر عن طبع الكتاب، وقد كنت سمعت به، ولكنني لم أطالعه قبل.

17) خواص القرآن ولم أجد في مذكراتي نسبة الكتاب، والنسخة كتبت لأبي القاسم بن محمد الغازي الآزاريفي عام 968هـ جزء صغير حسن، وأبو القاسم هذا شاعر حدثني الأستاذ سيدي محمد بن أبي بكر الآزاريفي ثم البيضاوي أنه رأى له قصائد في أحمد الذهبي وقد مات في المدينة وهي الآن في الخزانة الآزاريفية ولكنني لم أرها فيها.

18) منظوم في التصريف لأحمد بن عبد الله ابن الشيخ سيدي مجمد بن يحيى الآزاريفي وهو ابن الأديب عبد الله صاحب المقامة المشهورة، هذا المنظوم في 6 صفحات.

19) الكيفية التصريفية، رسالة صغيرة جدًّا ليبورك في تصريف الكلمة كيف تتتبع من ماضٍ إلى مضارع فأمر فاسم الفاعل الخ مثلًا ونسخها متعددة.

20) جواب في مسائل نحوية لأحمد بن سليمان الرسموكي الفرضي في 8 صفحات.

21) كافية النهوض في صناعة العروض لأبي فارس الرسموكي في 22 صفحة في قالب صغير، منثور بخط المؤلف.

22) أبيات لصالح بن أحمد بن محمد حجاج اللخمي وهي ذيل على الأبيات التي نظمها صالح بن شريف الرندي في استعمال أشطار العروض وهي الأبيات التي منها:

مثال طويل الشعر ما أنا قائل فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

ثم ذيل أبيات صالح اللخمي التي هي ذيل لهذه الأبيات أبو فارس الرسموكي مبينًا ما حول كل وزن وأضاريبه وما يعتريه وشواهد الكل وفي الجميع 14 صفحة صغيرة بخط المؤلف أبي فارس نفسه.

23) شرح القلصادي لابن سليمان الرسموكي الفرضي بخطه نفسه، وهو صغير جلد مع المؤلف قبله.

24) تحفة الرب المعبود على تعاريف النحو والحدود لأحوزي الهشتوكي في ورقات غير قليلة وهو نام ألفه في المدرسة المصباحية بفاس عام 1083هـ وذلك بلا ريب أبان أخذه من القرويين، فنستفيد أنه لم يقتصر في أخذه عن التامكروتيين والسوسيين قبلهم بل وقعت على أنه أخذ أولًا عن اسم شيخه السوسي وهو عالم سملالي في مبادئه، ذهب عني اسمه الآن.

25) كتاب عادي تيقنا منه ما كنا نسمعه من أن محمد بن عبد العزيز الرسموكي الشهير شارح المرشد أخذ عن المرغتي بمراكش كما أنه أخذ أيضًا عن أحمد بن ناصر، وتوفي بالمدينة كما أفادنيه شيخنا محمد بن عبد المالك الرسموكي بفاس لما زرته بعد هذه الرحلة، وقد كنت قرأت في رحلة أحمد الناصري أنه كان معه في رحلته إلى الحج.

26) الرحلة العبدرية نسخة مخطوطة بخط جميل كتبت عام 960هـ وقد تقدم لنا أن هناك في أدوز نسخة أخرى مع نسخة من مختصرها، وقد علمنا نسخة أخرى في يد بعض الطلبة بهشتوكة، وهي التي استعارها الأديب الشاعر البونعماني، فطالعناها حين كنا بالحمراء وأخرى في خزانة

المؤرخ الإيكراري وأخرى في الخزانة العامة بالرباط وأخرى في أبزو وأخرى في الخزانة الملكية، وهكذا تعددت النسخ من هذه الرحلة الفائقة في سوس، ولا بد أن تكون هناك نسخ أخرى غير هذه.

27) شرح لمحمد بن أحمد بن علي الشريف التلمساني على مختصر فضل الله الخونجي في المنطق نسخة قيمة جميلة الخط إلى الغاية في زهاء 110 صفحة في 33 سطرًا نسخت عام 642هـ هكذا وجدته في مذكراتي وأخاف أن يكون العدد هكذا؛ 942 وقد كانت حينًا في ملك الأديب علي بن محمد بن عبد العزيز التلكاتي الحامدي، والنسخة بخط مخلوف بن عبد الله من فخذ بني وابوط من أعلى تودما، ولا أعرف مخلوفًا هذا.

28) القلصادي في الحساب وهو شهير، وهذه النسخة كتبت لمحمد بن علي ابن محمد التيلكاتي القاضي عام 1092هـ ويظهر أن هذا القاضي محمد ابن علي بن محمد بن سعيد الشهير، وأنه ابن قاضي الجماعة فليعرف أن هذا حي عام 1092هـ ولهذا ذكرنا الكتاب لا غير.

29) بهجة الناظرين وآيات المستدلين لمرعي الحنبلي مجلد ضخم غير طويل بخط مشرقي صحيح تكلم على أن مصنوعات الصانع مما يعرف به الصانع ولم تؤرخ النسخة ولا أدري أطبع الكتاب؟ فإن لم يطبع فالنسخة من الذخائر.

30) نسخة تامة من شرح الخرشي الكبير على المختصر في زهاء 24 مجلدًا ضخمًا قصيرًا بخط مشرقي، وقد راجعت مؤرخ بعضها فوجدته في عام 1145هـ وبعضها عام 1146هـ وبعضها عام 1105هـ والنسخة محفوظة من الخرم والبتر، فلم أر قط في سوس نسخة تامة من الكتاب إلا هذه والأخرى في إلغ عند العلماء الصالحين، وأما الأجزاء المنفردة فتوجد في بعض الخزائن.

31) شرح الكرامي سيدي سعيد علي البردة في زهاء 100 صفحة صغيرة في نحو 23 سطرًا، وقد كنت رأيت نسخة أخرى من الكتاب قبل، وهو يجمع الأبيات ثم يشرح بعد والنسخة في مجلدة.

32) شرح العينية المسماة روضة السلوان لمحمد بن عبد الجبار الفكيكي والشرح لإبراهيم بن عبد الجبار الفكيكي مجلد ضخم حسن الخط بين كتبت النسخة عام 1200هـ والقصيدة في الصيد، والمؤلف حسن في بابه والنسخ من الكتاب توجد.

33) مجلد ضخم في أسماء الله الحسنى، لا أول له ولا آخر، وغالبه بخط نفيس قديم يذكر الاسم كالسميع فيذكر الفصل الأول في مورده شريعة، والفصل الثاني في شرحه كما فعل بالسميع الذي قرنه بالبصير، فذكر فيهما أنهما بمعنى فاعل أو مفعل أو بمعنى قابل؛ فاستشهد للكل عربية وحديثًا وقرآنًا والفصل الثالث في شرحه حقيقة وعقدًا، فذكر سبع مسائل، والفصل الرابع في التنزيل والمقصود بالتنزيل كيف معنى الاسم مع العبد، فمثلًا إذا علم أنه سميع فإنه يحرص على أن لا يخطر بباله ولا يهمس إلا بما يرضى به ربه، وهكذا يطيل النفس حول كل اسم اسم، وفي بالي أن من بين من ألفوا في أسماء الله الحسنى أبا بكر المعافري، ولعل المؤلف له.

34) السفر الأول من مختصر البرزلي كتب عام 997هـ للقاضي يوسف بن أبي القاسم الجزولي قاضي بلاد ادخسان وهذا القاضي لعله سوسي تولى هناك للسعديين ولا أعرفه إلا من هنا.

35) المشكل في الحديث وتأويل الأخبار والمتشابهة والرد على الملحدة من الجهمية والمعتزلة والمجسمة لابن فورك مجلد كبير حسن الخط في كل صفحة 23 سطرًا في قالب يميل إلى الطول وهو كتاب نفيس والنسخة عتيقة إلا أن فيها بترًا في آخرها والكتاب لم يطبع فهذه النسخة من الأعلاق النفيسة.

36) قوانين ابن جزي نسخة قديمة نفيسة الخط كتبت للفقيه الوجيه الحسن التيلكاتي عام 983هـ ويظهر أن النسخة مصححة فتعين من لا يعول على الطبعتين من الكتاب التونسية المنسوخة ثم الفاسية التي أدخلت فيها إصلاحات شتى لكنها لا يزال فيها ما فيها.

37) كتاب عادي فيه ذكر للفقيه المفتي القاضي الحسن بن سعيد بن عبد الرحمٰن ابن الحسن التيلكاتي هكذا ولا ريب أنه الحسن بن سعيد الشاعر.

38) مجلد فيه فتاوي للحافظ العسقلاني قليلة ومؤلف للسيوطي في فضل القيام بالسلطنة الشريفة وهي رسالة صغيرة.

39) مختصر المقاصد الحسنة الكتاب المشهور للسخاوي ألفه بعض تلامذه عام 906هـ والكتاب مطبوع واسم الذي اختصره ابن الربيع.

40) مؤلف في القراءات العشر المتداولة فيه جداول يبين في وسط كل بيت قراءة والجداول كأنها مخطط الشطرنج ولم أر مثله قط في كتب الفن، كتب بخط عادي وذكر عند أول الكتاب أن لمؤلفه مؤلفات أخرى، وبيوت الجداول مملوءة برموز حروف بنى عليها اصطلاحه.

41) كتاب عادي رأيت عليه تحبيسًا على المدرسة الآزاريفية وقد مرّ بين يدي في الخزانة كتب غير قليلة محبسة كذلك والمقصود أن نعلم أن هناك الكتب المحبسة.

42) تحفة الأريب ونزهة اللبيب لأبي مدين الفاسي وهو كتاب أدبي مشهور مطبوع اليوم ولم أقيد وقت نسخه.

43) نسخة من أحكام ابن العربي الكبرى عتيقة إلى الغاية تلاشت أطرافها وسقط آخرها فسقط ما لعله يكون فيه تاريخ النسخ والكتاب مطبوع طبعًا مصحفًا.

44) جزء يتكلم على إعراب القرآن بخط شرقي قديم عدملي يكاد يتمزق كله.

45) تقييد المهمل وتمييز المشكل من أسماء رواة الحديث لأبي علي الغساني الأندلسي الشهير الحسين بن محمد بن أحمد نسخة جيدة كتبت عام 799هـ وعلى ظهر الصحيفة الأولى منها خطوط مشرقية وحين لم أكن متعودًا كثيرًا لقراءة الخط المشرقي لم اتمكن كما ينبغي من معرفة ما فيها والنسخة في 122 صفحة في 32 سطرًا في قالب يميل إلى الطول وإلى الاتساع والنسخة من الذخائر، سلمت من البتر ومن التصحيف.

46) كتاب الأوهام الواقعة في الصحيحين للغساني أيضًا في 102 جلد مع ما تقدم على ذلك القالب، وهذا هو الذي نسخ عام 799هـ لا ما تقدم إلا

أنه يظهر أنهما كتبا في حين واحد، وفي هذه النسخة لصق كاغد في ثلاثة أوراق ثم لم يكتب فوقها ما غطته تحتها، فانبترت النسخة بذلك، وفيما سواه سلمت والمجلد على كل حال من الأعلاق، وقد سألت أبا الأسعاد عن الكتابين فقال أنهما نادران، قال ومنهما نسخة في مجلد كانا فيه معًا في خزانة الجامع الكبير بمكناس وفي اليمن تذكر نسخة أخرى، وبهذا تعلم قيمة هذه النسخة.

47) شرح البطليوسي ابن السيد علي (سقط الزند) نسخة حسنة في 160 صفحة بخط حضري جيد، وقد وقع فيه بتر أخيرًا، والكتاب من النوادر العزيزة قبل طبعه اليوم.

48) في ذيل هذا الشرح يوجد بخط جميل أيضًا مؤلف لمحمد بن الحسين بن المظفر الحاتمي أوله: وجدنا أبا الطيب المتنبي قد أتانا في شعره بأغراض فلسفية، ومعان منطقية فإن كان ذلك منه عن فحص ونظر وتبحر فقد أغرق في درس العلوم، وإن لم يكن ذلك منه إلا على سبيل الاتفاق، فقد زاد على الفلاسفة بالإيجاز والبلاغة والألفاظ البليغة، وهو على الحالتين على غاية الفضل ونهاية النبل، ثم صار يورد كلام الفلاسفة، فيتبعه بأقوال المتنبي، وفي النسخة 24 صفحة والنسخة مصونة لا عيب فيها وقد كان المجلد في ملك القاضي محمد بن سعيد العباسي، والكتاب مطبوع في أوربة.

49) النهر الماد من البحر لأبي حيان نسخة عتيقة في أطرافها خرم وأثر البلل والكتاب مطبوع.

50) رفع النقاب عن تلقيح الشهاب لحسين الشوشاوي السوسي، نسخة تامة رديئة الخط وإن كان يقرأ ولم يؤرخ وقت النسخ وهي 480 صفحة في 37 سطرًا، وللكتاب نسخ أخرى بعضها في (أدوز) في خزانة أبي فارس والشوشاوي كان يؤلف من عام 843هـ إلى أن توفي في آخر ذلك القرن التاسع.

51) الوجيز في تفسير القرآن العزيز نسخة تامة لم تؤرخ، ولعل الكتاب مطبوع، لعله تفسير ابن عطية.

52) مجلد ضخم مبتور أولًا وآخرًا بخط مغربي ينقط الفاء تحت ويميل إلى الخط المشرقي، وكتب عليه بخط بعض من طالعه أنه تفسير ابن النقاش، وأخبرني القاضي سيدي عباس أنه النقاش لا ابن النقاش، وهو قديم نقل عنه عياض وهو من الذخائر، ولعل في خزانة جامع تيزنيت أجزاء من هذا التفسير.

53) القسطلاني على البخاري نسخة تامة في مجلدات ضخام بخط مشرقي.

54) مؤلف المغيلي المشهور ضد اليهود وفي ذيله كلام لمحمد بن محمد ابن عبد الله الورزازي وأخيه أحمد.

55) بعض شروح الهمزية نسخة محمد بن محمد بن الحسين الحامدي ثم الماسي عام 1156هـ وقد اطلعت هناك أيضًا على القصيدة الآتية له وقال فيه الكاتب الحامدي القبيل الماسي الدار والنشأة السوسي الإقليم والقصيدة وهي نبوية:

يا رسول المليك هذا عبيد ... قد تداعت عليه خيل غرام
دار كأس المدام منه على القلـ ... ـب فأكسبه عظيم الهيام
حال جيش موانع دون من يهـ ... ـوى وما الوجد غير شر سقام
وامتطى صهوة الهوى يبتغي قر ... بي حبيب قبل اقتراب حمام
فتأبى والقلب منه كئيب ... مدنف تحت ذيل شوق جسام
ومتى يأمل الوصال سطا عسـ ... ـكر صد بصعدة أو حسام
فغدا عنده حليف نحيب ... وبكاء يحكيه صوب غمام
هكذا حاله غدوًا وروحًا ... وقعودًا وفي أوان قيام
هذه قصتي وأنت بها اعـ ... ـلم كنهًا قبيل شرح نظام
يا نبي الإله فك أسيرًا ... من سلاسيل حوبه وأثام
واكشف الهم والكروب التي قد ... منعته من فوزه بالمرام
فبجاهك اسأل الله ربي ... أن يقود إلى الحجاز زمامي
ويذلل كل صعب ويدني ... شاسعًا ويقوده في العام

يا نبي الإلٰه من أمّ بابًا دون بابك خابط في ظلام
أنت باب الإلٰه كل امرئ حل به من سواك بادي اخترام
وعليك الصلاة يا صفوة الخلق مع الآل والصحاب الكرام

وأحسب أن الخط الذي نقلنا منه القصيدة خط قائلها وصاحبنا هذا هو الذي ذكر في يوم الخميس 27 من الرحلة الأولى، وهناك كلمة لولده العلامة عبد الله فيه وفي ذكر مؤلفات له وقد ذكر لنا هناك أخونا الفقيه سيدي علي بن الطاهر الرسموكي أنه يظنه من أسلاف العلماء الإلياسيين ثم تحققنا اليوم عدم ذلك وهو على كل حال ممن يعيش في سنوات 1170هـ ومن تلاميذ الشيخ سيدي محمد بن يحيى وبما ذكرناه هنا وهناك يظهر له بعض ترجمة وله نظم للورقات شرحه صاحبنا العلامة الحاج محمد بن أبي بكر الأزاريفي البيضاوي الذي لا يزال حيًّا.

56) مجلد ضخم في أسباب النزول قال مؤلفه في الموجود من أوله: القول في آخر ما نزل من القرآن حدثنا أبو إبراهيم إسماعيل ابن إبراهيم الواعظ الخ وقد بتر أولًا وما سواه يظهر أنه تام، ومنه في سورة (طه) قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [طـٰه: 2]، قال مقاتل قال أبو جهل والنضر بن الحارث للنبي ﷺ إنك لتشقى تترك ديننا وذلك لما رواه من طول عبادته وجهاده فنزلت الخ والنسخة بخط مغربي حسن فمن المؤلف؟ الله أعلم.

57) مؤلف صغير لأحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن يحيى الآزاريفي في الحساب.

58) مؤلف آخر له أيضًا في الاسطرلاب.

59) كتاب عادي علمنا مما حواليه أن الفقيه محمد بن عبد الكريم ابن أحمد ابن حسين بن عبد الكريم بن عبد الرحمٰن بن عثمان بن عيسى بن محمد الإيلالني الفسفاسي يفتى مع الفقيه أبي فارس الرسموكي الشهير المتوفى عام 1065هـ فيكون صاحبه هذا في ذلك الوقت.

60) كنز الأسرار ولواقح الأفكار كتب عام 989هـ وفي آخره صح لكاتبه بالقسمة سعيد بن عبد الرحمٰن بن الحسن التيلكاتي وقد تمزق أوله.

61) الزبور معربًا بتر أوله مع الكتاب قبله وهما في مجلد بلا تجليد إنما خيطا معًا بخيط بقي بعد سقوط الدفتين.

62) مجلد فيه التوضيح لخليل على مختصر ابن الحاجب، كتب على دفته الأولى ما نصه:

«بعد مزيد السلام على أخينا سيدي محمد الوزير أريد منكم أن تمكنوا حامله من الكراس لئلا يتعطل عن الكتابة، فإن كتبه رده إليكم، وتمكنوه مما بعده والسلام معاد عليكم والرحمة والبركة على والدكم، ونطلب منه ومنكم الدعاء، لأني في ضيافة الله، والله تعالى يعينكم على ما يرضيه آمين علي بن أحمد الرسموكي لطف الله به، هذا هو العلامة الشهير علي ابن أحمد الرسموكي المعاصر لبودميعة، ولا شك أن هذا الوزير وزير بودميعة، فاستفدنا اسم وزير بودميعة، وأن له من يقال له وزير.

63) كتاب عادي وجدنا حواليه ما يلي، أرسل بعض السادات هذه الأبيات لقاضي زمانه سيدي أبو بكر بن الحسن الايتكيني النظيفي رحمه الله وهي هذه:

ومن ذا الذي ترضى طباعه كلها ... وأكثر حسن المرء فيه مآثم
فمن أظهر الإحسان خالطه الأسى ... وأعلى مقام السوء للمرء لازم
أيا معشر الحكام لا تأمنوا الذي ... بوجهه سيما الخير والقلب غاشم

فأجابه الفقيه سيدي أبو بكر الايتكيتي رحمه الله:

فهل تستوي عقلًا سجية حازم ... يحاول أمرًا مع سجية عازم
ففي ظاهر الأحكام تصريف حاكم ... وليس له وراء ذاك بلازم
ويجمل حسن الظن في كل مسلم ... ولكن سوء الظن من شأن حازم

ولم نعرف أبا بكر هذا القاضي إلا من هنا، فما هي حياته. وما هو زمنه؟

64) المرزوقي على الخزرجية نسخة قديمة ولعل لها أزيد من 500 خمسمائة سنة.

65) بعض ديوان الشريف علي الرضي العلوي البغدادي المشهور بخط عال

نفيس مغربي، وأول ما في هذا الذي رأيناه قصيدة عينية مطلعها :

يا صاحب القلب الصحيح ما اشتفى ألـم الجوى من قلبي المصدوع

والديوان مطبوع، وقد استقى زكي مبارك حياة الشريف الرضي هذا من شعره.

66) سكردان السلطان نسخة قديمة، فيها بتر أخيرًا، وفيها بياضات في مجلد والكتاب مطبوع.

67) المراصد الكتاب المشهور مبتور أولًا وآخرًا.

68) فتوى وقفنا عليها فيها توقيعات 1- محمد بن سعيد بن محمد أحوزي[1] 2- محمد بن سعيد بن داوود أحوزي 3 - أحمد بن محمد بن داوود أحوزي 4 - عبد الواسع بن بلقاسم التملي 5 - أبو بكر بن محمد النظيفي 6 - محمد بن علي النظيفي 7 - محمد بن علي النظيفي 8 -أحمد ابن محمد بن إبراهيم التملي فنعلم أن هؤلاء كلهم في أوائل القرن الثاني عشر ضرورة أن أحمد أحوزي الهشتوكي الموجود بينهم توفي عام 1127هـ وايحوزين بيت علم بين بيوتات العلم بجزولة.

69) كتاب عادي وجدنا فيه محمد بن أحمد السندالي الساكن في بومروان أخذ عن سيدي يحيى الونكضائي وقد حكي عنه أنه قال لم أشتغل باللغة وكتبها حتى رأيت أن البحث في اللغة وتدريسها أولى من قراءة الفقه وغيره بكذا وكذا من الحسنات انتهى كما وجد وهو من أهل أواخر القرن الثاني عشر، ويحيى المذكور الونكيضائي الوسلامي يوجد بين الواسلاميين في الفصل الثاني من القسم الرابع من المعسول.

70) جزء وسط غير طويل في آثار أديب من أدباء أوائل القرن الثامن فيه بتر أولًا وآخرًا وفي أول صفحة من الموجود منه.

الباب الثاني في البشائر والفتوحات والاستصراخ والاستمداد، والإصراخ والإنجاد والظهائر، فأتى فيه بما حرره بيراعه في هذه الموضوعات كلها، وفي الباب 24 صفحة.

(1) هذه النسبة بهذه الصيغة الشلحية لأحوزين إزاء قبيلة (أملن).

الباب الثالث في المجاملة والمواصلة والمهادات والتعريفات في 24 صفحة أيضًا.

الباب الرابع في العنايات وما يتعلق بها من الأجوبة عنها والمراجعات والتوسل والاستعطاف والتخدم في 26 صفحة.

الباب الخامس في الإخوانيات في 42 صفحة.

الباب السادس في التهاني في 23 صفحة.

الباب السابع في التعازي في 20 صفحة.

هذا هو الموجود في الكتاب وقد قال فيه مرة قال الفقيه أبو بكر بن خطاب رحمه الله، ويظهر أنه الجامع المؤلف لكلام ذلك الأديب الذي يرجع إليه الضمير الغائب ويمكن أن يكون هو نفس الأديب صاحب الآثار فقد كان المؤلف حينًا في غرناطة فيكتب عن بني الأحمر وحينًا في تلمسان فيكتب عن يغمراسن وأبي سعيد من أمراء بني عبد الواد ويكتب عن غيرهم من امراء المدن الأندلسية وغيرها وكان أيضًا حينًا في سبتة عند بني العزفي وبالنظرة الصغيرة الملقاة على الكتاب فهمت أن هناك مكاتبات رسمية ومكاتبات شخصية فممن كاتبهم بنو العزفي المشهورون في سبتة وقضاة كأبي أمية الدلائي وكلامه مرسل مسجوع على عادة اهل ذلك العصر والكتاب علق نفيس في الآثار الأندلسية في زمنها الأخير فيه فتح مدن كمرسية وشريش وأخبار رسميات الخ الخ كما فيه قصائد ومقطعات وفي كل صفحة 25 سطرًا في قالب يميل إلى الصغر بخط يميل إلى الاندماج.

71) شرح سيدي يحيى الونكيضائي على رجز اليوسي في الدعاء في 96 صفحة في 26 سطرًا في قالب وسط بين الخط وإن لم يكن جيدًا.

72) الفسحة في أولية السبحة للجد ابن العربي الأدوزي في خمس صفحات ألفه في الحمراء في 14 شوال عام 1315هـ وذكر أن سبب تأليفه إياه أنه لاقى دكاليًّا عنده سبحة غليظة، فأدته المباحثة حتى ألف المؤلف، وقد علم أن للسيوطي «المنحة في أصل اتخاذ السبحة» رأيناه في نسخة من الحاوي وهو صغير.

73) الجوهر في اللغة نسخة حسنة كتبت عام 977هـ في مجلد.

74) مؤلف في البدع، نظم، وشرحه لسيدي محمد بن علي بن إبراهيم اكبيل الأندوزالي في 50 صفحة، حديث النسخ، وللمؤلف نسخ شتى مشهورة.

75) شرح للبردة عالي النفس، يكثر أحيانًا من الأشعار الرقيقة في مجلد ضخم بخط جميل رائق، ولعله المذكور لابن مرزوق والنسخة لم تؤرخ.

76) مجلدة وسطى تضم مؤلفات شتى تصل إلى اثنتي عشرة، وهاك المؤلفات بالتفصيل:

1) تلويحات في طريق القوم في ورقات لعبد العزيز بن محمد الصنهاجي البوفرحي خطيب القرويين أثنى عليه زروق. ولد عام 804 وتوفي 899هـ ودفن بقرب سيدي محمد بن الحسن ـ كذا.

2) الأمر المهم الأكيد فيما يلزم الإنسان من حسن الجواب والتسديد في ورقات.

3) حول تهنئة الأمراء بالقدوم في مشروعية ذلك في ورقات أيضًا.

4) رسالة في قول الله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرّعد: 39] في ورقات أيضًا.

5) رسالة في قول ابن عطاء الله (الكون كله ظلمة) في ورقات أيضًا.

6) حول كلمة (حلت) في بيت ذكره، أهو بالخاء أم بالحاء في ورقات أيضًا، وقال في آخره أنه شرح للأبيات الكندية الناطقة بلسان العارفين، وهذه المؤلفات لفضل بن محمد بن علي بن إبراهيم بن فضيلة المعافري نزيل غرناطة وهناك تاريخ 96 ولعله في آخر القرن التاسع.

7) حول أن جبريل والنبي يبكيان من خوف الله في تلك المسطرة نسخ عام 896هـ.

8) حول قول الشافعي إنما خلق الله الخلق بكن، فإذا كانت (كن) مخلوقة فكأن مخلوقًا خلق مخلوقًا في صفحات لعله للبوفرحي المتقدم.

9) حكم ابن مدين في صفحات قليلة أيضًا، لعله له أيضًا.

10) بداية المريد لأبي مدين، صغير.

11) مؤلف للغزالي في الحديث القدسي (لا إله إلا الله حصني) صغير.

12) مؤلف فيه رسالة فقهية إلى محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي المعافري، ولعله ابن العربي المعافري الشهير.

ذلك ما وجد في المجموعة التي هي كلها بخط البوفرحي المذكور.

77) مختصر للترغيب والترهيب في جزء كتبه داوود بن محمد بن عبد الله بودربال عام 1153هـ وذكر أن اختصاره كان في 756هـ وهذا غريب لأن في بالي - إن لم أغلط - أن الأصل للحافظ المنذري المتوفى عام 656هـ ثم بقي في مسودته حتى نقحه وخرجه الحافظ العسقلاني وهو في عام 756هـ لم يكن بعد في الوجود فتأمل في ذلك ولعل ما في علمي من ذلك غلط، وهذا الناسخ رأينا له هناك كتابًا آخر نسخه عام 1173هـ فعلمنا أنه ممتد الحياة إلى هذا العهد وآل بودربال منسوبون إلى جدهم الصالح سيدي محمد بودربال بنيت عليه قبة ومدرسة درست اليوم والمشهد في جهة افلاوكنس ولعل صاحب المشهد هو الذي يذكر مع بودميعة في الحادي عشر وأنه كان يشارط في مدرسة اكضي ومن هذه الأسرة الثائر الذي ذكر في رحلة الوافد عهد المولى إسماعيل العلوي وقطع رأسه في جامع الفناء بمراكش.

78) كتاب عادي فيه ذكر لأحمد بن محمد ابن الفقيه الماسي وقد ذكر أنه يفتي في عصره.

79) منظوم الأخبار لسيدي يحيى الكرامي فيما يقارب ألفي بيت من الرجز ويقع له الكسر في الأبيات وقد اعتذر هو بنفسه عن ذلك في قولة له آخر رجزه.

* * *

هذا ما تيسر من ذكر الكتب التي رأيناها تستحق الذكر من الخزانة الأزاريفية العظيمة ومن سوق بعض فوائد وقفنا عليها أثناء الكتب العادية ولا بد أن يفلت منا بعض النوادر لأننا إنما نلقى نظرات عجلى مارين كما أننا ربما نصف وصفًا غير شاف ما ذكرناه من نوادر المخطوطات، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله والنقع بالندى، ولا الموت بالصدى.

والآن وقد ذكرنا ما حوالي الكتب فلنرجع العنان إلى التكلم حول مجالس هناك قضيناها هناك متتبعين الأنهر والليالي فقد دخلنا أزاريف صبيحة الاثنين 16 شوال وفي العشية زرت مع الفقيهين رب المثوى وسيدي علي بن الطاهر المقبرة عند المغرب فوقفنا على أضرحة أولئك العلماء الكبار فترحمنا عليهم ودعونا لهم كما هو السنة عند القبور وقد كانت المغرب أطلت فرجع عنا رب المثوى لأنه إمام القوم وصليت انا وصاحبي هناك ثم جلنا في مذاكرات ومباحثات حول تفاقم الأمة الإسلامية في متوجهاتها لأنه ذكره الله بالخيرات نبيه إلى الغاية ذو نظرات صائبة وذو غيرة على دينه وهو من بقية الجيل المبارك الذي كاد ينطوي فينطوي به سجل مصون من كثير مما ينشأ من أهل هذا العصر، ثم بتنا خير بيات لأعيائنا وفي صبيحة الثلاثاء انهمكنا معًا في الكتب وقد انهمرت الأمطار، فراح علينا الأديب الحامدي فراح علينا فرح كبير وسرور مقيم وتوجد ترجمة هذا الأديب في المعسول في القسم الخامس.

سمرت مع أديبنا هذا في عشية الثلاثاء إلى أن ابهار الليل وقد انفتل كل من معنا إلى المضاجع فبقينا منفردين ونحن في ترجمة الأديب البوزاكارتي في المعسول وهو يسمع منها ما دار بيني وبينه من أدبيات على ذلك النمط المسجع الذي يحلو لي له ولأمثاله فبعد أن أتممنا الترجمة على طولها قال: لقد والله وفيته حقه وأجررته ذيولًا من الثناء كان أحق بها وأهلها وقد وصفته كما هو فقلت له أن مثل هذا الكلام المسجع لحسن ولكن الأحسن والألطف هو النثر المطلق الذي يرفل من البلاغة وسمو الفكر وتحليق الخيال في حلل أخّاذة براقة فقال هيه ما أرى إلا أن السجع أعلى النثر في اللغة العربية كما نراه من كتب الأدباء من قديم فقلت له حقًّا إلا أن السجع المقبول هو الخفيف الذي لا تكليف فيه وقلما يواتي ذلك في أسطار إلا قليلًا ولو رأيت النثر المطلق الذي

يتلاعب به أبناء اليوم لرأيت الحلل الموشية والرياض الأريضة ولكنك قلما تستحليه لأول مرة إلا أنك إذا انتظرت حتى تذوقه فإنك تذوق ما ينسيك ما تشعشه الكأس الدهاق.

وبعد محادثة في الموضوع ذكرت له أنني كنت ليلة في سمر مع أديب إلغ الطاهر بن علي فجلنا في الموضوع فقلت على لسانه أولًا وهو على هذه الفكرة التي عنك الآن ثم قلت على فكرتي ونص ما قيل:

عاب قوم سجع الترسل حتى ... تابعوا فيه قارضات الملام
قد رأوا ساذج الكتابة جزلًا ... مستطابًا من خير حر الكلام
فجوابًا ولست أخشى وإن مـ ... ـدت إلى ثغرتي نصال السهام
أتطيب الحدائق الغلب للجا ... ئل فيها من غير سجع الحمام؟
أم يطيب الغناء من غير رنا ... ت المثاني ترنما بانتظام؟
إنما السجع صنو شعر مقفى ... كثنايا الحسان عند ابتسام
إن تكن لم تذق من السجع ما ذا ... ق ذوو فنه فرح بسلام

الجواب:

من عذيري ممن رمى بسهام ... مصميات وقال رح بسلام؟
خالني ذا بلادة لم أذق ما ... ذاق منه فسامني بملام
أأرى ساذج الكتابة جزلًا ... مستطابًا من غير حر الكلام
أم أنا منكر من السجع ما خـ ... ـف على السمع مثل سجع الحمام
لا وحق الذي من الفن أرقا ... ك مقامًا يفوق كل مقام
إنما قلت أفضل النثر ما كا ... ن بليغًا مفوف الأعلام
يتثنى في روعة الشعر حتى ... ظن شعرًا لكن بغير نظام
يخلب اللب أن يقل في ندي ... ببيان ورقة وانسجام
وألج أذن سامعيه بلا إذ ... ن، بلا كلفة غير التزام
مثل ما في التنزيل أفضل منثو ... ر بديع النظام والأحكام

هــل تــحــس إذا تــتــبــعــتــه آ يا فآيا بالسجع مثل السلام[1]
إنــمــا فــيــه فــيــنــة إثــر فــيــنــا ت كــلام مــفــصــل بــانــتــظــام
فــتــرف الــفــواصــل الــغــر فــيــه كــرفــيــف الأزهــار بــيــن الــكــمــام
تــتــراءى الأســجــاع مــنــه ـ ولا تكـــــــــثر ـ مثل الحباب فوق المدام
حبذا السجع أن يكن جاء عفوًا لا كرصف الصخور وسط المرام
ذاك عــنــي وذاك مــا قــلــت والحــــــق مــبــيــن إذا تــقــول حــذام

لم أكن إذ ذاك استحضرت هذه الأبيات كلها والآن رسمتها هنا كلها وأنشدني إذ ذاك قول القائل:

الــشــعــراء فــاعــلــمــن أربــعــه فشاعر يجري ولا يجري معه
وشاعر ينشد وسط المجمعه و شاعر من حقه أن تسمعه
وشاعر من حقه أن تصفعه

وأنشد أيضًا:

أيها المدعي سليمى سفاها لست منها ولو قلامة ظفر
إنما أنت من سليمى كواو ألحقت في الهجاء ظلمًا بعمرو

وأنشد أيضًا:

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

وأنشد أيضًا:

إذا أيــقــظــتــك حــروب الــعــدا فــنــبــه لــهــا عــمــرًا ثــم نــم

وأنشد أيضًا:

يا ليلة السفح هلا عدت ثانية سقى زمانك هطال من الديم

---

(1) السلام بالكسر: الحجارة ثم في المعجب للمراكشي حين يذكر ابن القصيرة من كتاب ابن تاشفين اللمتوني كان على طريقة قدماء الكتاب من إيثار جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الأسجاع التي أخذها متأخرو الكتاب اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفوًا من غير استدعاء اهـ فلتعرف أن هذه المثلى طريقة عرفت قبل.

وأنشد أيضًا لابن سعيد الأندلسي:

فذنبي فيه ذنب صحر بدارها[1] إلى البر عند الخابرين معيب

وأنشد أيضًا:

أبكي لهم ضافني متأوبًا أن الدموع قرى الهموم النزل
ما أن دفعت إلى زمان آخر إلا بكيت على الزمان الأول

وأنشد أيضًا:

وزمان بكيت فيه فلما صرت في غيره بكيت عليه

ومن إنشادات الأديب الحامدي أيضًا تلك الليلة قول ابن دقيق العيد:

إذا كنت في نجد وطيب نعيمه تذكرت أهلي باللوى فمحسر
وإن كنت فيهم زدت شوقًا ولوعة إلى ساكني نجد وعيل تصبري
فقد طال ما بين الفريقين موقفي فمن لي بنجد بين أهلي ومعشري

ومن إنشاداته أيضًا:

كأني أستدعي بك ابن حنية إذا النزع أدناه إلى الصدر أبعدا

ويقول إن الأديب البوزاكارني كثيرًا ما ينشده له ويرى أنه يعنيه بذلك لأنه طالما استنهضه إلى المعالي فيتقاعس.

هذا حظ هذا الأديب الآن منا وسنسوق حوله كل ما ننوي ان نسوقه عنه في كتاب (المعسول) إن شاء الله.

في صبيحة الأربعاء خرج معي هذا الأديب حتى وصلنا دار صهره رئيس تلك الجهة فبقي هنا إلى أن مررنا به الغد مرجعنا من أنزى فأمضينا أيضًا تلك العشية بمباحثة فصرت أكشف له الحجب عن حياة اليوم فيبتهج بإدراك ما لم يكن يعرف، وكل ذلك بالكيفية التي يفهمها إلى أن قال: لا ندري لماذا أنت لم تتبدل في الحواضر ككثيرين من السوسيين ذهبوا إليها فرجعوا وقد تنكروا لنا فوجب أن

---

(1) صحر: بضم فسكون. اخت لقمان أحسنت فووخذت على إحسانها فقيل ما أذنبت إلا ذنب صحر.

تعاملهم بالمثل فتنكرنا لهم أيضًا فقلت لله الحمد فأنا أنا ـ كما يقول الراجز:

أنا أبو النجم وشعري شعري

فأنا في الحاضرة هو أنا في البادية وأنا هنا كما كنت هناك ولا تبديل لخلق الله ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هُود: 88] فهكذا التقينا بشوق كثير وهكذا أيضًا تفرقنا هناك، وقد ترك مني فراقه ثلمة عبرت عنها أثناء رسالة كتبها إليه بعد رجوعي إلى إلغ ونصها وهي في ملاءة السجع محافظة على ذوقه وعلى كيفية الترسل الذي يستطيبه:

الأديب الذي إذا حاضر في النادي، انقع غلة الصادي، والشاعر الفحل الذي لا يقدع أنفه، ولا يفل سيفه أن شعر رأيت الرياض الأريضة مخضلة، والأخواط المزهرة تحت قطرات الندى مبتلة، أو نثر قنع الصادان[1] بقمامة بلاغته وأن يكونا صدى فصاحته، ويتطارح ابن خاقان على أقدامه، ويقنع من الغنيمة في سوق النثر المسجع العالي من السلامة بإحجامه، سيدي محمد بن الحاج الحامدي فعلى تلك الأخوة سلام أصفى من الراح، وأرق من نسيم الصباح، وألطف من مغازلة العيون النجل المراض الصحاح، من الأوجه الوسيمة الصباح، ما اشتاق أديب إلى أديب، وما ماطل محبًا بالوصل حبيب.

هذا فقد ضرب الفراق بيننا من جديد سرادقًا كثيف الحجاب، موصد الأبواب، كأن لم نكن في تلك الليالي بأزاريف كندماني جذيمة، يثافن كل نديم نديمه، نتعاطى رحيق الوصل صرفًا، ولا ننشق إلا الدنو عرفًا، والدهر يخدم ذاهبًا جائيًا في أمانينا، فعادت بيضًا ـ ويا ليتها كانت كذلك دائمًا ـ ليالينا، نأمر السعد فيأتمر، ويطوف بنا الحظ الميمون وهو مشمر، ثم بدا للدهر فأمن على غيظ الحساد، فلزنا إلى الفراق بحبال من أمساد، فعدنا إلى ما كنا عليه في هذا الربع الماضي من القرن، لا تنظر عين إلى عين، ولا نبيت من أذى البين على أمن، فهكذا الدهر حال يعقبه حال، يتلون كما تتلون السعال، فكأنه منجنون يدور من قرب إلى بعد، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

---

(1) الصادان: الصابي، والصاحب بن عباد.

وبعد: فقد كنا عقدنا عقدًا، لم نكن نرى من الوفاء به بدا، إلا وهو الرحيل بعد عاشوراء إلى افران، التي هي منبع العرفان، حيث سوق البيان لها نفاق، والفصاحة لها علم خفاق، إذا بالسعد قد أحظاني وحدي فحداني إلى تلك الأمكنة رغم أنفي، فقدت إلى الجنة بالسلاسل وكم بضعة بالحديد تشفى فمثلت في حضرة شيخنا العلامة، فرفعت عقيرتي منشدًا في ذلك الجمع، جمع السلامة قطعة مطلعها:

طر يا فؤاد سرورًا فالزمان وفي ورد ما كان مألوفًا كما ألفا[1]

فيجيب شيخنا سيدي محمد بقصيدة رشيقة، بالمعاني الرقيقة، والبراعات الأنيقة، والخيالات الدقيقة، فقامت سوق الأدب على ساق، تستوقف الأحداق، وتنادي على الفهيه بالأطراق، فأقدم البلغاء إلى الميدان، واحجم المتفيهقون تتعثر بهم الرجلان، فمن لم يتنكب مع ذوي الأحجام، قطره الزحام، وكنت أتمنى لو حضرت لتأخذ بعينيتك[2] مجالًا بين الجائلين، فتخوض في بحر البلاغة مع الخائضين، ولا تحسب أن العينية رآها طرف، أو ألم بها من الأدباء هنا أو هناك طيف، فإنها لا تزال مصونة صون الأعلاق، حتى تكون أنت في وفدتك المنتظرة من يعلنها بين الرفاق، والسر لدي مكنون، والوفاء في أمثال هذه الميادين على الأحرار ديون، ثم إنك لا بد أن تطرقني بإلغ في وفدتك الافرانية في عاشوراء، فإنها وإن سبقك بها عكاشة لا تزال منك أمام لا وراء، فقد أفضيت بذلك إلى أستاذنا فرحب سلفًا، ويا ليتني أجد من الدهر لمصاحبتك وفا، فما أحلى العلل بعد النهل، فمر بإلغ فلعل ذلك يتم على ما في بالك وبالي، فإننا لا ندري الآن ما تأتي به إذ ذاك الليالي، وسلام عليك يوم تذكر أخاك وغربته، وتفتح الغلاف وترى رسالته، وترد عليه بالبنان أو باللسان تحيته.

سيدي إدريس الصوابي مدرس أزاريف اليوم:

كان يجلس إلينا في تلك المجالس العلمية العليا زيادة على من ذكرناهم

---

(1) بقيتها تأتي في آخر هذه الرحلة حين أكون في افران.

(2) قصيدة للمخاطب يخاطب بها شيخنا الافراني توجد في ترجمته في المعسول مطلعها:

ذكر المعاهد باللوى فالأجرع فأذال مشتاقًا مصون الأدمع

فقيهان شابان إحداهما سيدي أحمد بن الطاهر الأماسيني وهو ممن أخذ قليلًا من إلغ، ولذلك يدخل في (الفصل الأول) من (القسم الرابع) من (المعسول) فهناك إن شاء الله نذكره، وثانيهما سيدي إدريس الصوابي، وقد رأيت منه إدراكًا وفهمًا وتحصيلًا واستحضارًا في الفنون التي أخذها، وقد سألته أسئلة عن حياته فأفضى إلي بما يأتي:

هو إدريس بن الحاج محمد بن أحمد بن محمد بن محمد من قرية (تيوازوين) من قبيلة آيت صواب ولد نحو عام 1328هـ وأخذ القرآن عن الأستاذ أحمد بن علي من آيت محمد من تاوريرت وانو المتقن لحرف المكي، وقد توفي في هذه السنة 1361هـ وعن الأستاذ عبد الله من آل الأمين من قرية (تيوازوين) وقد توفي نحو عام 1345هـ وكلاهما أخذ عن الأستاذ إبراهيم من آل عبلا من تاوريرت وانو وهذا أخذ عن ابن عمه الأستاذ محمد بن الحاج، وهو عن العلامة أعجلي الشهير، وهؤلاء كلهم من القراء الكبار: ثم افتتح المتون الابتدائية على علي بن عبد اليعزاوي الهشتوكي، وهو عالم حسن ممن تخرج بالعلامة الحاج عابد الشهير وكان يشارط ويدرس في مدرسة سيدي صالح المديوني الصوابي ولا يفارقها، وكان ذا سمعة طيبة وشهرة حسنة، وقد وخطه الشيب حين توفي يوم الثلاثاء في منتصف شعبان عام 1347هـ فمن هذا الأستاذ تلقن سيدي إدريس أول بذرة أخذ عنه الآجرومية ثم اتصل بالفقيه الأديب سيدي محمد بن أحمد من أمالونيت يحيى الصوابي في مدرسة إيمزي في القبيلة الصوابية أخذ عن العلامة الكبير أبي عبد الله اقريص الصوابي المشهور وهو عمدته درس ما شاء الله في تلك المدرسة لثلة من الطلبة، ويذكر بعلم وتحصيل ومشاركة وبأنه رباني ذو أخلاق دمثة يذكر بها وله خط جيد يتحدث به ويد صناع في تسفير الكتب لازم تلك المدرسة أزيد من ثلاثين سنة توفي ضحوة 11 ربيع الثاني عام 1351هـ وله لفتات إلى قرض المنظومات فقد كتب لنا سيدي إدريس هذا مما عنده ما ننتقي منه للقراء قال لبعض الناصحين:

فنفسك عظ فإذا اتعظت ... فعظ يا أخي إذن من تشاء

وإلا فأمرك مرءًا بخير ... ولم تأتمر هو قول هراء

وقال معتذرًا عن منظومه:

جهلت ولا أدري ولست بأوحد وكم جاهل شيئًا وما هو صانع
حسبت بسلك الحسن قولي منظمًا إذا هو في سلك المقابح واقع

قد اجتهدت أن أنتقي من صفحتين مما يقول، ولكن لما رأيت هذين البيتين اللذين هما من قصيدة قنعت وقلت صدقنا سن بكره وقد أثنى لنا عليه سيدي إدريس ثناء عطرًا قال أخذت عنه الألفية النحوية مرارًا والرسالة وابن عاشر وبعض المقامات الحريرية والاستعارات والدريدية وبعض الدالية وورقات إمام الحرمين وغير ذلك.

ثم أخذ بعده عن الأستاذ محمد بن أحمد بن الحسين التاكوشتي المضائي من أهل اكني المضاء وهم جعفريون نسبًا وهذا الأستاذ ممن تخرجوا بالأستاذ قبله وقد لازمه سيدي إدريس نحو ست سنوات في مدرسة تاكوشت حيث لا يزال هذا الأستاذ حيًّا إلى الآن ثم من عنده إلى مدرسة تاهالا عند أبي العباس سيدي الحاج أحمد أقاريض أخي سيدي محمد بن عبد الله أقاريض المذكور آنفًا فلازمه ثلاث سنوات إلى هذه السنة 1361هـ فاستعان به الفقيه الأزاريفي سيدي الحسن ليكون له معينًا في مختلف الدروس ولم يخصص لنفسه إلا بعض الدروس العليا كالتفسير وما حمله على ذلك إلا كونه مشغولًا بالأمور المخزنية في محكمة (أنزي) ولا يمكن له أن يواظب.

حاضرنا سيدي إدريس في مجالس وجاذب في الأبحاث فآنس بحسن المحاضرة وبأدب المناظرة وأعجب بالبديهة في الأجوبة من العلوم التي درسها وقد سألني عن الزكاة في الأوراق البنكية فباحث في الأدلة وكل ذلك يدل على شفوف وقد استعنت به في تقييد إجازات ورسائل وبعض ما وقفت عليه من هناك، وأردت نقله كرسالة الأديب علي بن محمد بن عبد العزيز التيلكاتي وهي رسالة فذة وقفنا عليها هناك وقد أوردناها في (المترعات).

هذا وقد دفع سيدي إدريس إلي وإلى الفقيه سيدي علي بن الطاهر أبياتًا فائية آخرها:

. . . . . . ومراد الضعيف هذا منكما أن تسمحا بإجازة للضعيف كاتب هذا

الخطاب فتنصل صاحبي قائلًا أن في فلان يعنيني الكفاية فقلت لا بأس ولا يأبى الكرامة إلا لئيم فحين وصلت إلغ أجبته بمقصوده وبأبيات في روي قطعته ومثل هذا صدر عن الفقيه سيدي أحمد بن الطاهر الأماسيني فسلكت به مسلك سيدي إدريس وأول قطعته:

دعاني على طول البطالة هاتف ... إلى حضرة تنمى إليها المعارف
فنبه مني القلب من سنة الهوى ... وجئتك يا من لا يدانيه عارف
وكنت قبيلًا بالهوى متقيدًا ... وليس لقلبي عن دواعيه صارف
فمنذ استفاق القلب جئتك سيدي ... وأني على قصد التبرك عاكف
أروم استفادات العلوم بنية ... لعل فؤادي من بحارك غارف

إلى آخرها وإجازتاهما أثبتهما في مؤلف مسمى (سلاسل العقيان في إجازاتي لبعض الإخوان).

هكذا أمضينا أيام أزاريف الغراء المحجلة فمن صباح الاثنين 16 شوال إلى صبيحة الجمعة 20 منه كنا نسبح في فوائد وموائد مما تمدنا به الخزائن والمآدب الأزاريفية صانها الله وصان لها ذلك الكريم الأريحي المدمث الأخلاق، والمطهر الأعراق[1].

ومدرسة أزاريف على قمة جبل من صفوان قلما يوجد في أعاليه تراب حتى أن مواد البناء ـ متى احتيج إليها ـ إنما تنقل بالدواب من السفوح، وقد استدارت بذلك الجبل المبنية عليه قرية آزاريف نطفيات تناهز المئين، بل يقولون أنها 360 وذلك غير مستبعد لمن جال حول الجبل من قمته إلى أسافله، والمكان موحش يباب، استدارت به الجبال التي تعلو بكثير جبل أزاريف جنوبًا وشرقًا، وقد أحاطت الشعاب العميقة بآزاريف، فكان الذئب الذي يكثر هناك يشاركهم في أفنية الديار نهارًا وقد خرجنا يومًا عند الزوال فرأيناه يطارد دجاجًا أمامنا من غير أن يخاف كأنه مستأنس داجن، فذكرنا ذلك للأهالي فأخبرونا بتلك الحقيقة التي نجهلها، وعن يسار أزاريف يبين الأبطح المسمى تاسيلا

(1) توفي عميد المدرسة الأزاريفية هذا بعد هذه الزورة بسنين فشغرت بعده المدرسة.

أزاريف وهو مستوٍ فوق ذلك النجد ويا ليت سادة أزاريف تقدموا قليلًا فسكنوا هناك ولكن أراد الله أن يتشرف بهم هذا الجبل الوعر، ويعمر بهم هذا اليباب القفر، وقد زرنا في المدرسة مقبرة الشيخ الصالح سيدي إبراهيم افلول الجد الأعلى للأزاريفيين قاطبة وهو من أهل القرن الثامن وهو الذي انتقل من سملالة إلى هذا المكان، والقبور كثيرة في غربي المدرسة المنحدر مما يدل على العمارة العظيمة التي مرت هناك ولا يشبه هذا المكان إلا حصنًا من الحصون القديمة التي كانت تتخذ على شعف الجبال، فرارًا من الأعداء ولعل ذلك هو الأصل في هذا المكان، ولا أدل عليه من تلك النطفيات الكثيرة في كل محل هناك.

زرت خلوة الشيخ سيدي محمد بن يحيى وصليت في مسجده تبركًا فقلت: اللهم ارض عن أئمة هذا الدين الحنيف، وأعد علينا من بركاتهم وألحقنا بهم مسلمين مؤمنين آمين غير مفتونين، وقد رأيت هناك رؤيا تسر ولا تغر.

تيلكات:

ودعنا الفقيه تحت الديار، فرجع إلى أناس كانوا في انتظاره بعدما نوى أن يشيعنا أكثر من ذلك، ثم أطلقنا الأعنة للبغال، والسماء قد اكفهر وجهها وأرجحن مطرها، فلم نكد نستوي في بسيط (تاسلا أزاريف) حتى استرسل علينا شؤبوب مندفع فاستظللت بمظلة وصاحباي سيدي الطاهر الأدوزي الحاسر الرأس ورفيق آخر مترادفان على بغل لا يباليان به، فقلت لله در تربية البادية الصحيحة ثم بعد لأي انقطع الغيث ثم عاودنا بعد قليل، إلا أن كل ذلك لم يزدني أنا إلا نزهة لمتانة البغال التي نحن عليها، ثم مررنا بشعراء من أشجار الخروب ثم لم ننشب أن أطللنا على وادي تيلكت المنفرج فقلت: سبحان الله أفي هذا المكان كانت - ما شاء الله - رياسة ولتيتة في أيام السعديين ثم الإيليغيين؟ وظلها يمتد على كل هشتوكة إلى آيت وافقا - كما يذكر - أهنا كان أولئك القواد الكبار الذين يحكى عنهم ما يحكى من قوة ورباط خيل كثير وحاشية كثيفة من الأعوان والعبيد؟ ثم ذهب كل ذلك تحت ظل الجهالة التاريخية مع استمراره أجيالًا حتى لا نجد إزاءنا الآن ولو أسماء أولئك

الرؤساء المتشعبين عن أسرة آل عبد العزيز العالمة، وكادت أخبار علمائها تذهب بالكلية، لولا إثارات من هنا وهناك.

نزلنا بين الظهرين في دار أخينا سيدي الحسين بن محمد الأزاريفي ابن عم الفقيه سيدي الحسن عميد آزاريف المتقدم نزل آباؤه على أملاك هنا ورثوها من آل عبد العزيز من جهة نساء اقترن بهن الأزاريفيون فتوسع من استوطنوا هنا ووجدوا ما لم يجده من لا يزالون في قمة جبل أزاريف ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النِّساء: 100].

كان سيدي الحسين رب مثوانا هذا يزور إلغ لأنه من أصحاب والدنا، فلذلك استدعانا لزيارة داره وحفزنا بعرض خزانة لآبائه حافظ عليها في صندوق كبير فلم يكن لمثلي الشغوف بآثار العلماء إلا أن يلبى مبادرًا لعله يقع على ما لم يقع عليه قبل من نادرة مستطرفة، أو ذخيرة من الأعلاق المستظرفة فبمجرد نزولنا على مضيفنا سار بنا إلى المكتبة فصار يعرض علي من كتبه المخطوطة فإذا بخزانته من خيار خزائن الأزاريفيين وقد وقفت فيها على ما يأتي:

1) الدر المنظم في زيارة الجبل المقطم بخط مشرقي حسن والنسخة كانت عام 1226هـ في ملك العلامة محمد بن إبراهيم اعجلي الشهير وهي مجلدة بينة الخط.

2) السخاوي على الألفية العراقية في مجلد ضخم بخط عادي غير جميل ولكنه يقرأ والنسخة قديمة كتبت في عهد المؤلف رمضان عام 882هـ لأن السخاوي توفي عام 902هـ والكتاب نادر النسخ.

3) شرح القصيدة الرائية في بحر البسيط لمحمد الدرعي فيما يجب على المكلف ليبورك السملالي والنسخة في 26 صفحة في 38 سطرًا أتمه عام 1052هـ.

4) أجوبة في صفحات للمرغيتي.

5) نظم في أصول الدين ليوسف بن محمد بن إبراهيم المراكشي مبتور الأخير مع فساد غالب السطور بالبلل.

6) أربعون حديثًا لأبي نصر نسخ شرحها عام 967هـ.

7) كتاب عادي في بعضه: المختار بن عبد الله الكرسيفي الفقيه المفتي توجد هناك فتوى له وقد وجدت إزاء اسمه في مذكراتي هذا البيت:

الـدر وهــو أجــل شــيء يــقــتــنــى مــا حــط قــيــمــتــه هــوان الــغــائــص

ولعلي نقلته من فتواه تلك ـ لا أستحضر الآن ـ والمختار هذا لم نعرفه إلا هنا.

8) وشي المعاصم لليزناسني على التحفة كان الكتاب في عام 1165هـ في ملك عبد الله بن أحمد بن محمد بن علي الأيسي أصلًا ثم الودريمي تربية ومولدًا ولم أعرف قط هذا العالم بهذا كله، وقد وقفت على هذه الرسالة ولعلها له لأن صاحبها أقدم من القرن الماضي:

سيدي وسندي، وزندي وعضدي، وقلبي وكبدي وأجل من تملك يدي سيدي أحمد الهشتوكي، السلام الطيب الممسك، عليك وعلى من بك تمسك، أما بعد فإن الأحوال بخير، ولم يلم بنا ضير ومن وجد خيرًا فليحمد الله ومن طابت له الحياة فلا يشكرن إلا الله فأقول:

حـمـدت إلٰـهي حـمـد عـبـد رأى لـه عليه ثياب الفضل من كل جانب

فـشـكـري لأنـعـام الإلٰـه يـديـمـه وإلا فقد يغدو كنسج العناكب

ثم إن الكاتب يطلب من سيدي دعاء دائمًا في كل حين ليصلح له كل ما يريد من دنيا ودين، ومثل دعائك يجيز، وما ذلك على الله بعزيز والسلام من أخيك عبد الله الودريمي حفظه الله.

وليس هذا هو عبد الله الودريمي المشهور صاحب القبة المتوفى عام 1222هـ لأن هذا الودريمي المشهور معلوم الترجمة بين البوشواريين.

9) أجوبة سيدي داوود التونلي التملي في نحو 18 صفحة كبرى والنسخة مكتوبة عام 1072هـ ونسخها توجد بكثرة.

10) مؤلف في الفرائض للإمام السهيلي في مجلدة بينة الخط نفيسة العبارة نسخ عام 996هـ.

11) الأول من السيرة الحلبية وهي مطبوعة بخط مشرقي قديم جميل له رونق أخاذ، والجزء من الأعلاق لنفاسة خطه.

12) الأول من البيان والتحصيل لابن رشد على المدونة انتهى فيه إلى الاعتكاف، ولم أقف على الباقي هناك والجزء لم يؤرخ وقت نسخه والكتاب قليل الوجود ونسخه التامة قليلة.

13) كتب عادية استفدت منها اسم علي بن أحمد بن محمد بن يعزى امزوغار كان حيًّا عام 1074هـ فهو ابن القاضي مهجو التاغاتيني واسم محمد بن عبد الله الاكماري وكان عالمًا مفتيًّا، ولعله المتقدم في الاكماريين، واسم محمد بن أحمد بن يحيى البرجي من أهل آخر القرن الثاني عشر عاصر صالح بن إبراهيم العلامة الكبير المتوفى عام 1206هـ ويفتي معه، والبرجيون الرسموكيون أسرة علمية ذكرناها في تلاميذ عبد الله بن يعقوب في القسم الثالث من المسعول.

14) أجوبة تنسب إلى يوسف بن يعزى القاضي الرسموكي الشهير رأينا النقل عنها، وقد وقفت في هذه الجولة على ورقة عدد فيها مؤلفاته وهي:

الأجوبة الفقهية التي ذكرت فيما تقدم، وشرح أسماء الله الحسنى، ومؤلف في العول، ومؤلف في المناسخات، ومؤلف في الصفقة، وآخر في البيع للآجال في المجاعات، وآخر في احترام القضاة وآخر في حكم الدفن فوق قبور أخرى، وحاشية على المغني، وإعراب لا إله إلا الله، وشرح الأربعين النووية، وأنا إلى الآن لم أر أي واحد من هذه المؤلفات.

15) ورقة واحدة من أول كتاب أصول الضبط للقرآن لأبي داوود سليمان بن نجاح، مبتدأها باب أصول الضبط وكيفيته على الاختصار الخ ثم قال المؤلف اعلم أن نقط المصاحف هو أقدم من الشكل وإن كان ذلك معًا مستنبطًا مصطلحًا عليه إلا أن النقط كان قبل في وقت كان فيه كثير من الصحابة لا يزالون أحياء والورقة بخط جميل توجد في الدفة الأولى من المغني لابن هشام ولم تسفر مع الكتاب، وقد وجد في حاشية من كتاب المغني لابن هشام أن عبد الله بن محمد بن الحسن التيلكاتي رهنه وهو عبد بن ابن محمد بن الحسن بن سعيد الشاعر.

16) أربعون حديثًا لابن الفاكهاني مع شرحه لها ويطيل النفس، وهو جزء كبير

منتهى ما وقف عليه الشارح في الثاني والأربعين من الأحاديث وفي بعض النسخة بياض من الأصل المنقولة منه.

17) الثاني من فتح الباري بخط مغربي جميل قديم لم يؤرخ نسخه.

18) الشرح الصغير للعراقي على ألفيته كما كتب على الكتاب ينقصه شيء بعد أوله وكذلك في آخره على ما يظهر من عبارة مذكراتي وقد كان الكتاب مع الكشاف في ملك الشيخ سيدي محمد بن يحيى الأزاريفي.

19) كتاب عادي كان في ملك محمد بن أحمد بن عبد الله الفنتوري الماسي المقدمي، وتوفي قبل 1163هـ ثم تملكه محمد بن محمد بن الحسن الحامدي صاحب القصيدة المتقدمة وصاحب المؤلفات الكثيرة وهو من أصحاب الشيخ محمد بن يحيى الأزاريفي المتوفى نحو عام 1163هـ.

20) كتاب عادي كان في ملك سعيد بن عبد الرحمٰن بن الحسن التيلكاتي وهذا الحسن هو ابن سعيد الشاعر.

21) كتاب عادي وجدت في إحدى نواحيه ومن نظم الشيخ الأديب سيدي عبد الملك التجموعتي:

فإن تسألوا عن سوس فالكل مذعن ... يقادون كيف شيت لم يصعب الود[1]
يقولون هذا ليس بالرأي عندنا ... (ومن أنتم حتى يكون لكم عند)[2]
على كل حال ما رأيت شبيههم ... فألسنة لكن وأفئدة صلد
ولم أر مثل أهله في غباوة ... وسخف وأما النوك ليس له حد
ولا تحسبوا أني قصدت هجاءهم ... (فما قلت إلا بالذي علمت سعد)[3]

ثم ذكر هناك أبياتًا قليلة في الجواب ثم وقفت في هذه الجولة على الجواب كاملًا ـ على ما فيه من فهاهة فاضحة ـ بخط العلامة شيخ شيوخنا الأديب سيدي العربي الساموكني ونص ذلك:

(1) كذا وجد والغالب أنه هكذا: لم يصعب القود.
(2) شطر بيت قديم.
(3) شطر من قصيدة الحطيئة المشهورة في هجاء الزبرقان وأوله: يلومونني أبناء سعد عليهم.

للفقيه الأديب اللغوي سيدي إبراهيم بن علي بن الحسن الروداني دارًا ومنشأ في معارضة قصيدة الأديب سيدي عبد الملك التجموعتي معيرًا لأدباء قطر سوس على نسج منوالها ما نصه:

أيا عجبًا ترمي لدى أمة سعد ... بأسهم غرب لا يقام لها حد
أيرقأ دمع يا له من مس أسا ... ايسقي لها من أعين النرجس الورد
فصح واصباحًا تغتنم نهز فرصة ... فحيهلن يا من له النجد النهد
حنانيك عيني عن بكاء فإنه ... إن اهتز عرش الحي يقضي لك الرشد
ثمانين ضربًا من بديع فإن وفت ... غدًا اللكن لسنا واستلان بنا الصلد
وملزوم كل ينتفي بانتفائه ... تراه وراه قد أحاط به الطرد
علي وعندي فالمقال مزور ... وشاهد عدل في المقال به العد
فما رأت الزبباء زخرف قوله ... ولا سمعت هند ولا علمت سعد
بل الحبر إعجابًا تراءى بنظمه ... فاسمع حسب السمع والرؤية الرد
وبالنفس يفدي لو تكلم حسبة ... ولكنه[1] نقص الكمال هو القصد
وإطلاق سرح القال والقيل في القلى ... وتعميم قطر لا خصوص ولا قيد
على أنه الندب الأريب فتى العلا ... ينزه عن قذف فمن غيره يبدو
فنعم مديحًا للإمام وحزبه ... وبيس القرين للمقارن قد يعدو
وويل لوزن طف أو خف عدله ... لدى اللوذعي الألمعي حلا النقد
وعند نجيي ما لديه سوى الرضى ... فيا حبذا الرجعى ويا حبذا العهد
فرد يا فريد الدهر من منهل الصفا ... تفز بالصفا من أهله الحل والعقد
فتدرك فرض العين من قبل فوته ... فقد فات قدما للجهول به الحمد
وإلا فتحليل الكلام وعقده ... ورسم من آثار الطلول له حد
وتفصيل أوصاف الكلام وضده ... وعكس القضايا كل ذاك هو الورد
بيان المعاني من بديع زمانه ... ووشى حرير للمقام به نحدو

(1) كذا، ولعله (ولكنما).

عروس لأفراح البهاء محصل ... وحاصل تحصيل الشهاب هو الرصد
تمكنت من عقد القوافي بجيدها ... فكل أعاريض القريض له وعد
فلا تحسب التلويح غير تنازه ... فحفظ مكانة العلوم له مجد
وإلا فلو أطلقت جامح قولتي ... وخب لما يقضي المقام لي النهد
لشمت معايير الكلام سفاهة ... وإن لم يكن لي في مسافهة أيد
ولكن أرى هذا اليراع مسارعًا ... إلى قولة ما أن يكون بها بد
فها أنذا أطلقت عمدًا جماحها ... وإن جفت الأقلام أو كمل الكغد[1]
دعوه ودعوى القدح فالمدح ثابت ... يحق لدى النظام جوهره الفرد
ولم لا وسوس للمعالي أساسها ... فقد سلمت في الرفعة الهند والسند
مناقبه مثل الثواقب في الدجى ... ينير بها نجد كما يشرق الوهد
فمفترق في الكون مجتمع به ... فكان الفراء فيه يجتمع الصيد[2]
فمنه كماة للذمار حماته ... بها انتصر المنصور وانتشر البند
توحد منه للموحد ملكه ... لبرقة برق البيض إذا سوسنا الحد
(أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا ... وإن عاهدوا وفوا وإن عقدوا شدو)[3]
ومنه بدور بل شموس قد أزهرت ... سعيدان عند السعد بينهما السعد
أبو الفضل يحيى بعد بدرين قد سما ... سماء فنون العلم ليس له الجحد[4]
وناهيك منهم فتية الكهف قطبوا ... فطالع أنوار الدلائل ممتد
وإن رام نصب العين للحال ردها ... لتمييز حين النظم يرتفع اللد
فلله فرع كان زهرًا لأصله ... جنى من جناه من تعالى به الجد

---

(1) يعني الكاغد ولعله لغة فيه.
(2) الأصل الفرأ كجبل وسحاب حمار الوحش.
(3) بيت من قصيدة الحطيئة المتقدم ذكرها.
(4) يظهر أن المقصود يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي وقبله أبوه عبد الله وسعيد بن عبد النعيم فهما شيخان عظيمان يعني أنهما من مفاخر سوس.

فأكرم ببنت الزعفران وتربه فيا لك من ترب به خصت الخلد[1]
به فاض ما قد غاض من فيض جدول يحرك أمواجًا متى زخر المد
به فاض بحر عنبر[2] الخام خالصًا به كوثر يجري بسكره القند[3]
به حل في قلب الرصاص لجينه به سال عين القطر ليس له ند[4]
فذي جزئيات من خصائص فضله وتفصيل كل لا يحاط به العد
فيا حسن ختم عن عبير أصوله فطاب وذاع يعبق الصدر والورد
على مثلها فلينظم الشعر أو فلا بأحسن تقويم قضى المجد والسعد
فأغرى غرام بالرداني هزه على تربه ما قد قضى للعلا المجد
هلالية من يمنها رق طبعها تلت صورة الأنفال جودها الرفد[5]
متى لحظت فالسحر حق بلحظها أو إن لفظت فاللفظ حلواء أو شهد
تحيي أبا مروان بالصبح والمسا بروح وريحان يطيب له الخلد
فذكر جميل من بثينة رقية بنفثة ليلى حل من عروة عقد
وطيف خيال الأخيلية قد سرى بتوبته يسري لبشرك يا هند

هكذا القصيدة العرجاء التي بها يحكم التاجموعتي بأن اللسن اللكن في سوس كانوا حقيقة وإلا فمن يرى مثل هذه الفهاهة بلاغة فلتبك على ذوقه البواكي.

ثم إنني وقفت من هذه المنظومة على ثلاث نسخ المذكورة التيلكاتية والمذكورة عن سيدي العربي الساموكني والثالثة من خط الأستاذ ابن العربي الجد فضربت بعضها ببعض فاستخرجت من الجميع هذه النسخة التي بين يدي القارئ على علاتها الواضحة فهي كالورهاء الشوهاء فلا للشم ولا للتقبيل ثم

---

(1) يقصد سكتانة حيث يستنبت الزعفران.
(2) العنبر كثيرًا ما يؤتى به من سيف البحر من صحراء سوس.
(3) اشتهرت سوس بالسكر قديمًا.
(4) من معادن سوس القديمة معدن الرصاص ومعدن النحاس الذي هو القطر بالكسر.
(5) يعني أن مؤلفها هلالي أي أنه من قبيلة إيلالن.

وقفت أيضًا على نسخة رابعة بخط شيخنا سيدي محمد بن الطاهر الافراني قائلًا أنه نقلها من خط الساموكني المذكور إلا أن فيها اختلافًا في أبيات مع التي رأيتها بخط الساموكني فظهر أنه نقل أيضًا عن نسختين وإبراهيم الروداني هذا من قبيلة إيلالن ولذلك وجد في بعض النسخ الهلالي[1] على عادة السوسيين في النسبة لتلك القبيلة ولا ريب أنه معاصر للتاجموعتي العلامة الكبير ومتوفى التاجموعتي عام 1118هـ.

ثم في ذيل النسخة التيلكاتية ما نصه: وذيله العلامة صاحب المعقول والمنقول سيدي محمد الهشتوكي ولعله أستاذ اليوسي المستوطن بمراكش إن طال عمره حتى يعاصر جيل تلامذه:

وفيهم ومنهم من يلاذ بفضله فحول الوغى أسد سوابقهم جرد
بهم بان فضل الغرب لا أرضك التي تسمن كلبًا للعيال بها الجهد
فلولا بنو خير البرايا ونسله لما جاءكم جاء ولا وفد الوفد
فذا جدل أفحمت فاه بغصة تلجلج فيها لا مساغ ولا رد
ذكرناك إذ ذكرتنا بنقيصة تجازي بمثليها فلا عتب يا طود

هذا ما كان في التيلكاتية وزيد عليها عند الجد ابن العربي ما نصه:

ثم ذيل على ذلك أيضًا سيدي عبد الله الحامدي ولعله صاحب المقامة ابن الشيخ سيدي محمد بن يحيى الأزاريفي بما يأتي:

تحاول ستر الشمس منا واننا كما يشهد الأنام لب إذا عدوا
بنا ولنا كانت ذرى كل منبر ينكب إن قلنا لدى العلما الرد
تميل بنا هام الفخار بمنتدى الـــفخار كانا في الربا الأغصن الملد
إذا زخرت منا المباحث عند من يباحث جر البحث من بحرنا مد

(1) وليس إبراهيم الهلالي هذا بإبراهيم الهلالي الشهير صاحب الفتاوي، فإن ذلك سجلماسي من بني هلال كان يعيش في أواخر القرن التاسع فليس بسوسي وهذا من قبيلة إيلالن بسوس.

تعال فباحثنا ترى الفكر ماضيًا ... يكون به قط المبارز أو قد[1]
ترى عندنا ما كنت تعلم أننا ... على رغم ما تبغي يحق لنا عند[2]
فكل بني سعد يرون كمالنا ... (وما قلت إلا بالذي علمت سعد)
لنا الجار يحمي لا يضام جنابه ... وسهل أراضينا له الأبلق الفرد[3]
فتبا لمن يغدو لنا متعاميًا ... عن المجد مجد السوس هل ينكر المجد؟
وعندي لسان لو أردت انطلاقه ... ولكن سيكفي ما يحيط به العقد
وأستغفر الرحمٰن فيما أقوله ... وإن لم يكن إلا به الحق يعتد
فلولا اعتساف العشي في الليل نامت الـ ... ـقطا واستكنت بين أشبالها الأسد

انتهت القصيدة وهي لعمري ـ على بعض تراكيب فيها ـ أفضل من كل ما تقدم، والله يغفر للجميع، وقد علمنا ما بين التاجموعتي وبين اليوسي من قواف، حين يهجو الأول البربر ويذمهم بأنهم يقولون لله تعالى بابًا ويجيبه اليوسي ولا نطيل بكل ذلك[4] فهو معلوم.

22) شفاء الغليل لابن غازي والنسخة كتبت عام 989هـ.

23) مجلد من جواهر ابن شاس بخط نفيس قديم إلا أنه مبتور أولًا وآخرًا.

24) مؤلف على الموطأ في أوله ما يأتي بالمعنى ـ اختصارًا ـ اذكر ما فسره يحيى بن إبراهيم بن مزين وغيره من الفقهاء من الموطأ، وانقل كثيرًا بالمعنى، وأبوب الأبواب على حسب أبواب يحيى بن يحيى الليثي، وأجمع بين روايته ورواية ابن بكير واذكر الأحاديث التي أرسلها مالك

---

(1) في وصف علي بن أبي طالب: كان إذ عارض قط أي قطع الطرف الأعلى من قرنه وإذا قابل قد أي قصمه من أعلاه إلى أسفله.

(2) يشير إلى ما قال التاجموعتي (ومن أنتم حتى يكون لكم عند).

(3) الأبلق الفرد حصن السموأل الذي ذكره في لاميته المشهورة قال:

هو الأبلق الذي شاع ذكره ... يعز على من رامه ويطول

(4) سمعت أن للعلامة تقي الدين الهلالي علامة سجلماسة ومفخرتها اليوم؟ قصيدة طنانة يرد بها على اليوسي انتصارًا للتاجموعتي ودفعًا لما يلمز به أهل تلك البلاد وكل هذا يقبل في باب ترويج الأدب إن كان متين العبارة فصيحًا بليغًا.

واسندها غيره، وربما ذكرت أحاديث من غير الموطأ فيها بيان وتفسير واذكر ما أخذته تلقينا ومشاهدة عند مدارستي للموطأ عن أشياخي الخ ثم قال باب تفسير وقوت الصلاة إلى آخر باب كراهة دخول المسجد بريح الثوم قال لي أبو محمد الأصيلي الخ ثم امتد إلى أن قال أخيرًا مما عني بشرحه وتأليفه أبو المطرف عبد الرحمٰن ابن مروان القنازعي إلى أن قال، قال عبد الرحمٰن جمعت هذا الكتاب على قدر فهمي، وعلى حسب ما ضبطت الخ والنسخة بخط جيد رفيع في نحو 500 صفحة في 20 سطرًا، في قالب مائل إلى الطول ولم تؤرخ النسخة، ولكنها كما يظهر مكتوبة حوالي الحادي عشر لبعض علماء تيلكات في أواخر النسخة بياضات من المنقول منه والكتاب من الذخائر.

25) مؤلف للزجاجي في النحو أوله باب اشتغال الفعل عن المفعول بضميره نسخة عتيقة جدًّا كتبت عام 432هـ بخط أندلسي كما يظهر وقرئت على بعضهم عام 490هـ وقد تداعت النسخة إلى التلاشي وتسرب إلى أكثرها أثر البلل وإن كان لا يزال في الإمكان أن ينتفع بها اللبق الحاذق، والنسخة في قالب وسط في 192 صفحة في 27 سطرًا بخط بين والكتاب من الأعلاق.

26) شرح الآجرومية لأبي سعيد بن سعيد السملالي صغير.

27) القلشاني على الرسالة في مجلد واحسبه انبتر أخيرًا وهو مجلد فيه أحد الأجزاء المتعددة من هذا الشرح وأحسب هذا انبتر أخيرًا نسخ عام 962هـ.

28) كتاب عادي استفدت منه ما يأتي؛ مات الفقيه أحمد بن الحسن ابن سعيد من ذراع عمران ظهر الأربعاء 23 جمادى الأولى عام 1198هـ قيده سعيد بن علي التيكشراني انتهى وتيكشران قرية من قبيلة آيت ودريم بين أهلها والأزاريفيين مصاهرة من قديم ولم نعرف قط العالمين معًا إلا هنا.

29) سؤال الأمير يحيى بن عبد الله بن سعيد الحاحي علماء عصره عن مسألة الرؤساء في كل قبيلة الذين يجتمعون على إدارة أمورها وتغريم من تعدى

بالغرامات المالية، وهم المسمون انفلاس وهناك الأجوبة من معاصريه من بينهم أحمد بابا الشهير، والسؤال والأجوبة في 4 صفحات.

30) نظم في العمل في المناسخات ثم شرحه لناظمه عبد الله بن سعيد التيخفيستي السملالي في 4 صفحات كبار، ألفه عام 1028هـ.

31) الاصطفاء لبيان معاني الشفاء عليه كتابة محمد بن بلقاسم بن الغازي الأزاريفي من معاصري أحمد الذهبي المنصور وقد علمنا أحمد بن بلقاسم أيضًا، كما علمنا أباهما بلقاسم بن غازي.

32) مؤلف لابن غازي في المقاتل نظم شرحه.

33) السوداني على المختصر رأيت خط يحيى بن محمد بن إبراهيم الأزاريفي عليه عام 1179هـ وهذا الشرح موجود النسخ في كل هذه الخزانات الجزولية.

34) كتاب عادي رأيت حواليه ما يدل على أن الفقيه محمد التاكريانتي حي عام 1212هـ كما رأيت أيضًا هناك في كتاب آخر اسم الفقيه مبارك ابن محمد ابن المبارك ابن الحاج الإيلالني وأنه حي عام 1212هـ.

35) الفوائد الجليلة للشوشاوي فرغ من تأليفه عام 857هـ والكتاب موجود.

36) كتاب عادي استفدت منه فتوى للفقيه أحمد بن إبراهيم بن علي الجيشتيمي التملي ولعبد الله بن إبراهيم، ولعبد الله بن إبراهيم التاسكدلتي ولمحمد بن إبراهيم التازلتي التملي ولمحمد بن عبد الله بن علي الأزاريفي وذلك في عام 1100هـ أو في حدود ذلك.

37) السيف القاطع الصقيل نظم في التوسل لمحمد بن عبد الرحمٰن بن الحسن الحامدي المشهور بالسوق في صفحتين ألفه عام 1085هـ وذكر هناك أن الجريديين في تونس اتخذوه وردًا ولهذا المؤلف أخ يسمى سعيدًا.

38) كتاب عادي استفدت منه اسم الفقيه إبراهيم بن عبد الله المزورتي وأنه حي عام 1100هـ كما استفدت من كتاب آخر اسم الفقيه محمد بن سعيد التاسكدلتي وأنه حي عام 1160 وله خط جيد.

39) مؤلف في السكك للأستاذ محمد بن يعقوب كتبه من أواخر عام 1100هـ فافهم هذا فإنه غير مؤلف محمد بن علي اليعقوبي الإيلالني المتأخر المتوفى نحو 1294هـ.

40) نظم جمع الجوامع في الأصول للسيوطي وشرحه في مجلد كبير، كتب عام 1078هـ.

41) مجلد فيه رسالة للكمال بن الهمام في إعراب حديث كلمتان خفيفتان الخ ورسالة لابن تيمية الشهير في لو ولكن هذه يظهر أنها مبتورة وهما بخط واحد.

42) شرح مبتور الأول والآخر على الدريدية، ومعه تفسير للقرآن أيضًا كذلك.

43) كتاب عادي فيه نقل لداوود بن موسى بن داوود السملالي، عالم له خط جيد.

44) كتاب عادي فيه أن علي بن يعزى بن سعيد التملي من أزرو واضو بآيت ودريم كان ينسخ كثيرًا للفقيه الحسن بن سعيد التيلكاتي وهو الرئيس الكبير هناك.

45) التنبيه والإرشاد في أصول الدين، نظم أبي الحجاج الكفيف والنسخة في مجموعة صغيرة، وهي حسنة الخط مكتوبة عام 880هـ.

46) كتاب عادي نقلت منه توفي القاضي محمد بن إبراهيم الاسكاري وسط رجب عام 1163هـ كتبه محمد بن أحمد الاسكاري وذلك في الوباء، وقد نزل الوباء بالاسكاريين وخرجوا 19 ربيع الأول 1163هـ إلى شعب قريب من الحي فلبثوا هناك ستة شهور فهلك منهم الثلث ودوواسكار من قبيلة آيت ودريم والواسكاريون بيت علم، فليعلم ذلك من هنا، وكم عالم يمر بنا اسمه منهم.

ومن الكتاب أيضًا: نزل الباشا العياشي بتافنانت بتاسكدلت في الاثنين ثامن شوال عام 1160هـ ثم ارتحل منها 24 ذي القعدة في العام، بعدما مكث فيها 27[1] يومًا، وأثر ذلك أيضًا ما نصه: نزل الباشا سعيد بن العياشي وزير

(1) كذا.

السلطان سيدي محمد بن عبد الله بن إسماعيل ببلدة آيت برابيم أول شعبان عام 1176هـ انتهى.

ومن هناك أيضًا نزل سيدي يوسف الناصري ربوة سيدي أبي سعيد 23 ذي الحجة عام 1178هـ انتهى.

ومنه أيضًا توفي الفقيه القاضي محمد بن محمد الوامهالي في السبت 20 شوال عام 1188هـ والوامهاليون بيت علم منذ قرون إلى الآن ـ وتوفي الفقيه القاضي أحمد بن عبد الله الداوودي الإيلالني 28 ذي القعدة عام 1165هـ انتهى من خط محمد بن أحمد الاسكاري وخطه رفيع وقد تقدم ذكره قريبًا.

47) كتاب المعارف لابن قتيبة بخط رائع والكتاب مطبوع.

هذا ما وجدناه في هذه الخزانة الأزاريفية الثانية، ونأسف كل الأسف حين لم يتيسر لنا الاطلاع على أخرى ثالثة هناك تحت يد سيدي عبد..... من أسباط الفقيه المطرر في قرية آزاريف نفسها، وقد قيل إنها أكبر من اختيها، فكثيرًا ما يقال إن هاتين الخزانتين معًا مقدارها وحدها، ولعلنا لا نحرم الاطلاع عليها بعد(1).

* * *

عند العصر من يوم الجمعة 19 من شوال دخلنا تيلكات وعند زوال السبت جلنا في نواحي القرية، فزرنا أولًا المسجد العتيق فوجدناه قد تغير عما كان عليه إذ تيلكات عاصمة قيادة كبيرة في جزولة فقد كان إذ ذاك ذا أربعة صفوف في الجهة القبلية ثم كان صفان مستطيلان عن يمين وعن يسار في الصحن الذي تتوسطه نطفية لا تزال مصونة إلى الآن ترفعها أقواس في داخلها وفي غربي الصحن صف آخر وكل ذلك على البناء المعتاد من الحواضر في المساجد وأما الآن فلم تبق إلا الصفوف الشرقية فقط وقد تبين أن المسجد كان منهدًا فأعيد

(1) توفي سيدي الحسين صاحب هذه الخزانة التيلكاتية فدخل على داره سيدي محمد بن الحسن الأزاريفي فصارت الخزانتان بذلك تحت يد آل سيدي الحسن وهم لا يبخلون برؤيتهما لأنهم من الأفاضل.

كل بنائه حتى الجدران إلا ما كان من الجدار الذي فيه المحراب ولذلك يرى السقف سقفًا بدويًّا ساذجًا وقد سد ما بين الصحن والمسجد الحالي بجدار قائم يتخلله باب منه إليه، ومجمل القول أنه لم يبق يمثل ما كان عليه المسجد قديمًا إلا المحراب، فقد وقفت أمامه فرأيته بتقويس لطيف، وقد شق القوس نصفين في داخله من أعلاه فصار هناك قوسان من أعلى إلى أن يتم مكاس القوس، ثم يتكون تحت كل قوس بناء مخروم إلى الأسفل كما يعهد من محاريب المدن، وفي داخل المحراب تربيع مخمس أو مسدس في جهات الداخل من اليمين إلى الشمال أي من القوس الجنوبي إلى القوس الشمالي ويعلو وجه المحراب ما يعهد أن يعلو محاريب الحواضر من تشبيه قويسات صغرى مملوءة بالتخاريم الجبصية مع طلوع الكتابة من منتهى التقويس من المحراب، وفيها (العافية التامة) تكرر طالعة، ثم مستوية فوق القويسات الثلاثة الصغرى فوق المحراب، ثم تهبط كذلك إلى ما يسامت ما ابتدأت منه، والمحراب رائع جميل أملس في كل محل لمسته فيه اليد، إلا مواضع تلك التخاريم حتى أنني حسبته بادئ ذي بدء من رخامة بيضاء نقشت كذلك ثم لما أمعنت عرفت أن الكل من الجير الذي دلك دلكا ناعمًا، فأملس غاية الاملاس مع الصلابة التامة فكانت ملاسته كملاسة الصحون الجيرية المملسة في مراكش، وقد تحسب بديهة من الرخام وقد علت الدكنة اليوم بياض المحراب لطول العهد، وطول المحراب من الأرض إلى منتهى استدارة القوس فوق رأس الإمام عشرة أشبار، وخمسة ونصف عند مدخل المحراب وأربعة ونصف بين قائمتي المحراب والكل لا يزال كما كان، حتى الكتابة والتخاريم إلا ما كان من القويس الثالث المتياسر من القويسات المخططة فوق المحراب فإنه متثلم حديثًا، فيظهر من داخله التراب وذلك من أثر ضربة بكرة بين صبيان يتلاعبون بها في المسجد، وعن يمين المحراب منبر صغير أدكن بل أسود ينعى سعده لأنه لا جمعة هناك منذ حين وعن يسار المحراب مخرج الخطيب لا يزال غلقه باقيًا، وإن أكل الدهر عليه وشرب وقد دخلت منه فرأيت باحة حولها بيوت لأستاذ المسجد الذي يشارط، ورأيت في الحائط الآجر الذي يبنى به، فقلت لا يعلم إلا الله أية حضارة سعدية من بنات البديع مضت في تيلكات مركز من قواد البديع

المشهورين بالأناقة، وما هذا المحراب إلا إثارة قليلة لما اندثر، ثم إننا مشينا مع آثار البناء المستطيل في القرية اليوم فنمر على أكوام من الأحجار على آثار أسس الدور، والمكان منفسح يسهل فيه البناء فمشينا حتى وصلنا مشهد سيد يسمونه أبا القناديل، وإزاءه مسجد قديم تهدم اليوم ومحرابه إلى الجنوب مما يدل على كونه قديمًا جدًّا وكان محل هذه الآثار ما يناهز كليومترًا أو أدون منه بقليل وفي نصف ذلك في العرض قلت في أية ساحة من هذه الساحات يسكن الشاعر المفوه سعيد الحامدي وفي أيتها قال قصيدته الميمية المشهورة، وتحت أي نسيم من نسائم تلك البساتين التي مرت هنا كان قال:

سأنصف حر الشعر مني بمجلس حبيب بن أوس فيه وإلى المظالم[1]

ولا تزال نطفية كبرى وسط تلك الأطلال، يقولون إنها للحريم داخلًا، والناس اليوم من سكان القرية يجتهدون في تنقية الأرض من الأحجار للفلاحة، وقد حكى لي أحد المسنين هناك إن العمارة الكثيرة كانت مرت في هذه القصبة، ولا تزال تسمى القصبة حتى ليروج عند الناس في معرض كثرة العمارة أن أي منادٍ نادى بأي اسم شاء كمحمد وعائشة مثلًا فإنه بصدد أن يجيبه مائة ممن يسمون ذلك الاسم! ومثل ضرب هذا المثل كثير على ألسنة الناس من قديم إلى الآن، متى أرادوا أن يعبروا عن كثر الناس.

ويقول إن في منخرم الوادي أسفل تلكات بكثير قرب الأربعاء سوق الحامديين الآن قصبة الفرسان من العبيد التابعين لهذه القيادة لا يزالون في إجراء الحلبة كل صباح ومساء إلى آخر ما يقولون، مما يكنون به عن استفحال العمران هناك من أواسط القرن العاشر إلى أواخر الحادي عشر، وأصل الأسرة الرئيسة المسماة بني عبد العزيز من حجر عيسى - أزرو نعيسي - وهو على جبل مستطيل في الجنوب الشرقي من قرية تيلكات، وقد رأينا المكان من القرية فتبينا قبة الشيخ عبد الرحمٰن بن علي من مشايخ القرن العاشر الكبار وهو أخو سعيد الشاعر، وكانت دارهم دار سنة أثنى عليهم بذلك تلميذهم الشيخ سيدي محمد

(1) توجد القصيدة كلها في المترعات.

ابن إبراهيم الشيخ التامانارتي، ولا ريب أنهم كما يسكنون هناك، يسكنون في هذا البسيط الفسيح لبهائمهم ولفلاحتهم ولمباقلهم، ثم اتخذوا المكان بعد مستقرًا مطمئنًا، حيث هالة الرئاسة محيطة بهم، وهناك ساقية كبرى يذكر أن الرؤساء أجروها إذ ذاك من وادي الغاس من عل، فنحتوا مجراها من الأجراف ولا تزال تجري إلى الآن وتسمى تاسانيست ويقال لها في الرسوم ساقية القائد كما أن هناك بساتين كثيرة إزاء هذا الوادي ـ وادي الغاس ـ الذي يمر تحت أسس جدرانهم يسارًا، بين مساكنهم وبين الجبل العالي شمالي بسيط تيلكات وقد وقفت فيما وقفت عليه من كتبهم هناك ما نصه:

غرسنا العنب بالجنان الجديد عام 1056هـ عبد الرحمٰن بن الحسن بن سعيد التيلكاتي اهـ وقد كانت الأسرة متفرعة بين العلماء والرؤساء، لكننا وإن عرفنا كثيرين من العلماء، لا نعرف من رؤسائها إلا قليلين، ويقال إن أمرهم كان جميعًا متحدًا، حتى دب الخلاف بين اثنين منهم، فتقاتلا سنوات، وكان أحدهما من تيلكات والآخر في المعقل الذي كان بعيدًا من تيلكات في الشمال الغربي، فأدى إلى الانحلال ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 46] وقد وقعت بخط عبد الرحمٰن المذكور على ما نصه، بدأنا باسم الله العظيم في البنيان بالحصن ثامن ذي القعدة عام 1052هـ وأحسب أن للوطأة التي عرك بها السلطان المولى الرشيد جيوش جزولة في بسيط هشتوكة يوم زحف إلى إيليغ يدًا كبرى في زعزعة أركان هذه الرئاسة التي كانت تساند آل إيليغ بلا ريب أو كان ذلك بأيدي جيرانها بعد ذلك، فقد وقفنا على أن أحدهم كان قتيلًا بأيدي بني موسى أوباكو ـ أبو بكر ـ وهم جيرانهم، وهو عبد الرحمٰن ابن الرئيس الحسن بن سعيد الشاعر، فقد قيل فيه ولد تاسع جمادى الأولى عام 1009هـ وقتل في انكَّارف شهيدًا بأيدي بني موسى بن أبي بكر، قيد ذلك أواسط شعبان عام 1060هـ محمد بن عبد الله بن الحسن، انتهى. والرئيس الحسن المذكور توفي بتيلكات ليلة الأربعاء 25 ربيع الأول عام 1033هـ ولا نعرف الآن غيره من الرؤساء الذين تقدموا قبله أو تأخروا بعده، وقد قيل لي إن هناك تحت يد بعض أحفادهم القاطنين الآن في قصبة (تالاغت) وفي (تانكيست) ما يلقي

ضوءًا على أسمائهم وبعض ما يتعلق بهم، ولم يتيسر لنا الاتصال بذلك الآن، وذلك الحصن يسمى (امر خسين) كما اشتهر أيضًا بتيكْمي اورومي، ويزعمون اليوم أنه من أبنية الرومان القديمة فإن صح ذلك[1] فيكون بناء الرؤساء هؤلاء تجديدًا لبنائه فقط، ولم يتيسر لنا زيارة الحصن لسيلان وادي الغاس بيننا وبينه تلك العشية مع أنه قريب جدًا من القرية.

هذا وقد زرنا هناك قبر الرجل الصالح سيدي أحمد بن علي الافنينيضي من أصحاب الشيخ الوالد الذين صحبوه متجردًا منقطعًا سنين، ثم ألقى جرانه في مسجد تلك القرية أزيد من عشرين سنة محبوبًا من السكان معتقدًا، وكان آية في الإقبال على ربه إلى أن توفي عام 1345هـ وقبره ظاهر خارجًا في غربي البيت المدفون فيه سيدي يحيى بن علي من التيلكاتيين، وقد خر سقف البيت اليوم، وقبر سيدي أحمد هو الذي يوجد إزاء الجدار الغربي للبيت وهو عال وهناك غربي القرية مشهد فيه من يسمونه أبا الأنوار لا يعرف من هو.

كان المطر الغزير في اليوم قبل يومنا هذا أسال الوادي المضاف إلى الغاس، فحمل بما يطفح به فوقفت مليًا على شفيره، فتذكرت إغراقه[2] للعلامة عبد العزيز الرسموكي فقلت بديهة:

نهر الغاس كيف أغرقت يا نهـــــر خضم العلوم عبد العزيز؟
كيف أتلفت في جزولة منظو مًا نفيسًا من أي در عزيز؟

كنت ألوك لساني بهذا النظم الركيك وأنا أتوقل من حجر إلى حجر والماء يسيل تحتي فشغلت عن إجادة ما أقول لئلا أكون ثاني اثنين إذ هما في الغرق المردي وكانت هذه الجولة في أصيل السبت ثم بتنا على التبكير لمغادرة أرض

(1) يجب أن يعلم جزمًا أن الرومان الذين استولوا على شمال أفريقية زهاء ستمائة عام لم يتعد استعمارهم شالة إلى الجنوب فلا صحة حينئذٍ لكل ما ينسب لهم في سوس إلا أن قلنا أن النسبة لأدنى ملابسة لأن ذلك كان في عهدهم وما لم يستولوا عليه في الجنوب يكون تحت حمايتهم معنويًا إذ يتشبه بهم من ليس تحت أيديهم مباشرة على أن الناس ألفوا أن يضيفوا إلى الروم كل بناء قديم.

(2) كان غرق في وادي (نكارف) أحد روافد هذا الوادي الكبير، ودفن في حصن بني زكرياء كما في التاريخ.

الحامديين التي نراها تنبت الأدب والعلم والصلاح كما تنبت جبالها مختلف الأشجار، وقد قيدت عمن أجالسهم هناك بعض أسماء علماء من الذين لا يزالون يجولون في الأحاديث ولما توكأ عليهم الطروس نذكر منهم من ليس على شرط (المعسول).

فمنهم الفقيه سيدي محمد أبيض القاضي بتاسيلا أوزاريف من الحامديين الأصيلين له آثار تدل عليه، قال الأديب الحامدي إنه رأى بعضها، ولعله من أهل أوائل الثالث عشر، وهو من آيت محمد هناك، وهو آخرهم.

محمد بن سعيد الأصبعي الحامدي من افلانتسيلا أوزاريف من أهل ذلك القاضي عاصر الشيخ سيدي محمد بن يحيى الشهير المتوفى نحو 1168هـ بل هو من تلامذته كان ينسخ لشيخه هذا الكتاب وكان عالمًا جليلًا وذا يد في النوازل وإدراك في علم المنطق يذكر بكل ذلك الحسن بن سليمان الأصبعي من قرية تيزكارين من تلامذة الشيخ ابن يحيى أيضًا وكان صالحًا متبركًا به وقد كان تصدق بكل ماله على مسجد القرية فيعمر بذلك، ولعله لا ورثة له.

محمد بن محمد الأصبعي لعله ابن المذكور قبل هذا عالم كبير أخذ من الحمراء وقد وقفت على رسالة كتبها أحد أصحابه حين كان لا يزال يأخذ في الحمراء ونصها:

إلى الفقيه الكبير الشريف الأصيل خليلي الذي وده في قلبي راسخ سيدي محمد بن محمد الأصبعي ثم الحامدي.

أما بعد السلام التام عليك ورحمة الله، فكيف أنت وكيف حالك، فإننا مشتاقون إلى الاجتماع بك فادع لنا عند السبعة الرجال الخ أخوكم علي بن أحمد الحامدي وفقه الله انتهت الرسالة والأصبعيون هؤلاء بيت علم تعود رجالهم كما كانت عندي رسالة أخرى من محمد بن مسعود الحامدي إليه ولا يزال إذ ذاك بمراكش وقد تمثل له فيها بقول القائل:

إذا هبت الأرياح من نحو أرضكم يطيب به قلبي ويصبح باريا

وقد ذكر له فيها الفقيه علي بن محمد الأعلى الهوتي نسبه إلى محل يسمى (أفلا اوكني) فعربوه بأعلى الهوتي فنسبوه إليه وهو محل بين تيلكات وأزاريف

كما ذكر له أيضًا في الرسالة المرابط سيدي بلقاسم بن محمد المرابط سيدي إبراهيم بن أبي القاسم والفاضل سيدي عبد الله الماسناكائي و(ماسناكا) قرية إزاء أزاريف ويقول له فيها وأما إن سألت عن سيدي محمد بن أحمد بن يحيى الشبي، فإنه قد تزوج في هذا العام عند دخول الحرث، وأرسل لسيدي محمد ابن علي لعل الله يجمعنا إن قعدنا ففيه الخير وإن سافرنا ففيه الخير والسلام بعد صلاة العصر الأربعاء 18 ذي القعدة عام 1181هـ.

الحسن بن علي من قرية آيت (ويديرن) وهي قرية هناك، من أهل أوائل الحادي عشر حدث الأديب الحامدي أنه رأى كلامًا في حكم للفقيه سيدي علي ابن أحمد الرسموكي، يتكلم حول كلام للحسين هذا في قضية فقهية.

حمدون بن محمد الادائي ويوقع اسمه بأحمد، قال الفقيه سيدي الحسن الأزاريفي أنه عالم حسن وأثنى عليه، وهو من أداي برسموكة وذكر أنه ممن أخذ عن الفقيه الصالح سيدي إبراهيم الولياضي فيكون حينئذٍ من أهل أواخر القرن الماضي إلى أوائل هذا القرن لأن شيخه إبراهيم توفي سنة 1248هـ وهو الذي قال بعضهم أنه يعرفه عالمًا موقرًا محترمًا وقد حوصرت قريته مرة ستة أشهر، فلا يتعرض له المحاصرون ولا لعبيده وشارط في إيتاوولياض وهناك يبطي توفي نحو عام 1316هـ وقد علمت أيضًا أنه من الآخذين عن سيدي العربي بن إبراهيم الأدوزي.

مبارك بن أحمد البودهني الحامدي كان يزاول النوازل كثيرًا وإن لم يتسع حوضه ويشارط في فوكرض بآيت صواب في تيزكين برسموكة، وقد كان أبطأ في رأس الوادي وهناك أخذ القرآن والمعارف وكان يتقن القراءات السبع توفي نحو عام 1315هـ.

أحمد بن إبراهيم البودهني ابن عم من قبله، أخذ عن سيدي الحسين الأزاريفي، وكان فقيهًا جيّدًا وزاهدًا متقشفًا يشارط كثيرًا في قرية تويילت برسموكة ويتورع عن الخوض في النوازل إلا بالإصلاح توفي عام 1345هـ هذا وسيوجد إن شاء الله في (المعسول) طائفة من تلاميذ سيدي الحسين المذكور في ترجمته، والبودهنيون بيت علم.

ومن الفوائد التي وقفت عليها هناك في مقيد ما يأتي؛ سؤال لسيدي علي ابن محمد الافراني فيما يتعلق بقراءة القرآن على غير ما روي به:

أيا جلة القراء يا كل عالم ... ومن لم يخف في الله لومة لائم
أجيبوا جهارًا عن سؤالي إنه ... تكاد تدك منه كل الأقالم
تلاوة قوم للقرآن الذي به ... يصون دين العرش من كل غاشم
بلا علم أحكام الأداء وشرطه ... وتحقيق ما قد قيل فيه بلازم[1]
من المد والتغليظ والفخم والذي ... يقابلها من كل وصف ملائم
فهل جاز أن يتلوه نال بدونها ... ومن يستمع هل صار في حكم آثم
وهل جاز أخذ من طريق خلا بها ... بلا صحة التجريح عزو لعالم
وهل جاز تخليط الرواية جهرة ... وما حكم من صلى بها غير نادم
وما حكم من ينهى عن اللحن ثم لا ... يؤوب عن الإصرار عمدًا بما عمي
وهل يلتجأ للكفر في حال عمده ... لتبديله القرآن تبًّا لظالم
فقد عمت البلوى بذاك وكونه ... لديهم من الطاعات أفظع مأتم
أجيبوا بنص يرفع اللبس الـ ... ـتباس كتاب الله إحدى العظائم
وصلى إلٰه الحق في كل لحظة ... على أحمد المبعوث من آل هاشم
وسلم ما الورقاء تشدو بأيكة ... عليه مع الآل الكرام الصرائم

فأجابه الأستاذ سيدي محمد بن يوسف ـ لعله التملي المراكشي ـ من القراء أو هو الترغي المشهور:

أقول وحمد الله جل جلاله ... وشكرًا له على عميم النعائم
وأعظمها فضلًا تلاوة ذكره ... على ما روى الأخير عن متقادم
أتاني من إخوتي سؤال مدقق ... على أنني والله لست بعالم
ولكنني أجيب عنه وفضلهم ... سيسمح لي وذاك شأن المكارم[2]

(1) كذا

(2) كذا ولعله الأكارم.

وقار بلا أدًا على نهج من مضى فذاك لعمري من عظيم المآثم
بقصره ممدودًا كذلك عكسه وتركه ترقيقًا وتفخيم فاخم
يغيره عما أتى عن رسولنا كذلك ترك ما روى كل راسم
إذا كان عمدًا فأحكمن بكفره على ما حكى عياض شافي السقائم
كنقص وزيد في تلاوة ذكره وليس يجوز دون ما في المعالم
وسامعه إن كان يعلم أمرها ولم ينهه عن ذاك في حكم آثم
وقد سمعت عميرة[1] لفظ قارئ على غير شرطه وترك الملازم
فقالت فما قرأ وما هو ساكت تشير لنهيه لفعل الهذارم
وخلط رواية لمن هو جاهل فليس يجوز والجواز لعالم
ولكن بقصده لذاك وحكم من يصلي به على خلاف الأعالم
وليس يباح في المقارئ كلها بغير الذي رواه ضربة لازم
لنص أمامنا عليه فيا له إمامًا وأسوة لكل المكارم
وليس لجاهل لأحكام ذكره يدرر صبية وحذقة خاتم
أزيدكم ذا الفرع مني تبرعًا لما عمت البلوى بكل الأقالم
وصلى إلٰه العرش ما دام فضله على المصطفى المبعوث من آل هاشم
وآله والصحب الكرام وتابعي هداة الورى طرا وأهل التراحم

ومن المقيدات هناك أيضًا ما نصه:

(نسأل الله تعالى السلامة والعافية، من هذا الزمان وجميع ما يأتي منه، فقد رأينا فيه عجائب من كثرة المطر في هذا العام الذي نزل فيه القائد عبد الصادق مع الشريف سيدي الحبيب في تزنيت في شهر رمضان عام 1217هـ وجعل الله عليهم وعلى جميع هذه البوادي المطر الكثير حتى نظن أن الدنيا تغرق بالماء وكثر الهدم وسمى الناس هذا العام بأبي خربان ـ أي صاحب التخريب ـ فكل شعبة تستحيل واديًا، وكل وادٍ يعود بحرًا بالماء وذلك كله

(1) كذا.

عجائب وغرائب، فنحن نقصر الكلام في الذي جرى فيه، وبعد هذا كله[1] قدر الله على بلاد ولتيتة الفتن العجيبة بكثرة أهوال القواد، وهم عبد المالك الحاحي، ومحمد اغناج، فقد نزلا على وادي الغاس بأقوام كثير كالجراد المنتشر، وقابلهم المرابط سيدي هاشم ابن علي الإيليغي، نجل سيدي أحمد ابن موسى مع بني سملالة وبني رسموكة وبعض بني بعقيلة وهم آيت عمرو وشيوخهم أولاد باكاس، وأما بنو زلالة وأبلاغ فهم عند كلام القواد وبنو مجاط مع سيدي هاشم وهم وقومه كلهم نحو 3000 فارس وألفان من الرجال وبقوا على وادي الغاس نحو عشرة أيام، وجعل الله فيهم الخلاف، فتشتتوا من عند أنفسهم فرحل بنو المعدر ففسدت أموالهم وكثير من زرعهم لا يعد ذلك ولا يحصى[2] وكذلك بنو رسموكة تحت وارزميمن وكذلك آل سيدي أحمد بن موسى في تازاروالت ووجان، فهربوا كلهم وطلعوا إلى الجبال وطلع بعض آل المعدر وبعض أهل تحت الجبل برسموكة إلى جبل وارزميمن فحصرهم هناك القائدان أحدهما في القبلة والآخر في الغرب، يضربانهم بالانفاض ما شاء الله فأغاثهم الله بالمرابط سيدي محمد بن أحمد الشبي، فأخرجهم منه بإذن القائدين، فطلعوا إلى الجبل عند بني ولتيتة).

نعم[3] في يوم الأربعاء الأول من جمادى الثانية عام 1225هـ نزل أغناج وفي يوم الخميس نزل في (بورجيلات) إلى يوم السبت ونزل مع القائد عبد الملك في المعدر واشتغلا فيه بإفساد الزرع وغيره ثم نزل أغناج يوم الثلاثاء في تمسلت بوجان وخرب دار الشيخ عمرو من بني علي بن بلا ثم رجع إلى المعدر أيضًا، ثم نزل في إيليغ يوم السبت فهدم دار سيدي هاشم بن علي فارتحل فنزل في الأحد ببني جرارة ورحل جميع اليهود إلى تارودانت وبقي فيه إلى يوم السبت فنزل تحت الجبل وحاصر هو والقائد عبد الملك حصن وارزميمن كما

(1) يظهر أن ما هنا إلى ما يأتي مكتوب عام 1225هـ.

(2) هذا بنفسه هو ما تكرر سنة 1314هـ بين سيدي محمد بن الحسين بن هاشم الإيليغي ومعه السملاليون وبعض أهل ولتيتة وأهل المعدر ثم انهزموا أمام الجيش الحكومي الذي يقوده الكليولي فذهب المعدر وما فيه.

(3) إنما أعاد ما تقدم بتفصيل.

تقدم حتى نال منهم العطش فأخرجهم المرابط المذكور ثم بقي هناك في الفحص والمعدر نحو عشرة أيام ثم نزل في الأحد ببني جرارة أيضًا ثم طلع إلى إيليغ وبقوا فيه سبعة أيام ثم طلعوا في أفود ونزلوا في تيزلمي.

هكذا حتى نزل أغناج في إيلالن ثم إلى أساضس ثم تارودانت انتهى ما وجد على ما فيه من تشويش أوقات الحوادث وأيًّا كان فقد عرفنا بهذا المقيد بعض ما كنا نجهله وأغناج الحاحي هذا كان خليفة للقائد عبد الملك الحاحي الشهير والد الحاج عبلا خاض في سوس وبقي في إيلالن إلى طاطة إلى ما بعد عام 1232هـ كما رأيته في تاريخ تبرئة منه لبعض علماء في إيلالن كانت تحت يده نسخة من البخاري، وتعد مما ورثه بيت المال واسم أغناج محمد بن يحيى، وهناك في طاطة قصبة بناها إذ ذاك وقد امتد عهده في سوس إلى ما بعد عام 1236هـ كما رأيته في أثر آخر ولا يزال طنين حوادثه إلى الآن وقد بات إذ ذاك عندنا بإلغ فمانه الناس.

* * *

تلك فوائد آيت حامد الجليلة وتلك خزائنها العلمية فلنسطر هنا للتاريخ شكرنا الكثير الفياض المنبعث من أعماق القلوب لهؤلاء العلماء الذين فتحوا لنا خزائنهم ومدوا لنا كل ما نتطلبه منهم من غير منة ولا ادعاء إفضال خصوصًا الأستاذ الجليل يعسوب أزاريف سيدي الحسن[1] حفظه الله.

ثم إن مما يلفت النظر من قبيلة آيت حامد كثرة اعتناء علمائهم من قديم بالأدب فلولا لعب الضياع بآثار كل الأدباء الحامديين لأمكن أن تتخذ من آدابهم صفحة مذهبة يزداد بها سوس مجدًا إلى مجده السامي، وقد مرت في الحامديين أسر علمية أدبية إلا أن الأسرة التيلكاتية العالمة الأدبية أسمى أسرة يطن بأخبارها التاريخ، وإن كان جل أخبارها قد ضاع الآن وتليها الأسرة الأزاريفية الشبية الشهيرة بالصلاح أولًا ثم بالعلم ثانيًا ثم ببعض أدب ثالثًا فأما الأولى فقد انقرض فيها العلم اليوم، وأما الثانية فلا تزال متسلسلة، ونطلب الله

(1) توفي هذا السيد منذ سنين ويذكر إن شاء الله مع أهله في المعسول.

أن يبارك فيها وأخبار هذه الأزاريفية لا يزال غالبها محفوظًا وتسطر إن شاء الله في (المعسول).

الأسرة التيلكاتية:

وأما الأسرة التيلكاتية الأدبية الماجدة فلنسطر هنا في هذه الرحلة ما سقط إلينا من أخبارها، ولعل ما نجمعه هنا عنها، هو كل ما يعرفه التاريخ والبحث عنها.

كان لهذه الأسرة الرئيسة العالمة صولة وأبهة وشأن سواء في الدولة السعدية، وفي عهد أمراء تازاروالت وفي الدولة العلوية المجيدة، فلم تزل زينة جزولة وقطب الديانة فيها ونقطة المعارف والأدب والكرم والرئاسة حتى أخنى عليها الدهر أخيرًا، فأول ما انقطع فيها هو الرئاسة يوم دب خلاف كبير بين كبراء منها، فجرها ذلك إلى هاوية سحيقة، ثم عدا على فروعها عادي الدهر، فكادت تنقرض بالكلية، فلم يبق فيها الآن في مساكنها الأصلية أحد وإنما يسكن من أفلت من عوادي الزمان في تانكيست، وفي قرية أخرى إزاءها، ولا يتجاوز الجميع ديارًا قليلة ولله الأمر من قبل ومن بعد.

أما نسب الأسرة فهو هكذا على ما وجد بخط العلامة سيدي سعيد بن عبد الرحمٰن بن الحسن التلكاتي فقد قال (هذه نسبة بني منصور الساكنين بوادي ايسي من سوس الأقصى)، منقولة من الكتاب المشهور المسمى بمجالس الصدور تأليف أبي الفرج عبد الرحمٰن وهي هذه:

عبد الرحمٰن بن محمد بن علي بن محمد بن سليمان بن الحسن بن علي ابن إبراهيم بن محمد بن مسكور بن المان بن تليل بن ببكر بن عبد الله بن القاسم بن محمد بن يعقوب بن عيسى بن منصور بن إبراهيم بن موسى بن الحسن بن حسان بن موسى بن حامد بن سعيد بن مختار بن محمد بن معقل بن عقيل بن محمد بن علي ابن الحبيب عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب وكتبه عبد الله تعالى أحمد بن يبورك والله أعلم وعليه التكلان، انتهى الرسم المنتسخ منه هذا وقوبل به فماثله، شهد بالمقابلة والمماثلة من الحق لفظ الحسن وحسان وموسى بين بعض سطوره في شعبان عام 1093هـ سعيد بن عبد الرحمٰن بن الحسن التيلكاتي وفقه الله آمين.

وقد وقفت في كتاب تحلية الطروس لصاحبنا الأديب سيدي علي ابن الحبيب الجراري على رسم منقول من مخطوط قديم بخط سيدي بلعيد ابن علي ابن محمد بن مبارك بن أحمد بن أعلى ايسي مؤرخ بأول جمادى الأخيرة عام 1137هـ وقد عطف عليه فيه سيد محمد بن احمد بن صالح بن علي من هناك أيضًا فتضمن أنساب بني منصور فذكر أن لمنصور من الأولاد خمسة:

(1) محمد فتحا.

(2) علي.

(3) يعزى.

(4) مرزوق.

(5) عيسى.

فذكر أن التيلكاتيين هم من أولاد علي ابن منصور وأن أولاد عيسى في إيسي وأن أولاد علي في أولاد جرار وكذلك أولاد محمد وأولاد مرزوق، وأن أولاد يعزى في تاماتالت فيظهر على هذا أن المحرر أعلاه إنما هو سلسلة أولاد عيسى بن منصور الإيسيين أبناء أعمام التيلكاتيين لا نسب التيلكاتيين أنفسهم لأنهم إنما يتصلون بهم في منصور ابن إبراهيم ولكن يعكر على هذا أننا نجد اختلافًا في الرجال وعددهم فيما فوق منصور بن إبراهيم، فقد وجدنا هناك ما نصه منصور بن إبراهيم بن مؤمن بن الحسن بن حسان بن موسى بن أحمد بن سعيد بن علي بن عبد الواحد بن يحيى ابن خالد بن جرمون بن جرار بن عرفة ابن فارس بن حسين بن منصور بن محمد ابن معقل بن عقيل بن محمد بن علي ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فقد رأيت اختلاف الرجال، ولعل ذلك وقع بالتحريف فتصحف موسى بمؤمن، وأحمد بحامد، وربما يدعى مثل ذلك في كلمتي مختار ومنصور كما وقع هناك سقوط رجال بعد سعيد كما ترى وهم تسعة وكيفما كان الحال فيمكن أن يجبر كل ذلك بأن نحكم بأن تلك الأسماء يحرف بعضها إلى بعض وبأن تلك الأسماء التي سقطت يجب إلحاقها والحافظ حجة على من لم يحفظ ومن زاد زيادة فإنها تقبل حين لا مانع من قبولها، فإننا إن فعلنا ذلك سنجد بيننا نسبًا إن لم يكن صحيحًا فإنه يقرب إلى الصحة أيًّا كان

فلم نجد من سلسلة النسب ما نصل به بين من نعرفهم من رجالات تيلكات، وبين تلك السلسلة، إلا أنهم من بني هذا النسب بلا ريب، كما تراهم جازمين به ويكفي الظن في مثل هذه الأمور، فلنتتبع رجالات الأسرة بحسب ما عندنا.

1 ـ علي بن محمد بن عبد العزيز:

هذا أول رجل عرفناه في هذه الأسرة الكريمة، وهو من أهل القرن التاسع تخرج بالعلامة إبراهيم بن هلال الأديب السجلماسي صاحب النوازل المشهورة، وعلي بن محمد عالم أديب له يد طولى في علوم العربية والأدب العالي وقد كان يدرس فأخذ عنه أولاده الأتون كما يذكر ذلك في تراجمهم وكان في آخر عمره بـ(أقة) إزاء (تامانارت) وهناك توفي وربما كان أيضًا درس هناك فيأخذ عنه أهل تلك الجهة، ونحزر أن الشيخ سيدي محمد بن إبراهيم التامانارتي أخذ عنه هناك ولزمه واستقى منه المشرب السني الذي رأيناه يولع به دائمًا، فقد كان يقول ما معناه أننا وجدنا بني عبد العزيز والكراميين على كذا في معرض الإشادة بالسنة ونبذ المحدثات من البدع وقد وقعنا لهذا الأديب على رسالة عالية النفس. كتبها إلى أستاذه ابن هلال عام 898هـ تدل على تضلع في الأدب ورقة في التعبير، وتمكن في حسن التحبير ويجدها القارئ في المترعات ولم نظفر لهذا العلامة بترجمة تليق بمكانته التي نتراءاها من أثناء رسالته، ومما أشاد عليه به سيدي محمد بن إبراهيم الشيخ التامانارتي من أنه عالم كبير من العلماء الذين يقتدى بهم، فكل من ذكروه إنما ذكروه بتراجم قصيرة اقتفاء للرسموكي الذي قال في (وفياته):

الفقيه الأفضل سيدي علي بن محمد بن عبد العزيز الحامدي والد الأديب سيدي سعيد المشهور، أخذ عن ابن هلال وتوفي رحمه الله باقة وقال الحضيكي في (طبقاته).

علي بن محمد بن عبد العزيز الحامدي ثم الإيسي الفقيه الفاضل الصالح الناصح الورع الزاهد العابد. . . . . أخذ عن الجلة الأعلام، كابن هلال وطبقته.

وقال مثل ذلك الكرامي في (بشارة الزائرين) ولم يزد شيئًا وهكذا انطوت

ترجمة طنانة لهذا الأديب في عالم الضياع حتى وقت وفاته فإنهم لم ينبهوا عليه وقد عرفنا أنه هو وأباه لا يزالان حيين عام 898هـ كما صرح به في تلك الرسالة، ويظهر أن علماء آخرين من أهله مروا قبله أو معه بدليل ما يعبر به سيدي محمد بن إبراهيم الشيخ من قوله أبناء عبد العزيز وذلك في الحكاية التي ساقها ابن عبد الواسع البعقيلي في ترجمة سيدي محمد بن إبراهيم الشيخ في كتابه المشهور بمناقب البعقيلي وقول الحضيكي المتقدم على ابن محمد بن عبد العزيز الحامدي ثم الإيسي الخ يظهر من كلامه أن أصل الأسرة من بني حامد، ثم من هناك إلى إيسي، مع أن الواقع هو العكس، فإن إيسي أصلها؛ ثم انتقلت إلى حجر عيسى بكسر السين فوق تيلكات، نبهنا على ذلك لئلا يغتر به بعض الناس فيقع في الغلط.

ثم وقفت بعد كتبي عن علي بن محمد ما تقدم على أنه هو وعبد السميع المصمودي جد التاغاتيين وعمرو السملالي جد آل عمرو من تاكانت أوكضيض كانوا ممن أخذوا عن ابن غازي، فعرفنا أنه كما استقى معارفه من سجلماسة استقاها أيضًا من فاس.

2 ـ سعيد بن علي:

أحد أولاد الأستاذ المتقدم، وقد ترجمه أبو زيد التامانارتي في (فوائده) فقال الفقيه الأديب الشاعر المفلق البليغ أبو عثمان سعيد بن علي بن محمد سهم القريض المغرب، وإمام الأدب العريض بالمغرب، مرتسم في زمام أئمة البلاغة متسم بتمام الإبداع وحسن الصياغة، شعره نافح أقصى المغرب ادناه، وبسحر بيانه كافح جيش المحاورة فعاد ملك يمناه، والأدب له عبد يجيب متى دعاه، وسهم يصيب الغرض متى رماه، ودوحة اللسان بقطره بتلقيحه أثمرت، وروضة البيان بتنقيحه أمرعت وأعطرت، وقصائد شعره التي سحرت الألباب، وفاضت فيضان العباب، تشهد له، توفي قبل الثمانين وتسعمائة بمراكش ودفن بها، انتهى كلامه الذي اقتبس فيه من بعض شذرات (قلائد العقيان).

وذكر في (طبقات) الحضيكي أن مشايخه هم الذين أخذ عنهم أبوه المتقدم عن ابن هلال كما أخذ أيضًا عن عبد الوهاب بن محمد الزقاق، وعلي بن موسى بن

هارون وابن غازي وأن من بين الآخذين عنه أحمد بن سعيد الجزولي نزيل مراكش أجاز له ما في فهرست ابن غازي، وممن أخذ عنهم أيضًا ـ كما يظهر من كلام أبي زيد التامانارتي، سعيد بن عبد الله بن يدير من شيوخ أبي زيد التامانارتي.

كذلك ذكروه وقد وصفوه بالأدب العالي إلا أنهم لم يذكروا له ولو قصيدة واحدة وقد قال فيه الرسموكي، الأديب البارع المفلق، صاحب القصائد الفريدة العديدة شاعر عصره ونحويه ولغويه دفن بمراكش ورد إليها لحاجة فمات بها، ولم يزد الكرامي على هذا، وكلهم لم يذكروا وقت وفاته بالتعيين، وقد وقفت أنا على ذلك في الخزانة الأزاريفية، ونص ما وجدته:

ولسيدي سعيد بن علي بن محمد بن عبد العزيز الحامدي الأديب المشهور في المدرسة التي اخترعها السلطان مولاي عبد الله الشريف بحضرة مراكش متصلة بجامع علي بن يوسف، منشدًا عنها بلسان حالها:

إن الخليفة عبد الله بوأني ... إن كنت مأوى لأهل العلم والأدب
نجل الإمام الرضى المشهور محتده ... خليفة الله وابن خيرة العرب
وفي الثلاثة والسبعين زائدة ... وبعد تسع مئين عد من حقب

أنشدها في ابتداء مرضه الذي توفي فيه بحضرة مراكش، وهي آخر ما قيد عنه رحمه الله، وذلك أواخر صفر من عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة، وتوفي ليلة الأحد الرابع من شهر ربيع النبوي من العام المذكور، رحمه الله وبرد ضريحه.

وقوله إن عبد الله الشريف السعدي المعروف بالغالب بالله هو المخترع لمدرسة جامع بن يوسف غلط، لأن المدرسة من اختراع أبي الحسن المريني ومن بنائه، بل هو نفسه أيضًا إنما أتمها لأنها مؤسسة قبله كما هو ذائع معلوم، وإنما جددها الغالب بالله ورممها ولا يزال عليها اسمه إلى الآن لكنه جددها تجديدًا عجيبًا، فقد أبدأ وأعاد في ذلك، ولا تزال من أجله في حلة أخاذة براقة، وكل ما في الصحن وما في القبة من بنائه كما يوجد كل ذلك مكتوبًا على سواري القبة فالمدرسة أثر من آثار السعديين تخريما وتنميقًا.

وأما شعره فلم نعلم له ديوانًا جامعًا إلى الآن، وإنما ظفرنا له بقصائد في ورقات بخط قديم كما ظفرنا بعد ذلك بأخرى في مجموعة طالب من المدررين

كما وجدت أيضًا مجموعة منها في خزانة أخينا العلامة الأديب المؤرخ المنوني المكناسي، وهذه مطالع القصائد التي وجدناها:

إذا ما عرضن المعرضين بفاغم كحلن عيون الناظرين بفاحم

وسيرى القارئ القصيدة مصححة من شرح للشاعر نفسه في (المترعات)؛ ومطلع الثانية:

أرقت لبرق لاح لي في المغارب وذكرى خليل نازح الجنب عازب

ومطلع الثالثة:

أتروي الأماني والأماني سراب وتغني المغاني والمغاني خراب

وقد وقفنا من القصيدة على نسختين أخريين قديمتين:

ومطلع الرابعة:

طويل سرى يجري لقاءك طائل ونيل نوى تهدي نوالك نائل

ومطلع الخامسة:

إذا سمحت سحب السماء بوابل فجفني السخي اليوم منها بهاطل

ومطلع السادسة:

تقطعت الأحباب عنا ولا نرى لهم نبأ يأتي ولا أحد الرسل

ومطلع السابعة:

الما على مغني عفته الزعازع من الريح فهو اليوم قفر بلاقع

ومطلع الثامنة:

يا حسن من غيبت يا موت حسنه ويا طيب من ارمست يا كف رامس

ومطلع التاسعة:

فقل للإمام وفخر الأنا م سليل الرسول وعيص الكرام

هذه هي القصائد التي وقفنا عليها في تلك الإضبارة القديمة.

ومطلع العاشرة:

أسمت سوام هواك اغترارا وفي كل لهو خلعت العذارا

وهي التي وقفنا عليها في كناشة مدرر بعقيلي، وهناك قصيدة أخرى هي الحادية عشرة مطلعها:

تأوه من عض الزمان فؤادي   وأسحت من بعد النماء تلادي

أوقفنا عليها الشيخ المؤرخ سيدي محمد بن علي السلاوي ولا ريب أن شعره أكثر من هذا وربما نقف عليه بعد إن شاء الله وجميع هذه القصائد توجد في (المترعات) وقد كانت السلطانيات منها في أحمد الأعرج، ومحمد الشيخ، عبد الله الغالب بالله، وقد وقفنا على ما يدل أن أديبنا كان كاتبًا حينًا عند أحمد الأعرج في منبثق دولة السعديين، وقد تسلسل العلم في أولاد الأديب كما سيأتي كما أن اوصافًا مجيدة كان يوصف في ظهائرها الآتية بها.

3 ـ عبد الرحمٰن بن علي:

هو أخو سعيد الأديب، شيخ كبير القدر من العلماء المسنين ومن شيوخ التربية المهذبين وقد اشتهر بين مشايخ الصوفية في ذلك العصر فيذكر مع سيدي أحمد بن موسى، وسيدي محمد بن إبراهيم الشيخ التامانارتي، وسيدي محمد بن ويساعدن السكتاني وسيدي عياد التامازتي المنابهي وسيدي سعيد ابن المنعم الحاحي، وسيدي إبراهيم بن علي التناني وسيدي أحمد بن عبد الرحمٰن التيزركيني وسيدي محمد بن يعقوب التاتلتي، وأضرابهم من المشايخ السوسيين في ذلك العصر الذي كان عصر الصوفية الذهبي في سوس بل في المغرب كله، بل في العالم الإسلامي أجمع وقد ترجم في (أوراق البعقيلي) وفي (وفيات الرسموكي) وفي (بشارة الزائرين) وفي (طبقات الحضيكي) وفي (الفوائد الجمة) فضلًا عن السوسيين وأول من أجرى ذكره من هؤلاء قيدوم المؤرخين السوسيين محمد بن أحمد بن عبد الواسع البعقيلي، وهو من أصحابه وقد حلاه بشيخنا، وقال فيه:

الفقيه العالم المتبرك به حيًّا وميتًا شيخنا سيدي عبد الرحمٰن بن علي بن محمد بن عبد العزيز من حجر بني عيسى أزرو نعيسي بجبل بني حامد وكان من العلماء العاملين بما علمهم الله، له قدم راسخة في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ حتى توفاه الله على ذلك ومناقبه مشهورة.

منها ما ذكر لي من يوثق بقوله من بعض إخواننا في الله أن السيد الناصح

لعباد الله تعالى سيدي بلقاسم بن الغازي من النسب[1] رحمه الله قدم على الشيخ الكامل سيدي أحمد بن موسى بزيارته[2] طالبًا لزيارته فلما جمعهما المجلس قال له الشيخ ما حاجتك يا سيدي بلقاسم، فقال زيارتك يا سيدي أحمد بن موسى فقال له إن الزيارة التي تطلبها تركتها في بلدتك، فقال له من أين كانت فيه يا سيدي؟؟ فقال له الشيخ هات يدك المباركة فناوله سيدي بلقاسم يده اليمنى فقبضها سيدي أحمد بن موسى وجعل يعدد أصابعه ويقول عند كل أصبع سيدي عبد الرحمٰن بن علي السيد ونعم السيد حتى أتى على أصابع يده اليمنى فانتقل يعدد أصابع يده اليسرى ويقول سيدي عبد الرحمٰن بن علي السيد ونعم السيد فملأ قلب سيدي بلقاسم بالفرح وقال له متى أردت الزيارة فابدأها من ذلك السيد؟

وذكر لي شيخنا الأستاذ المحقق المتفنن سيدي محمد بن يوسف الترغي مشافهة أنه كان يتمنى أن يرى وليًّا من أولياء الله في قيد الحياة بسيماه ونعته، قال فطال علي الزمان ولم أظفر به في مدينة مراكش ولا في غيرها حتى قدر الله رحلتي[3] إلى زيارة سيدي عبد الرحمٰن بن علي في بلد جزولة، فلما من الله تعالى بوصولنا إليه أنزلنا خدامه في منزل الأضياف، فلما حان وقت العشاء أتوا بطعام الشعير في مائدة كسكسو وعليها حمام مطبوح وجعلوا يصبون الماء على أيدينا للأكل، فبقيت أفكر في نفسي هل آكل طعام الشعير أو لا؟ لأني ما أكلته في عمري لا في مدينة فاس ولا في غيرها، وإن من أكله من أهل مدينة فاس قل إن يسلم من الموت، ثم قلت في نفسي مقصودك زيارة هذا الرجل، فإن قدر الله عليك الموت هاهنا فمرحبًا، فجعلت آكل مع الأضياف حتى فرغوا، فأعد لنا الخدام فراشًا للرقاد فاضطجعت على جنبي الأيمن إلى جهة القبلة كي أموت على تلك الحالة، لأني تيقنت أن طعام الشعير لا يتركني حيًّا إلى الصباح

(1) من هنا نوقن أن التلكاتيين والأزاريفيين أخوان في النسب وإن كان الأخلاف لا يقولون بذلك.

(2) يقصدون بالزيارة: الهدية.

(3) هذه هي الرحلة التي كلفه بها الملك عبد الله الغالب بالله لينظر له شيخًا ينيب على يده فإذ ذاك دله على سيدي أحمد بن موسى.

قال: فغلبتني عيناي بالنوم ساعة، ثم استيقظت فمسحت على بطني هل انتفخت أو لا؟ فوجدتها على حالها، فرجوت الحياة والسلامة من الموت، ثم بعد ساعة طويلة غلبتني عيناي بالنوم أيضًا إلى قرب شطر الليل، فاستيقظت فوجدت بطني على حالها لم يتحرك فيها شيء يضرني من النفخ ولا من غيره فاستبشرت وحمدت الله على العافية وظهرت لي بركة الشيخ عند ذلك. فلما أصبح الصباح بخير ذهبنا إلى المسجد[1] وصلينا ثم رجعنا فانتظرنا دخول الشيخ علينا، فلما دخل علينا ظهرت لي أنوار وجهه بالبشر والضحك العجيب وجعلنا نمعن النظر في وجهه دائمًا حتى فرغنا من الأخبار التي مست الحاجة إليها وودعنا قائلًا: (الحمد لله على سلامتكم من أكل ما يؤذيكم) فشكرت الله تعالى على ملاقاتي لهذا الولي الذي كنت أتمنى في جميع عمري رؤيته في قيد حياتي وأخذنا عنه ما شاء الله، وقال لي شيخنا المذكور أترون ذلك الرونق الذي يلمع على ديار الشيخ إذا أشرفتم عليها أم لا؟ فقلت له فينا من يراه وفينا من لا يراه، فقال لي كلما قعدت عنده نرى ذلك النور في الليل إذا أقبلنا من المسجد وطلعنا على تلك الربوة التي أشرفت على دار الشيخ. لله الحمد وله الشكر دائمًا، وبالجملة فمناقبه لا يحصيها إلا الله تعالى، وذكرنا منها ما تقدم تبركًا بذكره نفعنا الله به.

أقول إن قول البعقيلي أن سيدي بلقاسم بن الغازي من النسب التيلكاتي يتأمل فيه، فإن الأزاريفيين من السملاليين كما تجد ذلك في تراجمهم في (المعسول) إن شاء الله وعندهم مشجر نسب بذلك.

ومما ذكر به أبو زيد التامانارتي في فوائده عبد الرحمٰن بن علي الفقيه الصالح الزاهد... كتابه في الفقه شامل العلامة بهرام، وكان متورعًا لا يدع من يأتيه من الخصوم وغيرهم يخدمه بل يتولى مؤونة نفسه ومركبه، وقد أضاف الأستاذ الكبير أبا عبد الله محمد بن يوسف الترغي ممره لزيارة الولي أبي العباس سيدي أحمد بن موسى - ثم ذكر قضية الطعام - باختصار، ثم قال؛ وكان يقول يعني الترغي ذلك على كرسي إقرائه به[2]، ومما بلغ مبلغ التواتر في

---

(1) هكذا كانت عادة السوسيين من قديم حين يذهبون بأضيافهم لحضور صلاة الجماعة في المسجد في جميع الأوقات حتى الصبح فأين نحن اليوم من أولئك.

(2) وكانت له شهرته بعد ذلك الحين في مراكش وفاس.

بلده، أن رجلًا حكم عليه فأراد الفتك به فترصد له في موضع خاليًا، فلما جاءه وقعت عليه الظلمة فمنعته منه فجاء إليه وتاب.

أخذ عن والده، ووالده أخذ من سجلماسة عن إبراهيم بن هلال، وهو عبد الله القوري ثم ذكر في محل آخر أن من بين الآخذين عن عبد الرحمٰن ابن علي الأستاذ سعيد بن عبد الله بن يدير التملي من أشياخ أبي زيد التامانارتي نفسه، كما أخذ عنه أيضًا الأستاذ محمد بن عبد الله بن عيسى بن موسى التامانارتي من أشياخ أبي زيد التامانارتي أيضًا ويروى عنه حديث الأولية وغيرها، لكنه وإن ذكر أن من مشيخته عبد الرحمٰن بن علي فإنه حين ذكر حديث الأولية، رواها عنه من سيدي محمد بن إبراهيم التامانارتي الحفيد عن عبد الرحمٰن بن علي الحامدي عن أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمٰن السلطان المعروف بالأعرج كما روى عبد الرحمٰن التامانارتي أيضًا الحديث المسلسل بالضيافة عن محمد بن عبد الله بن عيسى المذكور عن عبد الرحمٰن بن علي مباشرة عن منصور بن أحمد بن إبراهيم بن حزوز كما روى أيضًا الحديث المسلسل بالمصافحة والمشابكة بالأصابع عن محمد بن عبد الله التامانارتي عن محمد بن إبراهيم التامانارتي الحفيد عن عبد الرحمٰن بن علي عن منصور بن أحمد المتقدم، فعلمنا من كل ذلك أن من بين الآخذين عن عبد الرحمٰن بن علي أيضًا محمد بن إبراهيم التامانارتي الحفيد كما علمنا أن من بين من أخذ عنهم عبد الرحمٰن بن علي المترجم السلطان أحمد الأعرج، ومنصور بن أحمد ابن إبراهيم بن حرزوز، وأما وقت وفاته بالتعيين فقد ذكره الرسموكي في (وفياته) وعنه نقل صاحب (البشارة) وغيره فقد توفي يوم السبت السابع عشر من ذي القعدة عام أربع وثمانين وتسعمائة ولعبد الرحمٰن عقب إلى الآن يقطن في قرية (تانكيست) وفي قرية أخرى إزاءها، وهم الباقون وحدهم دون عقب أخيه سعيد الأديب وقد وصف الحضيكي عبد الرحمٰن بن علي هذا بكونه حافظًا فقيهًا محدثًا ذا فنون في علوم جمة ورعًا نزيهًا ذا قدم راسخة في علوم القوم ناسكًا عابدًا، كثير الخير والبركة شهير الكرامة غزير العلم والمعرفة أقول أن مشهده مزارة كبيرة لا يزال يقصد من الزائرين إلى الآن وعليه مشهد.

4 ـ أحمد بن سعيد:

هو ابن الأديب المتقدم عالم كبير ذو شهرة قام مقام والده في رياسة الأسرة بالعلم والوفادة على حضرات الملوك السعيديين، ورفع القصائد إليهم إلا أننا لم نقف له إلا على قصيدة واحدة، وجدناها في تلك الأوراق التي وجدنا فيها ثلة من قصائد والده، ومطلعها:

يقول صحبي وقد شطت بنا الرحل

ألا تريح مطايا مسها كلل

وقد قالها في السلطان الغالب بالله، وتوجد في (المترعات) جرى ذكره في (وفيات) الرسموكي وفي (بشارة) الكرامي وفي (طبقات) الحضيكي، وقد قال فيه الأخير:

كان رضي الله عنه مشهورًا بالعلم والخير والصلاح على سنن أجداده المشهورين بالعلم والدين وقد نص الرسموكي أولًا على وقت وفاته فقال: توفي رحمه الله يوم السبت السادس والعشرين من صفر عام سبعة وتسعين وتسعمائة وصلى عليه أربعمائة رجل كذا رأيت تاريخه ولعل ذلك العدد عندهم كثير لقلة الناس في ذلك الوقت على ما علم في حال البوادي انتهى.

أقول يمكن أن يكون العدد إنما هو تبيين للواقع فقط هكذا ذكروه ولم يصفوه بالأدب كأبيه مع أنه أديب كما رأيت (والشبل في المخبر مثل الأسد)، ويظهر من شعره إن كان كله على غرار تلك القصيدة، السلاسة وعدم الاعتناء بالجناس كأبيه الذي رأينا له إغراقًا في حب الجناس اللفظي والمعنوي مع الميل إلى الجزالة، وقد تؤديه أحيانًا إلى التقعر.

هذا وهناك ظهائر سعدية ذكر فيها مع إخوته، ظفرنا منها من عند أعقابهم في تانكست بطائفة نسوقها عند كل فرصة فيما يلي وقد ضاعت ظهائر سعدية قبل، وربما ضاعت أيضًا ظهائر مرينية أو وطاسية لأنه يتراءى لنا أن بيتهم قديم المجد من قبل أواخر القرن التاسع فأول ما رأيناه من الظهائر السعدية ظهير الذهبي في شأن احترام المترجم أحمد بن سعيد وإخوته ونصه.

عن أمر عبد الله المنصور بالله أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أحمد بن أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الشريف الحسني أيد الله أمره وأعز نصره يستمر أمر الفقهاء الأجلة الكرام أولاد الفقيه المرحوم بكرم الله سيدي سعيد بن علي بن محمد الفقيه سيدي أحمد بن سعيد والصغير سيدي الحسن على مقتضى ما بيدهم من ظهائر أسلافنا وظهائرنا وعلى ما عهد لهم واستمرت به العادة وصرف أعشار مزروعاتهم لمساكين بلدتهم وفقرائها بحيث لا تخرق لهم عادة من عوائدهم ولا تغير لهم حالة من أحوالهم في قليل الأشياء وغيرها والواقف عليه من خدامنا المتولين أمر البلاد السوسية يحترم جانبهم ويوقر مقامهم ويعاملهم في كافة أمورهم وعامة شؤونهم بحسب مزيتهم ومكانتهم ويندرج في حكم ما ذكر زكاة مواشيهم وأعشار زرعهم في الغرب(1) وسوس وغيرهما كما تضمن ذلك ما بيدهم من ظهائر الأسلاف رحمهم الله، ولا يعدل بهم عن مضمنه ولا بد، وكتب في أوائل المحرم فاتح عام سبعة وثمانين وتسعمائة وفوقه الطابع الذهبي الكبير المشهور بكونه بيضي الشكل.

ونص ظهير آخر صدر عن ولي العهد محمد الشيخ المأمون:

من عبد الله تعالى ولي عهد الخلافة الهاشمية أبي عبد الله محمد المأمون ابن مولانا الإمام الخليفة أمير المؤمنين أبي العباس المنصور ابن مولانا الإمام الخليفة أمير المؤمنين، وناصر الدين أبي عبد الله محمد الشيخ المهدي ابن مولانا الإمام الخليفة أمير المؤمنين محمد ابن مولانا محمد الشريف الحسني أيد الله أمره وأعز بتأييده نصره إلى وصيفنا الأنجد الأرضي المرضي الملحوظ بالعناية القائد حمو(2) بن بركة حفظه الله سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد فموجبه إليكم أننا نوصيكم أتم الإيصاء وأجمله بجانب الفقهاء المرضيين الملحوظين بني عبد العزيز الفقيه القاضي السيد أحمد بن سعيد وأخيه السيد الحسن، وكافة إخوانهم وبني عمهم أخوة خديمنا المرضي الأقرب القائد محمد بن موسى بن أبي بكر، ونحضكم على معاملتهم بكريم الاعتناء

(1) من هنا نعلم مقدار ثروتهم واتساع أملاكهم حتى في خارج سوس.

(2) يعلم من هنا اسم أحد القواد الكبار على كل سوس في زمن أحمد الذهبي.

وإن تمهد لهم من جميل الرعي والتكريم ما استوجبته أصالتهم الدينية التي اتصفوا بها حديثًا وقديمًا مع ما ثبت لهم من حميد المحافظة على خدمة هذه الإيالة النبوية والتشيع لعلي جنابها والتحلي بخالص الاختصاص والاصطفاء لها فقابلهم بمقتضى ما تقرر لهم من ذلك ولا تسمح لمن يمد إليهم يدًا تخرق ما أضفي عليهم من لدن هذه الدولة السعيدة إلى الآن أو يتطرق إليهم بضيم أو اهتضام في سائر أحوالهم وكافة أمورهم، وكذلك من لاذ بهم من تعلقاتهم تحترمهم وتعاملهم بما عهد من توقيرهم، وأجرهم على ما اقتضاه العرف لهم وألفوه من عهد أسلافنا الكرام وما عاملناهم به من إضفاء حلل المبرة والإكرام، ولا تترك من يخرق عليهم شيئًا ما من عوائدهم المعتادة لهم في عامة أمورهم كلها وليكونوا منك ببال في جميع ما يعرض لهم عندكم من سائر الأغراض التي يتأكد عليهم قضاؤها، لا فيما يرجع لأمورهم ولا فيما يرجع لمن تعلق بهم من أهاليهم وخدامهم وأعرف لهم قدر ما لهم من الخصوصية على غيرهم وراعهم المراعاة التامة التي تدير لها وجه اهتمامك والله يسددكم ويرعاكم والسلام وكتب به في أواخر جمادى الأخيرة عام خمسة وتسعين وتسعمائة وفوقه خطه بيده بشكل لا يقرأ.

وبعد فقد رأيت الآن مكان أحمد بن سعيد، فهو قاضي ولا ريب أنه قاض رسمي كما أنه كبير أسرته، وقد ذكر هذا القائد محمد بن موسى بن أبي بكر من الأسرة فعلمنا أن الرئاسة ابتدأت في هذه الأسرة من عهد السعديين، وقد ذاع هذا عند أعقابهم إلى الآن.

ويقولون أن من آثار قيادتهم إذ ذاك سلسلة نطفيات للماء إزاء الطريق الآتية من تيلكات إلى امسكروض، ولا يزال الماشي يمر بها من سوق أربعاء آيت حامد إلى تلك الناحية الآن.

5 ـ محمد بن سعيد:

الابن الثاني لسعيد الأديب، ذكره الرسموكي في الوفيات بقوله الفقيه ولد الأديب المشهور، ووالد القاضي سيدي علي بن محمد ولم يزد على ذلك شيئًا، وقد بيض لتاريخ وفاته، ولم يصح عندنا الآن عنه إلا أنه فقيه كأهله.

6 ـ علي بن محمد القاضي:

ابن المذكور قبله وهو من علماء الأسرة الكبار، له فتاوٍ كثيرة توجد بين فتاوى معاصريه وقد قال فيه تلميذه الرسموكي في وفياته:

الفقيه القاضي سيدي علي بن محمد ابن الأديب المشور سيدي سعيد بن علي، عاصرته وعاشرته وصاحبته بنحو سنتين آ خر عمره، وكان ظريفًا ذكيًّا ذا سمت ووقار توفي رحمه الله بداره بتيلكات عشية الأربعاء الخامس والعشرين من رجب عام ثلاثة وأربعين وألف وهو أول قاضٍ بإيليغ مستبد به.

ولم يزد الحضيكي ولا الكرامي على ما ذكره الرسموكي شيئًا، والرجل كما ترى تبوأ مركزًا عظيمًا حين كان قاضي الجماعة في (إيليغ) عاصمة دولة علي بودميعة، ولا ريب أن لمكانة أسرته ولتفوقه في العلم بين علماء عصره في التضلع في العلوم وفي التحقيق في الفنون التي يزاولونها وبذلك ندرك من بعيد ما له من الشفوف حتى استحق أن يكون بين أولئك الأفذاذ قاضي القضاة وأما أين تخرج، وأما أشياخه وأما مختلف أخباره فقد طارت في غفلة التاريخ أخبارها.

7 ـ محمد بن علي:

ابن ذلك القاضي، وقد وجدناه أيضًا موصوفًا بالقاضي، وهو حي عام 1092هـ لا نعرف عنه غير هذا.

8 ـ عبد الرحمٰن بن محمد:

الابن الآخر لمحمد بن سعيد الأديب قال فيه معاصره الرسموكي القارئ الخاشع سيدي عبد الرحمٰن بن محمد بن سعيد التيلكاتي الحامدي توفي رحمه الله مقتولًا ببلده يوم الأحد الرابع والعشرين من ربيع النبوي عام ثلاثة وعشرين وألف ووصفه الكرامي في (بشارته) بالشيخ الفقيه الخاشع ولم يذكر سبب قتله كما أنهم لم يذكروا أوصافه.

9 ـ القائد محمد بن موسى بن أبي بكر:

رأيت أنه من هذه الأسرة، ويظهر من فحوى ذلك الظهير أنه حي إذ ذاك وأنه

مستخدم في دوائر الحكومة السعدية فهو أول رئيس عرفناه من الأسرة التيلكاتية وكان هذا القائد على الجباية بسوس. وقد جرى ذكره في ترجمة الشيخ سيدي محمد بن مسعود الهنضيفي في (الفوائد الجمة) فذكر التامانارتي أن ابن مسعود دخل على القائد في مجلس وهو إذ ذاك يجبي خراج السلطان من جزولة، وهو إذ ذاك في قبيلة هنضيفة فقال ابن مسعود أتعرف معنى قوله تعالى وذكر آية من آيات الوعظ في القرآن وعندك تفسيره؟ فقال له لا، فقال له لكنه كان عندي أنا، ثم خرج مسرعًا فأتى ببطاقة طويلة فألقاها إليه فقرأها، قال التامانارتي وقد كان حاضرًا فرأيت أنه نبهه على العدل والرفق بالرعية، وذلك الوقت وقت إمارة السلطان أحمد الذهبي وفي هذا المحل فقط رأيت ذكر هذا القائد لا غير.

10 ـ الحسن بن سعيد:

الابن الثالث للشاعر سعيد الأديب، قال فيه الكرامي:

الفقيه الرئيس سيدي الحسن ابن الأديب سيدي سعيد بن علي الحامدي الأيسي التيلكاتي توفي رحمه الله بتيلكات ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من ربيع النبوي عام ثلاثة وثلاثين وألف ولم يزد غيره على ذلك شيئًا وقد رأيت له ذكرًا مع أخيه أحمد بن سعيد في تلك الظهائر وقد علمنا أنه رئيس إلى أن مات عام 1033هـ وذلك العهد عهد إيليغ فعرفنا أن رياسته قد استمدت من إيليغ فكان الرئيس الثاني من رؤساء تيلكات المعروفين عندنا، وقد ذاع وشاع ما للرياسة التيلكاتية من امتداد الظل على كل جزولة إلى قبيلة آيت وفقًا بإلغ كما شملت كل هشتوكة، وقد كان هذا الفقيه الرئيس معتنيًا بالعلم وبنساخة الكتب وقد قرأت في خزانة تيلكات المذكورة على ظهر كتاب بخط محمد بن أحمد بن سعيد أنه كان ينسخ للحسن بن سعيد أحيانًا علي بن يعزى ابن سعيد التيملي من (أزرو واضو) ووجدت بخط من نقل من خط الحسن ما نصه:

ولد ولدي محمد 22 حجة 980هـ وأحمد ليلة 25 جمادى الأولى 1000هـ ومحمد ليلة 25 رمضان 1003هـ وسعيد 8 شوال 1005هـ وعبد الله 24 شعبان 1007هـ وعبد الرحمٰن ليلة 9 جمادى الأولى 1009هـ وعبد العزيز 4 رمضان 1014هـ وإبراهيم ليلة 3 حجة 1012هـ ونقل ذلك من أصله داوود بن موسى بن داوود

السملالي اعلم بذلك عبد الرحمٰن بن الحسن بن سعيد اهـ وذلك بخط رفيع وقد رأينا من الكتب المنسوخات للرئيس الحسن كثيرًا، فعرفنا مقدار اعتنائه بالعلم.

11 ـ سعيد بن الحسن:

ابن ذلك الرئيس وقد ولد كما رأيت 8 شوال 1005هـ رأيت له ذكرًا بين رجالات أهله، وقد أخبرني ثقة أنه رأى ظهيرًا أصدره إليه بودميعة وصفه فيه بأنه صهره، وقد أقطع له أراضي في أحواز تارودانت صارت إلى بيت المال، وذكر لي المذكور أن هذا الظهير يوجد اليوم في يد أبي المواريث الحسن الاخصاصي بأكادير، ولعلنا نتصل به فنذكره إن شاء الله ولا يزال سعيد حيًّا 1056هـ ولا ندري أهو عالم رئيس أم عالم فقط، أم رئيس فقط.

12 ـ عبد الرحمٰن بن الحسن:

الابن الثاني للرئيس الحسن ولد كما رأيت ليلة 9 جمادى الأولى عام 1009هـ كان عالمًا رئيسًا، ولا أحسبه إلا أنه هو القائد الكبير بين أهله، وله تقييدات بيراعه، منها مقيد ولادات أولاده ونصها:

ولد ولدي محمد الثلاثاء 2 قعدة 1048هـ وعمر ليلة الاثنين 12 شعبان 1050هـ وأحمد 23 شوال 1052هـ وسعيد الثلاثاء 20 قعدة 1057هـ وعبد السلام 10 ربيع الثاني 1058هـ وعبد العزيز 21 حجة 1059هـ ويقول في الكل صيره الله عالمًا عاملًا.

ووجدت بقلم الفقيه سيدي محمد بن عبد الله بن الحسن الآتي أن وفاة الرئيس عبد الرحمٰن بن الحسن كانت وقت بنائهم لحصن تيلكات المتقدم الذكر عند ذكرنا لتيلكات، وذلك اواسط شعبان 1060هـ وقد قتل في انكارف بأيدي أبناء موسى بن أبي بكر ويقال لهم آيت موسى أوباكو وهم قبيلة مشهورة إلى اليوم.

13 ـ محمد بن عبد الرحمٰن:

ابن ذلك الرئيس فقيه جليل له شهرة إلى الآن ويعرف بالسوق وله مؤلف

في الطب موجود، وآخر في الصلاة على النبي ﷺ وتوسل في نظم رأيته في خزانة تيلكات في ورقتين ألفه 1085هـ وقد ذكر عقبه أن أهل الجريد بتونس اتخذوه وردًا لهم، تركه عندهم في حجته فعرفنا أنه ممن حجوا، وهناك ظهيران في عصره لعله هو الذي توصل بأحدهما، وهو رشيدي ونصه:

عن الأمر العلي الإمامي الخليفي العادلي الرشيدي الهاشمي العلوي الفاطمي الحسني النبوي (ثم الطابع) أيده الله وأدامه، ونشر برياح لنصر أعلامه وأبقى غرة في جبين الدهر أيامه بمنه وكرمه يستقر هذا المسطور الكريم بيد حملته الفقهاء أولاد الفقيه مقرئ زمانه، ومدرس وقته وأوانه أبي عثمان سعيد ابن علي يجدد لهم بحول الله حكم ما بأيديهم من الظهائر السلطانية المتضمنة تحريرهم وتوقيرهم في سائر أحوالهم وكافة شؤونهم بحيث لا يجري عليهم من الوظائف المخزنية والتكاليف الإمامية ما يجري على غيرهم ولا يطاف بأملاكهم حيثما كانت في البلاد السوسية وغيرها، ويبقون في صرف زكاتهم وأعشارهم على أيديهم لمستحقيها على السنن الشرعي، بحيث لا سبيل لمن يخرق عليهم عادة أو يحدث لديهم نقصًا أو زيادة، تجديدًا مستمرًا على الدوام باقٍ حكمه ماض عزمه والواقف عليه من الولاة والعمال والجباة يعمل به ولا يتعدى كريم مذهبه والسلام في غرة ربيع الثاني (. . .) هنا حروف رمز بها لا نفهمها، إلا أن السنة التي جاء فيها مولاي الرشيد إلى سوس هي سنة 1081هـ والطابع الرشيدي ظاهر بعد السطر الأول، وإن كان قلما يقرأ، وقد توفي محمد ابن عبد الرحمٰن السوق بعد 1085هـ.

14 ـ سعيد بن عبد الله:

وقفنا على اسمه في الظهير الثاني، ولم ندر نسبه بين إخوانه المتقدمين ونصه:

حامله المرابط السيد سعيد بن عبد الله التيلكاتي قدمناه على جميع إخوانه وحررنا له المرابطين كافة أهل تيلكات وأهل تاكاديرت في الوظائف المخزنية والتكاليف السلطانية، فلا سبيل لمن يطالبهم بقليل ولا بكثير ولا بجليل ولا بحقير تحريرًا تامًّا شاملًا عامًّا فحسب الواقف عليه العمل به والسلام وكتب في

مهل جمادى الأولى خمسة وثمانين وألف وفوقه طابع إسماعيلي صغير.

وهناك ظهير آخر ذكر فيه بالفقيه ونصه:

كتابنا هذا أسماه الله تعالى بيد حامله محبنا الفقيه السيد سعيد بن عبد الله التيلكاتي، يتعرف منه أننا أنعمنا عليه بأهل تدينت ببني حامد وحررنا عابهم[1] يأخذ زكواتهم وأعشارهم وجميع ملازمهم إعانة منا له على خدمة دارنا العلية. من غير مشارك له فيهم ولا منازع والواقف عليه يعمل به ولا بد والسلام وفي سابع صفر عام ثمانية وتسعين وألف وفوقه طابع إسماعيلي صغير.

أقول يظهر من هذا الظهير أن سعيدًا هذا كان في حاشية مولاي إسماعيل من الخدمة الذين يلازمون داره.

15 ـ أحمد بن عبد الرحمٰن:

هو ابن عبد الرحمٰن بن الحسن بن سعيد رأيت ولادته 23 شوال 1052هـ له ذكر بين أهله، ولا نعرف له وصفًا ولا متى توفي.

16 ـ سعيد بن عبد الرحمٰن:

الابن الآخر لعبد الرحمٰن بن الحسن بن سعيد ولد كما تقدم 20 من ذي القعدة 1057هـ عالم كبير مدرس طائر الشهرة وهو الذي نقلنا عنه نسب الأسرة كما تقدم، وقد وجدت مقيدًا نصه:

توفي الفقيه الأجل شيخنا سيدي سعيد بن عبد الرحمٰن بن الحسن بعد عصر الخميس غرة اليوم الأول مفتتح 1135هـ وقد وقفت على كلام من وصفه بالقاضي وربما كان قاضيًا رسميًّا في العهد الإسماعيلي في جهة هشتوكة لأن ولتيتة لم يتوطد فيها الحكم الإسماعيلي كما يعلمه من قرأ ما كتبناه عن محمد العالم في الجزء الثاني من كتابنا (إيليغ قديمًا وحديثًا) وسعيد هذا معمر كما ترى، وربما يمكن أن عبد الله بن سعيد المتقدم كان ابنه، وإنما ظهر بين يديه وإن كان ذلك بعيدًا لمن تأمل في أن الولد ولد 1057هـ وأن الولد كان تأهل

---

(1) كذا.

للمثول بين يدي السلاطين سنة 1085هـ نعم هناك سعيد بن الحسن المتقدم، فهو الأقرب أن يكون أباه والله أعلم.

17 ـ عبد الملك بن سعيد:

ابن المذكور قبله عالم يذكر بين علماء أهله وقفت له على مقيدات علمية عام 1141هـ ولا ندري متى توفي ولا من أحواله شيئًا.

18 ـ عبد الله بن سعيد:

أخو عبد الملك، وجدت أنه عالم أخذ عن أبيه، ولا يزال حيًّا سنة 1135هـ.

19 ـ أحمد بن سعيد:

أخو عبد الله وعبد الملك ولد كما وجدته مقيدًا 14 من ذي القعدة عام 1092هـ وله شهرة بين أهله، ولكن لا أدري أبرئاسة أم بعلم؟ إلا أنني أحسبه عالمًا لانقطاع الرئاسة من الأسرة التيلكاتية بانقطاع الإمارة التازاروالتية عام 1081هـ وذلك قبل ولادته بسنين كثيرة، ولا ندري متى توفي.

20 ـ محمد بن أحمد بن سعيد:

ابن المذكور قبله رأيت له أثرًا يدل على أنه عالم بلا ريب، ولا أعرف عنه غير ذلك وهو من أهل أواسط القرن الثاني عشر.

21 ـ محمد بن عبد الله بن الحسن:

حفيد الرئيس الحسن بن سعيد وقد رأيت فيما قبل أن ولادة أبيه عبد الله ابن الحسن، كانت في 34 شعبان عام 1007هـ.

كان محمد بن عبد الله عالمًا حسنًا أبقى آثارًا تدل على علو كعبه في المعارف وله اعتناء بالتقييد، ولا يزال حيًّا عام 1090هـ.

22 ـ أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسن الرئيس:

قال فيه عبد الملك بن سعيد المذكور توفي عمنا الفقيه سيدي أحمد بن

عبد الله بن محمد بن الحسن ضحوة السبت . . . . 19[1] عام 1141هـ وذلك كل ما وقفنا عليه حوله ولا نعرف من أوصافه شيئًا إلا كونه فقيهًا وكفى به وصفًا.

23 ـ علي بن عبد الله:

لعله علي بن عبد الله بن سعيد بن عبد الرحمٰن بن الحسن بن سعيد الأديب وقفنا في ظهير على اسمه، ونص الظهير:

يعلم الواقف على هذا المسطور الكريم أعز الله أمره أن كل ما . . . . . . الخير والبركة سيدي علي بن عبد الله من تيلكات وأزاريف وتدينت فقد حررناهم ووقرناهم كلهم واحترمناهم بالاحترام التام بحيث لا يطوف أحد بساحتهم بوجه ولا بحال وأعشارهم وزكاتهم التي حرم الله عليهم قد وكلناه عليها يفرقها على من يستحقها من الطلبة وأهل تدريس العلم وغيرهم من المساكين والعاملين عليها، والواقف عليه يعمل به ولا يحيد عن كريم مذهبه ولا يتعداه، وكذلك أهل أزنتو مندرجين هنا والسلام في العشرين من جمادى الأولى عام 1190هـ وفوقه طابع صغير لسيدي محمد بن عبد الله بن إسماعيل هذا ولا نعرف عن علي بن عبد الله المذكور شيئًا.

24 ـ يحيى بن علي:

شيخ عليه مشهد يزار في تيلكات، ويقول التيلكاتيون أنه أخوهم ولكننا لم نقف عندهم على ترجمته ولا على عصره ولا على أي وصف من أوصافه، وربما كان من قدمائهم والله اعلم.

* * *

هؤلاء علماء تيلكات التقطناهم هنا وهناك، فلتعرف الأسماء أن أعوزت الآثار، فإنهم أهل بيت ماجد دينًا وعلمًا وشفوفًا في كل الميادين فلهم في الدين مكانة ما فوقها مكانة وكذلك في الميدان العلمي فقد شهدت نوادر مخطوطات

---

(1) محو في الأصل.

من خزانتهم رأيناها على عنايتهم التامة بالعلم، كما لهم كذلك ميزة بالثروة من الأملاك الواسعة في سوس وفي غيرها إلا أن الذي بقي لهم إلى الآن هو قرية تانكيست وحدها، وقد وقع بينهم من الشنآن ما فل عصاهم وأطفأ نورهم وأذهب ريحهم فلم يبق منهم مما يحمد إلا ما يشم من أسلافهم الأمجاد.

وأما اعتناء السلاطين بتحريرهم فقد رأيت ما رأيت، وهاك بقية ما بين أيدينا، فهناك ظهير سليماني نصه:

يعلم من كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره أننا جددنا لأولاد سيدي سعيد الأكناوي أصهار الفقيه السيد محمد بن أحمد السوسي حكم ما تضمنته ظهائر أسلافنا قدس الله أرواحهم التي بأيديهم من التوقير والاحترام فلا يسامون بكل ما يسام به العامة، والسلام في ذي الحجة الحرام من عام 1218هـ وفوقه الطابع السليماني الصغير.

وسعيد الاكناوي المذكور لم نعلم له وصفًا، ولعله أحد أغنيائهم أو له علم لا ندري الآن عنه شيئًا، كما أننا لا نعرف الفقيه السوسي المذكور. ولعله كان من المستخدمين في الدائرة السلطانية، أو كانت له عنده وجاهة، فليس عندنا الآن ما نقوله عنه.

وهناك أيضًا ظهير آخر من السلطان مولاي عبد الرحمٰن نصه:

يعلم من كتابنا هذا أسماه الله أننا جددنا لأولاد سيدي سعيد الاكناوي أصهار الفقيه السيد محمد بن أحمد السوسي حكم ما تضمنه ظهائر أسلافنا الكرام قدس الله أرواحهم التي بأيديهم من التوقير والاحترام والرعي الجميل المستدام ولا يكلفون بكلفة جلت أو قلّت حسبما تضمنت ذلك ظهائر أسلافنا المذكورين، فعلى الواقف عليه من خدامنا وولاة أمرنا العمل به، ولا يحيد عن كريم مذهبه، والسلام في 10 محرم عام 1240هـ وفوقه الطابع الرحماني الكبير، وتحته بخط عمال سوس إذ ذاك:

امتثلنا ما في الظهير الشريف، ونفذنا لحملته أصهار الفقيه المذكور والسلام في 20 قعدة الحرام من عام 1245هـ وتحته طابع صغير لعل ما فيه؛ خديم المقام العالي بالله الطاهر بن مسعود.

وفي الجانب الآخر تحته أيضًا ما نصه: امتثلنا ما في ظهير مولانا الشريف وأنفذناه لحملته أصهار الفقيه المذكور بحيث لا يطوف أحد بساحتهم ومن ترامى عليهم بشيء فلا يلومن إلا نفسه. والسلام في 18 من شوال عام 1255هـ وتحته طابع صغير، لا يظهر منه إلا كلمة محمد وأخرى لعلها بومهدي، وذلك التاريخ يوافق زمن القائد بومهدي الشهير.

وهناك أيضًا ظهير لسيدي محمد بن عبد الرحمٰن وعبارته هي عبارة الظهير الرحماني المتقدم سواء بسواء، وقد أرخ بثامن الحجة الحرام عام 1280هـ وفوقه الطابع الكبير.

وهناك أيضًا ظهير حسني على تلك العبارة نفسها أرخ بالثاني والعشرين من عام 1299هـ وفوقه الطابع الحسني الكبير الشهير وإزاءه رسالة من المولى الحسن إلى أهل تانكيست ومن حواليهم لما أقبل إلى سوس عام 1299هـ وهي نسخة من مناشير مختلفة العبارة فرقها بين يديه إذ ذاك يستنهض بها القبائل للقياه، ونص الرسالة:

خدامنا الأماثل الأمجاد أهل تانكيست كافة، نخص منكم العلماء والشرفاء السلام عليكم ورحمة الله وبعد فقد وجب تفقدكم والنظر في أموركم ومصالحكم لقوله ﷺ: كلكم راع وكلكم راع مسؤول عن رعيته، الحديث ولقوله عليه الصلاة والسلام، النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، وقال مولانا جل علاه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٨﴾ [المائدة: 8]. وقال جلّ من قائل: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: 2] وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [النور: 21] الآية، وقال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115]. وقال ﷺ: «الفتنة نائمة لعن الله موقظها» وقال عز من قائل: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾ [آل عمران: 31]، وقال جل علاه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: 80] وقال ﷺ: «من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن

أطاعني فقد أطاع الله» الحديث. والمقصود عندنا بهذه الوجهة المباركة وعلى الله الكمال. هو المدافعة عنكم، وقطع الأطماع دونكم حتى لا يتشوف إليكم أحد، ولا إلى تمليك بلادكم ورقابكم ما دمت حيًّا[1] والأعمال بالنيات، وكذلك إقرار ذوي المراتب وأهل الزوايا والأشياخ والكبراء على مراتبهم وشد عضدهم عليها أكثر مما نجدهم عليه هناك ونحن في الأثر بحول الله، عازمون على التحرك لتلك النواحي، فنأمركم أن تقوموا بما يجب عليكم من السمع والطاعة وآداب اللقي كل بطريق بلاده على مقرر العادة، وتسارعوا وتسابقوا فقد فاز من أحرز مزية السبقية، ولكم منا الأمان التام لا يغير حزبكم ولا يروع سربكم نطلب من الله تعالى أن يكون قدومنا عليكم خير مقدم ألهمكم الله رشدكم وهداكم آمين والسلام في 5 شعبان الأبرك عام 1299هـ.

وفوقه الطابع الحسني الكبير، وقد كتبنا السطر الأول بمشقة وحزر وتخمين لتمزقه.

ثم في العهد العزيزي حين نزل الكيلولي بتزنيت تقدم السيد أحمد التانكيستي والسيد موسى من أهله إلى إعانة جنود الحكومة فكتب القائد سعيد الكيلولي إلى السلطان يشكر له السيد موسى فأجاب السلطان بما نصه:

خديمنا الأرضي القائد سعيد الكيلولي وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله.

وبعد وصل كتابك بما عليه المرابط السيد موسى التانكيستي من السعي في المصالح المخزنية والجري فيها على سنن المرابطين الأمثال وعدم إنصاته لمن رام رده عن الخوض في ذلك المجال، وإلقائه كلامه في ذلك، ولم يلتفت إليه بحال وصار بالبال، فليزد على عمله في ذلك سدده الله ولتتلق منه كل ما يمليه عليك أو يتوسط فيه بينك وبين من طلب منه ذلك من قبائل الجبل بالقبول والإقبال أصلحك الله وأصلحه ورضي عنكم والسلام.

في فاتح ذي الحجة متم عام 1314هـ.

وفوقه الطابع العزيزي الصغير

---

(1) كانت السفرة الحسنية إذ ذاك دفاعًا لأطماع بعض الأجانب في بعض صحراء سوس وقد قاوم المولى الحسن أطماعهم إلى أن مات رحمه الله.

وهناك ظهير عزيزي على نمط الظهائر المتقدمة في العبارة حذو القذة بالقذة ولا يزال حتى في هذا الظهير أولاد سيدي سعيد الاكناوي يوصفون بأصهار الفقيه السيد محمد بن أحمد السوسي وهو مؤرخ بالثامن عشر من شوال عام 1314هـ وفوقه الطابع العزيزي الكبير.

وقد قدم الكيلولي السيد احمد التانكيستي على تانكيست وقصبة الطين التي هي القرية الثانية لمساكن بقية آل تيلكات اليوم، وهذا ما كتبه الكيلولي في تقديمه:

من فضل الله ثم بوجود مولانا أيده الله ونصره ولينا بحول الله وقوته المرابط السيد أحمد التانكيستي على كافة آل قصبة الطين وأسندنا إليه جميع أمورهم وألزمناهم أن يسمعوا له ويطيعوه فيما يأمرهم به وينهاهم عنه في الأمور المخزنية والوظائف السلطانية ومن حاد عن أمره أو أراد ولاية غيره فلا يلومن إلا نفسه ولا يضرن إلا رأسه، وبسطنا له يد التصرف على سائر القصبة المذكورة وعليه تقوى الله العظيم في السر والعلانية، فالله تعالى يسعده بهم ويسعدهم به آمين والسلام في 25 جمادى الثانية عام 1314هـ كتب خديم مولانا سعيد بن أحمد الكيلولي وفقه الله.

وتحته طابعه الصغير، وفيه خديم المقام العالي بالله سعيد بن أحمد الكيلولي وفقه الله.

وبيت هذا الرئيس لا يزال قائمًا وفيه ثروة وسمعة وكل قرية تانكيست له وفيها أراضٍ واسعة تسقى بماء دائم من العيون التي تنبع من وادي الغاس وقد ورث الأخلاف عن الأسلاف كل ذلك، وذلك كل ما بقي من تلك الثروة العظمى التي لجدودهم وقد أفل عنهم العلم من أزمان ولا يذكرون إلا بحفظ القرآن، ويذكر عن المتأخرين منهم أنهم كان لهم اعتناء بأن يحفظ أولادهم القرآن:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها ... فكأنها وكأنهم أحلام

وهذا الفرع الباقي الآن من أهل تيلكات في قريتي تانكيست وقصبة الطين من أعقاب الشيخ سيدي عبد الرحمٰن بن علي.

إلى أكال ملولن:

بكرنا قبل منبثق الفجر في يوم الأحد الحادي والعشرين من شوال فصلينا الصبح بعد خروجنا من قرية تيلكات على ظهر نطفية غربي القرية ثم ودعنا هناك الفقيه الصالح العابد الناسك الزاهد القوام الليل الصوام النهار سيدي إبراهيم ابن الفقيه سيدي محمد بن يدير الساحلي الشهير، وقد كان معنا كل مقامنا في تيلكات وقد كان سبقنا إلى هناك وقد رأيت منه كيف نضرة وجوه العابد بين الخاشعين، وسترى ترجمته وترجمة أهله في المعسول لأنه من أصحاب الشيخ الوالد.

ثم إننا تسلقنا الطريق التي كنا انحدرنا منها يوم مجيئنا إلى تيلكات من أزاريف، فاستوينا على ظهر البسيط المسمى (تاسيلا أوزاريف) وقد اخترنا هذا الطريق مع وعورة مصعده ومنحدره إلى أزغار، لأنه مجانب لوادي الغاس الذي سال اليوم بكل ما يملأه إلى طفافيه، ولذلك لم يتيسر لنا أن نرى قرى تانكيست وقصبة الطين وتاغزوت ملقا فمررنا بمدرسة (تاسيلا أوزاريف) حيث كان علماء درسوا حينًا، ثم بقرية (ايغير نبازي) مسقط رأس الأديب أبي زيد المتوفى منذ خمسة عشر عامًا، وسترى ترجمته وآثاره في فرصة أخرى إن شاء الله ثم أقبلت مع رفيقي سيدي الطاهر بن العربي الأدوزي ومع دليل بين أيدينا نتجاذب أطراف الحديث حتى انحدرنا إلى البسيط قرب الضحى وقد تركنا عن اليمين قرية (تاغزوت ملقا) حيث مصانع الخزف الذي يشبه خزف مالقة المدينة الأندلسية الشهيرة بتينها وبخزفها. ولهذه الصنعة أضيفت القرية فإنها من زمن بعيد تصدر إلى أسواق هذه النواحي سهلًا وجبلًا مصنوعاتها من الطواجن والطباسل والسكرجات والقرية وخمة الموقع لكونها في محل منخفض في جوار وادي الغاس فلا يكاد الوباء يبتعد عن غير أهلها فلا يسلم منه من ينزل بها ممن لم يتعودوا مناخها وفي هذا الحين كان عملة كثيرون من ولتيتة يعملون للحكومة في غابة من أشجار أركان، ويقطعون الجذور ويحرقونها ليتخذ منها الفحم للغازوجين فيحكي الحاكون عن كثرة ما يصيبهم من وخامة المكان حتى استحر فيهم الموت الذريع، وقد ذكروا أنه مات من آيت بحمان البعقيليين

وحدهم اثنا عشر مع قلتهم، فكيف بغيرهم، ويقولون أن كل من يرجع من هناك يسقط مريضًا، فينجو من ينجو ويهلك من يهلك والحكومة قلما تعتني بهم:

وللمستعمرين وإن ألانوا قلوب كالحجارة لا ترق

ثم وصلنا في الضحاء العالي قرية (ميرة) فأبى علينا الفقير محمد بن مسعود الكريم إلا أن ننزل عليه ثانيًا، ثم بعد الإفطار خرج معنا إلى طيتنا نحو أكال ملولن فأراني محلًا إزاء الطريق دفن فيه شريف يسمى مولاي عمر من آل بودميعة قتل هناك في بعض الحروب ويسمى المكان (اسمن) فتذكرت أن الأمير سيدي إبراهيم بن محمد بن أحمد التازروالتي توفي بالكصيب أسفل (اسمن) عام 1018هـ ولعله قتل هنا فربما يكون قتل مولاي عمر هذا من أهله كان يوم قتله، وقد أراني أيضًا موضعًا آخر كانت سوق عظيمة تقام فيه، وقد مضت فيه عمارة كثيرة تشهد لها الأطلال الماثلة، وهذا البسيط فيه قرى منتثرة يسكنها الشرفاء المنتسبون لسيدي واسلام الشهير، والشرفاء الوسلاميون كثيرون، ويجد المطالع أسماء من عرفناهم من علمائهم في (المعسول) في (الفصل الثاني) كما يجد هناك سلسلة نسبهم الشريف، ومساكنهم في بعقيلة سهلًا وجبلًا، ثم رأينا عن يمين طريقنا قرية (تامكرت) حيث شعبة من آل سيدي عبد الله بن يعقوب، بعدما نزل فيها جدهم العلامة سيدي محمد بن محمد بن عبد الله بن يعقوب، وهذا هو الفحص الذي عاتبه بالانقطاع إليه والتردد إليه الأستاذ أحمد بن سليمان الرسموكي الفرضي في رسالة له مشهورة. ومن هذه القرية الفقيه الذي كنا تشرفنا بلقائه في أدوز سيدي أحمد بن الطاهر كما تقدم، وتحت يده كتب غير قليلة لم يتيسر لنا الآن رؤيتها، لأننا نخاف إن ألممنا به أن يتكلف، وقد كان أعارني في هذه السفرة نسخة من (أزهار الرياض) فحين تصفحته وجدت عليه خط العلامة ابن مسعود فعلمت أن النسخة عمدته في اختصار الكتاب في مؤلفه الشهير (ورود الحياض، والتظلل بظلال الغياض، في الاقتطاف من أزهار الرياض) وهو مختصر من الكتاب ولم نره، ولعله عمد إلى ما يتعلق بعياض فقط، فالتقطه من ذلك المؤلف الضخم الذي يشبه (نفح الطيب) في كثرة الاستطراد بأدنى مناسبة، وقد ضاع المختصر في بلاد تونس كما سمعناه، وقد اطلعت على قصيدة فوق هذه النسخة لابن مسعود يمدح بها العلامة ابن

العربي الأدوزي نصها:

سقيًا ورعيًا لمنزل كأن به ... أزهار روض سقاه القطر مدرار
تزهو وتبسم تحيي من محاسنها ... قلبًا عليه لكل الهم إصرار
أنهاره صافيات من سلاستها ... تذكر ودًا صفا ما فيه أكدار
وتذكر الحب دمع عاشق بعدت ... به وقد جرعته الصاب أقدار
والزهر يسقط والرياح تكتب في ... غديره ما له تخجل أسطار
والقطر ينقط والأغصان مائلة ... تعانقت كغوان هن أقمار
تحمل ورق حمام وهي قارئة ... بسجعها صحفًا حفته أنهار
تذكر الصب وهي صادحات ضحى ... مرابعًا هي للوصال أسرار
لكن تسلى بنادي ذي ندى حمدت ... له الهواطل آصال وأبكار
ذي فتية جمعوا لطيب خلقهم ... مكارما ما لها في النار أنكار
أعيان فضل وعلات لذي نسب ... وحسب أصلهم غر وأبرار
من فرع عبد الإله نجل يعقوب من ... دامت له بثناء الفضل أعطار
وذلك في منزل المولى الفقيه ابي ... عبد الله جواد الخير مختار
لا زال مقرونة بالنجح همته ... (فكل ما فعل المختار مختار)
ولا يزل رحله المحط للفضلا ... عليه روح تحية وأنوار

قد كنت حسبت أن القصيدة قالها ابن مسعود في ذلك العلامة ابن العربي ولكن اسم المختار غير ظاهر، وقد وجدت من علماء اليعقوبيين المختار ابن عبد الرحمن أخا العلامة البشير، فأتوهم أنه المقصود بالقصيدة وعلى القصيدة بيتان آخران لعلهما منها:

لله مجلس أنس راق منظره ... جليسه حسن أحمد مختار
بمنزل أرج طابت مسرته ... والشرب فيه كرام العرق أخيار

أما الكتاب فنادر الوجود، وقد طبع نحو ربعه في تونس قبل عشرين سنة

وكذلك طبع الجزء الأول منه أيضًا بمصر أخيرًا بمعاونة التطوانيين وطبع باقي الكتاب لا يزال في ذمة المولعين بآثارنا النفيسة وهذه النسخة ذكر فيها (الروضة الأولى) وسماها (روضة الورد في أولية هذا العالم الفرد) ثم الثانية (روضة الأقحوان في ذكر حاله في المنشأ والعنفوان) ثم الثالثة (روضة البهار، في ذكر ترجمة (كذا) من شيوخه الذين فضلهم أظهر من شمس النهار) وهناك ساق جواب الزمخشري للسلفي حين استجازه هذا فكانت في الجواب مقطعات في مدح الزمخشري ومن بينها قطعة لابن القرطبي يقول فيها:

لو جعلت اليم حبرًا والفلا — مهرقًا كانت معاليه أطم
أن من جراه لولا ـ المصطفى ـ — كنت فضلت على العرب العجم

فكتب الأستاذ ابن مسعود في الحاشية ما نصه:

لما وقف كاتبه على هذه الأبيات أدركته غيرة السنة النبوية والأعمال بالنية فقلت متطفلًا:

أيها المرء من المنكر ما — قلت عن شيخك في حال العجم
أترى صحب النبي العربي — وقرونًا فاضلات كالعدم؟
بل وأهل السنة الغراء من — كل طود علمه البحر التطم
للقرنبي الحسن في منطر من — ليس يدري الحسن إذ ضل الأمم
أن فيمن شرح الكشاف ما — يكشف الحيرة من خطب اللمم
أن يعد خصم من إلغي أتى — ناصر الدين بسيف فقصم

ثم الروضة الرابعة (روضة المنثور، في بعض ما له من المنظوم والمنثور) وعند ذكر القصيدة اللامية المشهورة لسيدي محمد البكري:

ما أرسل الرحمٰن أو يرسل — من رحمة تصعد أو تنزل
في ملكوت الله أو ملكه — من كل ما يختص أو يشمل
إلا وطه المصطفى عبده — نبيه مختاره المرسل

كتب الأستاذ ابن مسعود على قوله إلا وطه الخ هذه الواو زائدة لتأكيد صدق الصفة بالموصوف وهو هنا رحمة ذكره في الكشاف في حزب (ربما) عند

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤﴾ [الحجر: 4] فراجعه والمسألة تكلم عليها غير واحد ووقع فيها كلام طويل الذيل بين ابن مالك والزمخشري وقد ذكره الحافظ القسطلاني في شرح البخاري وأظن أن الشيخ ياسين في حواشي التصريح بسط الكلام أيضًا على ذلك فليراجع والله أعلم انتهى وهي فائدة تدل على كثرة استحضار الأستاذ رحمه الله من مختلف الكتب الطوال ثم كتب هناك أيضًا عند التكلم ضد ما انتقده منتقد على عياض من جواب إيجاب الشافعي وابن المواز الصلاة على النبي ﷺ في تشهد الصلاة فقيل هناك أن الإجماع منعقد من السلف الصالح قبل الشافعي وابن المواز على صحة ما قاله القاضي عياض واختاره يعني من عدم وجوب ذلك، فكتب الأستاذ على ذلك الإجماع.

(ينظر في هذا الإجماع أهو صحيح أم لا؟ ولو صح لم يعد قول الشافعي في المسألة قولًا ضعيفًا، بل لا يظن به مخالفة الإجماع وأنه غير عالم به فتأمل وحرر. والله تعالى أعلم انتهى).

وهذا الذي قاله الأستاذ ظاهر، وقال في مؤلف (الأعلام للقريب والنائي في بيان خطأ عمر الجزنائي) وقد ساقه كله المقري في هذه الروضة، لما ذكر في أثناء كلام المؤلف وقد ذكر قضية آدم عليه السلام فذكر أن الله قال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ۝١١٩﴾ [طه: 118-119] فلما نسي عليه السلام هذا الوعد لما سبق في سابق علمه مد يده إلى رغبته ومال إلى حظ نفسه وشهوته فلقي ما لقي من مفارقة الجنان والوقوع في الهموم والأحزان الخ فكتب الأستاذ في مقابلة هذا:

كلام هذا الرجل حسن يدل على مشاركته فالله تعالى ينفعه بجميل قصده حاشا ما ذكره في حق آدم عليه السلام فإنه إذا كان الفرق بين ما يجري على أيدي الأولياء مما يخالف الظواهر الشرعية وبين ما يجري على أيدي المحجوبين كما قاله العارفون بالله تعالى أهل الطريق، أن ما يجري على يد الولي يكون عن إذن خاص دون المحجوب فما بالك بمرتبة النبوة التي هي أعظم بكثير من الولاية، وراجع بسط هذا المعنى في محله والله تعالى أعلم نعم

في مواضع أخر من كلامه ما يحتاج إلى تحرير مثل ما استدل به من كلام القرافي على ما ادعاه في سفر من يخشى القواطع والموانع والهلاك إلى الحج، ومثل ما ذكره في امتناع وقوع المبالغة في كلام أهل المحبة والله تعالى أعلم انتهى.

أقول: ليس مقصودي من سوق هذه الحاشية أعلاني برضى ما تحتوي عليه بل أعلاني بأن الأستاذ ابن مسعود هكذا يصنع في كل كتاب طالعه في أي فن فيقبل وينتقد كما يكون الفحول وبهذا فاق مقامه كل أترابه رحمه الله، على أن في ذلك المؤلف من اعتساف ما لا يقبله إلا من عقله في غلاف من الجهالات، كما يقف عليه من طالعه أعني (الأعلام للقريب والنائي) المذكور في هذه الروضة.

ثم الروضة الخامسة (روضة النسرين، في تآليفه العديمة النظير والقرين) وقد ساق هناك عند ذكر «مشارق الأنوار» قول ابن الصلاح:

مشارق أنوار تبدت بسبتة ومن عجب كون المشارق في الغرب

ثم ساق من بين من أجابوه من المغاربة جواب بعضهم بهذا البيت:

فما فضل الأرجاء إلا رجالها وإلا فلا فضل لترب على ترب

فكتب على البيت الأستاذ قلت لله در هذا المجيب فلقد أحسن الأدب وأين هذا مما تقدم عن ابن رشيد يعني قوله:

ومرعى خصيب في جديب ربوعها ألا فأعجبوا للخصب في منزل جدب

وهذا نحو ما أجبت به متطفلًا لما وقفت على بيت ابن الصلاح وهو:

ولا عجب فالغرب للعلم مركز وللدين جاء في الحديث بلا ريب

والله تعالى يرزقنا الحظ الأوفر من العلم النافع انتهى.

أقول يشير الأستاذ في بيته إلى حديث (لا يزال طائفة من أهل الغرب) الخ على أحد معنيي الغرب من أن القصد به المغرب على ما ورد في رواية أخرى ذكرها بقي بن مخلد، وتروى في إحدى روايات بعض الصحاح اهـ.

وحين جرت حكاية القاضي أبي زيد عبد الرحمٰن بن علي الدكالي أنه

اختصم عنده رجلان في شاة ادعى أحدهما أنه أودعها الآخر وادعى أنها ضاعت منه فأوجب اليمين على المودع أنها ضاعت من غير تضييع فقال كيف أضيع؟ وقد شغلتني حراستها عن الصلاة حتى خرج وقتها؟ فحكم عليه بالغرم وقيل له في ذلك، فقال: تأولت قول عمر. ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع فكتب عليها الأستاذ مثل هذا لا يكتب إلا ليرد ولعلهم سكتوا عن التنبيه عليه لوضوحه، إذ معنى قول عمر أن إضاعة الصلاة علامة على الجرأة على إضاعة غيرها، والتأهل لها بحسب التطبع والتخلق، ولا يلزم من ذلك تحقق الإضاعة في الشيء المخصوص المدعى به، وقد أجمعت الأمة على أنه لو ادعى صالح على طالح فليس على الطالح إلا اليمين إن لم تكن بينة مع أن الغالب صدق الصالح. وهذا منصوص عليه للقرافي وغيره وهو من الشهرة بمكان كنار على علم انتهى.

وكتب على قول المقري الكبير أثناء ترجمته هناك: الأبلي يقول أن الخونجي ولي قضاء مصر بعد عز الدين بن عبد السلام الخ. فكتب عليه الأستاذ ذكر الجلال السيوطي في (حسن المحاضرة) ولاية الخونجي بعد عز الدين، واستعظم ذلك وأنه لعظيم ولا يزداد الزمان إلا شرًّا، والله يلطف بنا أجمعين اهـ، فتأمل استحضار الأستاذ ما هو غريب على أقرانه هناك.

ثم الروضة الثامنة (روضة النيلوفر، في ثناء الناس عليه وبعض مناقبه التي هي أذكى من المسك الاذفر) هكذا تخطت النسخة الروضة السادسة (روضة الآس في وفاته وما قابله به الدهر الذي ليس لجرحه من آس) والسابعة (روضة الشقيق في جمل من فوائده، ولمع من فرائده المنظومة نظم الدر والعقيق) وهاتان لم توجدا في داخل الكتاب، وإنما ذكرتا في برنامج الكتاب في الخطبة وكما كانت هذه النسخة إذ سقطت منها الروضتان السادسة والسابعة كذلك كانت النسخة التي رآها الباحثون من الكتاب في فاس وفي تونس وربما لم يؤلفهما المؤلف، أو ألفهما فسقطتا من الكتاب.

ثم إن هذه النسخة في مجلد ضخم طويل لا أكاد أحمله بيد واحدة وخطها الأصلي لا بأس به ولا يخلو من تصحيف، وفي أثناء بعض الأمكنة تتمات

بخط قبيح إلى الغاية يكتب بقلم غليظ بالصمغ كما يكتب المدررون ألواح الصبية المبتدئين في الكتاب وقال أنه يستتم من نسخة أخرى، ومع ذلك لا تزال هناك بقايا من البياض، ولم يؤرخ الفراغ من نسخ النسخة، ولكن يظهر أن ذلك من زمن غير بعيد، وما كان تفتيشي عن هذه النسخة إلا لأني آمل أن أجد فيها ما ينقص النسخ الأخرى، فإذا الكل من بابة واحدة.

ثم إننا نزلنا في (أكال ملولن) قبيل الزوال، فصادفنا الفقيه أبا العباس العوفي في انتظارنا، وهو جالس مع الرئيس هناك، فحللنا بعيون قارة. وصدور منشرحة، وقد ترحمنا على الفقيه أبي زيد والد رب مثوانا اليوم وقد درج منذ شهور رحمه الله.

مررنا قبل أن نصل القرية بالمكان الذي كانت سوق الاثنين تقام فيه ثم زالت إقامتها الآن، وذكروا أن إقامتها كانت على يد الرجل الصالح سيدي إبراهيم الأزاريفي الذي لا يزال ابنه محمد حيًّا إلى الآن، وإزاءها نطفية منسوبة إلى الأستاذ ابن العربي الأدوزي ذكروا أنه وقف عليها حتى تمت، وقد كانت هذه السوق من الأسواق الكبرى، ثم لما سقطت الآن قامت سوق الجمعة في وجان مقامها، ولكل أجل كتاب.

فتشت هناك على نادرة في الكتب المخطوطة، فلم أقع إلا على شرح سيدي عبد الله بن يعقوب على جامع بهرام وهو نسخة جيدة رائقة الخط ذهب مفتتحها في 312 صفحة في 22 سطرًا، في قالب وسط وهي حديثة العهد نساخة يظهر أنها نسخت نحو 1282هـ وإلا على مؤلف في حكم اللحن في الحديث لمحمد بن محمد بن سعيد العباسي سماه (نفيس الدر والياقوت) وهو صغير ينكر ذلك على عكس ما ذهب إليه الافراني المراكشي سيدي الصغير في مؤلفه في الموضوع وهما متعاصران، ولا أحسب العباسي إلا بصدد رد ما ذهب إليه اليفرني، لأنه ذكر أن من أنكر عليهم اللحن استفتوا من سوس ومن غيره من يجيز لهم ذلك، إلا على مؤلف الشيخ إذ قال فيما يتعلق بالشيخ سيدي أحمد ابن موسى، وهو أفضل كتاب كتب بلسان التثبت حول ذلك الشيخ، ويقل فيه ما ينكر، ويظهر ترجمة الشيخ كما هي في الجملة وهو صغير، وهذا

المؤلف توجد نسخ منه (وقد أدرجناه في ترجمة الشيخ في المعسول في الفصل الثاني) وإلا على مؤلف صغير لابن مسعود في السماع والوجد، كما أنني وقفت هناك على بعض نبذ أخذها العلامة أبو زيد العوفي رحمه الله من الاستقصاء وعلى مجموعة فتاواه، فإنه هو الوحيد الذي يبقي تحت يده نسخة من كل ما حرره في الفتاوي، فطوق ذلك الصنع الجميل من بين معاصريه السوسيين (وقد جمعها ولده سيدي أحمد في مجلد) كما وقفت له أيضًا على مقيدات شتى من كل ما سقط إليه من أنساب وآثار السوسيين، ولله دره من حريص على مثل ذلك أسوة بشيخه ابن مسعود اللقطة لكل فائدة الحارص غاية الحرص على تقييد كل شاردة، فمما وجدته هناك:

توفي علي بن إبراهيم بن أحمد الحماضي التاشواريتي الفقيه الورع السبت 18 جمادى الثانية 1214هـ يوم توفي الفقيه أحمد بن محمد بن المبارك المحجوبي وهناك سؤال من الفقيه أحمد بن يبورك موجه إلى الشرحبيلي وهناك الفقيه الحسن بن يبورك من تيزي (نتاراقاتين) وأن صالحًا الوديمي من تلاميذ سيدي إبراهيم الظريفي الصوابي وهناك رسائل كثيرة للشيخ أبي العباس الصوابي، ومنها أن الفقيه محمدًا إجمي السوسي ثم المراكشي أصل أهله الأصيل من تنبكتو وأنهم من بني عقيل ابن أبي طالب وإن سكنوا في تيبيوت في ضواحي (تارودانت) ومنها أن مزال بن هارون بن عبد الله بن أحمد بن محمد ابن يوسف بن عبد الله بن جندوز الشهير النسب في سملالة، أقول هكذا قال وقد وقفت له على سلسلة نسب أخرى امتدت إلى وكاك، والله أعلم.

وقد توفي كما في محل آخر عام 588هـ وأبوه هارون مشهور المدفن في قبيلة ماسكينة. ومنها أنه ساق في نسب سملالة الخلاف المشهور في جعفر، هل هو ابن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، ولكن يعكر عدم معرفة جعفر من أولاد عبد الله الكامل، أو هو ابن عبد الله بن الحسين بن الحسين السبط، كما يوجد في بعض سلسلات من مشجرات أنساب صاحب دليل الخيرات، فيكبر عبد الله مع تصغير الحسين، وذكره مرتين - فإما أن يكون تصغير الحسين صوابًا، ويكون تكبير عبد الله تحريفًا ويسقط علي زين العابدين بين الحسين والحسين، فيكون نسبه هكذا؛ جعفر بن عبيد الله بن حسين بن علي زين

العابدين ابن الحسين السبط، فيكون جعفر هو الحجة لأن الحسين السبط لا أولاد له إلا من ابنه علي زين العابدين وإما أن يكون عبد المكبر هو الصحيح وتصغير الحسين مرتين هو التحريف فإنه يأتي ـ إذن ـ عبد الله الكامل، فيرد على ذلك ما تقدم ولكن احتمال كون السملاليين حسنيين بعيد، ويحتمل أيضًا أن يقال إنه جعفر بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، وكلمة عبد الله زيدت بين جعفر وبين الحسن المثنى غلطًا إن كان للحسن المثنى ولد يسمى جعفرًا، ويحتمل أن جعفرًا أصله أبو جعفر كنية إبراهيم بن عبد الله الكامل، وهو قتيل البصرة أيام ثورته المشهورة هناك على أبي جعفر المنصور العباسي، وقد نقلوا عن العشماوي تصحيح هذا وإليه يذهب الشيخ مسعود المعدري فيكون النسب هكذا أبو جعفر ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب.

وذكر أيضًا أنه يحتمل أن يكون من أولاد سليمان بن عبد الله الكامل الذي كان يقطن الجزائر، وأعقب هناك ثم دخل أولاده المغرب، فلعل له ولدًا يسمى جعفرًا، فسقط سليمان بين جعفر وعبد الله الكامل.

أقول، هذه هي الاحتمالات المذكورة حول هذا النسب هنا عند الفقيه العوفي ملخصة من كلام ساقه عن بعضهم.

وبقي ما أيده ظهير للسلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي من أن جعفرًا يمتد نسبه إلى أن يصل الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، فتمت بهذا كل الأقوال المذكورة حول هذا النسب للسملاليين، ذكرناه للفائدة(1).

ومنها أن السبعة الرجال الأكابر، هم المولى عبد القادر الجيلاني وأبو العباس السبتي وأبو محمد صالح الأسفي وسيدي محمد بن عمرو الاسريري، وسيدي مزال بن هارون وسيد الحاج يعزى وسيدي بلقاسم الفيلالي بإيسي، ثم ذكر لهم خاصية نقلوها عن عبد الرحمٰن الثعالبي، والمقصود ان للسوسيين

---

(1) عهدي بصاحب (ابتهاج القلوب في ذكر أبي المحاسن وشيخه المجدوب) ذكر بعض هذه الاختلافات.

حظهم الأكبر بين هؤلاء الرجال السبعة يرونهم كالجيلاني والسبتي:

إذا مـا أهـان امـرئ نـفـسـه فـلا أكـرم الله مـن يـكـرمـه

ومنها فتاوٍ ينقلها عن الفقيه محمد بن عبد الكريم الذيبي البعقيلي عن الأستاذ العربي الأدوزي، فعلمنا أن الذيبي هذا متأخر، ولم نجد إلى الآن من نأخذ عنه ترجمته.

ومنها ما أخذه الأستاذ ابن مسعود من ترجمة حاتم بن عثمان المعافري، عن مالك في المدارك فنظمه:

إن حـيـاة الـثـوب فـي طـيـه وعـيـبـه قـصـر أكـمـامـه

إلى غير هذه من فوائد جليلة أخرناها لمواقعها في (المعسول) إن شاء الله.

بشرى:

بينما نحن جالسون في دار أبي العباس العوفي الكريم ومعنا رئيس البلد إذا برسالة من عند الفقيه سيدي علي بن الطاهر الرسموكي ينبئ فيها بورود الأستاذ أبي سالم سيدي إبراهيم ابن العم وإنه عنده ينظر أين أكون اليوم؟ فكتبت إليه بيد وحية لا تكاد تقيم الحروف فرحًا، الوحي الوحي، فكلنا إليك انتظار وعيون شاخصة فإن استطعت أن تطير فطر، فأرسلنا بغلة لتروح به، لكن لم يتيسر مجيئه إلا في الغد فالتقينا لقيًا لا يوصف كنه حلاوتها في الصدور، وقد اجتمعت أشواق السنوات الست فألحفتنا بأجنحتها البيضاء فلم نكد نستدير بالتحية التي يعتاد الناس اللقيا بها حتى وجمنا فلم ندر من شدة التأثر ما نقول ولا من أي جهة نفتح أضغاث الأخبار المتراكمة في الأفئدة منذ أن ضرب بيننا الزمان ضربته المفرقة، ولكن سرعان ما خرجنا من بين الناس فولينا أوجهنا إلى جهة قبة صالح هناك يسمى سيدي محمد بن علي الاغرابويي من أصحاب الشيخ ابن ناصر وقد قدمه على فقراء ولتيتة كما في رسالة رأيناها وسيذكر بين أهله في (الفصل الأول) من (المعسول) إن شاء الله مع تلك الرسالة فهناك حللنا الأوكئة فصرنا نسبح في أنباء وأنباء سلسلة متصلة لم يقطعها إلا أداء صلاة الظهر ثم دواليك إلى العصر أو ما بعده فعرفت حينئذ كل ما هناك مما لم يكن يحكيه لي كما أريده عنه إلا هذا الأستاذ الذي هو شقيق الروح وقد كان

طلع إلى إلغ، فدخله إثر خروجي منه فرجع إلي يقول:

مـا زرت إلا بـلـقـعًـا وقـفـارًا — إن زرت إلـغ ولـم تـر الـمـخـتـارا

وقد ذكر أن شيخنا العلامة أبا محمد سيدي عبد الله ابن سيدي محمد مؤسس المدرسة الإلغية استدعاه إذ ذاك بقطعة مطلعها:

أبـا سـالـم لـقـد أنـسـنـا بـكـم جـدًّا — ونلنا بفضل الله من وصلكم جدًّا

وتوجد كلها في ترجمته في (المعسول).

كذلك أمضينا أيضًا العشية بسؤالات مني متواليات، وأجوبة من فيه مستحليات، حتى أظل المغرب، فلبينا مع الفقيه أبي العباس رب المثوى دعوة الكريم الرئيس من قرية (إبلاغن) فأمضينا خير ليلة في ذلك المكان الذي كان ممرًا دائمًا للشيخ الوالد، ومسقرًا ثابتًا للجد ابن العربي الأدوزي، وقد كان للرئيس أخ حضر معنا في المساء وفي الصباح فرأينا من الجميع ما نحمده بشرًا وترحيبًا وكرمًا خصيبًا، ودينًا متينًا وقد استفدت عن الأسرة أنهم شرفاء واسلاميون، وأنهم ما اشتروا أراضيهم هذه التي يقطنون فيها الآن إلا من يد عبد الله بن عمر ابن الأمير علي بودميعة، وهو الذي باع كل أراضيهم في ذلك البسيط وفي تزنيت وفي المعدر، وقد رأيت بعض الرسوم الدالة على ذلك، ولعبد الله هذا ذكر كبير بين أولاد بودميعة، وهو الذي بنى المسجد الكبير الموجود اليوم في إيليغ وذكروا لنا أن مساكن الإيبلاغيين كانت قبل في أواسط جبال البعقيليين، وقد ذكروا حصنًا كان لهم من قديم أحسبهم الآن ذكروه إزاء (أدوز) وقد أصابت أسلافهم كوارث جلوا بها عن مساكنهم وتشتت بها متاعهم مرات وللإيبلاغيين يد طولى مع الجيوش التي كان يقودها القائد عبد الملك الحاحي وأغناج يوم زحفا إلى جزولة في العهد السليماني ثم كانوا أيضًا مع المولى الحسن منذ عام 1299هـ فلم تزل فيهم الرئاسة الرسمية إلى الآن وقد عيد هذا الرئيس الحالي مع السلطان هذا العيد عيد رمضان هذا العام، وقد كانت القيادة في أيديهم قبل اليوم، ويرجون الآن أن ينالوها أيضًا وقد كانوا ضد إيليغ حين لم يكن الجو صافيًا بين إيليغ وبين العرش المغربي كما كان كل البعقيليين ضد إيليغ لكونهم من شيعة تاحكات وإيليغ قطب شيعة تاكوزولت

والناس إذ ذاك من عزيز ومن غلب سلب.

ثم أن للإيبلاغيين أسلافًا رؤساء، نعرف منهم من أول القرن الثاني عشر ولعلهم كانوا من الحادي عشر زمن بودميعة، ولا بد أن ينتظر القارئ أخبار هذه الأسرة إلى أن نستوعب ما أمكن لنا في المعسول لأنهم على شرطنا إن شاء الله إن وجدنا من يفصل لنا أخبارهم.

ومسكن هؤلاء الرؤساء الآن قرية أساكا المشهورة، وهي في جوار قرية أكال ملولن، وهما معًا تطلان على شعبة منخفضة قليلًا واسعة للحقول والأشجار فكان السقي ممتدًا تحت القريتين بخضرته الزاهية والمكان يبتهج فيه الخاطر وهناك في أساكا مسجد واسع حسن، كانت الجمعة قديمًا تقام فيه ثم تركت وطالما راودهم أمثال شيخنا سيدي أحمد ابن مسعود لمعاودتها، فلا يتيسر لهم ذلك لسوق الجمعة التي يكونون فيها (لعل له عذرًا وأنت تلوم) وقد راودهم على ذلك أيضًا أحمد الصوابي في القرن الثاني عشر، فلم يبلوا.

وفي قرية أكال ملولن مضت أسرة علمية في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل ما بعده، ويسمى أهلها البحريين، وقد رأيت في فتوى للعلامة أبي فارس الأدوزي ـ يقوى فيها حكمًا للفقيه أبي زيد العوفي على حكم للعلامة المحفوظ الأدوزي ـ ما نصه:

فمن لم يعرف أن من البحريين وأهل الدقيق[1] علماء معتبرين قبل الوباء (1214هـ) وبعده بقليل، وليرد باله للعقود، لا سيما عقود أهل الفحص يجد خطوطهم كنار على علم الخ.

وكذلك وقفت على أبيات نسبها الفقيه سيدي عبد العزيز الاغرابويي المتوفى نحو 1255هـ إلى فقيه منهم يسمى إبراهيم بن محمد بن محمد يخاطب بها بعض معاصريه ممن جاذبوه الحبال تمحلًا في نازلة، وهي:

هداك إله الناس يا سيدي فما   كذا ينبغي من كل من كان ذا فهم

(1) أهل الدقيق ـ ادبوكرن ـ أسرة أخرى علمية لا يزال بعض آثار من كتبها الأعلاق عند أخلافهم الجهال، وهم في هذه القرية أيضًا.

أتترك يرعاك الإله الصراط مستـــــــويا وتمشي في جبال من الظلم؟

فقد نص شراح الرسالة كلهم على أن من يرمي كرميك لا يصمى

ألست تخاف الله يا خير صاحب أباذله نصحًا كما كان من أمي؟

تثبت وقل قد تبت إن شئت عفو من يحاسب يوم الحشر من زاغ في القوم

وبعدها ما نصه: قالها الفقيه سيدي إبراهيم بن محمد فتحا بن محمد البحري رضي الله عنه يخاطب بها بعض المعاصرين الذين خبطوا خبط عشواء في نازلة الوجانيين المعروفة، انتهى ما وجدته.

كما أنني وقفت أيضًا في فتوى أخرى للجد ابن العربي يقول ثناءها، وقد أخبرني الشيخ الوالد سيدي العربي أن الفقيه المحقق سيدي محمد البحري يحكم في مثل هذه النازلة المتشعبة بإحراق الرسوم، والرجوع إلى أصل ما اتفق عليه الفريقان المتساويان قعددًا، ثم يجري المواريث على وجهها، وذلك ليس بعجيب عند كل من يمارس مشاغبات ذوي الأرحام، ورحم الله سيدي محمد البحري فما أذكاه وأجزله في بت النزاع الذي ليست له ثمرة، وقد أخبرني سيدي أحمد بن محمد البعمراني أن هذا اكتسبه من أشياخه في الغرب لأنه أبطأ هناك انتهى المقصود من الفتوى.

وقد وقفت أيضًا على ما يدل أن محمد بن محمد بن محمد البحري كان عالمًا كبيرًا من أواسط القرن الثاني عشر، وقد قال إثر رسالة نقلها لإبراهيم بن محمد بن عبد الله بن يعقوب كتبها عارفه وعارف خطه محمد بن محمد بن محمد البحري لطف الله به، ونقل من خطه أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الرحمٰن أمزوغار، فإن كان البحري يعرف سيدي إبراهيم بن محمد بن عبد الله ابن يعقوب المتوفى عام 1160هـ فهو حينئذٍ كبير، ولا ندري متى وفاته وهذا كل ما وقفت عليه حول هذه الأسرة البحري العالمة، وقد سمعت عنها أنها شريفة النسب، وأن لهم أيضًا منازل بجانب (أدوز) والأسرة من الأسر العلمية السوسية.

وأما أهل الدقيق فلم أعرفهم الآن، وقد كنت أرجو لحوق سيدي إبراهيم العوفي أخي الفقيه لعلني أكتسب منه بعض ما فاتني عن الفقيه إذا بالحمام قد

حال أيضًا بيني وبينه، فقد وجدناه توفي قبل مجيئنا بأسابيع قليلة، وللتأخير دائمًا آفات.

وجان:

سرنا صوب (وجان) أنا وابن العم والفقيه أبو العباس العوفي، فقطعنا بسيطًا بأحاديث متسلسلة يتولى غالبها ابن العم وقد يجول في بالي ما كان مضى في ذلك البسيط من حوادث تاريخية، لأن (وجان) مفتاح جزولة من قديم، ولوجان في نشأة أدباء وفقهاء وقضاة وفي أثر الحوادث الحربية تاريخ طويل الذيل، ولو كان هذا التاريخ كله منسقًا ومجموعًا في ساعة واحدة لاستوقف الأبصار وبهر الأفكار ولكن جل ذلك ضائع، وما لم يضع فإنه مبعثر أثناء الكتب هنا وهناك.

وصلنا أمام المقبرة التي فيها قبة تنسب لسيدي أبي إبراهيم جد الدغوغيين فنزلنا فزرناه مترحمين على روحه في أي محل كان مقبورًا فيه جسده فإن المؤرخين يرون أنه مدفون في مكان معروف بآيت جرار، وذلك هو الصحيح والعامة في وجان يرون غير ذلك، وأما المقبرة متسوق سوق الجمعة الحديث ثم ركبنا فقلت هذه هي (تانوت) بوجان فليت شعري أين ذهبت آثار علمائها الدغوغيين؟ وأين مؤلفاتهم التي يظهر من كلام البعقيلي في (كراسته) إنها موجودة تزخر بها الخزائن؟ أم إنما هناك كتب ملكوها فتمزقت، وكيفما فهمت عبارته فأين أثر من تلك الآثار؟

حططنا رحالنا في دار الرئيس محمد بن المحفوظ رئيس فرقة من الوجانيين وعلى الآخرين إنسان من آل القائد موسى من آل باكاس من شرفاء آل عمرو أخوة آيت محمد شرفاء تزنيت وهم الذين تأثلت فيهم القيادة والرئاسة الرسمية في (وجان)، وإنما زاحمهم المحفوظ العصامي أخيرًا وكان مغوارًا مخاطرًا، فلم يزل كذلك في أيام المغالبة قبل الاحتلال ثم تعين رئيسًا رسميًا بعده إلى أن كانت الحادثة الواغزانية المشؤومة فألحت الحكومة في التفتيش عن كل من تبقى عنده أي سلاح، فكان أحد من جرفهم ذلك السيل العرم، فسجن في جهة تارودانت إلى أن مات في تلك المدينة في يوم الجمعة 26 شعبان عام 1357هـ

وولادته نحو عام 1293هـ ولم يكن معمرًا، وإنما كان رجلًا يركب العظائم لأنه خلق للعظائم فكان من أعجب أقرانه العصاميين في العزائم ثم ولى ابنه محمد رسميًا مقامه، فكان يذكر وتتحدث به الألسن وولادته نحو عام 1326هـ فهو اليوم شاب ملأ مركزه بكل ما ينبغي لأمثاله وقد تلقانا أحسن متلقى في روضة الزاهر، فأفاض ما أفاض في الضيافة واعتنى غاية الاعتناء بما نحن في صدده من جمع الآثار وهو محمد بن المحفوظ بن أحمد بن بلعيد بن علي بن أحمد ابن يحيى، ويقولون أن الصالح المسمى سيدي الغياث المضاف إليه شعب سيدي الغياث الشهير في أسفل بعقيلة جدهم الأعلى هم والزعنونيون من رسموكة، ولا يزالون يتنابونه إلى الآن بالحفلات السنوية المعتادة إقامتها على الأضرحة المعتقدة ويقولون إن سيدي الغياث في أوائل القرن العاشر وقد كان هو وسيدي أبو القناديل دفين فونتي من الذين يحاربون أولًا في تخوم الجبال أولاد جرار المستولين إذ ذاك على بسائط كل أزاغار للجراريين يدًا مع البرتغاليين الذين استقروا إذ ذاك في فونتي يتاجرونهم ويمدون إليهم اليد، فيقول الجزوليين ضدهم وقد انحاز إليهم الدغوغيون من وجان وقد جلوا عنه، فيسكنه الجراريون فلم يزالوا على ذلك إلى أن بايعوا الأول من السعديين فصمدوا إليهم فأجلوهم عن البسائط كما أجلوا البرتغال عن فونتي وإذ ذاك فقط انبسطت أيدي الجزوليين في ازغار.

حكى لي كل هذا العدل سيدي الحسين بن الحسن بن محمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن محمد بن محمد بن عبد الله بن سعيد الرسموكي ثم الوجاني، وقد لاقيته هناك وهو ممن له ولوع بالأخبار وزد على ذلك أن وجان نفسه كان للجراريين إذ ذاك، وقال عن سيدي أبي القناديل أنه من الدغوغيين وقد يسمى في الظهائر بأبي الضياء ولا يزال أولاده آل تانوت بوجان إلى الآن، وتحت أيديهم من ظهائر السعديين فمن بعدهم نحو 30 ظهيرًا تدل على كل هذا وهم المعتاد أن يتولوا ضريح جدهم في (فونتي).

ثم قال إن حرطانيا يسمى الغازي كان أيضًا مجاهدًا وبيد أولاده إلى الآن تحرير واحترام من السعديين، كما بأيديهم حقل يتداولونه إلى الآن وفي رسم عندهم ذلك الاحترام.

أقول كنت سمعت من بعض آل سالم التيمكيدشتيين الركركيين يزعم أن أبا القناديل من جدودهم ولكن ظهر الآن غير ما زعم وإنه دغوغي لاركراكي ثم إن ما ذكره المذكور عن الجراريين قريب جدًا لأننا نعلم أن المرينيين كانوا أطلقوا لهم الأيدي في بسائط سوس، ولذلك تكشف أول القرن العاشر عن استيلائهم التام على كل البسائط، ثم لم يزل أمرهم يتناقص حتى جاءت جزولة بالسعديين أولًا ثم بدولة (إيليغ) ثانيًا فانتزعت منهم كل الأراضي وبذلك يفسر كون بودميعة مالكًا لغالب تلك البسائط لأنهم كانوا مع يحيى الحاحي ضده أولًا ثم لما تمكن زحزحهم حتى انكمشوا في المكان الذي استقروا فيه الآن وبذلك أيضًا تفسر العداوة المتأصلة بين (إيليغ) والجراريين وقد استمرت إلى وقت الاحتلال ثم فترت، ولعل آثارها لا تزال كامنة أثناء الصدور.

وقد ذكر الحاكي المذكور أن جده سعيدًا الرسموكي الزعنوني كان عالمًا من أهل الحادي عشر، كما ذكر الحاكي عن نفسه أنه أخذ ما عنده من المعارف عن سيدي أحمد بن علي الإيبلاغني، ثم عن سيدي محمد بن القائد الحاحي، ثم عن الفقيه سيدي محمد بن عمرو ثم عن الفقيه محمد بن العربي الأدوزي.

ومما أخبرنا به أيضًا أن عبد الكريم بن عبد الباقي بن أحمد بن موسى من آل بودميعة، كان جلا عن تارودانت، حين أجلاه عنها يحيى أولًا، فنزل في وجان فبنى هناك قصبة سماها تارودانت ولا يزال محلها معروفًا بهذا الاسم كما حفر عينًا لا تزال إلى الآن معروفة به كما حدث أيضًا أن هناك موضع حديقة تنسب للأمير العلوي أحمد ابن محرز كان ينتابها حين كان مبايعًا في جزولة ضد عمه السلطان مولاي إسماعيل، ولا تزال الحديقة معروفة إلى الآن بتلك الإضافة.

ومما ذكره أيضًا أن الرؤساء في وجان كانوا من آل أبي بكر إخوان آل عمرو، ثم منهم إلى آل عمرو الباكاسيين هكذا حفظه الله أفادنا كثيرًا إفادات نشكره عليها شكرًا جمًّا، وله باع حسن في المعلومات العامة، وسمت يدل على طهارة سريرة.

تلقانا الأديب المحفوظ الحافظ المحاضر، وقد كان دائمًا تحت كنف الشيخ محمد بن المحفوظ يريشه ويذود عنه كل ما يؤذيه وقد أسكنه في دار له،

فلم ننشب أن رجعنا معه إلى الأدبيات، فكان مما أنشد:

وما مات امرء ترك المزايا وخلف بعده ولدًا نبيلا

وأنشد أيضًا:

أعاذلتي على أتعاب نفسي ورعيي في الدجى روض السهاد
إذا شام الفتى برق المعالي فأهون فائت طيب الرقاد

وأنشد أيضًا:

وكانت في دمشق لنا ليال سرقناهن من ريب الزمان
جعلناهن تاريخ الليالي وعنوان المسرة والتهاني

وأنشد أيضًا لابن الخطيب:

امدد يد البر والرحمى لذي كبر دنت خطاه لدهر قد تخطاه
واذكر يتيمًا ومسكينًا وأرملة فمن تذكرته فالدهر ينساه

ومنها:

ول الرسائل ذا عقل ومعرفة للكتب إن كنت للأسرار ترضاه
لا يعرف الشوق إلا من يكابده جرى به مثل كنا سمعناه

وأنشد أيضًا لعمر بن أبي ربيعة:

تقول وليدتي لما رأتني طربت وكنت قد أقصرت حينا
أراك اليوم قد أحدثت شوقًا وهاج لك الهوى الداء الدفينا
وكنت زعمت أنك ذو عزاء إذا ما شئت فارقت القرينا
بعيشك هل أتاك لها رسول فشاقك أم لقيت لها خدينا
فقلت شكا إلي أخ محب كبعض زماننا إذ تعلمينا
فقص علي ما يلقى بهند فوافق بعض ما كنا لقينا
وذو الشوق القديم وإن تعزى مشوق حين يلقى العاشقينا

وأنشد أيضًا:

مضت الدهور وما أتين بمثله ولقد أتى فعجزن عن نظرائه

وأنشد أيضًا :

بلغ السيادة في ابتداء شبابه | أن الشباب مطية للسؤدد

وأنشد أيضًا :

يا ضاربين على الأوتار عاودني | بما سمعت شباب كان قد ذهبا
لولا الوقار ولولا أنني رجل | بدا البياض برأسي صحت وأطربا

ثم ناولني هذين البيتين :

يا مرحبًا بالعالم المختار | شمس الهدى وسلالة الأخيار
بك مرحبًا أهلًا وسهلًا مرحبا | يا صفوة العلماء والأبرار

فكتبت له في الحين من شق القلم :

رحبت والترحيب خلق سار | للأكرمين جدودك الأبرار
ما أن يعبر عن خصال أخي ندي | جم سوى ترحيبه المعطار

وخاطبه ابن العم سيدي إبراهيم بقطعة مطلعها :

كن كما شئت فالزمان هناء | ولك السعد خادم والقضاء

وهي توجد في ترجمته في (المعسول) إن شاء الله.

وقد قلت لابن العم شعرت بعدي؟ فقال: لكنك أنت نزلت درجات عما كنت فيما نعهدك عليه، فقلت إنني قلما يواتيني الجيد إلا إذا توسطت بيئة سامية، فقال أين ما تقول الآن وأنت أنت مستيقظ مما كنت أنشدتنيه صبيحة ليلة: ذكرت أنك قلت فيها نائمًا :

ما إلغ إلغ ولا المختار مختار | أن يسكتا عن أمور كلها عار

فقلت، قد والله نسيت البيت، وكأنني ما قلته ولا خطر لي ببال، فلا تعجب ـ إذن ـ من المحدثين الذين يذكرون من غرائب الأسانيد، حدثني فلان عن نفسي، إن كان حدث بحديث ثم نسيه، ثم أخذه عن صاحبه عن نفسه، وهذا من عجائب النسيان، والأعجب منه أنني قلت البيت في وقت نسيت فيه إلغ وما إليها، فسبحان الله :

ماشيت عشية اليوم الأديب المحفوظ بين بساتين وجان فقلت له لاستثير

مشاعره التي لا يستثيرها إلا الأدب:

هذي بساتين وجان الأنيقات … لا بل رياض أريضات وريفات
فإن تكن جنة في الشام واحدة … فإن ما كان في وجان جنات

ثم تذكر قصيدة (أبزو) التي يحفظها كلها فيسرد منها، ولا بأس أن نسوقها هنا ونحن متأثرون بأناقة الخمائل وخضرة الحقول وتمايل الأشجار الباسقة وخرير المياه المتدفقة، وتغريد الأطيار بسجع رنان، على كل املود ريان.

والقصيدة كنت قلتها في صفر عام 1354هـ وقد زرت (أبزو) نازلًا عند الكرماء؛ القاضي أبي العباس ابن منصور وصنوه أبي زيد فملكت تلك الطبيعة الخلابة مشاعري، فقلت:

أهذي جنان الخلد أم هذه أبزو … مني كل نفس لو يدوم بها الفوز
تجيء إلى تلك الجبال إذا بها … زياتين والرمان والخوخ والموز
تطل على الوادي على حين بغتة … فيبدهك الحسن البديع فتهتز
تميل يمينًا ثم تلحظ يسرة … فتنظر ما ينضو الوقار ويبتز
مناظر تستهوي الفوائد كعاشق … يغازل فاستهواه من حاجب غمز
تحيط بها تلك الجبال كأنها … لما استودعته من خمائلها حرز
يلوح لك النهر المديد كأنه … صقيل على الدرع المسرد مهتز
تجول بطرف العين في جنباته … فتحسبها الديباج خالطه خز
تخالفت الألوان فيها كأنما … تفتح للعقيان والفضة الكنز
فيونق نور الجلنار مفتحًا … ويرفل في مبيض أزهاره اللوز
كما نشر البزاز ثوبًا ملونًا … فلو له نسج ولون له طرز
ويبهرك النارنج في خطرانه … كأن قد عراه من مباهجه هز
كما تتثنى أول الرقص غادة … برفق فلا ريث لديها ولا نقز
كأن طويلات الزياتين ما ارتضت … بأن يتعالى فوقها النخل والبنز[1]

(1) شجر يطول كالنخل يوجد في الحواضر وما إليها.

يغص بها الوادي كأن قد تدافعت بمرسى بريطانيا الأساطيل كي تغزو[1]
وفي كل غصن صادح ملأ الفضا صياحًا فلا همس لديه ولا ركز
كأن قد رأى طيب الزمان فصاح أن تأتي لفرصات السرور لكم نهز
كأن قد رأى أن قد حوى السعد وحده فأصبح يزهو في الرياض ويعتز
يطير ويهوى كيفما شاء أنسه فينقر تارات وآونة ينزو
ويقفز من هذا إلى ذاك غبطة ومن يغد حر العيش طاب له القفز
كأن قد رأى كل الثمار أمامه لذيذًا[2] فلا حمض هناك ولا مز
فيا ليت أني طائر أغتدي كما أشاء فلا باب علي ولا حرز
فألزم أبزو لا أزايل روضها إلى أن يرى للروح للبرزخ الأرز[3]

* * *

هنيئًا لكم يا أهل (أبزو) فهكذا يفوز ذوو السعدي ويستكمل الفوز
ظفرتم ببنت الشام طيبًا ونضرة وآية ذا إن كان عندكم الأرز[4]
ظلال ظليلات وماء وخضرة فللّه ما أحرزتم ساكني (أبزو)
وجو طليق مستطاب نسيمه أمنه استمد اللطف نسجكم البز
معاشكم الروض الأريض وغيركم مدى سوله في كوخه الحيس والخبز
فيا ليت لي من منطق ابن خفاجة فيغدو بالوصف المشخص لي فوز
فآتي بالسحر الحلال بوصف ما لكم وحدكم من بين من ضمه الحوز
ليعلم كل الناس أن بلادكم إذا لم تك الفردوس فهي لها رمز

وقد قلت للأديب المحفوظ المولع بهذه القصيدة، ولوعًا هو دون ما تستحق

---

(1) شبهت الأشجار الطويلة بصواري البوارج والبواخر.
(2) فعيل بمعنى فاعل: يأتي أيضًا للجمع وللمؤنث (أن الكرام قليل) (وهي رميم) (والملائكة بعد ذلك ظهير).
(3) الأرز: الرجوع أرز إلى داره؛ رجع.
(4) الأرز: شجر اشتهرت جبال لبنان من الشام بكثرته فيها.

أن هناك قصيدة أخرى أبزيوية كنت قلتها يوم زرتها في أيامي الأخيرة قبل مبارحتي للحمراء ولم أنشده إلا مطلعها وها هي الآن كلها لتكون إزاء أختها :

خمائل أبزو لا خمائل جلق وأجوادها لا آل كل محلق
لها ولأهليها شفوف يعز عن بني بردى أهل الرحيق المصفق[1]
فأين وهاد الغور من كنف السما وأين نسوع النعل من تاج مفرق؟
وأين ندى أبناء جفنة من ندى خضم بني منصورها المتدفق
وأين البريص الفرد من ألف جنة تتيه بها أبزو اختيال مقرطق[2]
بها يجتلى وجه الطبيعة في سنى تحاربه أبصار كل محدق
إليها ومنها كل ما تشتهيه من أفانين حسن من ربيع مرونق
ومن متعات بالحقول تأرجت حدائقها عن كل زهر مفتق
تميس بألفاف الغصون مروجها كما لعبت بالخود كأس مروق[3]
فتظهر للعينين سحرًا مجسمًا فأيان يرن الطرف يبهر بمونق
نصوع أزاهير ترف وخضرة من أشجارها في جوها المتألق
كما تظهر المرأة حسناء أرسلت سوالفها عن خدها المترقرق
تخيرها فصل الربيع فبزها من الدهر أرغامًا بلا سوق فيلق
فأبرز منها كل غصن بوشيه عروسًا إلى عرش المنصة ترتق
كأن صفوف الزيت بين حقولها سطور مجيد الخط من فوق مهرق
كأن العيون الزاخرات بهضبها ندى كرم من آل منصور مغدق
كرام لهم في كل صنع صحائف توشي بأنباء الثناء المخلق
فأيان تلق المنتدين تصخ إلى مديح سرى عن كل أشدق مفلق

---

(1) تلميح إلى قول حسان:
يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل
(2) المقرطق: لابس القرطق: ثوب جميل معروف عندهم، والبريص قصر آل جفنة.
(3) كأس شراب مروق.

(فشرق حتى لم يجد ذكر مغرب   وغرب حتى لم يجد ذكر مشرق)[1]

يسوى بهم سخرية متكرما   ضحوك يشأ لهوًا بلحية أحمق[2]

فدامت لهم (أبزو) وداموا بروضها   أهازيج سجع للحمام المطوق[3]

كان اليوم الذي جئنا فيه إلى (وجان) يوم الثلاثاء 23 شوال وفي عيشة اليوم لبينا دعوة الأديب المحفوظ فماشيته فأتذكر أنه أنشدني إذ ذاك:

تسربلت سربال القناعة والرضى   صبيًا، وكان في الكهولة ديدني

وأعظم من قطع اليدين على الفتى   صنيعة بر ـ يا لها ـ من يدي دني

ثم حللنا بداره، فأرانا من الكرم الحاتمي ما أرانا. وأراني أنا ما يكرم به مثلي من بعض كتب، منها (الإفصاح في المعاني الصحاح) لابن هبيرة الوزير وهو جزآن صغيران في خلاف المذاهب الأربعة، والكتاب موجود، والنسخة حديثة النسخ بخط: شبيهن بن ماء العينين.

ومما رأيته هناك نسخة من الجامع الصغير بخط محمد بن سعيد بن علي ابن أبي بكر بن محمد بن سعيد التاسكدلتي أتمه في 22 من ذي القعدة عام 1089هـ والتاسكدلتيون بيت علم بقي فيهم العلم أجيالًا.

ومما استفدته أيضًا من كتاب هناك اسم الفقيه العلامة أحمد بن محمد ـ فتحا التودماوي الأعلاوي شهرة، كان معاصرًا لأحوزي الهشتوكي المتوفى نحو عام 1127هـ وقد ذاكره أحوزي في بيع الثنيا أثناء فتوى في الموضوع رأيناها هناك وأحمد المذكور توفي نحو 1121هـ.

كما استفدت أيضًا: اسم الفقيه القاضي أحمد بن علي بن محمد بن محمد ابن سعيد التصحابي الإيلالني، ولا أعرفه بغير هذا الذي ذكر به هناك.

ومن الكتب التي رأيتها هناك: الجزء السادس من (لوامع الدرر في هتك

---

(1) قال المتنبي:

فشرق حتى لم يجد ذكر مشرق   وغرب حتى لم يجد ذكر مغرب

(2) قال: إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق   أراه غباري ثم قال له الحق

(3) هناك قصائد أخرى للسوسيين في أبزو غير هذه، واللها تفتح اللها.

المختصر) لمحمد بن محمد سالم من آل محمد سالم البيت العلمي المشهور في صحراء شنكيط ومنها ورقة قديمة فيها توفي شيخنا سيدي أحمد بن محمد العباسي ليلة الاثنين لثمانية أيام خلت من ذي الحجة عام 1152هـ وتوفي شيخنا الفقيه علي بن إبراهيم الحصني الرسموكي الأربعاء 16 جمادى الثانية عام 1158هـ وتوفي الأستاذ أخونا في الله الحسن بن إبراهيم البرجي الثوري ليلة الأربعاء 2 جمادى الثانية عام 1164هـ قيده محمد بن أحمد بن يحيى البرجي انتهى باختصار.

ووجدت هناك أيضًا كتابًا نسخه أحمد بن محمد فتحا بن محمد التانوتي الدغوغي عام 1155هـ.

كذلك ضيفنا الأديب بماله وبأدبه ومما أفدناه أنه رأى كتابًا يذكر فيه حكم التصيير لأحد علماء أدوز.

وفي صباح الأربعاء اتصلنا ببعض السادة الأمزوغاريين، وقد أسلس واحد منهم كريم الأعراق طيب الأخلاق يقدر ما نحاوله قدره، وحرن عنا آخر يقولون أن تحت يده كتبًا وآثارًا للأسرة الأمزوغارية العالمة فقنعنا بما تيسر فكان ما استفدنا هناك هو هذا:

1 ـ شرح سعيد الحامدي على قصيدته الميمية المشهورة وهذه نسخة ثانية من الشرح فقد كنا نسمع بأخرى عند الأستاذ العلامة الحسن بن مبارك البعقيلي ثم الهشتوكي فأتيح لنا أن نرى هذه قبل تلك. وقد كنا وقفنا على هذه القصيدة محرفة كثيرًا، وسيجد القارئ القصيدة محررة في المترعات إن شاء الله.

2 ـ كتاب عادي في إحدى دفتيه، دخل العام 1237هـ يوم الأحد فقحط الناس فيه قحطًا شديدًا فجهد نصف الناس أو أكثر، وبلغ الشعير في الأسواق 14 موزونة بأداء الثمن وستة أواقٍ بالتأجيل والذرة خمس أواق بالنقد ونوى الخروب 12 موزونة للمطحون منه، وبلغ العسل 35 أوقية والسمن مثقالين ونصفًا أو أكثر والزيت مثقالين وأركان 15 أوقية، والتمر عشر موزونات فأكثر ونواه موزونتين والبقول غالية والملح كذلك بمثقال وثلاثين موزونة واللحم غال، فإنا لله وإنا إليه راجعون والتبن بمثقالين للحمل قيده عبد الله بن محمد بن أحمد الأدوزي

في 1238هـ ثم لم يدرس الناس إلا قليلًا جدًّا عام 1243هـ في بعض الجبال وغارت المياه في جل الآبار مع أن الناس حرثوا قيده المذكور اهـ باختصار، وعبد الله هذا هو صاحب الضريح في العوينة وقد ترجم مع أهله الأدوزيين في (القسم الثالث) من (المعسول).

في إحدى الصفحات من أطراف الكتاب رسالة كتبها من المشرق الحاج إبراهيم بن الحسن الولوني، يقص فيها خبر قتل عبد العزيز العثماني وبيعة عبد المجيد ومحاربته مع روسية وأرخها بشهر من 1294هـ.

وفي إحدى صفحاته أيضًا، في 17 جمادى الأولى عام 1284هـ وقعت آية من آيات الله العظمى الدالة على قدرته وقهره في وجان الذي كان فيه عجيب لم يعهد مثله فيما مضى، ولم ير له نظيرًا أكابرنا ومشايخنا.

نزل ثلج قدر بيض الحجل فما فوق وما تحت مع شدة الرعد القاصف المفزع حتى فزع أكثر الناس وظنوا أن الساعة قامت ثم جرى سيل عرم فتهدم نحو أربعين دارًا من تحت الظهيرة، وإيحوضيكن في بني عبد القادر وبني المقدم وغير ذلك، قيده أحمد بن علي الأمزوغاري وفقه الله.

ومن أخرى ما نصه: في عام 1275هـ ظهر النجم ذو الذنب في مغرب الشمس نحو 15 يومًا، ثم بعد ذلك كثرت الفتن بين الناس والزلازل حتى وقعت وقعة بين أهل المعدر ومن معهم من أهل أكلو وبين أهل ماسة فمات من الأولين في وقعة واحدة نحو مائة أو أكثر في يوم واحد، لكونهم حاربوا الماسيين في عقر ديارهم، فاجتمعوا عليهم طرفة عين حين هاجموهم فقتلوهم كل تقتيل، وأخذوهم كالجراد، ويطرحونهم في (تامدانتولو) مع رميهم أنفسهم تحت الجرف الكائن هناك، ووقعت فتنة أخرى بين أولاد جرار في ذلك العام فخربوا ديار أهل ابن وارا، فطردوهم عن أملاكهم وفضحوهم. ثم مات السلطان مولاي عبد الرحمٰن، ثم قامت الحرب بين سيدي محمد وبين اصبانيول، ولكن هزمهم[1] المسلمون فيما سمعنا، كتبه أحمد بن علي الأمزوغاري لطف الله به.

(1) بل المسلمون هم المنهزمون فاحتلت تطوان، وما يوم حليمة بسر.

3 ـ كتاب عادي كان في ملك أحمد بن محمد الأمزوغاري وقد استعاره منه أحمد بن عبد الله بن سعيد الأكماري وأحسب هذا من البوشيكريين ولهذا خط جميل إلى الغاية.

وفي صفحة منه ما نصه: مات الأحب السيد علي بن محمد بن عبد الواسع المرزوقي ثم البعقيلي ليلة 26 رجب 1178هـ قيده أحمد بن عبد الله بن سعيد الأكماري.

كما وجد هناك أيضًا أن سعيدًا التوماناري العباسي توفي الأحد 6 ربيع الثاني 1264 كما وجد هناك قصيدة لسيدي عبد الكريم المناوي البعقيلي تركناها عمدًا.

4 ـ أنموذج لطيف وعنوان شريف للسيوطي وهو بنفسه أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب ولم يطبع على ما في علمي، وإنما طبع الأصل الكبير في المعجزات والخصائص، وهذه النسخة من الأنموذج مبتورة وقد كنت رأيت الكتاب في سوس مرات على قلته.

5 ـ رسالة في ست صفحات كبرى لحسين بن محمد أظنه الشرحبيلي بل أجزم بذلك ذكر فيها أحمد بن عبد الله الاسغاركيسي والرسالة مكتوبة إلى أهل سوس من الناصريين يوصيهم بالجد، والشرحبيلي توفي عام 1142هـ وأحمد ابن عبد الله توفي كما أظن الآن نحو 1135هـ.

6 ـ شرح مختصر ابن أبي جمرة له وهو مطبوع اليوم وهو مجموع مع سابقيه في مجلد كبير، ونسخه في سوس متعددة رأيتها في محلات:

7 ـ إثمد العينين في مناقب الأخوين يتضمن سيرة الهزميري الأغماتي وأخيه، وهي نسخة جيدة في مجلد يكاد يكون ضخمًا نسخها عبد الله بن أبي بكر ابن إبراهيم الكرسيفي والكتاب يوجد على قلة.

8 ـ مؤلف لزروق في التصوف، وهو نفيس قال أثناء خطبته:

أما قبل ومع وبعد ففي كل واد بنو سعد[1] من اطمأن إليهم كشفوه، ومن

(1) هذا المثل هنا مستعمل في محله لأنه يضرب في أن كل محل يوجد فيه أشرار وبعض الناس اعتاد أن يستعمله في غير ذلك فغلط.

اعتمد عليهم أتلفوه، أعني الذين جعلوا الجهل عمادًا والابتداع مهادًا والباطل المزخرف وسادًا واستمالة قلوب الضعفاء بالترويح[1] مرادًا إلى أن قال: ولما كان طريق الصوفية محبوبًا محمودًا بالعقل السليم بعيدًا عن إدراك الكافة لدقته مفقود الأصول المثبتة لغربته مجهول الأصل والفرع في حقيقته كثر فيه المدعون بلا حقيقة وتشيخ فيه الجاهلون بلا طريقة وأنكره من أنكره جملة وتفصيلًا، ولم ينظر فيه المحبون وجهًا ولا دليلًا فهلك فيه قوم بالرد والإنكار وهلك آخرون بالاتباع والاغترار ولعمري أن المنكر أسلم لاحتياطه الخ الخ وهو كتاب صغير لعله مشهور، وقد كنا عرفنا لزروق في انتقاد التصوف[2] الذي هو من كبار مشيخته غير مؤلف.

9 ـ أجوبة محمد بن يوسف الترغي عن أسئلة وجهها إليه محمد بن أحمد المرابط البعقيلي وقد ذكر هناك أن البعقيلي تلميذه وهي أسئلة قرآنية أولها في قوله تعالى في قصة بلقيس ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: 23] بالوقوف على عظيم وهناك من يقف على عرش، خوف أن يوصف العرش بالعظمة أمام ما لملك سليمان، ثم يكون (عظيم) وصفًا لأمر محذوف وهو خبر لمبتدأ محذوف أيضًا ولكن ذلك مردود، ومنها الراء في قوله تعالى: ﴿يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: 19] عن تفخيمها أو ترقيقها، والترقيق هو الثابت وحده عن ورش كما سأله أيضًا عن الراء في ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ [هود: 35]، ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾ [المائدة: 14]، ﴿وَجَرَيْنَ﴾ [يونس: 22] و﴿لِبَشَرَيْنِ﴾ [المؤمنون: 47]، ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الفرقان: 53] وإجابة بأنها كلها مفخمة كما سأله أيضًا عن قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [الأعراف: 188] هل تثبت ألف أنا في النطق أو لا فذكر في الجواب اختلافهم في ذلك، كما سأله عن مخرج الضاد والظاء، ثم قال آخر الأجوبة: كتبه محبكم محمد بن يوسف المساري الترغي أصلًا ومحتدًا، الفاسي منشئًا ومولدًا نزيل مراكش حرسها الله نسخها السائل. الثلاثاء منتصف رمضان 1001هـ انتهى ما وجده أحمد بن علي الأمزوغاري منتصف رمضان 1284هـ.

---

(1) كذا.

(2) أعني التصوف الممزوج بالبدع لا الصافي المؤسس على الكتاب والسنة، فإن هذا لا ينكره مسلم.

والبعقيلي المذكور هو صاحب الكراسة المشهورة (مناقب البعقيلي) وقد أخذ عن الترغي أحكام القراءات بمراكش، ثم لازم ما شاء الله الشيخ عبد الله ابن سعيد الحاحي، وهو من الاغرابوئيين، كما أنه أخذ أيضًا عن عبد الرحمٰن ابن علي التيلكاتي المتقدم بين أهله قريبًا والأجوبة في 7 صفحات طوال جلدات مع (إثمد العينين) وما بعده.

10 ـ مختارات من شعراء عاصرهم أو قربوا من عصر إدريس بن صفوان الأديب البارع الأندلسي الشهير.

تم الكتاب وفي الطرة هنا ما نصه: تمت المقابلة مع الأصل المنتسخ منه والحمد لله الذي هو أهله. ولم يؤرخ وقت النسخ،والنسخة على كل حال قديمة ربما تتخطى العاشر إلى ما قبل، وقد كانت في ملك القاضي أحمد الأمزوغاري مهجو التاغاتيني، والنسخة في 64 صفحة مائلة إلى الطول قليلًا في 24 سطرًا بخط جميل مائل إلى الأندلسي الجميل.

والكتاب أخاله غير معروف كثيرًا، وكله شعر، ويحتوي على مماتنات ومهاجيات، وهو يمثل مختار القرن السادس على اختيار صفوان بن إدريس، وقد تمكنت من تتبع ما فيه لأنه وصلتي إلى (إلغ) فتوفرت له وكأين من نوادر من الخزائن المتقدمة أتمنى لو أجد فسخة لأصفها كما أريد (وقد علمت فيما بعد أن الكتاب مطبوع أخيرًا في الجزائر).

ومن أعجب ما وقفت عليه نقل أبيات من كتاب (تحفة الغابط في مساوي المرابط) وهي:

قفوا واسمعوا أخبار ذي ابنة فشت ... فقد عمرت بها القرى والمرابع

فذاك الذي إن قيل من أرذل الورى ... أشارت إليه حيث كان الأصابع

لئن كان يبدي عفة وتنسكًا ... فما هو إلا خاتل متصانع

أو أن يكثر التسبيح والصوم والدعا ... فذاك سراب في الحقيقة لامع

رياء وعجب غيبة ونميمة ... والابنة والنفاق والإفك سابع

صفات بها قد استقل وحازها ... وليس لمن سواه فيها مطامع

وأبيات أخرى من كتاب (كشف الطير عمن يتعاطى بالاست الخير):

ألا فاصغ واسمع للذي أنا سأرد ... من أخبار شر الخلق شيخ الدعابث
عنيت به الحاوي لكل رذيلة ... أخس الأنام ابن اللئام الخبائث
لقد نال منه القصد مثر وتارب ... كذا كل ذي جد وهزل وعابث
ولو كان يعطى دانقًا كل نيكة ... لضم من الأموال ثقل البوارث
فليس يلام أنه كان تابعًا ... بحرفته لوالديه الخنابث

إلى آخرها من أبيات ساقطة منزعًا وموضوعًا وإنما سقت ذلك لغرابة الكتابين المنقول منهما، فلم نسمع بهما قط وإن كان يظهر أن الكتابين سوسيان، فهل لنا أن نجيل قداح الحدس والتخمين فنقول:

أن هذا السفر كان بلا ريب في يد القاضي أحمد الأمزوغاري الذي هجاه أحمد التاغاتيني بما هو معلوم أفلا يقرب أن يكون كل هذا من هذا القاضي؟ فيكيل للتاغاتيني بصاع أطفح من صاعه ويزيد عليه بالإسفاف فيما يزنه به؟ الله أعلم! الله أعلم غفر الله للجميع بفضله.

ذلك ما وقفت عليه عند سيدي عبد الرحمٰن(1) الأمزوغاري الفاضل الكريم وقد كتبت عن أهله ما تيسر هناك في وقت قصير قضيناه عند هذا الكريم، وهو هو بنفسه من كان أعار لنا رسائل رسمية إلى أهله مما أودعناه الجزء الثاني من كتاب (إيليغ قديمًا وحديثًا).

ثم من هناك إلى المدرسة عند الفقيه سيدي عبد الرحمٰن بن موحو الأدوزي فقد كان بات عندنا أو تعشى معنا فقط فرأيت منه حسن سمة، ودماثة خلق وقد لبينا دعوته فمررنا على ما عنده من الكتب فمما وجدناه هناك هذه الإجازة لسيدي الحسن التمكدشتي لسيدي إبراهيم بن علي الأكلويي ونصها:

الحمد لله الذي فضلنا بالعلم والعمل وخصنا بهذه الملة الإسلامية التي هي أشرف الملل ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي المرسل وعلى آله وأصحابه الأجلة الهداة أمثل من عدل.

---

(1) أحسب الآن أن اسمه عبد الرحمٰن، ولا أتحقق.

أما بعد فقد سألني الفقيه الأعدل العلامة الأمثل سيدي إبراهيم بن علي الجلوي الأكلويي أن أجيزه في جميع ما قرأه علينا أو سمعه لدينا من جميع الفنون العلمية المتداولة بين الأقران في هذا الزمان فأجزته بعون الله إسعافاً له وتنشيطًا له وإذنًا له في التعليم والإرشاد وأن ينقل عنا وينسد إلينا رواية ما يرويه عنا إجازة مطلقة عامة في سائر الفنون فقهًا ونحوًا وبيانًا ومنطقًا وفروعًا واصولًا وحسابًا وفرائض، والحديث والتفسير وغير ذلك، بشرطه المعتبر عند أهل هذا الشأن من تقوى الله، وقول لا أدري فيما لا يدري فقد روى أنه نصف العلم وأوصيه بالتقوى ولزوم السنة والثبات على الحق والدعاء إليه سدده الله وأصلح به وعلى يديه، وقد رضينا عنه رضى تامًّا وأسندناه لآيات الله ورسوله، فنسأل الله العظيم بجاه النبي الكريم أن يتولانا أبدًا وبه في اختتام ذي الحجة الحرام عام 1279هـ عبد ربه تعالى الحسن بن أحمد الميموني لطف الله به.

كما ظفرنا أيضًا بهذه الرسالة التي كتبها الأديب محمد بن المحفوظ التيزي السملالي الصواغ وهو ابن عم الأديب محمد بن الطيب التيزي نزيل (الدشيرة) بالمعدر ونص الرسالة:

أكاتبكم يا أهل ودي وبيننا — كما حكم البين المشت فراسخ
فإما منامي فهو عني شارد — وأما الذي في القلب منكم فراسخ

* * *

ولما أن نأت عنكم دياري — وحال البعض بينكم وبيني
بعثت لكم سوادًا في بياض — لانظركم بشيء مثل عيني

* * *

أفدني فدتك النفس كيف سلوتني — لعلي أسلو فالهوى لي لازم

من محمد بن المحفوظ السملالي، أغاثه في جرم جناه إلى المتعالي، إلى من هو في سماء المعالي قمر باهٍ باهر، ومن رياض الكمالات نور ناهٍ زاهر، حلاحل عصره وفريده الصنديد وقطب دائرة التحرير والتحقيق مولانا الندب السيد الرشيد.

مبارك الاسم أغر اللقب ... كريم الجرشي شريف النسب

سلالة العلامة العرفاني، والسند القدوة الرباني المرحوم بالله التقي الكبير السيد الحاج مبارك بين المصلوت الشهير:

نسب تحسب العلا بحلاه ... قلدتها نجومها الجوزاء

وبعد: فلما لم تزل بيننا شقة النوى ممتدة. وسبل لقائكم الذي هو أحلى ما يفرح به منسدة، وهواجس الاشتياق على الفراق الحت وحرضت، ولغرامه الراكد كالمتسلي شبت وتعرضت:

وما زال في شوقي إليك يقودني ... يدلل مني كل ممتنع صعب

* * *

بعدتم ولم يبعد عن القلب حبكم ... وغبتم وأنتم في الصدور حضور

تذكرت أن الخط أحد اللسانين، وأن التيمم خلف الطهور أن تعذر بلا مين، وأخذت أشافهكم وأناغي بالأقلام، وأوافيكم على مراسيل الرسائل بأطيب السلام:

لكم من محب ألف ألف تحية ... لها المسك يعنو بالخطوع تعبدا

فإذ لم يتيسر لي الإقدام، لزيارتكم الآن على الأقدام، أرسلت إليكم نائبًا عن حضوري هذا الكتاب، يستمنح لي من كرمكم الدعاء الذي هو على ظهر الغيب مستجاب، وقد قال سيد العرب والعجم، ﷺ وعظم: «أدعوا الله بألسنة لم تعصوه بها» ففسر بألسنة الغير عند رواة السنة وأربابها ولأعلام مولاي أن ما في الفؤاد من صميم حبه والوداد، ما فتئ على طول البعاد، وعلى مرور الأحقاب والمدد ينمو ويزداد:

إذا غير النأي المحبين لم يكد ... رسيس الهوى من حب مية يبرح

لما روى ابن معديكرب المقداد، من أنه ﷺ قال فأجاد إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره أنه يحبه.

أحبك حبين حب الهوى ... وحب لأنك أهل لذاكا

إلى غير ما هناك من البواعث، فكل مصدور لا بد نافث.

ثم أتى بنونية من إنشائه نمر بها مر الكرام إيجازًا، ثم قال وسلم مني على فلان الذي:

لو كان يرقى أحد بجوده ومجده إلى السماء لارتقى

وعلى فلان:

ذاك الذي ما زال يسمو للعلا بفعاله حتى علا فوق العلا

من محمد المذكور السارد الحديث عندكم مرارًا.

* * *

تلك الرسالة الفذة التي تظهر لنا كيف يبلغ أدب المتخرجين بالعلماء الأقريضيين الكبار، فقد شاركوا أيضًا في الحركة الأدبية الجزولية الحديثة بخطوات، وهذه الرسالة وأمثالها من نماذجها.

هذا الأديب المتخرج بأبي عبد الله الاقريضي ثم الآخذ أيضًا عن الحاج مسعود الوفقاوي، حي الآن 1361هـ في سملالة وهو اليوم المتولي لشرعياتهم رسميًّا مع تقاعسه عن ذلك لولا قرعة أفلجت قدحه بين أناس أقرانه، ولا يزال شابًّا لما يخطه الشيب، ولم أتشرف بمعرفته إلى الآن وقد كان زاول الصياغة حينًا لأن أهله كلهم صواغون والذي كتب إليه هذه الرسالة صاحبنا الأديب السيد الرشيد بن المصلوت الروداني هو إذ ذاك عند الأستاذ الحاج مسعود كما يظهر، نعم إن السملالي المذكور مشهور بابن الأشكر، لا يعرف إلا بذلك[1].

وقد وقفنا من بين كتب سيدي عبد الرحمٰن على مؤلف صغير في إعراب أوائل الأحزاب، لسيدي محمد بن أحمد المرابط الأدوزي ألفه عام 1213هـ وعلى كتاب نسخه محمد بن محمد الفقيه الوسخيني عام 1184 لأحمد بن محمد بن عبد الله الأمزوغاري وعلى نقل من نوازل سيدي عبد الله بن الحسن ابن سعيد بن عبد النعيم ولم نسمع بالمؤلف قط ولا بالمؤلف فازددنا الآن

(1) لا يزال ابن المحفوظ حيًّا الآن 1380هـ وكذلك القاضي الرشيد عضو مجلس النقض والإبرام في الرباط.

فائدتين فهو أخو الأديب أحمد بن الحسن بن عبد الله بن سعيد.

ثم لما انفتلنا من المدرسة تهيأنا للرحيل من وجان لولا أن رغب منا الشاب خليفة الشيخ محمد بن المحفوظ وأخوه أن نتناول عنده أيضًا الغداء فجلسنا جلسة طيبة نستمتع منها بالأديب المحفوظ الذي أفادني كثيرًا من شعر أهله آل ماء العينين ومن تواريخ رجالاتهم وبعض مؤلفاتهم فقد ذكر أن الشيخ ماء العينين ولد الثلاثاء 27 شعبان 1246هـ وتوفي 21 شوال 1328هـ وولد ولده الأكبر محمد الفاضل رمضان 1279هـ وتوفي المحرم 1330هـ وولد شيهن ربيع الأول 1280هـ وتوفي في كردوس الأربعاء 24 صفر 1351هـ وولد عثمان كما قيل 1282هـ وتوفي بمراكش 1305هـ وعليه قبة وولد محمد الحسن 1283هـ وتوفي بفاس 10 شوال 1334هـ وولد محمد سادتي 1285هـ وتوفي في الصمارة بين الظهرين يوم الأحد 7 ربيع الثاني 1320هـ وولد محمد تقي الله 1287هـ آخر ذي الحجة وتوفي رابع رمضان 1320هـ ودفن مع أخيه عثمان بمراكش، وولد الطالب أخيار ربيعًا الأول 1291هـ ولا يزال حيًّا في شنكيط، وولد الشيخ الولي قيلولة الثلاثاء 27 جمادى الثانية 1291هـ ولا زال حيًّا الآن في الساقية الحمراء وولد الأغضف 13 ربيع الأول 1292هـ ولا يزال حيًّا الآن وهو اليوم كبير الأسرة المالعينية وقد ارتضته مقدمًا عليها فقط بغض النظر عن السياسة ـ بعد موت مربيه ربه ـ وهو اليوم في الطرفاء وولد أحمد الهيبة ليلة الاثنين مفتتح رمضان، 1294هـ مختونًا وتوفي ضحى الثلاثاء 18 رمضان 1337هـ وقد خلف من الأولاد محمدًا ماء العينين ومحمدًا الحسن ومحمدًا سادتي ومحمدًا تقي الله، وأحمد الهيبة الذي خلفه حملًا ثم سمي باسمه وكلهم الآن 1361هـ أحياء الأول والثالث أديبان حسنان والثاني عالم يذكر وللهيبة نحو عشر مؤلفات وله ديوان شعر. وولد مربيه ربه الملقب أيضًا بالغيث ومحمد المصطفى أيضًا الأحد 14 ربيع الأول 1298هـ وتوفي على الساعة الحادية عشرة يوم الاثنين 18 من ربيع الثاني 1361هـ ومؤلفاته نحو 120 وولد الشيخ النعمة ليلة 27 رمضان 1300هـ وتوفي يوم السبت قرب الظهر آخر ذي الحجة 1339هـ ودفن في كردوس إزاء أخيه الهيبة، وولد محمد عبد الوهاب رمضان 1301هـ ولا يزال حيًّا في أحواز وادي نول وولد الديه عام 1305هـ ولا يزال

في بوزاكارن وولد محمد بشري 1306هـ وتوفي السبت 12 ربيع الثاني 1352هـ في ايفني ويقال أن عليه مشهدًا وولد محمد المصطفى 1307هـ وتوفي في شوال 1352هـ بكردوس وهو عالم أديب حسن، وولد محمد أبو الأنوار شعبان 1308هـ وتوفي 13 شعبان 1333هـ في واعرون بوادي نول ويقال أن على قبره مشهدًا وولد الطالب أبو بكر ليلة الثلاثاء 12 جمادى الأولى 1309هـ ولا يزال حيًّا بالصحراء. وولد محمد الإمام الشاعر العبقري 1310هـ ولا يزال حيًّا في افني وولد محمد إبراهيم شوال 1313هـ وتوفي السبت 7 المحرم 1361هـ في أحواز وادي نول. وولد محمد الزين 1315هـ وتوفي 1336هـ بمدرسة آيت رخا وولد محمد المعلوم شعبان 1319هـ وتوفي ضحوة 14 ربيع الثاني 1338هـ وولد محمد سعد أبيه ليلة الخميس 9 ذي القعدة 1326هـ وتوفي 1353هـ.

فهؤلاء أولاد الشيخ المدركون وقد أثنى عليهم سبطهم هذا ثم أنشد:

وما أراني بمستوف مناقبهم ولو نظمت لهم زهر النجوم حلي

وقد أملى علي ذلك كله من حفظه ثم راجع مذكرة متثبتًا فأصلح بعض ما رآه غلطًا وهذه فائدة كبرى لهذا البيت المنكوب بما نكب به في سبيل الله:

لقد علم الأقوام لو أن حاتمًا أراد ثراء المال كان له وفر

وقد حدثني أيضًا بأن لمربيه ربه مؤلفًا سماه (قرة العين، في كرامات شيخنا ماء العينين) في مجلد ضخم وقد قايس فيه بين المعجزات النبوية وهذه الكرامات ويتسطرد ذكر بعض من يروون له عن الشيخ فترجم منهم أناساً فهناك تراجم من أصحاب الشيخ[1] كما حدثني أيضًا أن للشيخ النعمة مؤلفًا سماه (الأبحر الماعينية، في بعض المدائح الماعينية) في مجلدين ضخمين ذكر فيه 280 من أصحاب الشيخ قال إنه مما استولى عليه المحتلون في كردوس[2] وحدث أيضًا أن هناك مؤلفًا يسمى (بحور البدائع المحتوية، على درر الأشعار المصطفوية) جمعه الشاعر الكبير ابن العتيك ويتضمن مقدمة وثمانية أبواب

(1) رأيته فاقتبست منه في (المعسول).
(2) أنه اليوم بجزءيه في الخزانة العامة بالرباط وفي أحد جزءيه بتر.

وخاتمة. فالمقدمة في مدح الشعر وما قيل فيه:

الباب الأول: في الثناء على الله من شعر محمد مصطفى مربيه ربه وأول ما فيه:

فلك الهوى في بحور الحب أجراها ذكر الأحبة باسم الله مجراها

الباب الثاني: في أمداحه النبوية وأول ما فيه:

بانت بصحراء الحجا تستن أهواء وللدواء على الأهواء إغراء

الباب الثالث: في مدحه لوالده الشيخ ماء العينين وأول ما فيه:

برقت محاسن بهجة الحسناء فجلت غياهب حندس الظلماء

الباب الرابع: في محاوراته لإخوانه وأول ما فيه ما قاله للهيبة:

كل امرئ في الهوى له الذي كسبا والشيء فيما اقتضاه يتبع السببا

الباب الخامس: في مخاطباته لمعاصريه، وأول ما فيه مخاطبة له لماء العينين ابن الطالب إبراهيم وهو سبط الشيخ وقد دفن بكردوس وقد ذهب عن حفظ الحاكي أول القصيدة، وقد ذكر هناك مخاطباته لبعض السوسيين كالشاعر شيخنا الإفراني، والبليغ الأستاذ أبي الحسن الإلغي رحمه الله.

الباب السادس: في النسيب الذي قاله، وأول ما هناك قصيدة سينية.

الباب السابع: في أقواله المختلفة في القواعد والحكم وغيرها.

الباب الثامن: فيما قاله في التضرع إلى الله.

الخاتمة:

في قصائد الذين مدحوه من الصحراويين ومن السوسيين، وقد ذكر هناك الشاعر الافراني والبليغ الإلغي وابنه محمد بن علي وسيدي الحاج عابد وسيدي الحاج الحبيب وأبو العباس ابن سعيد الأكماري وأحمد البنائي الغشاني ومحمد ابن المحفوظ الصواغ السملالي، وأحمد الأدائي الرسموكي، وإدريس التاغاجيجتي، ومحمد بن محمد بن بلقاسم السملالي.

هؤلاء من استحضر الحاكي أنهم ذكروا هنا بقصائدهم، وقد طالع المؤلف ومنتهى ما في الخاتمة 40 شاعرًا والكتاب مما دخل في أيدي المحتلين

بكردوس في آخر عام 1352هـ.

فذكر الله بكل خير الأديب المحفوظ الذي حافظ على تراث أخواله، فلا يملأ المجالس إلا بذكرهم وأخبارهم، والمرء مجبول على حب أهله لا يلام على ذلك عند العقلاء الألباء.

ومن علماء وجان الذين استفدنا مرورهم هناك من غير الأمزوغاريين الذين أخرنا ذكرهم إلى فرصة أخرى إن شاء الله، ومن غير آخرين كانوا معروفين عندنا قبل: مبارك بن أحمد من آيت موسى الذين يقال لهم المقدمون وهو من أهل أواخر القرن الثاني عشر، وكان يشارط في مدرسة تازروالت، ويدرس فيها أزمانًا كثيرة وربما يتوفى في وباء 1214هـ وآله المقدمون هم الأصليون في وجان.

ومحمد بن أحمد بن عمر من آيت بلقاسم بن الحسن من آل المقدمين المذكورين أخذ عن الأستاذ ابن العربي الأدوزي كان ينسخ كثيرًا ويزاول النوازل أحيانًا، ومداركه حسنة توفي عام 1337هـ أما في جمادى الأولى وإما في جمادى الثانية، ولعله هو الذي يخاطبه الأستاذ بن مسعود بقوله:

يا محمد يا سنا وجانا ... من به زين أفقه وازدانا
دمت فذا تبري القلوب بما تكتبه معجبًا لنا حسانا
أن ما قد حررته كان حقًّا ... واضحًا كيف تبتغي أعوانًا
وعليك السلام من ربك المنعم يعطى لنا جميعًا جنانا

تيزنيت:

ركبنا ثلاثتنا على بغال تذكرنا بأوصاف بغلة أبي دلامة، فكانت تدب بنا دبيب السلاحف في ذلك البسيط الأفيح فلولا مجاذبة الأحاديث بيني وبين الأستاذ ابن العم وبين الفقيه العوفي لأتى علينا الغم، هذا والسماء قد اكفهرت والغمام يؤذن باندلاق صيبه على رؤوسنا فلم نصل سور المدينة حتى أصابنا من طلائع الغيث رذاذ فندخل الباب وابن العم ينشدني ـ وقد استنشدته من بنات فكره ـ من قصيدة يخاطب بها أحمد شوقي الدكالي، ومطلعها:

ماذا يفيد شبابك الفتان ... يا أحمد وشعورك الولهان؟

إلى آخرها وهي في ترجمته في (المعسول) وقوله عشية وقعة مراكش في رجب عام 1356هـ من قصيدة:

رزء عرا فأصاب كل فؤاد ودهى الورى فاضل كل رشاد
رزء تميل الراسيات لهوله ولوقعه ترتج كل بلاد

وقوله مطلع قصيدة:

أرى هذي الدنا تضع العظاما وتعلى فوق هامتها اللئاما

وقد ذكر أن له كثيرًا من المحاضرات والمسامرات في موضوعات شتى وقصائد كذلك في أغراض مختلفة وهكذا شعر بعدنا بعدما كنت أنا والبونعماني لا نحسبه إلا في الذين يناجون بنيات الفنون والمتون لا ممن يناجون الأفكارالنفاثات في العقد بالسحر، أو الذين يناغون ربة الشعر.

هذه تيزنيت، وقد وقفت على وثيقة نقلها صالح تيزنيت الفقير محمد واعزيز من دفتر من تارودانت منسوب للسلطان الذهي ونصها:

«قدر الله تبارك وتعالى على امرأة ذات حسن وجمال بارع وقد واعتدال من بنات ملوك البرابر في السوس الأقصى بتلك البلاد، إنها مشغولة بالزنا ومشهورة بالفساد في الخلوات والجلوات، وبقيت في تلك الحالة مدة طويلة حتى جمعت في ذلك أموالًا طائلة إلى أن تداركها الله بعنايته، وأراد أن يعفو عنها فألهمها التوبة، فتابت بنية خالصة صالحة، وبكت على ذنبها وأفعالها القبيحة وأسلمت على يد الصحابي الأجل سيدنا عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد ملكت أموالًا طائلة، ونزلت ذلك الموضع المسمى الآن بتزنيت بخيامها وعبيدها ومواشيها، وهي بيضاء صحراء لا ماء فيها ولا شجر سوى الشجر المسمى بالشلحة (انكارف) فألهمها الله تبارك وتعالى أن بذلك الموضع ماء فشرعت تحفر بيدها مع عبيدها بالفؤوس والمعاول فأخرجت العين في مدة قليلة، فنبع الماء من عين كبيرة يكثر ماؤها أحيانًا، يزيد ولا ينقص وبنت عليه المسجد المنمى لأبناء طلحة، وهو الآن لنبي (واكفا) وهو الأول من مساجد تيزنيت ثم سميت القرية باسمها تزنيت وقد قبلت أنها كانت زانية تنكيسًا لرأسها شأن الأكابر من

الأولياء والعارفين بالله، وبقيت تعبد الله تعالى في ذلك الموضع ولها كرامات هناك. روي عنها أنها قالت: من أراد أن يحفظ القرآن بلا مشقة فليقرأه بتزنيت وليشرب من هذه العين وليجتنب أن يعوم فيها أبدًا، وقالت أيضًا سيأتي على الناس زمان يفسد أهله، ويكثر الفساد في تيزنيت، ويجتمع الرجال والنساء على تلك العين فمن كان كيسًا فطنًا يحتاط لدينه فليتركها لينجو، ومن لم يتركها غرق في الفتن والفساد والعياذ بالله، والزمان الذي حفرت فيه العين وبنى عليها الجامع، هو شهر الله شوال عام 28 من الهجرة النبوية في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه».

انتهت الوثيقة بنقل العدل سيدي الحسن الوجاني الذي تقدم لنا فيمن لقيناه بوجان، ثم ذكر لي القاضي سيدي محمد اوعامو كلامًا يدل على أنه رأى أيضًا ذلك في دلائل الخيرات للفقير محمد واعزيز وهي حكاية مخترعة بلا ريب، وأثر الكذب يلوح عليها من جهات شتى لمن يعرف التاريخ.

كنت رأيت نسخة من كتاب توظيف السلطان الذهبي على قبائل سوس الأتاوة المخزنية السنوية على عدد السروج التي ركب كل سرج منها على عدد الكوانين وهو كتيب صغير، تتبع فيه جامعه الفقيه إبراهيم ابن علي الجزولي القبائل السوسية ويذكر كل قبيلة وما فيها من عدد السروج، وعندي من الكتاب نسختان، إحداهما جيدة الأول في الجملة والثانية غير جيدة الأوائل ولا الأواخر، وفي كلتيهما رأيت بعض ما تقدم ملصقًا بها، وليست من صميم الكتاب، ولكنها لم تفصل الحادثة هذا التفصيل العجيب، وإنما ذكر فيها أن تيزنيت بنتها امرأة زانية ولم تذكر وقت توبتها ولا إسلامها على يد عقبة في زمن عثمان ولا بنائها المسجد 28هـ ولا ذكرت تلك التنبؤات فيها وذلك كله غير ظاهر إن رجعنا إلى التاريخ فإن المغرب الأقصى، لم يصله العرب أيام عثمان رضي الله عنه، وأقصى ما بلغوه إذ ذاك بلاد تونس (قفصة) وما إليها ثم صالح ابن أبي سرح البربر فرجع ثم جزر مد العرب إلى أن اجتمعت الكلمة أيام سيدنا معاوية فإذ ذاك فقط صار ذكر عقبة بن نافع يروج فقد استعمله أمير مصر سيدنا عمرو بن العاصي، لأنه ابن خالة عمرو فافتتح بلدانًا في إفريقية 42هـ ثم بقي

إلى أن عزل بابي المهاجر الذي وطئت خيوله لأول مرة تلمسان عام 50هـ وفي عصر يزيد ابن معاوية رجع عقبة المبارك الناصية أيضًا إلى إفريقية وذلك عام 62 فإذ ذاك فقط استتم فتح الجزائر ثم المغرب الأقصى إلى أن دخل (تارودانت) فصحراء سوس، ثم رجع فقتل كما هو معلوم ثم وقعت ردة كبرى من كل البربر، ولا ريب أن السوسيين الأبعدين من المشرق يقفونهم في الردة، ثم لم يستتب الإسلام إلا أيام موسى بن نصير بعد عام 87هـ في عهد عبد الملك وابنه الوليد، فقد كان ولد لموسى أظنه عبد الله دخل سوس، ثم كان واليًا عليه في عاصمة (أغمات) الخ فبهذا نعرف أن ما ذكر من تعيين وقت إسلام هذه المرأة ووقت تأسيس مسجد تزنيت المذكور لا صحة له، ولهذا لا ينبغي أن يعول على هذه الوثيقة الواهية من ناحية التاريخ ومن نواحي أخرى لا تخفى على اللبيب كلفظة الزنا العربية، وهي التي اشتقت منها الكلمة فمن أين تلك الكلمة العربية عند البربر؟ فتأمل كل ذلك يثلج صدرك لرد هذا الإفك الصراح.

وأحسب أن بعض من يتعصب لتزنيت طرق سمعه من يزن تلك المدينة المباركة، من أنها من بناء زانية اعتمادًا على تلك الحكاية الملفقة فنسخ بدوره هذه الحكاية على هذا التفصيل، ثم فوفها بفضائل وبتنبؤات في المستقبل وما إلى ذلك لترجع تلك الحكاية منقبة تؤثر على أن للمتعصب أن يقول أن لفظة اسم المدينة مشتقة من الزينة لا من الزنا وذلك هو الأقرب.

ومما يتعلق بتزنيت أن سورها ابتدئ في بنائه يوم الخميس الخامس من شوال عام 1300هـ وتم آخر ذي القعدة عام 1302هـ وجدد بناء دار المخزن القديمة التي فوق العين وإزاء الجامع والمدرسة في جمادى الأولى عام 1340هـ وقد حاصرها سيدي الهاشم التازروالتي حينًا من الدهر ولها إذ ذاك سوير صغير كما يكون للبساتين وذلك في عام 1226هـ وفي عام 1236هـ وفي عام 1240هـ ثلاث حصارات.

ماسة:

دخلنا تيزنيت الأربعاء 24 من شوال وقد نوينا أن نركب إلى حاحة لأذهب

توًّا إلى اداوتنان لصلة رحم هناك، وإلا أنني شاورت بعض من مشاورتهم بركة فأشار علي بالتريث فظهرت في الحين بعد يومين بركة التريث.

زارنا قائد (ماسة) في دار القاضي ليلة الجمعة في عشية الخميس فقال متى ورودكم علينا؟ فقلت بكرة الغد فقال إنني سأعد لكم المراكب إزاء الطريق القريبة من الدار، فبكرنا يوم الجمعة وقد ودعنا الرفيق الفاضل الكريم أبا العباس العوفي حفظه الله للمعالي وأدامه نبراسًا لتلك الجهة وضاء فرافقنا الناظر أبو العباس سيدي أحمد اوعامو فركبنا ثلاثتنا مركوبًا آليًا لا نقول له عدس(1) ولا نحتاج فيه إلى ما كنا فيه أمس من تحريك الرجلين واليدين واللسان فقطعت مع الأستاذ ابن العم تلك الصبيحة بحديث حلو إلى أن نزلنا مقابل دار قائد ماسة فإذا بالمركوب فرحب بنا القائد الكريم أعظم ترحيب ورأينا منه كرمًا مجسمًا مع أنه هو المفضل الذي سبق إلينا بالتعرف أمس وبالاستدعاء إلى داره مما يدل على سراوته وأن له في التطلع إلى المعالي نفسًا أبية وهمة قعساء، ولا غرو فهو من بيت مجيد في ذلك الوادي يعرف أحد أجداده الفضلاء العلماء في أواسط القرن الثاني عشر، وقد وقفنا في ذلك على ما يلي:

هذا فرع صحيح من أصله الصحيح نصه: بيان نسب سيدي علي بن موسى الماسي بموضع صحفة ماسة يعني تاسيلًا الأول عبد الله بن بلقاسم بن أحمد بن مسعود بن علي بن موسى بن الحسن بن أيوب بن عيسى بن عبد الله بن سليمان ابن يحيى بن يدر بن الحاج مؤمن بن موسى بن إبراهيم بن إسحاق بن علي بن سعيد بن حميد بن سعيد بن عبد المؤمن بن عمر بن علي بن دنيال بن يحيى بن حزير بن علي بن عمر بن سكير بن بوكبيل بن رافع بن إبراهيم بن موسى بن سعيد بن محمد بن أحمد بن معقل بن عقيل بن هزراش بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف. انتهى الفرع الصحيح من أصله الصحيح نقلناه بلا ولا أثر النسخ الشريف في أوائل رجب الفرد سنة 1320هـ عبيد ربه أحمد بن الحاج العربي بن محمد بن محمد بن داوود الماسي التيكيوتي

(1) عدس: زجر للبغل؛ قال الشاعر عندما أفلت من سجن عباد بن زياد بن أبيه:

عدس ما لعباد عليك إمارة ... نجوت وهذا تحملين طليق

رعاه الله آمين وعبد ربه عمر بن أحمد بن محمد بن عمر الماسي التيكيوتي وفقه الله آمين، انتهى ما وجدناه بحروفه إلا أنه سقط أخيرًا أبو طالب بين جعفر وبين عبد المطلب وخطبه سهل لأنه معروف ثم رأينا رسم ورثة علي بن موسى الماسي المذكور وقد سماه الكاتب بالقاضي وأنه توفي في رمضان 1152هـ وورثته 24 نصفهم ذكور ونصفهم إناث وقد جدد هذا الرسم من أصله نسخًا عام 1213هـ أو كان بنفسه هو الأصل.

إذن هذا البيت من الجعفريين الموجودين في سوس بكثرة رغم ما ذكره ابن خلدون من عدم دخولهم إلى المغرب، وقد تكفل برد ذلك العلامة ابن خالد الناصري في كتابه «طلعة المشتري في النسب الجعفري» وأن أحد جدودهم الأدنين كان قاضيًا، فهذا العرق النابض إلى السمو هو الذي رفع بضبع الرئيس عبد الله بن بلقاسم البطل المغوار، فزاحم بمنكبه قائد ماسة الحاج محمد الأغبالويي وغيره من القواد الحسنيين هناك حتى استطاع الظهور بعد أيام الكلوليين. فلم تصل سنة 1330هـ حتى كان له شأن، فبرز في طلائع الاحتلال من رجالات ذلك الوادي المشهورين فحصن مركزه تاسيلا بسور متين عام 1333هـ وربما استمر البناء في العام الذي تلاه ويوجد ذلك مرقومًا على الباب الجنوبي، ولها أربعة أبواب ويقطنها اليوم نحو 400 دار وأما سكان ماسة كلهم فزهاء الفي دار في 20 قرية تصلى الجمعة في نحو 10 منها.

ثم لم يزل شأن عبد الله بن بلقاسم يعلو حتى كان أحد أعضاء جيش القائد حيدة حين زحف إلى آيت بعمران 13 ربيع الأول عام 1335هـ فسقط ذلك النهار عن عمر يناهز 75 سنة ثم ملأ ولده محمد مركزه إلى أن رسا القائد الطيب الكنتافي قرب ذلك الوقت في تيزنيت، فثارت بينه وبين الحاج محمد القائد الأغبالويي حرب اندحر فيها هذا فخربت داره وجلا عن الوادي فاستقر أمر القائد محمد بن عبد الله بن بلقاسم حينئذٍ قائدًا على كل الوادي فأثل ونمى مالًا كبيرًا يذكر وولد نحو عام 1299هـ وتوفي 17 جمادى الأولى 1360 وهو الذي بنى هذه الدار الكبرى وفيها رياض[1] كبير متسع إلى الغاية مما يدل على

(1) إطلاق الرياض هكذا بلفظة الجمع على الروض المبني المغروس وسطه بالأشجار وعلى =

همته الكبرى في هذه الجهة وقديمًا قيل إن همم الرؤساء من الملوك ومن إليهم لا تظهر إلا بألسن البنيان إلا أنه لم يستتم الرياض بعد وأحسبه إن تم كما ينبغي بالتزليج والزخرفة ليكون فريدًا في أزغار كله ولا يفضله رياض تالعينت إلا بالعين الخرارة من وسطه، ثم بعده تولى في مكانه القائد مبارك وهو شاب مهذب عصري من أبناء الحضارة الذين لهم من النباهة ما لهم، فقد رأيت منه ما يدل على أنه يريد أن يعمر مركزه باستحقاق، فبينما هو يحث قرى ماسة على إصلاح المساجد من عند أنفس السكان، غير معتمدين على الإصلاح البطيء الذي تبض به إدارة الأحباس، ويسلف من الجير لبعض القرى ما تتوقف عليه، إذا به يستمتع بالحياة ويتصل بالعالم بالمذياع الذي وضعه في داره، وهو الوحيد الذي له هذا العقل الراجح من رؤساء هذه الجهة هذا مع اهتباله بالكتب مطالعة وتفهمًا هذا كله لاحظته منه وأنا هناك، فرجوت منه نفعًا عامًا لذلك الوادي، وخصوصًا حين رأيته يهتبل بإقامة مدرسة علمية دينية تكون لكل القبيلة يحيي بها من التدريس ما كان مضى في ذلك الوادي في زاوية الصوابي أيام الصوابي والتاساكاتي ولا يزال مهتمًا بإنجاز هذا المهم، ونحن نشكره سلفًا، فعليه الاهتمام وعلى الله الكمال[1].

وقد كانت الرئاسة في ماسة متداولة في أسر، وقد كان المولى الحسن قدم للقيادة محمد بن حميد التاسيلائي عام 1299هـ فبقي قائدًا إلى أن مات نحو 1302 ثم تولى أخوه القائد مبارك إلى أن سجنه المولى الحسن، كما تولى القيادة أيضًا على يد المولى الحسن القائد محمد الفنتوري إلى أن سجنه مع القائد المعدري محمد ويحيى لأنهما تعاونا على تخريب دار القائد علي بن إسماعيل الفنسويي الماسي من القواد الحسنيين أيضًا، ثم إن الرئيس الإيليغي

= جوانبه القباب، مستعمل من حدود القرن السابع في المغرب كما يعلمه من مارس كتب التواريخ في العهد المريني وكأنهم عنوا في الأصل أحواض الأشجار التي تتعدد غالبًا في ذلك البناء فأطلقوا على كل حوض روضًا لأنه قد تكون فيه الأزهار أيضًا ثم جمعوا فقالوا: رياض وأيًّا كان فهكذا تستعمل الكلمة في العرف ولها مخرج عربي كما ترى.

(1) تم المراد من بناء مدرسة علمية هناك فرعًا لمعهد تارودانت بعد الاستقلال على يد القائد الغيور عبد العزيز الماسي المكافح الكبير.

سيدي محمد بن الحسين تشفع فيهما فانطلقا من السجن.

هكذا حكي لي، وهناك أيضًا القائد الحسن بن بوجمعة الولويي الماسي، بعد سجن القائد محمد الفنتوري الماسي إلى أن سجنه أيضًا وهؤلاء القواد هم الذين مضوا حديثًا من القواد الحسنيين في ماسة زيادة على القائد همو من اغبالو فقد بقي في مركزه إلى أن توفي قبل 1314هـ ثم تولى ولده القائد الحاج محمد الاغبالويي المعمر الذي لا يزال حيًّا إلى الآن 1361هـ وأيًّا كان فلم يجمع وادي ماسة تحت إيالته كله إلا أبناء عبد الله بن بلقاسم وحدهم.

ومما يتعلق بماسة تلك الحرب التي خاضوها عام 1276 كما تقدم عند ذكرنا للفوائد الوجانية ولعلها هي التي ألم بها الفقيه سيدي أحمد بن محمد الالياسي حين كان يذكر لي والده محمد بن الحاج محمد الالياسي، قال:

ومما وقع في أيامه أنه اتفق الجزوليون والأزاغاريون على الماسيين فأحاطوا بهم من كل جهة وعلى رياستهم يعسوب إيليغ الحسين بن هاشم، فانتظر سيدي محمد الألياسي الشيخ أحمد الديلمي أخا القائد إبراهيم الديلمي الذي اشتهر بعد ذلك حتى رجع من مراكش فلاقاه وراوده على أن يمد يد الإعانة للماسيين، فرده خائبًا قائلًا: إن الناس اتفقوا على أن تقدم كل قرية ذبيحة وتؤدي ألف ريال فرجع الفقيه آسفًا فقال لأهل ماسة: دافعوا عن أنفسكم وأولادكم وأموالكم فأنتم في الجهاد. ومن قتل دون ماله فهو شهيد، وليكن كل واحد منكم بمثابة عشرة، فجمعوا حينئذٍ همتهم فهاجموا الهشتوكيين أولًا فشتتوهم في ذلك البسيط شذر مذر، ثم تربصوا بالرئيس الإيليغي وأهل المعدر ومن معهم الدوائر وهم محتلون قرية تاسنولت، فأتى سيدي سعيد الشريف الكثيري يجري في الصلح، فذهب إلى الديلمي والرئيس الإيليغي ومن معهما يداورهما على الصلح، فاستحيا الرئيسان من لقائه إكبارًا أن يلاقياه بما يسوءه فلاقاه إنسان يسمى علي بن يحيى بوقاحة فجبهه بقوله: اشتغل بهمك فإن أهل ماسة لا بد لهم من غرم المال ومن الذبائح أمامنا مرغمين، وألان الدعاء ولا كلام بعد، فقام الشريف بلا دعاء وذهب، وفي تلك العشية جاءت رصاصة في رأس علي بن يحيى فسقط لا تبكيه أرض ولا سماء، وفي الليل ذبح الماسيون

كلابًا وسلخوها ونجروا من الخزف ما يشبه الريالات فملأوا بها صررًا فتسربوا بكل ذلك ليلًا إلى أن تركوه إزاء الدار التي فيها سيدي الحسين ومن معه، وفي الصباح نادى الماسيون هاكم الذبائح والأموال فاستمتعوا بهما فإننا لا نردكم خائبين ثم دامت الحرب العوان نحو سبع سنوات، حتى سرى الفشل بين شيعة الجزوليين، فتفرقوا عن الماسيين، وقد سلموا من العركات بعدما نال خصومهم قتل ذريع.

هكذا حكى الحكاية، وهي بلا ريب تتضمن تلك المقدمة وقد كان هذا الفقيه الحاكي علامة ماسة، حضر إلينا برسول من القائد، كما استقدم أيضًا الفقيه أبا زيد وابن أخيه سيدي الحسن، وهما من الأسرة الأدوزية اليعقوبية الساكنة في (تاسنولت) وكل ذلك من القائد داخل في إكرام ضيافتنا، لما يعلمه من أن شبه الشيء منجذب إليه، ولا يونس من له نسبة إلى العلم إلا العلماء الفضلاء أمثال هؤلاء، وقد أعجبت جدًا بالفقيه الالياسي وبأبي زيد، لأنهما اليوم فقيها ماسة فيما أعلم فصرت أكتب عنهما ما سنح بعدما حررت ما إلى أسرتيهما ليوضع ذلك بين الأسر السوسية في (المعسول) إن شاء الله.

ومما استفدته عن الفقيه الالياسي: أن هناك زاوية تنسب للكنسوسي، واسمه محمد بن محمد الكنسوسي، من علماء القرن الحادي عشر وكان ورعًا ربانيًا، مقصودًا معتقدًا، ويؤثر عنه كل خير. وقد مر هناك عالم يسمى داوود بن علي التملي وكان نوازليًا مفتيًا يحرر الرسوم كثيرًا في عصره، ولم يستحضر وقته بالتعيين ولو بالحدس، ثم وجدت أنه كان هناك في النصف الأخير من الثاني عشر وقد صلى على رقية بنت الصوابي في عيد المولد عام 1185هـ.

ومن علماء ماسة أيضًا الفقيه ابن علي الفنتاري الماسي وهو عالم حسن جوال في النوازل، يعاصر والد الحاكي سيدي محمد بن الحاج محمد، وربما توفي نحو عام 1280.

ومن علمائها أيضًا الفقيه محمد بن محمد ممن تخرج بالشريف الكثيري وكان عالمًا مشاركًا حسنًا، توفي في العقد الثالث من هذا القرن.

ومنهم الفقيه يوسف بن محمد بن أحمد المرزكوني، وأصل أهله من

المعدر وجده أحمد تزوج بنت العلامة أحمد الصوابي فسكن في الزاوية الصوابية وهو عالم حسن له ذكر كثير في عصره وأما سيدي يوسف المذكور فإنه تخرج بالعلامة أبي العباس أحمد اوجمل، فاشتهر اشتهارًا كبيرًا في النوازل، ويقطن في الزاوية الصوابية، ويدير كاهله أموال الزاوية، إلى أن توفي بعد عام 1315 بقليل، ومحمد بن الحسن الفقيه المتأخر من آله كان ابن أخيه، وقد أخذ عن العلامة المحفوظ الأدوزي، توفي أوائل ربيع الأول عام 1333هـ وهو الذي أجازه بإجازة مذكورة، ثم انهدم بعدهم حمى الصوابي حقيقة وحكمًا والأسرة المرزكونية إحدى الأسر العلمية السوسية(1).

هذه بعض فوائده عن فقهاء ماسة، وقد حدث عن فقيه بهشتوكة يسمى أحمد بن الحاج حمو الهشتوكي اليعزاوي يحسب أنه أخذ عن الشريف الكثيري، دراكة نبيه نوازلي مشارك وربما شارط في مدرسة آيت يعزى قبيلته وقد خلف بعده هذا الذي صار كاتبًا رسميًّا في مركز تاركانت نايت موسى باداوزيكي وتوفي عام 1349هـ.

قضينا هناك نهار الجمعة، أتملى بفوائد هذا الأستاذ الكبير، وقد قضيت حقبة صغيرة في السبات فأيقظني من أيقظني للغداء فصرت كأنني مغشى علي ولولا الحياء لراجعت منامي، فتغديت معهم وأنا لا أكاد أعي ما نحن فيه، فعراني حياء من رب المثوى الذي صار يلحظني ولا يدري ما بي ثم لم يزل على ذلك الكابوس إلا بعد حين وأنا نبهت على هذا لأنني استغربت من نفسي ما عراني، خصوصًا حين عراني الخجل بعد من مضيفنا الكريم ثم إنني جاريت القائد تلك العشية في أخبار أفادنيها عن بلده، وفي ذلك النهار أخبرنا بأن القائد عيادًا الجراري رجع إلى داره صحبة ولده الشيخ عبد الله ففرحنا له حين يرى أهله ويرونه، ولكن لم يلبث إلا قليلًا حتى أسلم الروح إلى بارئها، فظهر أن التربة هي التي ساقته وهكذا الدنيا، فكم عادت أمانيها مناياها، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

في تلك العشية أرسل إلينا الكريم السيد المدني باغبالو يستدعينا فقلت

---

(1) في الرحلة الرابعة ذكر متسع لحمى الصوابي وللمرزكونيين.

للرسول إننا في ضيافة القائد، فالأمر أمره، فافترقنا على أن نروح إليه في الغد.

كان كاتب القائد فقيهًا نبيلًا اسمه الحسن بن محمد بن أحمد بن عمر ابن الرئيس محمد من أهل قرية الزاوية الوكاكية بأكلو، ولد نحو عام 1333هـ وأخذ عن والده القرآن في مسجد القرية ولازمه زمانًا وقد توفي عام 1346هـ وعن الأستاذ العربي نهمو من أهل الزاوية أيضًا من حفاظ البصري وقد توفي نحو ذلك الحين أيضًا، ثم افتتح العربية على الأستاذ أحمد بن عبد الله الأيدرقي في المدرسة الوكاكية نحو عام 1350هـ لازمه نحو ستة أشهر ثم إلى بونعمان نحو 8 أشهر. ثم إلى مدرسة تيزكين برسموكة نحو شهرين عند الأستاذ الأديب داوود التاغاتيني، ثم إلى مدرسة إيغلالن عند الحاج مسعود العلامة الكبير العظيم في التخريج وبه ترقت مداركه ومر بالفنون، لازمه 8 سنوات إلى أن فارقه عام 1360هـ وإذ ذاك اتصل بالقائد هذا.

في صبيحة السبت بعد الإفطار خرجنا لنلبي دعوة الفقيهين أبي زيد وابن أخيه سيدي الحسن الأدوزيين أصالة فركبنا على بغال فارهة أنا وابن العم، فنجتاز الحقول المخضرة ونحن في انشراح واغتباط فقلت له هاك مجانًا نزهة كان أهل فاس يتمناها أحدهم بصرة من ذهب، ويا ليت الأديب البونعماني يطل علينا، فيتمنى لو أملس من شارع دار المخزن على زخرفة بنائه إلينا فيفوز فوزًا عظيمًا، فهكذا نتهادى في الأحاديث كما تتهادى بنا المراكب الهادئة المروضة الموطأة ثم اجتزنا ماء النهر الذي خف قليلًا ثم تسلقنا إلى قرية (تاسنولت) فنزلنا عند أولئك الكرام الذين لا يعرفون إلا مثنى وثلاث ورباع في أطعمة الضيافة، ثم جلسنا نستعرض ما هي الحاجة الأكيدة عندنا، من كتب الأسرة، ونقيد ما يصلح للتقييد، فمما لفت نظرنا هناك:

1) كتاب المرائي لابن جمرة المشهور صاحب مختصر البخاري ذكر فيه: 69 رؤيا نبوية، تتضمن كلها الثناء على الرائي وفي أثناء بعضها كلام حول أحاديث جمة يسأل عنها الرسول ﷺ، والنسخة في 47 صفحة في 29 سطرًا بخط حسن بين وهي جيدة ولم أر الكتاب قبل اليوم، وإن كنت أسمع به.

2) نسخة من المصابيح الكتاب المشهور في الحديث، وهي قديمة بخط مشرقي بين في أطراف مجلدها ذهب.

3) النكت البديعات، على الموضوعات، المؤلف المشهور للسيوطي على الموضوعات لابن الجوزي، والنسخة بخط مشرقي توجد في مجلد مع مناهل الصفاء في تخريج أحاديث الشفاء للسيوطي وهو أيضًا بخط مشرقي.

4) مؤلف فيه مزج الحديث الذي يساق فيه برجال السند بالمواعظ والإنشاءات المتنوعة لأشعار لطيفة وقد تتبعت فيه السيرة النبوية إلى الخلفاء العباسيين، يذكر نبذًا عن كل واحد، وما وقع له وما وعظ به كما ذكر ذلك عن الخلفاء الراشدين، والكتاب ألف بعد عام 560هـ والنسخة لا أول لها ولا آخر، وقد وضع ما وجد هنا تحت أبواب، ويؤتى لي أن الكتاب من مؤلفات ابن الجوزي، فإن لم يطبع الكتاب، فما وجد من هذه النسخة المكتوبة بخط بين قيم من الأعلاق.

5) أراجيز في بعضها طول لأحمد الصوابي.

6) رجز في النحو لعبد العزيز بن موسى بن عمر، في نسخة قديمة ولا أستحضر الآن من هو عبد العزيز هذا.

7) بعض أجزاء من نسخة قيمة من البخاري، مفتتحة بقوله: أخبرنا الفقيه الحافظ أبو علي حسين بن محمد بن فيره الصدفي رضي الله عنه الخ.

والنسخة بخط رائق غال عال، ومفتتحها مذهب، وفي كل صفحة يستدير في الجهات الأربع ثلاثة أسطار مختلفة الأصباغ، وفي طررها أولًا حواش كثيرة تشبه خط الأصل وهناك غيرها مما يخرمزه المتفقهة، ولكن هذه الحواشي لم تستمر كثيرًا، وأظن الآن أن تلك النسخة غير تامة، فهل هذه النسخة منقولة من نسخة الصدفي نفسها التي تذكر اليوم في زاوية (جغبوب)؟ من يدري أو هي فرع من نسخة ابن سعادة.

8) مسائل من الأجوبة الحسان مما التقطه سيدي سعيد الهوزالي من شرح المدونة كابن غازي وغيره، في زهاء 55 صفحة في مجلد ضخم ويحتوي المسائل على 15 بابًا.

9) شرح المقاصة من المختصر، لسيدي أبي بكر وهو صغير ولا أعرف من هو أبو بكر هذا.

10) كتاب عادي نسخة محمد بن يبورك بن عبد الله ابن يعقوب، فعلمنا أن محمدًا هذا وإن لم يعقب كان من علماء الأسرة، بل رأيت له إنشاء لا بأس به.

11) كتاب عادي وجد في أحد أطرافه؛ سؤال لشيخنا سيدي عبد الملك الهوزالي، سأل فيه شيخه سيدي حمدون الفاسي نصه: سيدي أوضح الله بكم السبيل، وشفى بكم الغليل، أجيبونا في مسألة خاض فيها بعض الناس حتى كاد يصيبنا منه الوساوس وقد اشمأز القلب لسماعها واقشعر الجلد لإيرادها وذلك أن بعضهم قال: إن نبينا عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم أفضل حتى من القرآن العظيم فهذا لا محالة لفظ يضطرب منه الفؤاد ويصعب فيه العثور على المراد، فداركنا بجواب شاف ينقذنا مما نحن عليه من إشفاء على الهلاك وإشراف، فإنه لا يقبل منكم عسى ولعل، لأن عليكم المعول، وبعد كتبي هذا عقدته نظمًا مستمطرًا من شيخنا الأديب أن يسعفنا بنظمنا الغريب فقلت مستعينًا بالله:

افدني فدتك النفس يا جهبذ العصر
عويصًا عصى فهما نبوا عن الفكر

فمذ قرع السمع اشمأز فؤادنا ... بحيث بأن أفضل الخلق بالأسر
وذلك أن بعض من يقتدي به ... يقول أن أفضل الخلق بالأسر
نفضله حتى على ذكره الذي ... عليه من الرحمٰن أنزل بالجهر

فهل ذاك إفراط فكان من الذي
نهينا عليه أو له اوجه تجري

أدامك مولانا لظمآن منهلًا ... فتروي ذوي الأوطار في أزمة الدهر

الجواب:

جوابك: هذا البحث في سابق الدهر ... تبدي فجاؤوا بالجواب كما الفجر

فردوا علي لو ناسبت قدره بأن عمومه قاضٍ بالعلو على الذكر
فقال المجيب الذكر من حيث لفظه
بدا معجز الكل فكر بلا نكر
ولفظه محدث كأحمد وهو لا حديث حكاه في علو وفي قدر
وأن بمفتاح الشفاء شفاء من يوسوس شيطان به داخل الصدر

و(مفتاح الشفاء في تخريج أحاديث المصطفى) لسيدي عبد الرحمٰن بن عبد الرحمٰن الفاسي بين فيه هذا وأنه وقع نزاع في عهد الشريف التلمساني وجوابه. والله الهادي إلى الصواب وكتبه عبد ربه وأسير ذنبه: حمدون بن الحاج، كان الله له انتهى من خطه بواسطة.

ثم كانت بعد كل ما تقدم هذه الأبيات من غير أن تنسب لأحد والغالب أنها لعبد المالك المذكور:

هو الذكر والقرآن والدين كله فتفضيل هذا دون هذا فضول
وما لم يرد عن خيرة الخلق نحوه أكف لسانًا عنه لست أصول
وقد قيل في التفضيل في الوقت ما لهم
ذوي جرأة فيما تخطت فحول
وأني لو سئلت عن ذا لقلت ما دريت كلامًا لم يقله رسول

ولله در هذا المجيب بهذا، فهو والله المقرطس للصواب، والموافق في الجواب وإن كان أكثر الناس لا يعلمون، وخصوصًا الفضوليين الذين في كل ناحية يتسكعون، ويسيؤون صنعًا في العلوم، ويرون أنهم يحسنون.

لله در هذا السوسي الذي قال الأبيات اللامية فإنه وافق الحق، رحمه الله عنه فكأين من أبحاث هي فضول توجد في كل علم، كما يقال في النحو عن الرافع للمضارع وعما هو الأصل في المرفوعات المبتدأ أو الفاعل وعما هو الرافع للمبتدأ إلى أمثالها مما لا مرق له، ورحم الله شيخنا العلامة الشيخ شعيبًا الدكالي حين كان يدير هذا مرارًا في دروسه بعد أن يقرر ما يقولون: خوف أن يظن به أنه لم يفهمه، ويقول بهذا وأمثاله اشتغل بعض الناس حتى فاتهم العلم

الصحيح من الحديث وإتقان المذاهب والتفسير، ويقول: كل خلاف لا ثمرة له فالأولى نبذه وراء.

12) كتاب عادي في طرة منه: وبعد فليعلم الواقف على رسمنا هذا من أئمة المسلمين وعلمائهم اننا أدركنا وعقلنا قضاة بلادنا وفقهاءها رحمهم الله، منهم:

1) سيدي إبراهيم بن محمد بن محمد احكوك.
2) سيدي محمد بن سعيد بن إبراهيم التيخفستي السملالي.
3) الفقيه سيدي محمد بن سعيد بن عبد الله العباسي السملالي.
4) سيدي عبد الله بن محمد بن حمزة السملالي.
5) سيدي علي بن محمد التملي.
6) سيدي علي بن محمد بن سعيد التيلكاتي.
7) سيدي يوسف بن يعزى الرسموكي.
8) سيدي عبد العزيز بن ابي بكر بن احمد الرسموكي.
9) سيدي محمد بن إبراهيم التمراوي الرسموكي.
10) الفقيه المعتبر في زمانه سيدي عبد الواسع بن أبي القاسم المرابط من اغرابو البعقيلي.
11) سيدي يوسف بن عمرو البعقيلي.
12) سيدي مسعود بن أحمد بن عبد الله الساموكني الأصل بسطح بعقيلة.
13) سيدي أحمد بن محمد بن يعزى الأمزوغاري البعقيلي.
14) سيدي أحمد بن إبراهيم التومناري[1].
15) سيدي عبد الملك بن أحمد بن أبي القاسم الافراني.

---

(1) هكذا التوماناري وأخاف أن يكون تصحيفًا من التامانارتي.

16) سيدي مسعود بن سليمان بن إبراهيم البعقيلي كلهم فقهاء وقضاة بلادنا رحمهم الله انتهى. وقد ذكر فيهم من لم نعرفهم في ذلك القرن الحادي عشر، فاستفدنا أن الجميع من أهل أواسط وأواخر ذلك القرن.

13) كتاب عادي نسخه الأستاذ محمد بن إبراهيم عن علي بن عيسى اعجلي عام 1225هـ فيه متون علمية، وسمى هناك شيخًا له مراكشيًّا إبراهيم بن الحسن الخطيب بجامع ابن يوسف شارح المجرادي، فعلمنا أن اعجلي يأخذ هذا الحين من الحمراء وإبراهيم هذا هو النظيفي الذي شرح أيضًا الهدية للدرعي.

14) كتاب عادي بنسخ محمد بن علي بن عبد الله بن يعقوب عام 1061هـ وكان عالمًا كبيرًا فهما كما يظهر هناك.

15) النصف الأول من المعجزات الكبرى للسيوطي، لم يؤرخ نسخه، والكتاب مطبوع.

16) كتاب عادي نسخه إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد الأدوزي بخط جيد، عام 1257هـ.

17) قصيدة بائية طويلة في بحر الطويل تتضمن التحسر من استطالة النصارى على الإسلام، أولها:

إلى الله في حال الشدائد يرغب ... ومنه الرضى والصفح والعفو يطلب

إلى آخرها ولم أستحضر قائلها ولا العصر الذي قيلت فيه.

18) كتاب عادي فيه بخط الصوابي في ليلة الثلاثاء ثالث عشر ربيع الأول عام 1147هـ توفي صاحبنا الوفي الصفي الحسن الفهم الزاهد الورع النحوي اللغوي الجيد الإدراك في كل فن من معقول ومنقول، المخصوص في وقتنا وفي قطرنا بفهم مقامات الحريري ومعرفتها، سيدي عبد الله بن إبراهيم الرسموكي سقى الله ثراه شآبيب رضوانه الخ، كما وجدت ايضًا في الاثنين 15 جمادى الاولى 1156هـ توفي المرابط الخير أحمد بن محمد الأماسيني اليبوركي.

19) شرح الحضيكي على الرسالة مجلدان ضخمان ونسخه توجد.

20) كتاب عادي فيه أحمد بن سعيد بن أحمد الكلسي الصوابي حسن الخط من تلاميذ سيدي أحمد بن سليمان الرسموكي الفرضي، حي عام 1165هـ ينسخ.

21) نظم وفيات مشاهير المالكية هناك أوله في مسودته لأحمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمٰن بن بلقاسم بن محمد بن محمد بن عبد الله بن يعقوب لعله نظم كتاب ابن يعقوب جده.

22) كتاب عادي فيه تقييد وفاة الصوابي بخط تلميذه أحمد بن عبد الله الماسي، ثم نقلها عنه حفيده عبد بن محمد بن أحمد بن عبد الله والجد والحفيد عالمان لم نعرفهما إلا هنا[1].

23) شرح أبي فارس الرسموكي على السنوسية في 154 صفحة في 25 سطرًا بخط سيدي يبورك نسخه عام 1055هـ في مجلد غير كبير فكان نسخ النسخة في عصر المؤلف.

24) فتح الأكمام عن أزهار قواعد الإسلام لمحمد بن سعيد بن عبد الله السملالي بخط يبورك نقله من المبيضة للمصنف وهو منثور كتبه بخطه الواضح في 10 صفحات في 25 سطرًا، هو في مجلد غير كبير وأثره شرح يبورك على ذلك المؤلف في 48 صفحة وأحسب الشرح غير تام هنا، وربما خرج من هذه المبيضة، وما هنا واضح الخط بين.

25) أنوار السعادة الكبرى في شرح السنوسية العقيدة الصغرى في زهاء 60 صفحة بخط يبورك مؤلفه وهو في ذلك المجموع.

26) شرح القصيدة الرائية للدرعي في القواعد الإسلامية بخط مؤلفه يبورك وهو صغير في ذلك المجموع أيضًا.

27) لطائف من التنوير لابن عطاء الله ليبورك أيضًا وهو صغير في المجموع أيضًا.

28) كتاب عادي فيه: توفي المحب الفاضل أحمد بن علي اليربوعي في

(1) ترجمة الصوابي مستوفاة في (الرحلة الرابعة).

الجمعة 25 رمضان 1093هـ وتوفي شيخنا عمرو بن داوود بن إبراهيم المرتني 13 صفر 1181هـ كما وجد هناك أيضًا: توفي الشيخ الوالد الكامل أبو العباس سيدنا أحمد بن محمد بن صالح البعقيلي أصلًا بزاوية الصوابي بماسة الخميس الأول من جمادى الثانية 1240هـ كتبه ولده محمد اهـ باختصار كما وجد أيضًا اسم محمد بن يعزى بن يبورك بن الحسن السرحاني الإيسافني الفقيه، وكان حيًّا 1209هـ يزاول النساخة بخط حسن.

كما وقفنا على فتوى للفقيه أحمد بن علي التهالي الانغاري وعلى اسم محمد بن أحمد بن عبد الرحمٰن الوجاني يفتي مع إبراهيم بن عبد الله بن يعقوب، وعبد الواسع البعقيلي وقفنا في ذلك على فتوى في عام 1087هـ وعلى كلام لإبراهيم بن محمد بن محمد الاحكوكي القاضي.

29) مؤلف في العروض قديم متمزق بقيت منه أوراق متلاشية وصنيعه أن يأتي بالبحر ثم يطيل النفس بإسهاب فيما يتعلق به، فيورد قطعًا شعرية ثم يرجع عليها بتفسير الغريب كما يصنع المبرد في كامله وأمثاله في شرح الغريب ثم يبين المراد من إيراده للقطعة مما يتعلق بالفن، وهلم جرًّا مما يدل على انه كتاب عظيم والباقي بخط جميل.

30) مؤلف في الأوفاق كتب عليه (درة الغواص) وقد سقطت كلمة ثم ولي مكانها: إبراهيم بن أحمد التملي ولا ندري أهو مؤلفه أم مالكه فقط وهناك شرحه أيضًا، وليس في كل المؤلف إلا ورقة من أوله وقد ذكر لنا أن لعالم يسمى محمدًا الماسي مؤلفًا في العروض ربما يوجد عند بعض الأدوزيين هكذا التصق كتاب الاوفاق بهذا المؤلف في مذكراتي، ولا أستحضر الآن السبب.

31) شرح عبد الله بن يعقوب الصغير على السنوسية، وهناك أيضًا الكبير له.

32) كتاب النجم، من كلام سيد العرب والعجم هكذا وجدته عندي مضبوطًا لأحمد بن سعيد بن عيسى التجيبي ثم الاقليشي والنسخة في نحو 60 صفحة صغرى في 17 سطرًا وهو في مجموعة صغيرة حسنة الخط،

بل جيدة نسخها عبد الرحمٰن بن محمد الماسكيني، ولكن لم يؤرخ وقت النسخ إلا أنه ظهر بإمارة في المجموع أنه كان قبل الحادي عشر والكتاب مطبوع وأثره عقيدة أبي عثمان السلالكي منثورة صغيرة.

33) رجز فيه باب صفات الرجال المحمودة ثم فصول ثم صفات النساء المحمودة. ثم فصول باب في أسماء الحب باب ما يحتاج إلى معرفته من خلق الإنسان، باب في الأسنان، باب في الحلي. وقال في آخر الرجز بعد ما تم انتهت الأرجوزة بحمد الله بعد ما صححتها وأزلت تصحيفها للسيد عبد الله بن الحاج شعيب من تلضل الهلالي الإيلالني يوم الجمعة 5 المحرم فاتح: 1018هـ قاله، وكتب منشؤها يحيى بن محمد بن الحسن اللكوسي، غفر الله له ونفعنا به آمين ونسخت لنفسي ولمن شاء بعدي من الأخوة والأحباب، فرغت من نسخها في 17 من جمادى الأولى عام 1149هـ عبيد ربه سبحانه الراجي عفوه محمد بن محمد بن الحسن التاسوسختي من الايستوال، كان الله في المقام والرحيل انتهى فعرفنا هؤلاء العلماء الثلاثة.

34) قصيدة في بعض سلاطين المغرب دالية مطلعها:

تأوه من عض الزمان فؤادي ... وأسحت من بعد النماء تلادي

يقول في مديحها:

فسل فاس عن أبناء وطاس واسألن ... مباني النصارى عن جموع فساد

ويقول:

أيا ابن علي يا ابن بنت محمد ... ويا ابن أبي الضيفان أنت عتادي

والقصيدة لسعيد الحامدي، وهي توجد في (المترعات).

35) رسالة في صفحات صغيرة مدمجة الخط كتبها التيزركيني إلى سيدي أحمد ابن موسى جوابًا له عن سؤال إلا أن الرسالة تمزقت أعاليها، ووقع فيها بتر أخيرًا، والرسالة كان اسمها مذكورًا في التاريخ.

* * *

هذه هي الفوائد التي ظفرنا بها في خزانة هذه الشعبة اليعقوبية العالمة وهي الآن موزعة بين سيدي عبد الرحمٰن وأخويه: سيدي محمد الأديب، وسيدي أحمد الصوفي ثم صار ما لهذين تحت أيدي ورثة كل واحد منهما، وقد وقعنا هناك على كتاب عليه تحبيس السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي على خزانة جامع السويرة[1] وهكذا تبعثرت تلك الخزانة السويرية، وقد كنت وقفت في خزانة صاحبنا القاضي ابن العربي الدكالي على أسماء الكتب المحبسة هناك وبينها نفائس كغزوات المنصور ابن أبي عامر لابن حيان المؤرخ المشهور، ولا يدري إلا الله أين كل تلك النفائس، فإنها - لا شك - وقع لها مثل ما وقع لهذا الكتاب الذي سقط إلى ماسة، نعم هناك فوائد أخرى أرجأنا إثباتها إلى محلاتها في (المعسول) إن شاء الله.

خرجنا من القرية فعرجنا على المكان الذي ذكروا أنه مرت فيه مدينة ماسة القديمة التي يذكر في أخبار اللمتونيين أنهم فتحوها أثر دخولهم من الصحراء. ولا يزال هناك برج يقال له برج اللمتوني ذكروا أنه كان في قصبة لمتونية مبنية إذ ذاك وآثار الأطلال للجميع لا تزال، والمحل مشرف على بسيط هشتوكة وعلى وادي ماسة، فينجو من يعلوه من الوخم وهناك أثر للمسجد، ويقولون إن العمارة لم تزل متصلة هناك إلى أن أتى طاعون جارف فانقرض السكان إلا من هربوا، فأسسوا قرية أخرى وأيًّا كان فكون هذا المحل هو تلك المدينة أقرب من أن نقول إن المدينة عين رباط ماسة الآتي الذكر، لأن العمارة هنا أسهل وأقرب والله اعلم.

ثم بين الظهرين رجعنا إلى دار القائد الذي كان إذ ذاك في تيزنيت، وقد كان خرج إليها وقت خروجنا في الصباح فوجدت أمامي جواب رسالة كتبتها إلى الأستاذ الكبير، زينة هشتوكة نائب القاضي سيدي الحسن بن مبارك البعقيلي. ونصها:

---

(1) يرى بعض النبهاء كتابة اللفظة بالسين من سور البلد مصغرًا، واما بالصاد فبعيدة المعنى، وقد كان علماء قبلنا يكتبونها بالسين، وأما نحن فنألف أن نكتبها بالصاد إلا إذا تنبهنا فنكتبها بالسين.

الأستاذ العلامة، الكبريت الأحمر النظار، السيد محمد المختار، سلام الله ورحمته على سيادتكم الفضلى، ومجادتكم المثلى ما طلع هلال وسمع إهلال هذا وقد وصلني كلامكم الأعز وفرحت به غاية الفرح فأنشدت متمثلًا قول الصفي الحلي.

وقفت على ما جاءني من كتابكم ... فكان لآلام القلوب مداويا
فهيج لي شوقًا وما كان ساكنًا ... واذكرني عهدًا وما كنت ناسيا

وقول القائل:

ورد الكتاب من الحبيب بأنه ... سيزورني فاستعبرت أجفاني
غلب السرور علي حتى أنه ... من فرط ما قد سرني أبكاني
يا عين صار الدمع منك سجية ... تبكين في فرح وفي أحزان

وموعدنا في الدار صبيحة الثلاثاء إن شاء الله الخ باختصار.

ثم توجهنا بعد العصر إلى اغبالو، فانحدرنا في الطريق المرصوفة فمررنا بسوق الثلاثاء الحديثة البناء بعدما نقلوا السوق من مكانها القديم. فوجدنا هناك صهريجًا حسنًا إزاء المجزرة المبلطة، ويقال: إن في محل السوق هنا أطلال دار لقائد لم نجد من يحدثنا عنه ثم وصلنا مع غروب الشمس، فتلقانا أهل اغبالو الكرام، كما تلقانا السيد المدني استدعانا واحتفل لنا غاية الاحتفال بضيافة حضرية لم تغادر كل ما يعرف من أنواع الأطعمة من بسطيلة[1] فضلًا عن غيرها، فدل ذلك على أناقة من وراء الحجاب من سيدة سويرية هي ربة الدار، كما أنه صار لنا من حديث مضيفنا المؤنس أفضل متعة، والرجل عصري من آخر طراز إلا أنه ليس من بخل العصريين في شيء وقد دب إليه عرق آله، فما تظن بمن كان ابن شيخ الجماعة سيدي محمد بن الحسن من القراء الكبار الذين خرجوا طبقًا عن طبق في القراءات السبع.

---

(1) لم يشع هذا النوع من الأطعمة في مآدب سوس بعد ولكن كأني بها طفح صنعها بعد قليل، فتقر أمثال عيون الغربيين الذين أولعوا بها، حتى كانوا هم السبب في ذيوعها في دكالة وعبدة والشاوية وتادلة، لأنهم يقترحونها على كل من استدعاهم.

ومما حدثنا به مضيفنا الكريم نبأه مع جرمانيين كانوا تمشوا مع ساحل المغرب باستخفاء يصورونه، ثم لما وصلوا مقابل ماسة، ظنوا أنهم في مقابلة (أفني) فغرهم من رأوهم هناك فلم يزالوا بهم فتلًا في الذروة والغارب حتى أوصلوهم إلى تزنيت وكل ذلك بيد هذا الحاكي اللبق، وذلك قرب إعلان هذه الحرب الضروس، وقد كانت القضية شاعت، وهذا هو ملخصها.

وقرية اغبالو هذه معروفة هكذا من عام 590هـ كما في (الاستبصار في ممالك الأمصار) وذكر هناك أن عقبة بن نافع وصل ساحل ماسة.

وفي صبيحة الأحد ركبنا إلى رباط ماسة، فقطعنا كثبانًا فوق كثبان حتى وقفنا على المحل الذي يقال أن مسجدًا قديمًا ردمه فيه الرمل، يظهر بعض أركان أعاليه أحيانًا، وإزاءه بيت مبني حديثًا، يبيت فيه الزوار، وهناك بئر هي مسقى قرية حديثة سكنت هناك، وإزاءها أيضًا بئر أخرى حفرها القائد الحاج محمد وعن أذنه انتقل أهل القرية من محلهم الأصلي الذي ردمه الرمل حين هددهم بالانسياح نحوهم، والقرية الآن فيها سكان من شذاذ الآفاق، ثم إنني وقفت قليلًا إزاء ذلك البيت المذكور استعرض أمامي تاريخ هذا المحل الذي نسجت حوله روايات(1) حديثية مأفوكة كما كان له في القرن الخامس فالسادس فما بعدهما شأن كبير عند العباد والزهاد والمرابطين في سبيل الله.

وقد ذكر أيضًا هذا المسجد في الاستبصار فقال: إن محله مجمع الصالحين والعباد، وتقام فيه سوق كبرى وقد جرى أيضًا ذكره عرضًا في تاريخ ابن خلدون، كما رأيناه أيضًا يذكر بعده ولم يهدأ الحديث عنه، ولا تدفق الزوار إليه إلا من قريب، فيتناساه الأباعد عنه شيئًا فشيئًا، ومن تلك القرية تظهر لنا قبة سيدي وساي الذي منعنا من زيارته تدفق الماء في الوادي للأمطار الغزيرة التي كانت عجبًا في الليلة الماضية حتى كانت في نواح من جزولة بردًا يقارب بيض الحجل خصوصًا في أفران وما إليه وأما هناك في ماسة فلم ينزل إلا مطر ملث منهمر انهمارًا هائلًا، فبهذا السبب تعذر علينا الوصول إلى ذلك

(1) رأيت في صفحة أو صفحتين ما يقال في ذلك عمن يسمونه الباجي.

المشهد الذي على سيدي وساي فترحمنا على المدفون فيه من بعيد[1] ثم رأينا مصب وادي (الغاس) ومكان حقول كثيرة كانت مباقل للسكان هناك قد جرفها الوادي فعادت رمالًا منهالة، وقد كان هذا المكان مرفأ في أول عهد بودميعة، ويضاف إليه بودميعة حتى ليقول الأوروبيون عنه صالح ماسة ومن هناك رجعنا على الطريق الممهدة لأننا كنا مشينا على الغابة، فسرنا تحت شمس حارة إلى أن وصلنا قرية فيها قبة صالح يسمى سيدي محمد بن مبارك فنزلنا وتناولنا هناك شيئًا من الزاد كان معنا وإن كان مقدم الضريح لم يقصر جزاه الله خيرًا، وهذا السيد يقال أنه من أولاد السيد الصالح الشهير في آقا سيدي مبارك، وهو أخو عبد الله بن مبارك العلامة الكبير المتوفى 1015هـ وذكروا أنه كان يرد مع سلاطين إلى هذه الناحية، ثم سكن هناك فإن كان ذلك كله صحيحًا فإنه في عصر السعديين، وربما يتوفى بعد أوائل الحادي عشر.

(وبعدما كتبت هذا وجدنا أخبار الرجل عند أهل آقا فعرفنا أنه حقًّا أخو سيدي عبد الله بن مبارك بلا ريب) وقبته لم تتسع كثيرًا، وقد قرأنا في جوانبها الأربعة أبياتًا كتبها كاتب بالمغرة، تتضمن الاتعاظ بالموت فمما هناك:

تزود من الدنيا فأنت مسافر ... ولا بد من زاد لكل مسافر

ومنه أيضًا:

فلو كانت الدنيا تدوم لأهلها ... لكان رسول الله حيًّا وباقيا
ولكنها تفنى ويفنى نعيمها ... وتبقى الذنوب والمعاصي كما هيا

وقد كان صاحبنا في هذه الجولة إلى رباط ماسة أحد نبهاء اغبالو الغير على الإسلام، وهو الحاج محمد، وقد ألم بكل الحركة العصرية الشرقية الحديثة وطالع من الصحف ومن كتب قيمة (نحو حاضر العالم الإسلامي) وقد كان يسكن في السويرة. ثم حج وثافن ودخل تونس، وهو من الأعاجيب في ذلك الوادي، وله اعتقاد في السلفية التي لها روجان اليوم في الحركة الدينية الناهضة الآن، وكان يتخول أهل القرية بالموعظة الحسنة في الرمضانات بمسجدهم.

---

(1) قد تيسر الوصول إلى القبة في زيارة أخرى بعد هذه.

(ثم إنه توفي في آخر عام 1362هـ فأبقى ذكرًا عطرًا وإن لم يبق وارثًا) وكان يكتم عن العائلة ما لا تحتمله عقولهم من نهوض هذا العصر ويبث فيهم التوحيد الخالص، وهو حسنة ذلك الوادي في هذا الجيل.

وعند الزوال توجهنا إلى اغبالو فسلكنا إليه أواسط الحقول التي تروى بالعين النابعة فوق القرية وقد وقفت عليها كما تروى أيضًا بالآبار، لأن ماء الوادي يسفل عنها وإنما يستقى بماء الوادي الماسيون الأعلون، وأما القرى الواطئة فإنما تستقى من عيون توجد في كل قرية وغالب سكان القرية اغبالو من الذين جلوا عن رباط ماسة المندثر وعن قرية أخرى دونه، ويقولون أن سبب عمران هذه القرية أن معزة حفرت برجلها، فإذا بماء العين فأبلغ الراعي الخبر إلى تلك القرية فتجارى أهلها فحفروا حتى جمعوا ماء العين ثم صاروا يتواردون بالسكنى شيئًا فشيئًا حتى أخلوا تلك القرية القديمة، وعمروا هذه الحديثة ويوجد اسم اغبالو كعلم هذه القرية في كتاب (الاستبصار في ممالك الأمصار) لمؤلف مجهول ألفه عام: 590هـ وقد غلط هناك فجعل مصب وادي سوس الكبير هو هذا المحل مع أن مصبه في قرية (تارايست) في قبيلة (كسيمة).

نزلنا في دار رئيس القرية الكريم الشيخ أحمد وهو من أسرة كانت جلت قديمًا عن رباط ماسة، وهي التي لها رئاسة الرباط كما تدل عليه الآثار الآتية، وهناك أسرة آل الفقيه الماجدة وتنتسب هي إلى الشيخ سيدي محمد بن عمرو الاسريري من رجال (التشوف) لابن الزيات، وقد عرفنا نسبه وهو عندنا، وقد توصلت من هذه الأسرة بمشجر نسبها فإذا بالذي يمكن أن يرفع فيه نسبها إلى ذلك الجد ممزق، والذين ينتسبون هذه النسبة كثيرون فقد تقدم ذلك عند ذكرنا آل (تاغلولو) وكذلك عرفنا أن بعض أفخاذ من تانكرت باداوتنان ممن يمت إلى هذه النسبة أيضًا وأسرة آل الفقيه عالمة سترد إن شاء الله في المعسول.

اجتمع علينا في دار الكريم المذكور الإخوان من أهل القرية وآخرون من قرية ايفريان قدموا وسط ذلك النهار يستدعوننا إليهم، وقد كان بركة المجلس الفقيه الصوفي سيدي الحسن من رجالات أسرة آل الفقيه النبيهة، وقد أتاني

رب المثوى بما تحت يده من رسائل وظهائر يحافظون عليها، فيها فوائد شتى.

آثار عن رباط ماسة:

مجموعة ينبغي لنا أن نحييها الآن بالنشر، فإن مجموعها ذو فائدة عظمى وربما لا يخلو كل أثر أثر منها عن مطلق فائدة فلنتتبعها على حسب تاريخها فنكتبها متسلسلة كما هي خالطين بين رسائل رسمية أو لرؤساء سوس وبين ظهائر الملوك وغيرها مما وجدناه، وإليك ذلك:

- 1 -

يشهد أن هذا الرسم يعرفون جابر بن إبراهيم المرابط معرفة صحيحة كافية، ويشهدون مع ذلك أن العداوة والبغضاء وقعت بينه وأبناء بني ميط عدة من سنين عادوه من أجل أنه يتصرف مع أبنائهم، كل ذلك في علم شهوده علموه فيه وتحققوه حسب وصفه وفي حال صحة وجواز وطوع ورضى، وبتاريخ جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وتسعمائة، الشيخ محمد بن سالم شهد الشيخ علي بن عبد الرحمٰن، شهد الشيخ يوسف بن مسعود، شهد عبد الله ابن محمد، شهد يحيى بن محمد، شهد إبراهيم بن محمد، شهد سعيد بن علي أصدر، شهد وقيد عنهم علي بن ياسين وأحمد بن يزيد شهدًا مكتوب بخط جيد، مما يدل على أن كاتبه علي بن ياسين عربي مبين فيكون أحد علماء ذلك الوادي في القرن العاشر ثم في أسفل ذلك شهادة أخرى مثلها إلا انها مكتوبة بخط رديء وبعبارة منحطة، وقد شهد هناك بمثل تلك الشهادة وتحته أعلام القاضي معوج الخط، ولعله أحمد بن محمد بن أيوب، فنعرفه قاضي ماسة في ذلك الحين.

- 2 -

عن عبد الله علي المتوكل على الله أمير المؤمنين الشريف الحسني أيده الله تعالى وأعز نصره بمنه، يستقر هذا المكتوب الكريم بيد الفقيه الأثير المرابط الخير سيدي أحمد بن إبراهيم الرباطي إمام مسجد رباط ماسة، يحمل به على كاهل المبرة والإكرام والرعي الجميل والاحترام، مع أشقائه المندرجين معه (مبجلين) ومحررين من جميع المطالب المخزنية، وسائر المغارم والخراج

السلطانية تحريرًا يتم رسمه ويتأبد حكمه على الدوام والاستمرار بمرور الليالي والأيام والشهور والأعوام، لمقامهم العظيم، وإجلالًا للقرآن العظيم، (والعلم وحسن أحوالهم) لا يغير عليهم في شيء من ذلك عادة من عوائدهم، كما كتب لهم مولانا السلطان الوالد رحمه الله بذلك، ومن أخذ منهم شيئًا فليرده لهم ويتركهم على عوائدهم ولا بد وكتب بربيع الثاني عام خمسة وثمانين وتسعمائة اهـ.

وليس فيه طابع، وإنما كتب السلطان فوقه بخط لا يقرأ وقد عرفنا الآن أحمد بن إبراهيم الفقيه، ولا يزال ذكره عند أسلافه بأغبالو، وجابر المتقدم أخوه كما ستراه، وقد عرفنا أن هناك ظهيرًا لمحمد الشيخ إلا أننا لم نجده، ولعله تمزق.

- 3 -

عن أمر عبد الله المجاهد في سبيل الله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسني، أيده الله يجدد بحول الله تعالى وقوته لحملته أولاد المرابط إبراهيم بن محمد حكم عوائدهم، ومقتضى ظهائرهم المستوجبة لهم التوقير المعتاد لوالدهم من قديم، وعلى ما أصله لهم سلفنا الكريم جارين على سننهم القويم، وعلى أحوالهم المعتادة المألوفة دون أن تمتد إليهم يد في أمر من الأمور بخرق عادة أو يرومهم في جميع الأحوال بنقص أو زيادة، والواقف عليه يمتثل العمل به، ولا يتعدى واضح مذهبه، ولا بد والسلام وفي جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وتسعمائة.

وفوقه الطابع الكبير المشهور لأحمد الذهبي، والظهر قبله للسلطان عبد المالك بطل وادي المخازن وقد عرفنا الآن أن إبراهيم والد أحمد بن إبراهيم كان أيضًا قبل ولده رئيس الرباط ولعل ذلك تسلسل فيهم من قبل.

- 4 -

يشهد من يضع اسمه عقب تاريخ هذا الرسم بمعرفة أولاد المرابط الخير الدين سيدي إبراهيم بن محمد بن إبراهيم مرابط رباط ماسة نفع الله به. وهم الفقيه المكرم أبو العباس سيدي أحمد بن إبراهيم، وشقيقه المرابط سيدي

إبراهيم، معرفة صحيحة تامة، ويشهدون مع ذلك أنهم هم المتولون أمر رباط ماسة المذكور نفع الله به الجميع من الإمامة في الصلوات بجامعهم المبارك وغير ذلك من أموره، يقدمون في ذلك على غيرهم سلفهم عن سلفهم من غير منازع لهم فيه إلى الآن سيدي أحمد وشقيقه المرابط إبراهيم، وهما من أهل الخير والصلاح والتقى والأمانة والعفاف والصيانة، وإنهما لم يزالا يطعمان في الموسم المبارك الفقراء الواردين لرباط ماسة والزائرين له من سائر البلاد من النساء والرجال، أيام الموسم المذكور حتى يرجع الناس منه، فعلى هذه الحالة عرفوهما ولم ينتقلا عنها، ولا تبدلا بها حالة سواها حتى الآن كل ذلك كان في علمهم علموه وتحققوه حسب وصفه وقيدوا به شهادتهم مسؤولة منهم في رجب الفرد عام سبع وستين وتسعمائة.

وفي أسفل من ذلك أسماء الشهود بخطوطهم وعلاماتهم، وفي محوله ما نصه:

فحملته أولاد المرابط الخير الدين سيدي إبراهيم بن محمد المقدم برباط ماسة نفع الله به، وهو الفقيه الأرضي الأسنى سيدي أحمد بن إبراهيم وشقيقه المرابط جابر المذكوران بمحوله المتوليان أمر الرباط المذكور بالإمامة ووظائف العبادات والإطعام للواردين والزائرين يبقيان على ما عهد لهم من التوقير والاحترام والمحاشاة، وأمرنا لهما أن يعطيا عشر زرعهما للمستحقيه من الفقراء والمساكين على أيديهما في المواسم المباركة بحيث لا معارض لهم في ذلك ونؤكد على الواقف عليهما من خدامنا أن لا يتعدون حدودهم ولا يتعدى أمرنا هذا، ولا بد.

وتحته كتابة بعض القواد على سوس بخط رديء لا يقرأ وتحته طابع له صغير لم نهتد لقراءته أيضًا وتدل بعض كلمات قرأناها منه على أن المقصود تنفيذ ذلك ثم كان أيضًا أسفل منه ما نصه:

أبقينا المرابط السيد أحمد بن إبراهيم وشقيقه جابرًا على ما كتب لهم به القائد محمد بن مسعود، عمر بن العربي[1] بأعشارهم على أيديهم على

(1) كذا.

المساكين برباط ماسة، وكتب بأواسط صفر عام ثمانية وتسعين وتسعمائة عبد الله بن إبراهيم فذلك الظهير الذي أوله: فحملته أولاد المرابط الخ إنما هو من هذا القائد فنستفيد أحد قواد سوس في عصر أحمد الذهبي وإن لم نعرف عنه شيئًا، وأما عبد الله بن إبراهيم المتأخر فيظهر أنه رئيس لماسة خاصة إذ ذاك، ثم إن جابرًا المتقدم تحققنا الآن أنه أخو أحمد وإبراهيم ابني إبراهيم فكأنه يترادف مع أخيه إبراهيم فأحيانًا يذكر هو، وحينًا يذكر إبراهيم أخوه كما ترى.

ـ 5 ـ

اتفقت جماعة الخير والبركة بنو أومحيا وبنو مدس وبنو ولون على تحرير المرابط الخير الفقيه السيد أحمد بن إبراهيم مرابط رباط ماسة نفعنا الله به، وابن أخيه محمد بن أبي بكر بن جابر الذي في حجره وتحت ولاية نظره في ما يجري على أهل ماسة كائنًا ما كان، من المغارم واللوازم والسخر والضيافات والمداريات وغير ذلك من سائر ما يجري على أهل القبيل المذكور معترفين على أنفسهم أنهم لا مدخل لهم في جملة نوائبهم ولا كانوا معدودين بينهم لكون أسلافهم رحمهم الله أسقطوهم من حسابهم ومن جملة نوائبهم من قديم الزمان إلى الآن حين تاريخه، لأن دارهم دار الخير والبركة والدين والعلم والعفاف والصيانة قاصدين بذلك وجه الله العظيم والدار الآخرة وطلبوا من الله تعالى بركاتهم وبركات أجدادهم، وهذا التحرير لهم ولأولادهم وأولاد أولادهم إلى منتهاهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وممن اتفق على ذلك وشهد به على نفسه الشيخ إبراهيم بن الحسن والشيخ علي ابن عبد المؤمن والشيخ عامر بن سعيد والطالب عبد الرحمٰن ابن الطالب والفقير الشيخ عبد الله بن محمد بن ناصر والشيخ محمد بن علي بن زكري كلهم من جماعة بني أومحيا وعلي ابن عبد الرحمٰن الولوني ويدير بن إبراهيم من النسب وعبد الرحمٰن بن أحمد من النسب ومبارك بن علي من النسب، ويشو بن علي من النسب، ويوسف بن محمد الرحيلي المديسي، وأحمد بن عبد الرحمٰن المرابط المديسي، وعلي بن الحسن المرابط المديسي، والطالب محمد بن يشو المرابط المديسي، ونقل عنهم عارفوهم بحال صحة وجواز وطوع ورضى

بشعبان عام أربع وعشرين وألف، علي بن عبد الرحمٰن الماسي لطف الله به (وهناك شكله، ومعه آخر).

وتحته ما نصه:

حامله الفقيه المبجل سيدي أحمد بن إبراهيم الرباطي وولد أخيه أبو بكر ابن جابر بما شهد جماعة بني أومحيا انهم حرروهما من جميع المطالب المخزنية وسائر الكلف والوظائف وسائر المغارم، كما شهد بذلك بنو أومحيا المذكورون، وبنو مديس، وبنو ولون، فإنهم يسقطون من جميع ما ذكر كيف كان وورد، ولا سبيل لأحد من المذكورين ولا من الخدام والعمال الجائرين على أهل ماسة على المذكورين في المغرم والسخر والحركات والضيافات وإنما يبقون على التوقير التام والاحترام العام، ومن أراد نقض ما ذكر على المذكورين تناله الملامة والعقوبة من ولاة الأمر أيدهم الله ويغرم ما أخذ منهم، وعلى هذا يكون العمل بالشرع والعوائد وبه كتب بتاريخ شعبان عام أربع وعشرين وألف، علي بن محمد بن مسعود.

* * *

هذا العهد الذي كتب فيه هذا هو مفتتح عصر بودميعة ولا نشك في أنه هو ورجال حكومته هم المقصودون بولاة الأمر، وقد عرفنا في التاريخ أن مرفأ ماسة قد ابتدأت فيه الحركة قرب عام 1024هـ ويلوح أن علي بن محمد بن مسعود الذي أمضى هذا الأثر الأخير قائد لبودميعة، ويلوح أنه ابن القائد محمد ابن مسعود المتقدم، والله أعلم.

وقد رأيت هنا كيف امتد عمر الفقيه أحمد بن إبراهيم إلى عام 1024هـ وكيف تشأ أبناء إخوته فكانوا في كفالته، فأبو بكر ابن جابر أو محمد بن أبي بكر بن إبراهيم ـ على اختلاف ذلك كما رأيت في الأثرين ـ كان نشأ تحت كنفه إذ ذاك.

ـ 6 ـ

المرابط محمد القاطن بماسة وولده سعيد، سلام عليكما ورحمة الله، وبعد فإن زلتما برباط ماسة كما عهد لكم من قديم وبنيتما به، وأقمتما الدين

على أساسه بتحفظ على الصلوات الخمس بالجماعة والأذان في وقته كما هو مرسوم عندكما، نفعل معكما جميع الخير إن شاء الله من التوقير التام ويعمكم فضلنا العام ويعنو لزاويتكما من يخدمها إن توفرت تلك الشروط، وبحسبه يكون العمل والسلام، وفي ثالث المحرم فاتح اثنين وتسعين وألف.

وفوقه طابع وسط غير بين الخط، وربما كان لأحمد بن محرز، لأنه هو الأمير المشهور في سوس إذ ذاك وقد ثار على عمه إسماعيل، وقد وقفنا على مخاطباته في عام 1092هـ.

ـ 7 ـ

كتابنا هذا أيد الله أمر ضيفنا المنصور، بيد ماسكه سعيد بن محمد وإخوانه المذكورين في كتاب ضيفنا الأسمى الشريف يتعرف من يقف عليه من أصحابنا أو خدامنا ضيفنا المنصور بالله أن يوقرهم ويحترمهم ولا سبيل لمن يتعدى عليهم في قليل ولا في كثير ولا جليل ولا حقير، وقد أسقطت عنهم سائر ما يجب عليهم من التكاليف السلطانية، والوظائف المخزنية قلّت أو جلت، وعلى أي وجه تعينت تحريرًا تامًّا مطلقًا شاملًا عامًّا فحسب الواقف عليه العمل به، ولا يتعداه والسلام في السابع من المحرم الحرام فاتك عام ك . . . صي6.

وتحته طابع صغير لا يقرأ ولم نهتد لإدراك وقت هذا الظهير ولا من هو المقصود بضيفنا الذي ذكره، وقد حزرنا أن يكون المولى الرشيد لأننا رأينا له مثل هذه الرموز في أواخر ظهائره إذ ذاك، وقوله ضيفنا المنصور لعله يقتضي ذلك على ما فيه (والرمز للتاريخ بالحروف شاع في ذلك الوقت وقد حدثني الأستاذ الأخ التطواني أن هناك رسالة تذكر فيها هذه الحروف كرموز للتواريخ، ويعرف ذلك بالقلم الفاسي، ولم أر أنا هذه الرسالة إلى الآن).

ـ 8 ـ

حامله المرابط سعيد بن محمد القاطن برباط ماسة أذناه بحول الله وقوته بصرف واجب عشره وأعشار أخيه مبارك بن محمد بن عمه محمد بن عبد الله،

وزكاتهم فيما يعرض له من مصالح المسجد الذي هو بصدد بنيانه وإحياء رسمه بالرباط المذكور الآذن التام الموجب له التصرف في ذلك حسبما ذكر على الاستمرار والدوام، ونأمر مملوكنا حدو بن علي المتطبب أن يكف عنه يد المضرة في أجنتهم وأملاكهم، بحيث لا يدع من يلاحظهم إلا بعين المبرة والإكرام وكتب بثاني صفر خمسة وتسعين وألف.

وفوقه طابع هو بعينه عين ما قلنا أنه لابن محرز إلا أننا لا نقدر على قراءته وحدو بن علي يظهر أنه قائد هذه الجهة إذ ذاك.

- 9 -

كتابنا هذا أسماه الله بيد حملته المرابطين سعيد بن محمد وأخيه مبارك بن محمد وأبي العيد بن محمد ومحمد بن بلا وصالح بن أحمد وأبو القاسم بن أحمد يتعرف منه بحول الله وقوته أنا جددنا لهم حكم ما بيدهم من ظهائرنا الشريفة المتضمنة توقيرهم وإعظامهم وتفريق أعشارهم على أيديهم لمستحقها وحسب الواقف عليه أن يعمل به، والسلام وفي الثالث عشر. . . . المبارك سنة ست وتسعين وألف.

وفوقه ظهير إسماعيلي ليس بالكبير في دائرته الوسطى إسماعيل بن الشريف مع كلمة أخرى لم نتبينها وقد علمنا أن المولى إسماعيل كان استولى في هذه السنة على سوس ونزعها من ابن محرز.

- 10 -

من فضل الله وما أسند إلينا ضيفنا أيده الله بسطنا على حملته المرابطين أهل الخير؛ الفقير سعيد، والفقير مبارك والفقير محمد يد التوقير والاحترام . . . . أسلافهم حسبما كانوا في تلك الزاوية المباركة نفع الله بها من غير نقص ولا زيادة والسلام عاشر ربيع الثاني، تسع وتسعين وألف.

وتحته طابع صغير فيه: عبد الملك بن محمد الخطيب وفقه الله آمين، فعلمنا اسم هذا القائد على سوس إذ ذاك للمولى إسماعيل.

ـ 11 ـ

حملته المرابطون أهل الرباط: الفقير سعيد والفقير مبارك والفقير محمد ابن بلا حررناهم التحرير التام المؤبد العام فلا يطالبهم أحد بقليل ولا كثير، والواقف عليه يعمل به ولا بد والسلام في عشرين من ربيع الثاني عام 1101هـ.

وتحته طابع بيضي الشكل مثل الذي فيه اسم الخطيب المتقدم، وفيه؛ عبد الملك ابن محمد الخطيب (لعل) ولم نتبين ما فيه جليًّا.

ـ 12 ـ

من فضل الله تعالى وبركة مولانا أيده الله حررنا المرابط سعيد بن محمد وأخاه مبارك بن محمد ومحمد بن بلا أهل رباط ماسة التحرير التام المؤبد العام، فلا يطالبهم أحد بقليل ولا كثير، ولا جليل ولا حقير، فهم محررون بقصد ذلك الحرم وكل من طلبهم بشيء فلا يلومن إلا نفسه، ونؤكد الشيخ حموش أن لا يرزأ مالهم بشيء ولا بد والسلام. وكتب في ثاني ربيع الثاني 1103هـ.

وتحته ذلك الطابع نفسه، وفيه بلا ريب: عبد الملك بن محمد الخطيب وفقه الله وقد عرفنا من هناك رئيس ذلك الوادي الذي ينفذ أوامر القائد الأعلى، وهو الشيخ حموش.

ـ 13 ـ

عيسى أبحري وأحمد بن بلعيد سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فالفقير سعيد بن المرابط الرباطي وإخوانه قد حررناهم كما بكتابنا في يدهم، فلا يقربهم أحد واستوصينا بهم خيرًا، فإنا تركناهم بقصد عمارة ذلك الموضع والسلام. في وسط ربيع النبوي عام 1105هـ.

وتحته ذلك الطابع نفسه.

ـ 14 ـ

من فضل الله وبركة ضيفنا أيده الله جددنا لحامله الطالب المرابط السيد

سعيد بن محمد الرباطي براءة التحرير التي بيده المتضمنة توقيره هو وأخويه من جميع الوظائف كلها وبأسرها من غير مزاحم لهم في شيء من الأشياء كلها ويرحلون وينزلون بمكانهم في الرباط والسلام، وكتب في التاسع من صفر عام خمسة ومائة وألف.

وتحته الطابع عينه.

ـ 15 ـ

من فضل الله علينا وبركة أمير المؤمنين مولانا المنصور بالله جددنا لحملته المرابطين سعيد بن محمد وأخيه مبارك بن محمد وبلعيد بن عبد الرحمٰن، ومحمد بن بلاء وصالح بن أحمد وأبي القاسم بن أحمد على ما بيدهم من ظهير سيدنا نصره الله، المتضمن توقيرهم واحترامهم ومحاشاتهم من جميع الوظائف المخزنية وأعشارهم يصرفونها على أيديهم لمستحقها من مستحقيها، بل لمصالح مسجد رباط ماسة ولا بد، وكتب في السابع والعشرين من ذي القعدة عام السادس ومائة وألف.

وتحته طابع فيه: وصيف العالي بالله مسعود . . . . على ما تبيناه منه بجهد فيكون مسعود هذا قائدًا إسماعيليًّا على جهة ماسة أو على سوس كله.

ـ 16 ـ

من فضل الله تعالى وبركة والدنا المنصور بالله وما أسند إلينا من النظر جددنا بحول الله وقوته لحملته المرابطين سعيد بن محمد وأخيه مبارك بن محمد وأبو العيد ومحمد بن بلا وأبي القاسم بن أحمد حكم ما بأيديهم من الظهائر الشريفة المتضمنة توقيرهم واحترامهم ومحاشاتهم من جميع الوظائف وسائر التكاليف فلا يطالبون بشيء جل أو قلّ تجديدًا لا يزال بحول الله جديدًا ولا يزيده القدم إلا تأكيدًا، والواقف عليه من أشياخ القبيلة الماسية والجرائين يعمل بمقتضاه ولا يتعداه والسلام، وفي السادس من ذي الحجة الحرام عام ستة ومائة وألف.

وتحته طابع فيه: عبد الملك بن أمير المؤمنين، وقد رأينا آثارًا كثيرة لعبد الملك هذا في هذا الوقت وبعده.

- 17 -

حملته المرابطون القاطنون برباط ماسة، وهم سعيد بن محمد وأخوه مبارك بن محمد وبلعيد بن محمد ومحمد بن بلا، وصالح بن أحمد وأبو القاسم بن أحمد، جددنا لهم ما بأيديهم من ظهائر والدنا المنصور بالله المؤذنة بتحريرهم وتوقيرهم ومحاشاتهم من كل وظيف، قوي أو ضعيف. وجميع أعشارهم إذنًا لهم أن يفرقوها على أيديهم لمستحقيها من الفقراء والمساكين، حسبما تضمنه الظهير الكريم، والواقف عليه يعمل به والسلام. وفي الثامن من ذي الحجة سنة تسع ومائة وألف.

وتحته طابع فيه: محمد بن إسماعيل أمير المؤمنين، فنعلم الآن أن محمد العالم هذا كان في تارودانت منذ عام: 1109هـ ولم نكن نعرف من التاريخ إلا أن وقت مجيئه إلى سوس كان في حدود عام 1112هـ ولكن هذا أدل دليل على ذلك.

- 18 -

نأمر جميع من يقف على مسطورنا هذا أسمى الله ذكره إبراهيم الواح، وغيره من سائر عبيدنا وولاة أمرنا أن يترك خمسة كوانين التي لأهل الرباط من ماسة ولا يطالبهم من أجل ذلك بقليل ولا كثير، والواقف عليه يعمل به والسلام. في الثالث عشر من ذي الحجة سنة عشر ومائة وألف.

وتحته طابع آخر غير ما تقدم فيه: محمد بن إسماعيل أمير المؤمنين.

- 19 -

حامله الطالب سعيد الماسي صاحب . . . . . بنبيكة حررناه من جميع الوظائف وسائر التكاليف، فلا يطالبه أحد بقليل ولا كثير جليل أو حقير، ونأمر من يقف على مسطورنا هذا أسماه الله أن يعمل به والسلام. وفي السادس والعشرين من ربيع الأول عام: أحد عشر ومائة وألف.

وتحته طابع فيه: محمد بن إسماعيل أمير المؤمنين على ما تبيناه منه، وإلا فنعرف في هذا الطابع نفسه في هذا العهد أن في وسطه: يا عالمًا بحالي

(سطر) محمد بن إسماعيل (آخر) أمير المؤمنين الله وليه (آخر) عليك اتكالي (آخر) وفي دائرته شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولو (ثم فاصلة) العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم (ثم فاصلة أخرى) فتتم الدائرة.

ثم إن سعيدًا المحرر بهذا لعله من آل الرباط لمحافظتهم كما ترى على ظهير تحريره بين ظهائرهم.

- 20 -

من فضل الله تعالى وبركة سيدنا أيده الله أننا حررنا حملته المرابطين أهل رباط ماسة وجميع كوانينهم من جميع الوظائف وسائر التكاليف المخزنية فلا يطالبهم أحد بقليل ولا بكثير، فلا مدخل لأهل ماسة فيهم من جميع اللوازم التي تلزمهم، وحاشاهم من ذلك فقد أسبلنا عليهم التوقير والاحترام، لما بأيديهم من الظهائر الكريمة، فلا يقربهم أحد بوجه ولا بحال، ونؤكد محبنا الشيخ إبراهيم الواح والشيخ احمد بن بلعيد أن يتركا سبيلهم فقد أبقيناهم على عادتهم من غير معارض لهم ولا منازع، فمن طاف بساحتهم أو حل بهم لا يلوم إلا نفسه، والواقف على مسطورنا هذا أسماه الله يعمل بمقتضاه ولا يتعداه أصلًا، والسلام في التاسع والعشرين من ذي الحجة عام اثني عشر ومائة وألف.

عبد المؤمن بن أحمد

ليس فوق الرسالة طابع، وقد عرفنا الآن أن عبد المؤمن بن أحمد هو القائد على ماسة في هذا العهد، وأن إبراهيم الواح وأحمد بن بلعيد رئيسًا ماسًّا المنفذان للأوامر المخزنية، وقد سمعت من الماسيين ما يدل على أن لإبراهيم الواح هذا شأنًا كبيرًا، وصيتًا ذائعًا، لا يزال في الاسمار، ومحل سكناه لا يزال عندهم معلومًا.

- 21 -

وصيفنا أوعبيد بن الشيخ إبراهيم الواح، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد، اعلم أن أهل الرباط بلغونا بشكايتهم على ما كتبنا لهم وإلى هذا

كل ما كتبنا لهم أبقوه عليهم وإن أخذتم لهم شيئًا فردوه عليها، أما متاعهم بنفسه أو قيمته تعطونها لهم ولا يرجعون إلينا شاكين ابدًا، وأما الطالب كوا منصور الذي تذكر لنا كل ساعة فقد حررناه احسبوه علينا ولا بد ولا جميع من حررناه لا يرفع المساكين عتلة، وعلى هذا يكن علمكم ولا بد، وإياكم أن يرجعوا إلينا شاكين، والسلام (على ما فيه من تصحيف).

وتحته طابع مستدير فيه (على ما تبيناه)، مؤمن بن أحمد وفقه الله ولعل المقصود عبد المؤمن بن أحمد المذكور قبله، وفي دائرة الطابع ما لا نقدر أن نقرأه.

ثم إن المكتوب إليه هو ابن إبراهيم الواح، ولعل وقت الرسالة تأخر بكثير عن وقت الآثار المكتوبة قبلها، ولكنها لما خلت من التاريخ أحببنا ذكرها هنا، لنعرف أن لإبراهيم الواح ولدًا، وأنه كان رئيس ماسة من الدهر وأنهم وصفان للحكومة كما هو الشائع في القواد إذ ذاك.

ـ 22 ـ

من فضل الله علينا وعز سيدنا وبركته جددنا لحملته المرابطين الأخيار أهل رباط ماسة حكم ما بأيديهم من ظهير سيدنا أعزه الله من توقيرهم واحترامهم ومحاشاتهم وحملهم على كاهل المبرة والإكرام، فلا سبيل لأحد عليهم في وظيف ولا تكليف قوي أو ضعيف تجديدًا تامًّا شاملًا عامًّا لا يزال بحمد الله جديدًا ولا يزيده القدم إلا تأكيدًا والواقف عليه يعمل به ولا بد والسلام. وفي رابع عشر من ذي القعدة عام: 1119هـ.

وتحته طابع صغير لا يقرأ (ولعل ما فيه هو عين ما في الذي يليه).

ـ 23 ـ

كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره بيد حملته أهل رباط ماسة يتعرف منه بحول الله وقوته، وشامل يمنه وبركته أنا جددنا لهم حكم ما بأيديهم من الظهائر الكريمة المتضمنة تحريرهم وتوقيرهم واحترامهم ومحاشاتهم من جميع الوظائف السلطانية، والتكاليف المخزنية، بحيث لا سبيل لمن يطالبهم بقليل

ولا بكثير، ولا بجليل ولا بحقير، تجديدًا لا يزال بحمد الله جديدًا، ولا يزيده القدم إلا تأكيدًا، وحسب الواقف عليه العمل به ولا يتعداه ولا بد والسلام. وفي الرابع والعشرين من ذي القعدة عام تسعة عشر ومائة وألف.

وتحته طابع فيه، أبو النصر ابن أمير المؤمنين وفقه الله، وفي دائرته ما لا نتبينه.

- 24 -

من فضل الله تعالى وبركة مولانا الذي نصره الله وأيده يستقر هذا الظهير الكريم، والأمر المبارك الختم الصميم بيد حملته السيد بلعيد بن عبد الرحمٰن وسعيد بن محمد وأولاده والأولاد مبارك ومحمد بن بلا، يتعرف منه بحول الله وقوته وشامل يمنه وبركته، أننا جددنا لهم حكم ما بأيديهم من ظهائر والدنا نصره الله وأسلافه رحمهم الله المتضمنة تحريرهم وتوقيرهم واحترامهم ومحاشاتهم عما تطالب به العوام من الوظائف السلطانية والتكاليف المخزنية، فلا سبيل لمن يخرق لهم عادة وقد حملناهم على كاهل المبرة، ولاحظناهم بعين الرضا والمودة لوجه الله تعالى، ولتعظيم حرم الولي الصالح سيدي وساي نفع الله به، فلا يقربهم أحد بشيء جل أو قلّ تجديدًا تامًّا لا يزال بحول الله جديدًا، ولا يزيده القدم إلا تأكيدًا، وحسب الواقف على كتابنا هذا أسماه الله أن يعمل بمضمنه ولا يتعداه، والسلام. في منتصف رمضان المعظم عام ثلاثة وعشرين ومائة وألف.

وتحته طابه في وسطه: عبد الملك بن أمير المؤمنين وفقه الله وفي دائرته: يا عالمًا بحالي، عليك اتكالي - فالله خير حفظًا وهو أرحم الراحمين.

أقول يظهر من هذا أن هؤلاء كانوا أيضًا هم المقدمين على ضريح سيدي وساي - عبد الرحمٰن الرندي - كما كانوا في الرباط أيضًا لما رأيته هنا في هذا الظهير، وإنما قلنا هذا لأن هناك الرباط فيه المسجد القديم الذي زرناه وهناك أيضًا المشهد الذي على الضريح، وفوقه أيضًا المسجد الآخر، وهنا يقام الموسم وبين المكانين مصب الوادي ثم نحو ثلاثة أو أربعة كيلومترات، فالضريح بالجنوب والرباط بالشمال.

ـ 25 ـ

من فضل الله تعالى، ومن (بركة) المنصور بالله وما أسند إليه من أمره العالي، أننا أبقينا حملته السيد بلعيد بن عبد الرحمٰن وأولاد أعمامه، والفقير محمد بن بلا، جددنا لهم حكم ما بأيديهم من الظهائر الكريمة لمولانا أيده الله ونصره المتضمنة توقيرهم واحترامهم وإسقاط المغارم واللوازم وجميع الكلف عنهم تحريرًا تامًّا مطلقًا عامًّا، وحسب الواقف عليه يعمل بما فيه، وأبقيناهم على ما هم عليه، بحيث لا تخرق عليهم عادة وأنعمنا عليهم بأعشارهم وزكاتهم تسردها (كذا) على مستحقها والسلام، في الخامس عشر من ذي القعدة عام أربعة وعشرين ومائة وألف.

مملوك المقام العالي بالله منصور بن عبد الله العلج، وفقه الله آمين.

أقول: هذا القائد الذي كان بني في عهد عبد الله بن إسماعيل الباب الذي يقال له (باب منصور العلج) بمكناس كان ـ إذن ـ من القواد على سوس.

ـ 26 ـ

جددنا بحول الله وقوته لحامله الخير المبارك الرباطي بن عبد الرحمٰن الماسي حكم ما بيده من الظهائر السلطانية المتضمنة تقديمه على ضريح ولي الله سيدي وساي نفع الله به وعلى زاويته مع تحريره وتوقيره واحترامه ومن انتسب إليه من أصحابه وإخوانه وقرابته، ومن طاف بساحته يخاف على نفسه، والسلام في الثالث من شوال المبارك عام اثنين وثلاثين ومائة وألف.

وتحته طابع فيه: عبد الملك بن الإمام أمير المؤمنين الله وليه، وفي دائرته ما لم نتبينه، وهو طابع يميل إلى الكبر.

أقول قد عرفنا الآن أن هؤلاء الرباطيين هم المقدمون على مشهد سيدي وساي بلا ريب كما ترى، والعجيب من سيدي وساي أن الذين ينتسبون إليه من قديم في قبيلة ايسافن نيت هارون في وسط الجبال الجزولية، وهم أبناء الشيخ أبي نمر ويعرفون في إيسافن بأبناء سيدي عبد الله بن داوود ما كانوا يتولون من قديم ـ كما ترى ـ التقدم على ضريح سيدي وساي ولا يزال الحال إلى الآن

على ذلك وقد استحوذت إدارة الأحباس الآن على أملاك المشهد وعلى مدخولاته.

- 27 -

محبنا في الله تعالى السيد بلعيد وفقنا الله وإياك لما يحبه ويرضاه، وعليك منا سلام الله تعالى وبركاته، أما بعد اعلم أنه ورد علي على مقامنا أسماه الله وأقام عندنا بمقامك، وها نحن سافطناه مع أهل ماسة وذلك الشيخ المبارك الذي قلت بأنك بنيته رزقنا الله وإياك أجره آمين، وأهل ماسة ما نحن تكلمنا معهم على شأن أعشارهم وزكاتهم التي حرم الله، إذ ما شرطنا عليهم إلا ما حرمه الله عليهم وأحله لنا، وأنت أنصحهم على ما ينجيهم مع الله سبحانه ومع من ولاه الله أمر خلقه إن أرادوا ما ينجيهم، لأن الله تعالى قال في كتابه الحكيم: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ - الآية [الإسراء: 84] ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 7] والله على ما نقول وكيل والسلام، في الثاني والعشرين من ربيع النبوي عام أربعين ومائة وألف.

وفوقه طابع كبير جميل في وسطه: عبد الملك بن الإمام أمير المؤمنين. الله وليه، وما في دائرته لم يظهر خطه فلا يقرأ.

إحصاء عن ماسة عن القرن الماضي:

يوجد باللغة الانجليزية والفرنسية كتاب ألفه الفقيه إبراهيم بن محمد الماسي نزيل طنجة، كتبه بالشلحة ثم بالعربية، ثم نقله (هودكسون) المريكاني وقد كان إذ ذاك بطنجة عام 1834م وجمع الكتاب باقتراحه، وفي الكتاب وصف جميل لماسة وما جاورها، وقد ترجم لنا ملخص الكتاب أو بعضه أخونا الأديب سيدي أحمد بناني الفاسي كاتب[1] الصدارة الآن، وهو من خيرة شبابنا المثقفين ثقافة مزدوجة، وله مستقبل عظيم في عمره الطويل إن شاء الله.

قال سيدي إبراهيم عند تعرضه لمسقط رأسه ماسة: وإليك الآن تفاصيل

(1) هو مدير التشريفات في عهد الاستقلال.

عن ماسة: يبلغ عدد سكانها الآن: 1700 رجلًا، وأما النساء والبنات والأولاد، فلا يعرف عددهم إلا الله وبها: 1250 دارًا و: 180 فرسًا، تصلح للركوب والحرث ومهاجمة العدو، وبالبلاد أشجار الكرم والتين والنخل والبرتقال والليمون والتفاح والبرقوق والدلاح والبطيخ والزيتون، ويخرج من ماسة نهر ينصب في البحر، والتجارة فيها عظيمة، وبها سكان من اليهود بين المسلمين، وبخزائن مساجدها كتب لا يدري عددها إلا الله والعلماء بها كثيرون، وكذلك الحجاج والأشراف والصلحاء، نفعنا الله ببركتهم آمين.

ثم ذكر خراج ماسة للسلطان بقوله:

ذكر ما يوديه أهل ماسة للسلطان مولاي عبد الرحمٰن، يعطي أهل ماسة لمولاي عبد الرحمٰن كل سنة منذ خمسين عامًا: ـ 5000 ـ رطل من الفضة، فطلب منهم السلطان يومًا زيادة ألف على ما يعطون، فأجابوه بأنهم لا يزيدون إلا عبدًا وأمة وفرسين فأرسل السلطان إليهم جيشًا تحت رياسة القائد عبد الصادق الذي كان خليفة السلطان بتارودانت بعد ما كان أرسل إليهم خيلًا جملتها: ـ 55 ـ فارسًا، فعصوا أمره ثم حاربوا الجند من الجيش، فانتصروا عليه اهـ.

أقول: لعله يقصد الحملة التي كانت في عام 1217هـ كما تقدم، وهي في عهد مولاي سليمان، لا عهد مولاي عبد الرحمٰن، أو لعلها حملة اخرى.

وقال في محل آخر:

إنه كان يعرف في ماسة سبعة من الحدادين يصنعون البندقيات، ولكن لم يبق منهم اليوم ولو واحد.

وقد علق مؤلف المجموعة الكبيرة المنقول منها على ماسة بقوله ـ وهو دوكاستري ـ.

ماسة، ربما كانت هي ماستات التي ذكرها المؤلف (بلين) الروماني، وهي في مصب الوادي المسمى بهذا الاسم بحدود مملكة سيدي هاشم التازاروالتي، وهي مدينة قديمة، لأنها في عهد البكري كانت رباطًا، وقد ذكر اليعقوبي أنه كانت بها سوق مهمة قرب ضريح سيدي بهلول، وقد ذكر الإدريسي أنها على

بعد 150 ميلًا من آسفي، وأن نواحيها إلى تارودانت يسكنها بربر دكالة، وذكر اليعقوبي أن سكان سوس بربر مداسة ـ كذا ـ مدعاسة، كذا ـ وذكر ليون الأفريقي: (ابن الوزان) أنه يعرف ثلاث ماسات يمر بينها نهر سوس وإن بنواحيها نخلًا كثيرًا، وذكر (جاكسون) أن بها أشجارًا كثيرة من الزيتون ولم يذكر مويت إلا نهرًا واحدًا بهذا الاسم، أما مرمول فقد ذكر ـ ولم ندر ما مستنده في ذلك ـ أن هذه المدينة كانت تعرف في القديم باسم تمست (وهو النطق البربري لاسم ماسة)[1] وأن العرب هدموها لما فتحوا سوسًا، وذكر أن فيها في عهده معبدًا (ربما كان المقصود هو ضريح سيدي بهلول) جوائز سقفه من أضلاع سمكة العنبر، ثم قال: إن من الجاري على ألسنة العوام أن سمكة يونس النبي ﷺ قذف بها البحر إلى هذه الشواطئ فذكر ابن خلدون أن العوام يعتقد أن الإمام المهدي سيخرج من ماسة[2] وقد ذكر (ݣاتيل) أن الاسم الحقيقي لماسة هو اغبالو، انتهى التعليق.

أقول: لا بأس بسوق ما تقدم لنعرف كيف اضطرب الأجانب في مدلول ماسة، فقد كانوا يفهمون من ماسة أنها محل واحد، مع أن الواقع أن ماسة يطلق على وادٍ ممتد تنتشر القرى حواليه، وعند مصبه مشهد سيدي وساي، واغبالو قرية تقرب في أسفل الوادي من المشهد. وقد ذكرنا فيما تقدم أن اغبالو لفظ معروف لتلك القرية من عهد مؤلف كتاب (الاستبصار) في عجائب الأمصار سنة 590هـ.

وأما تسمية سيدي وساي بسيدي بهلول، فلا ندري من أين أتى به الأوروبيون، لأن الرجل معروف واسمه عبد الرحمٰن الروندي، ونسبه موجود وهو عمري النسبة أي من ذرية عمر بن الخطاب العدوي القرشي من صميم العرب كما يوجد عند من ينتسبون إليه، ولعل ذلك أثبت مما قيل من كونه رݣراݣيًا أو من آل يعزى وهدي، وأما المدينة التي تذكر في ماسة، فقد ذكرنا

(1) بل النطق بماسة عندهم (مست) لا تمست، وأهل مكة أدرى بشعابها.

(2) بل حتى الشعراني نفسه ذهب إلى ذلك وغيره من المشارقة ذكر ذلك في مختصر التذكرة المطبوع للقرطبي.

فيما تقدم موقعها في أعالي الوادي، وقد خربت بعد القرن الخامس ولا يبعد أن تكون هي المدينة القديمة التي احتلها المسلمون يوم الفتح، ثم جددت فبقيت إلى القرن الخامس كما رأيت وأما رباط سيدي وساي الذي اشتهر من عهد البكري عام 460هـ فإنه يمكن أن يسمى أيضًا مدينة فيتصف بكونها هي التي احتلها المسلمون، ولكن المشهور أنه محل مسجد عقبة الفاتح الأول في عهد الإسلام عام 62هـ ومنذ عهده طار اسم المكان ببركة ذلك الفاتح وببركة كونه رباطًا لحراسة البحر، وذلك هو أصل شهرته، كما اشتهر أيضًا رباط شاكر الذي فيه أيضًا مسجد عقبة ولذلك كانا معًا من معابد الصالحين ومن مجتمعاتهم ومعلوم في التاريخ أن الرباطات كانت متسلسلة على البحر من مصر إلى أقصى الصحراء على سيف البحر يعمرها المرابطون المجاهدون بالعلم والإرشاد والتربية الإسلامية ورباط ماسة أحدها، وأما سيدي وساي فيرجع عهده إلى نحو القرن السادس أو السابع فقط فالمحل مشتهر قبله، بل محل مسجد عقبة يفصل النهر بينه وبين الضفة التي كان وراءها سيدي وساي، وقول ابن الوزان أن هناك ماسات متعددة، يمكن أن يفهم كلامه بأنها قرى ماسة ولا ريب أنها متعددة، ويدل على ذلك قوله: إن نهر سوس يمر بها، ولا نشك في أنه يقصد بنهر سوس نهر الغاس المار بماسة لا نهر رأس الوادي الذي كان مصبه في قرية تارايست في قبيلة كسيمة، ولا يقع له الغلط الذي وقع لصاحب كتاب (الاستبصار) الذي جعل النهرين واحدًا ومصب أسفل ماسة.

كذلك طار اسم ماسة من قديم فكان شغلًا شاغلًا للمؤرخين كثيرًا.

الزلزلة:

عند الأصيل أتى الرئيس رب مثوانا في اغبالو ببطاقة من القائد، فقرأ فيها أسماء رجال كانوا أعوانًا أو جندًا من أهل القرية، يستحثه في التعجيل بهم، وبعد ذلك بقليل جاءت بطاقة أخرى مثلها في الاستحثاث، فحاك في صدورنا أنه طرأ شيء جديد في الجو، وبعد رجوعنا من جولة ذهبت فيها مع الأستاذ ابن العم إلى مقبرة هناك زرنا فيها مشهد السيدة (رحمة) الشهيرة بكرامة تحكي بينها وبين سيدي أحمد بن موسى، فتكون إذن من أهل القرن العاشر، وهناك

مشهد سيدة أخرى مشهورة أيضًا، وقد كان معنا الحاج محمد مفكر وادي ماسة يذكر لي عن السيدتين ما يسمعه عنهما، فأرجأت تحرير ما يقول إلى الغد، وقد لفت أبصارنا في مشهدي السيدتين تصاوير كثيرة بالمغرة في الجدران وعند مصاريع الأبواب، فيها حيوانات وأشياء أخرى حتى الصلبان، فعلمت أن ذلك من عمل بعض البنائين منذ سنتين. أراد أن يجمل المقامين بها فقلت لصاحبي: يجب أن يزال كل هذا، وأنا أقول في نفسي لو اطلع على هذه الصلبان بعض المستشرقين لادعى في ذلك أمورًا أخرى على عادتهم في الاستنتاج المعاكس للحقائق في الذي يرونه عند الشرقيين، وقد رأيت على كثير من أبواب الدور في نواحي سوس صور الصليب بالقطران أو بالحمم، كتعاويذ من العين وربما كان أيضًا على جنب الجدران، فمتى بينت للبعض ما يدل عليه ذلك امتعض امتعاضًا شديدًا، فيقوم في الحين ويمحوه.

ثم لما صلينا المغرب في دار الرئيس المذكور ولج علينا السيد المدني وقد جاء من سوق الأحد، يحكي لنا أن المغرب في زلزال شديد، وأن الأمريكيين والبريطانيين قد هاجموا المغرب في الليلة الماضية، وأنهم نزلوا في بعض سواحله، وأن الحرب الآن قائمة من أهل المغرب للدفاع، فقلت له: إذن إنني الآن راجع من هنا، فقد كنت أتوقع هذا الهجوم منذ سنتين، والآن ربما تقع أمور عظيمة، وبعد حين رجع إلينا أيضًا، فقال: إن صاحبي الذي يسوق سيارتي الكبرى قد جاء الآن من أكادير ببعض أهالينا هناك، وقد ترك أكادير في هرج كبير طوال هذا اليوم، والناس يهربون منه، والحكومة قائمة بالجد في إفراغ كل ما كان في المرسى، وقد وضعت يدها على كل سيارات النقل والتجنيد قائم على ساق، فاتفقنا على أن نذهب في الحين معاً على سيارته إلى تيزنيت، فأرسلنا من يأتينا بمتاعنا وحقائبنا من دار القائد فذهبت إلى المسجد حيث كان الفقيه سيدي الحسن مع الإخوان في حفلة ينتظرونها فجلسنا معهم ساعة ثم ودعناهم، فوجدنا السيد المدني قد هيأ فحم السيارة الغازوجين، ولم يبق إلا أن يأتي متاعنا فإذا به أتى ومعه الفقيه سيدي أحمد بن محمد العلامة الالياسي على بغلته وقد أبى له كرمه وعنايته وتواضعه إلا أن يتجشم الليل مع كبر سنه ليودعنا، فقد كان في دار القائد حيث واعدته الملاقاة الليلة، ولكن

تأخرت لإلحاح الاغبالويين بالبيات عندهم أيضًا، ثم ودعنا الفقيه ونحن نشكره شكرًا جمًّا، ثم سرينا صوب تيزنيت، فرأينا طريق أكادير في ذهاب وإياب بالسيارات الناقلة، وكذلك رأينا جندًا مع عجلات كثيرة، وهم وصف طويل إلى نحو أكادير، وعند القنطرة فوق وادي الغاس وقفنا قليلًا، فإذا بالسيد المدني ينادي باسمي فنزلنا فركبت معه على (كار) كبير للحكومة، فصار يذكر لي ما حكاه له سائقه من نزول المغيرين في آسفي أيضًا، ثم دخلنا تزنيت عند الواحدة بعد نصف الليل، وقد وجدنا الأبواب مسلحة، وكذلك ما فوق السور، فذهب بي إلى دار له فبت فيها ثم جاء ابن العم لاحقًا بي، وفي الصباح توجهنا إلى دار القاضي فحكوا لنا أن القبائل القريبة من تزنيت سلحتها الحكومة كلها أمس، وحين خرجنا رأينا الناس كلهم تحت السلاح، وقد منع الناس من الحرث، بل أطلقوا كل الحراثين أمس من أمكنة أشغالهم فأتوا بالبهائم لنقل الرمل إلى ما فوق السطوح والشبان والأقوياء لحمل السلاح، فترى ما فوق السور والأبراج يموج بالمتسلحين، وقد مررت مع ابن العم على كثيرين من الشبان معهم السلاح لا يدرون كيف يقبضونه، لأنهم نشأوا في زمن الاحتلال الذي لا يعرف فيه السلام إلا الجند فقلت له بحقك أهؤلاء من سيدافعون؟ ثم قيل لنا إن إمام (تامدا اوكلو) بوارج تأتي وتذهب، فكان ذلك كله سببًا لاستيحاشنا من تزنيت وقد فتشنا عما نركبه إلى الجبل بغالًا أو سيارات، فأعوزنا كل ذلك، فبينما كذلك قيل لي: أن هنا سيارة الشيخ عبد الله الجراري، وقد سأل عنك ووصى عليك، وذكر لي القاضي ذلك فقلت: إن تيسر لنا الذهاب إليه فلا نفقد هناك ما نركبه إلى الجبل، إلا أن السيارة عرى آلتها فساد.

إلى إفران:

في وسط كل هذا قيل لي إن ها هنا القاضي سيدي الهاشم الأقاوي فلاقيته فإذا به قد تقطعت به الحبال مثلي، فأريته أن الأولى بنا الخروج كيفما كان الحال لأنني أعلم أنه إن صارت الحرب حقيقة بين من في المغرب والمغيرين فإن المغيرين سيحاولون النزول من تزنيت القريبة من البحر ثم لا حاجز متين

يحجز دونها، وقد علمتنا فجاءات الحرب، وأرتنا كيف ينقض بغتة البعض على البعض ثم فارقت القاضي الأقاوي في الزاوية الأحمدية، فراجعنا مثوانا عند القاضي سيدي محمد أوعامو، فبتنا ولم يخطر شيء، فهدأت النفوس قليلًا، وبعد صلاتنا للصبح عند الأسفار خرجت مع ابن العم، فإذا بالقاضي الأقاوي المذكور، اكترى في سيارة صغيرة إلى سوق الثلاثاء الاخصاصية، فقلت حسنًا، فلم نلبث أن أتينا بمتاعنا، فأقلتنا السيارة مغادرين لتيزنيت، فوصلنا سوق الثلاثاء فتيسرت هناك ملاقاة الرجل الصالح سيدي محمد بن عبد الكريم من القراء الكبار، شارط منذ سنين في مدرسة سيدي همو بن الحسن، وهو سيد يظهر عليه الخير. وفي السوق تيسر أن تودينا السيارة إلى (بوزاكارن) بسبب التاجر الأبر أخينا سيدي عيسى (اوباعوس)، جزاه الله بخير، فوصلنا بوزاكارن عند الزوال أو بعده بقليل، فتلقانا الأمين سيدي حسون أوباعوس التيمولائي أخو ذلك، فلبثنا هناك تلك العشية، فرأيت مركز بوزا كارن لأول مرة، وله منظر أنيق، وعلى القرية سور واسع من بناء القائد المدني، ثم بعد الاحتلال زادت الحكومة بناءات إزاء السور القديم فأدارت بها سورًا آخر، ثم اشتغلت هذه السنة ببناءات خارج هذا السور، منها نزل حسن ظريف جميل بناه الأمين المذكور مع القائد الحنفي، دخلته ورأيت مساكنه الفيحاء، والماء الساري في كل جهة وسط الأنابيب فأعجبت به، وهذا النزل على وشك التمام، ثم بعد العصر ذهبت إلى المسجد فرأيته حسنًا، وإزاءه صومعة كتب عليها أنها بنيت عام: 1293هـ وقد ذكروا لنا أن المسجد والصومعة بنيا في وقت واحد.

اجتمعنا في هذا المركز بسبط الشيخ ماء العينين، المسمى أيضًا ماء العينين، وقد سكن هناك من عهد القائد المدني فإنه كان كاتبه وأمين سره، وعضده في كل المشاورات، ثم بعد الاحتلال لزم السكون، وقد جلس معنا فكتبت له على بطاقة:

لله مجمعنا بما العينين	أمل القلوب وقرة العينين
اليوم تستحلى العيون بوجهه	ما كان قبل حلاوة الأذنين

وقد ابتهج القاضي الأقاوي بما تيسر لنا جميعًا من الخروج من تيزنيت،

وبعد صلاة العشاء ركبنا البغال التي أتى بها الأمين سرًّا من عند بعض من لهم اليد في المركز ـ لجمع الحكومة كل البغال من الناس ـ لتوصلنا ثم ترجع ليلًا، كأن لم تغادر محلها وهكذا كان، فقد أوصلتنا (تيمولاي) بعدما قطعنا 17 كيلومترًا فردت إلى مكانها، فالحمد لله الذي يسر كل هذا في هذه الشدة العنيفة.

ثم إننا ظللنا هناك يوم الأربعاء، وقد أبى التيمولائيون الكرماء أن يدعوا القاضي الأقاوي ليذهب ذلك النهار. وقد زرت المسجد فرأيته أفيح وألطف من المسجد البوزاكارني، وقد بني أيضًا نحو عام 1293هـ كما زرنا قبر الرجل الصالح سيدي إبراهيم القائد الركني من أصحاب الشيخ الوالد، وهو صاحب الأعاجيب في إبراء مسات الجن بقدرة الله، كما زرت هناك ضريح الشهيد أبي الرجاء قتيل بوحلاس سنة 1207هـ، ثم ذهبت بعد العصر صوب الحقول في سقي تيمولاي، فمررت بمزارة للشيخ سيدي حسين الشرحبيلي، حيث نزل يوم زار هذا المكان سنة 1122هـ وهو الذي أراهم العين فيما يقولون، ثم لما رجعنا مررنا بأناس حول الطاسة التي يفرق بها الماء وهي اكبر من نصف اللتر بقليل على ما حدست، ولها ثقبة أسفلها ينبع منها الماء، وقد ميز فيها في الداخل بخطوط الثلث والثلثان والنصف والربع، وهي في إناء كبير مملوء بالماء وقد جعل أمين يراقب القسمة بالطاسة ليلًا ونهارًا.

وفي صباح الخميس ذهب القاضي على سيارة لبعض الناس مرّ إلى تاغاجيجت، وسائقها هو الذي حدثنا بأن الأمر قد التأم بين المغيرين وبين من في المغرب، فحمدنا الله على إرجاء الكارثة ولو يومًا واحدًا، ثم ذهبنا نحن أيضًا ـ رغم آل تيمولاي إلى تانكرت، فمررنا بمركز احدادو[1] الذي فيه محكمة الافرانيين ومن إليهم، فوجدناه خاليًا إلا من بعض حرس وكاتب فاسي، فجعلوا يستفسروننا عما حدث، ويقولون قد انقطعت الأخبار بانقطاع الأسلاك

(1) احدادو هذا ذكر أنه من القواد الإسماعيليين، أسس تلك القصبة هناك، ثم خربت بعده، ثم جددت أيام الكُيلوليين 1315هـ ثم تخربت بعدهم وبعد الفلوسيين، ثم أسست الحكومة بعد عام 1352هـ مركزًا آخر يبعد عن القصبة قليلًا، فوق أكمة صغيرة مشرفة.

من الحكومة، كما تأخرت الجرائد، فأجبتهم بالإجمال، ثم نزلنا في دار شيخنا العلامة سيدي محمد بن الطاهر، فرحب أعظم ترحيب، وآنس أكبر إيناس.

هكذا رأينا بعد 25 عامًا هذا المحل الذي كنت أرتشف فيه من المعارف 1333هـ 1336هـ فازدهاني سرور عظيم وحبور شديد.

بلد عرفت به الشبيبة والصبا ولبست برد العمر وهو جديد
فإذا تمثل في الضمير رأيته وعليه أغصان الشباب تميد

ثم لم ألبث أن قلت هذه الأبيات:

طر يا فؤاد سرورًا فالزمان وفى ورد ما كان مألوفًا كما ألفا
هذي منازل افرن التي فرعت هام المجرة من سكانها شرفا
يا طالما كنت مشتاقًا لرؤيتها شوق صد كاد يقضي نحبه لهفا
اليوم فارتع كما تبغي مناك فقد وافقت وفق هواك الروضة الأنفا

فناولتها لشيخنا الأديب العلامة المذكور، فأجاب عنها بما نصه:

بطيب خلقك طيب المسك قد عرفا وبنداك غمام الديمة اتصفا
وبمحاسن آداب خصصت بها ترعى الخواطر منها روضة أنفا
زينت ذا العصر حتى راق منظره وقلد الجيد منه جوهرًا شرفا
لله درك يا مختار من ندس أحيا المعارف والآداب والشرفا
شرفتنا كرمًا بزورة نفخت روح الحياة بفكر شارف التلفا
فدب نحو ثمار الشعر مجتنيا ومد كفًّا إلى الآداب مقتطفا
بنورك انقشعت سحب الغباوة عن أفكارنا فتولى العي وانصرفا
فطلعت بسماها الزهر ساطعة أنوارها تكشف الأوهام والسدفا
وجهت منك إلى الآداب تنشرها عزيمة لا تني أو تبلغ الشغفا
أحييت مجد كرام سادة فرعوا من السيادة هضبا واعتلوا شرفا
حتى ازدهى بك هذا البدو مفتخرا على الحواضر يثني عطفه صلفا
فدم وهمتك القعساء تحرز ما قد عزا إدراكه عن كل من سلفا

واعـذر أخـاك إذا مـا كـان قـارحـه ... في حلبة الوصف من علياء قد قطفا
وظالع الرجل لا يعدو إذا استبقت ... خليل الميادين للتبريز أن يقفا
وقد تطاول فكري في بلوغ مدى ... محاسن المدح فيك لو تساعد فا

وقد أتى إلينا في دار شيخنا السادات الناصريون: سيدي الهاشمي بن القرشي، وسيدي أحمد بن البشير وأخوه الأديب النجيب سيدي محمد بن البشير، وهو رفيق سيدي المدني بن محمد بن الطاهر سبط الأستاذ أبي الحسن الإلغي وهاذان الشابان أحذق من رأيت من نشء سوس اليوم، ولهما تحصيل وتمكن في اللغة، وذوق أدبي ويد طولى في كل العلوم التي أخذاها، وقد آنساني هناك كثيرًا فإنني كدت أنزل في الدار حتى أتيا، ثم بعد الغداء طلت إلى المدرسة مع ابن العم، فزرت ذلك المكان، فقلت لصاحبي وقد وقفنا معًا وسط المدرسة: من هذا المكان انتشر للغة العربية في هذه النهضة الأخيرة وللآداب الأندلسية العربية ما انتشر، فقد أدت هذه المدرسة على سذاجة بنائها وبساطة هيأتها ما تزاحم به كليات الفنون بين سطور التاريخ في العالم، فكما يذكر السربون[1] واكسفورد وأمثالهما في العالم المتمدين في تاريخ هذا العصر فكذلك ستذكر هذه المدرسة البدوية الساذجة البسيطة الواطئة في تاريخه، والمستقبل كشاف.

ثم إن الذي يزيد هذه المدرسة شأنًا على كليات الآداب في العالم، إنها لا تزال بنت الماضي لم تتخللها بعد الحياة العصرية، ولالفتات الذوق الأدبي الذي سربل بذيوله كل الأمكنة التي يروج فيها زمن الآداب ما يروج، فإن هذا المكان معدود من ذيول تاريخ القرون الوسطى، ولا يزال أساطينه الذين يديرونه إلى الآن لم يتصوروا بعد عظمة هذا العصر المواج بالآداب والمعارف والأبحاث العليا من كل جهة وفي كل فن، وأثناء كل باب.

الحقيقة أقول: كأنني بالجيل المقبل إن كتب له أن يشارك العالم المتحضر الراقي - ولا بد له من مشاركته على كل حال وعلى أي تقدير في اهتباله المشمر

(1) السربون: مدرسة كبيرة مفتوحة لكل أحد في باريز وأكسفورد مثلها في بلاد الانكليز.

في الجولان في المعارف الطامية الزاخرة - كأني به وقد عرف تاريخ هذه المدرسة وما قامت به من الآداب ومعاناة إحياء اللغة العربية في سرة جزولة[1] البربرية، قد أشاد لها من التقدير والإكبار والإجلال ما يدر يدي الكرام نحوها، فإذا بمدرسة جيدة تتبختر في أحدث طراز للمعمار المدرسي الجذاب، فيستحيل هذا البناء الوطئ الساذج إلى قصر ممرد تكسوه الفسيفساء برونقها اللماع، وزخرفة الرخام والزليج، ببهائهما الخلاب.

إن كانت للمدرسة الإلغية شهرة كبرى في إحياء الأدب الأندلسي حتى صارت أنباؤها والجة كل آذان بلا استئذان، ملموسة آثارها بين المؤلفات بكل يد، فإنما كان لها ما اقتبسته من هذه المدرسة التي استمدت من الجشتيميين ما استمدت، ثم زادت به قدما حتى قطعت به أشواطًا أخرى، ولكن لا يمنعنا التصفيق للاحق، نسيان ما قام به السابق، زد على ذلك أن هذه المدرسة لا تزال تؤدي إلى الآن لهذه الثلة التي نرى من بينها أمثال النجيبين المتقدمين محمد بن البشير والمدني بن محمد ما لا ينفك إلى الآن في تقدمه على يد الأديب مدرس المدرسة شيخنا سيدي محمد بن طاهر حفظه الله.

كان هذان النجيبان لا يفارقاني طوال تلك الأيام، فيتلوان علي عند امتدادي للنوم، حتى أنام على عادتي المألوفة كما يتلوان حال اليقظة، وأتذكر أن أحدهما كان يتلو علي يومًا فوصل مثل هذه العبارة: إنه الرجل كل الرجل. فرفع كل فقلت له إنه منصوب، فقال شيخنا المذكور: فما هو حينئذٍ في الإعراب فسكت أتأمل، فإذا به قال: إنه بالرفع نعت، وقد نبه على ذلك الأشموني وشراح الألفية، قلت: كأنني غلطت بما عرفته عن أي، فإنها إن وليت المعرفة كانت منصوبة على الحال أو النكرة كانت صفة، وهكذا القوم، فإنهم مستحضرون للعربية من جميع جهاتها، خصوصًا شيخنا المذكور الذي دأب على مثافنة الفنون منذ شب حتى شابت سود ذوائبه، أطال الله عمره.

دخلنا تانكرت ظهيرة الخميس، فبتنا في دار شيخنا وفي صبيحة الجمعة

---

(1) أعني دائمًا بجزولة هذه الجبال بكل قبائلها ولا أعني الجزولية المقابلة للحربيلية فافهم.

استدعانا الكرام الناصريون، فكم عظم ابتهاجي حينما مثلت بين يدي الأديب الأريحي الذي هو درة عقد الناصريين الوسطى: سيدي البشير بن المدني، ويا طالما تمنيت على الله أن يطيل عمري حتى أراه، فالحمد لله الذي وفى المراد كما يراد، وقد كان أطال الله عمره وعافاه مصابًا بفالج يكثر به ارتعاشه ولا يكاد يبين به لسانه، وخصوصًا أن تقلب الجو، فحينئذٍ لا يظفر منه جليسه إلا بما يذيب الفؤاد ويدمي الأكباد، إلا أننا والحمد لله حين وجدناه في حالة أمكن لنا معها محادثته، فإذا بأريحيته لا تزال كامنة كما هي، فلا مرضه العياء ولا ارتعاشه المستولي عليه، يحولان دون مد أجنحته في أثناء استماعه للأدبيات التي أولع بها ولوعًا كبيرًا، كما هي عادة كل آل البيت الناصري المجيد وقد قدم إلى سيدي محمد ولده هذه القطعة:

سقيًا لدهر منعم مختار ... أهدي المنى إذ جاء بالمختار
نجل الهداة الشهب من شادوا منا ... ر الدين والتقوى مدى الأعصار
من بان بدرًا فاهتدى كل الورى ... بسناه في نجد وفي أغوار
تاهت به افران عن كل القرى ... فغذت به تزهو على الأقمار
ماذا أقول وما عسى من مدحه ... أبديه في نثري وفي أشعاري؟
من ذا يعد الذر في البيداء أم ... من ذا الذي ينهي حصى الأنهار؟
فمتى اختصرت القول فيه فإنه ... جمع العلا لجلالة المقدار
أحيا العلوم بكل حزم بعدما ... ذهبت سدى في سائر الأقطار
فأناله ما يرتجي من كل ما ... خير وعز حاكم الأقدار
بالمصطفى صلى عليه الله مع ... آل له وصحابه الأبرار

ثم انثنيت عليه أمام والده وقلت له: نهنئكم بنبوغه، وقد كانت العرب إذا نبغ من قبيلة شاعر تهنيها القبائل، ثم قلت ارتجالًا:

هنيئًا يا بني المدني هنيئًا ... بنابغة نشأ منكم جديد
يجيء قريضه ذهبًا مصفى ... إذا ما جاء شعر كالحديد

وقد رأيت له أنفس من القطعة المذكورة لها روعة ورقة وانسجام، ولعلها

تأتي في ترجمته بين أهله في (المعسول) إن شاء الله.

ثم لما أجريت الحديث مع الأديب سيدي البشير أفادني عن بعض اناس مروا في ذلك الوادي، لأن الرجل كان بحاثة طلعة إلى معرفة كل ما يمكن أن يعرف، فممن أفادنيهم أطال الله بقاءه:

بلقاسم بن محمد التاسكالائي الأنصاري النسب، التانكرتي المسكن، كان قاضيًا خمسًا وأربعين عامًا في أيام السلطان المولى إسماعيل، وكان درس حينًا في مدينة تنبكتو بالسودان، وكان حيًّا بين أواخر الحادي عشر وأوائل الثاني عشر وقد عمر أكثر من مائة، وذكر غيره أن له ولدًا عالمًا يسمى أحمد.

عالم آخر لعله يسمى محمد بن بلقاسم، دفن في قبة الشيخ سيدي محمد أباراغ، كان يشارط في المدرسة ويدرس حتى مات في وقت لا يستحضر، وربما يكون ابن بلقاسم بن علي الآتي وأخا أحمد بن بلقاسم بن علي.

الشيخ سيدي محمد أباراغ صاحب المشهد الذي بنيت حوله المدرسة، كان في أواسط القرن التاسع، وكان يسكن في قرية الحندق، ويدرس هناك ولا تزال أطلال داره مع نطفية وسطها مشهورة إلى الآن، أقول: وجدت بخط العلامة الجد ابن العربي، أن عقبه هو الموجود في قبيلة كدميوة بحوز الحمراء ولا يزالون مشتهرين بإباراغن. وكذلك ينتسب له أهل زاوية تاسافت في وادي نفيس وقد سمعت شيخنا ابن الطاهر يأثر عنه خوارق تصيب من يتعدى حدود حماه إزاء المدرسة إلى الآن، وقعت وقائع حديثة لأناس لا يزالون أحياء، وذكر أيضًا أنه كان يعلم الجن والإنس في حياته، ولذلك لا يزال الجن يرى بكثرة حوالي قبته إلى الآن، وذلك كله لا يستبعده إلا من لا إلمام له بالروحانيات، ونعوذ بالله من الجهل العميق الذي لا يجعل العلم إلا في المحسوسات فقط.

عبد الله بن محمد من آل زاوية (نتزكارت) من الركْراكْيين وعندهم ظهائر السعديين، فمن بعدهم على ذلك لا تزال مصونة، عاصر المولى إسماعيل له شهرة بالمعارف وله خط جيد وانتسابهم اليوم إلى آيت يعزى وهدي ليس بشيء.

أقول: جرى في تاريخ القاضي المراكشي السيد العباس إن اليفرني الشهير صاحب (الصفوة) كان من هذه القرية ولكن ذكر الحاكي أنه من قرابة (ادعزي) ومن إخوانهم بلا ريب، وهناك رسائل منه إليهم لا تزال تدل على ذلك دلالة قطعية وهم في قرية أخرى بتانكرت من آل يعزى وهدى.

الحسين بن الحسن بن الحسن بن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمٰن بن أحمد بن محمد بن محمد، عالم حسن أخذ عن الأستاذ سيدي محمد بن إبراهيم التامانارتي وعن سيدي محمد بن المحفوظ الشهير، وعن العلامة سيدي الحاج الحسين، وكان من أصحاب الشيخ سيدي المدني وكان معنيًا بتعليم كتاب الله، دينًا مذكورًا بكل خير توفي ليلة 16 جمادى الأولى عام 1344هـ ويقال له أوتاعرابت، أفادني ترجمته هكذا، ولد له يخدم سيدي البشير ويلازمه.

بلخير بن إبراهيم بن الحسن، عالم يذكر، أخذ عن العربي الأدوزي، أو عن ابنه سيدي محمد[1] يسكن قرية: (اداوماركت) أسن حتى أناف على المائة شارط في مدرسة الفهم ما شاء الله، وله في الاجتهاد في العبادة همة توفي نحو 1359هـ.

بلقاسم بن علي السملالي الأصل، عالم كبير وصالح معتقد وله ضريح مشهور وسط تانكارت عليه بيت كان من أهل أواخر العاشر، وربما حيي أيضًا أول الحادي عشر، وله ولدان أحدهما أحمد بن بلقاسم عالم كبير وصالح وثانيهما عبد الملك القاضي زمن الأمير بودميعة، وهذا ما ذكره الحاكي، والذي عندي أنه عبد الملك بن أحمد بن بلقاسم، فيكون حفيد بلقاسم لا ابنه وهو الصحيح بلا ريب إن شاء الله، وبودميعة أمه فاطمة بنت أحمد بن بلقاسم ابن علي. ومن هنا نعلم شرف هذه الأسرة، وإنها من الأسر العلمية، حفيدًا عن أب عن جد ويتوفى عبد الملك أواسط القرن الحادي عشر، وقد ذكر الحاكي أنه رأى خطه وشكله، وهو هو المذكور بين أولئك القضاة الذين تعتبر

(1) أخبرنا شيخنا الإلغي أنه أصغر من أن يلحق سيدي العربي وأنكر أن ينيف على الثمانين، وثم قال إنني أعرفه وهو وسط في معلوماته.

أفعالهم كعبد العزيز الرسموكي. ومحمد بن سعيد العباسي، ويوسف ابن يعزى كما تقدم فيما نقلناه عن أحد الكتب من الخزانة الماسية، عند ذكرنا لما رأيناه في ماسة من الكتب.

وهناك محمد بن عبد الرحمٰن بن أحمد بن بلقاسم قائد افران وما سامته من اداي وتاغجيجت إلى أن وصلت إيالته قرية (تيسينت) وراء اقا، وكان من أعضاد بودميعة، وداره بل قصبة إيالته التي تجمع حشمه وحاشيته في المحل الذي يسمى اليوم مسجد الجمعة وسط تانكرت، وقد كانت الجمعة تقام في هذه القصبة واليوم لا جمعة هناك، وإن كان المسجد لا يزال، وقد ذكرت لهذا القائد صولة كبيرة، وهو من أخوال الأمير بودميعة ثم انقرضت الرئاسة في أهله بخراب إيليغ.

القائد صالح الشاكوكي من ادشاكوك الذين لا يزالون إلى الآن، انتصب قائدًا هناك على يد أحمد بن محرز حين تمكن في سوس يوم ثار على عمه المولى إسماعيل، ولا تزال ظهائر بن محرز مصونة عند أهاليهم إلى الآن، ثم لما سقط ابن محرز سقط بسقوطه، فخرب داره المولى إسماعيل.

القائد أحمد بن مسعود اشعو من آل شعو في الصحراء قائد المولى إسماعيل ثم ابنه محمد العالم يوم ثار فاستقل عن أبيه ثم عفا عنه السلطان بعده فبقي في مركزه، وله إيالة واسعة في كل هذه الجهات إلى الصحراء.

قال الحاكي إنه رأى عند أحفاده ظهيرًا إسماعيليًّا بالتولي على قبيلة آيت أوسا، وكانت داره في المحل المعروف بالسوق، حيث كانت قبل دار القيادة اللمتونية، وهناك مسجد يضاف إلى الزيتونة لا يزال، وفي وسطه نطفية لا يرى قعرها إلى الآن، وتعد عندهم من الأعاجيب، كما يأثرون عن أرواح تسكنها ـ فيما يقولون ـ خوارق.

هذه بعض فوائد أملاها علي الأديب رب مثوانا، والبعض الآخر يوضع إن شاء الله في مكانه بتاريخنا الكبير بحول الله.

كان في نيتنا أن نزور الأديب في النهار فقط ثم نرجع إلا أنه أبى كل الإباء إلا أن نبيت عنده، فزرنا بين الظهرين دار سيدي الهاشمي بن القرشي فهناك

رأيت حاشية الحاج عبد الله الاكشتيمي على الشفاء في مجلدين كما أحسب، نسخها الشيخ سيدي المدني من الأصل عند الجشتميين وهي حاشية مختصرة، بل وبسيطة في بعض المحلات.

وفي الصباح المبكر تناولنا الفطور، لأننا على عزم السفر إلى إلغ، ولكن حين خرجنا من عند الأديب وقد ودعنا قرب طلوع الشمس رأينا السماء مكفهرة، ثم لم تنشب أن أرسلت من أمطارها، فأنشدنا شيخنا ابن الطاهر، وقد وجد عذرًا لتنفيذ إرادته فينا بالتأخر عنده ذلك النهار:

هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر   هيهات يأبى عليك الله والمطر[1]

فقلت له وقد كتبت البيت، من هو القائل؟ فقال: ألم تطالع العقد الفريد، فقلت إن عهدي به قديم، فقال إن البيت من هناك، وأحسب أنه قال إنه لابن عبد ربه، ثم حكى لنا حكاية وقعت للعلامة أبي الحسن الإلغي، وقد كان مرة عند الأديب الفقيه سيدي العربي الساموكني، فبات معولًا على التبكير إلى السفر فإذا بالمطر قد أصبح، وأخال أنه ذكر أدبيات إنشادًا أو إنشاء للعلامة الإلغي في ذلك لم أستحضرها الآن، لأنني أزعجت عن الكتابة عنه في الحين.

ثم إنني وقعت على ما يأتي بخط يشبه خط العلامة علي بن عبد الله الإلغي، ونص ما وجدت:

لما نزلنا بدار الفقيه والأخ النبيه، والعلامة الوجيه، سيدي العربي بن محمد الافراني بتانكرت، وأبدأ في البر والإحسان وأعاد، واستمال القلوب بما لديه من البر المعتاد، وتذكرنا لذلك الوطن - والشكل بالشكل يذكر - عزمنا على الرحيل، وأن نفكر في أول رعيل، وضاق بذلك ذرع الأخوان وتبديل الأحوال من طبع الأوان، وتضرعوا إلى الله بقلوب منكسرة في جلب حائل، وسبب لاتساع ميدان الاجتماع آيل، وقد علم أن الله عند المنكسرة قلوبهم،

---

(1) قال شيخنا سيدي عبد الله بن محمد الإلغي أن في البيت خلاف ما هو معروف في الرواية التي هي - كما في المطمح -:

هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر   هيهات يأبى عليك الله والقدر
ما زلت أبكي حذار البين منتحيًا   حتى رثى لي فيك الله والمطر

والمتكاثرة في الله كروبهم، فأصبح السحاب بأمر الله على الفتن منسدلًا، والمطر منهملًا، فسبحان من سخر السماء، وأجرى أحوالها لجبر قلوب أحبته المحبوبين في الأرض، ولما عزمنا على الإقامة وألقينا داعي السفر، وظهر أن يد الله مع الجماعة، قال الأخ الأديب والحب النجيب، والألمعي النسيب سيدي محمد ابن الطاهر بن محمد بن إبراهيم الافراني هذه الأبيات، التي كانت على براعته من أبدع البراهين والآيات:

للسحب أي يد علي عظيمة ما زلت أشكرها بملء لساني

لما رأت شيخ البرية مزمعًا عنا الترحل قاصد الأوطان

ورأت قلوبًا خيف بين حبيبها حالت لما فيها من الرجفان

ورأت شؤونًا فائضات مثل ما جاد الغمام بوابل هتان

ألقت على وجه الجبال قناعها فبكت بكاء للسرور دعاني

فأعجب لدمع هاج دمعًا كان في منع النوى من صادقي الأعوان

ثم وجدت مع ذلك في الصفحة هذه القطعة الآتية، ولا ريب أنها لسيدي محمد بن الطاهر في الترحيب بالأستاذ علي بن عبد الله لما ورد إذ ذاك:

أهلًا بشيخ مشايخ أبرار شمس الهداية طيب الأسرار

أهلًا به من وارد تحيا به أرض القلوب بهاطل الأنوار

وبمن أتى معه وكل فتى يرى منه المحبة قرة الأبصار

ثم إنهم اقترحوا رجوع البغال التيمولائية لوجود البغال عندهم ما دامت هي العذر الحافز لنا على العجلة، فرجعت من هناك، ثم في وسط النهار طلعنا إلى المدرسة فوقعت بين أوراق متراكمة في محافظ من صندوق، فجمعت منها إضبارة سيالة بالأدبيات، كانت من خير ما احتقبته من سفرتي هذه ثم رجعنا عند الظهر، وقد انقشع المطر الملث قليلًا، فإذا بشيخنا العلامة الكبير سيدي الطاهر بن محمد وافانا السعد بموافاته من آداي الذي كان فيه عند الحرث؛ قال إن القاضي الأقاوي أخبرني بورودكم فجئت وقد أرسلت البهائم إلى تيزلمي، فتم لنا بذلك سرور عظيم لا يكيف، فحمدنا تأخرنا ذلك النهار، تالين

قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البَقَرَة: 216].

هكذا استجددنا جلوسًا آخر بفوائد أخرى ملأنا بها من وسط نهار السبت إلى صبيحة الاثنين، وقد قال لنا شيخنا أننا جميعًا سنتصاحب إلى تيزلمي يوم الاثنين، فرويدًا حتى نسافر في وقت واحد جميعًا.

فمما رأيته هناك من الكتب التي توصلنا بها ـ لأننا استحيينا من القوم أن نطلب منهم ما نطلبه من غيرهم من عرض مخطوطاتهم لنرى هل نجد من بينها نوادر.

1 ـ مؤلف في الاستعارات في 8 صفحات تتضمن مقدمة وفصلين وخاتمة لأحمد بن عبد الله بن مسعود أحمد علماء إيلالن الذين يحيون من أواسط القرن الثاني عشر إلى أواخره ويتضمن سؤاله للشيخين سيدي محمد بن يحيى الأزاريفي، وسيدي محمد بن مبارك المحجوبي، عن أشكال في قول الشاعر:

قنافذ هداجون حول بيوتهم بما كان إياهم عطية عودا

لأنه لم يرض بما قاله في لفظة قنافذ شارح الموضح لابن هشام على الألفية(1) وهناك جواب المسؤولين، أتم الكتاب عام 1176هـ.

2 ـ (شرح) سيدي عبد الرحمٰن بن عمرو البعقيلي على (السيارة) في 15 صفحة في 22 سطرًا في قالب وسط، جلد مع ما قبله.

3 ـ (شرح) العشرين حرفًا المذكورة في (قواعد الإعراب) الشهير لابن هشام، شرحها سيدي علي بن أحمد الرسموكي في 26 صفحة في ذلك القالب، جلد مع ما قبله.

4 ـ (المستعان في حكم الأذان) للمرغيتي، نظم مع ما قبله أيضًا.

5 ـ (مؤلف) للجد الأدوزي في البيع إلى أجل زمن المجاعة بأزيد من ثمنه المعتاد، كان كتبه لسبب، ثم لما وقعت الواقعة المشهورة بين الأستاذ أبي

---

(1) يراجع ذلك من تعلق به غرضه في شرح الأزهري على الموضح، فقد تكلم في ذلك المحشي ياسين بما يشفي ويكفي.

عبد الله الإلغي وبين من باع لهم إلى أجل في مجاعة نحو عام 1299هـ وفي عام 1295هـ تفاوضًا في ذلك فأرسل الإلغي الفقيه سيدي العربي الساموكْني، فنسخ المؤلف من هناك، وهو كتاب فيه 22 صفحة، ولم أره قط ولا سمعت به إلا هنا.

6 ـ نظم وشرحه، كلاهما للعلامة ابن الطيفور الساموكني ثم التيزنيتي أتمه عام 1257هـ ونسخه تلميذه العلامة ابن إبراهيم التامانارتي عام 1262هـ ولم أجد في مذكراتي وصف الكتاب ولا تبيين موضوعاته، ولعل الموضوع الجداول.

هذا ما تيسر هناك رؤيته من الكتب التي يتعلق غرضي بها، وأما الإفادة عن رجال تلك الناحية من غير من أعددناهم للمعسول فقليله، منها:

سعيد الكثيري نزيل اداوشقرا، وأصله من قرية اكُرض بتمنارت جلا عن ذلك المكان عام 1255هـ حين كانت القارعة على الرؤساء هناك من أولاد الشيخ بن إبراهيم التامانارتي وكان هذا العالم ممن يذكر إلى أواخر القرن الماضي.

وقد تذاكر الأستاذ في لفظة (مضاما) في قول البوصيري في هزيمته:

(لا تخل جانب النبي مضاما)

فقال إنني راجعت وفتشت في كتب اللغة فلم أقف إلا على ضامه بالثلاثي لا على أضامه، فقال له ابنه سيدي محمد؛ كفى باللفظة استعمالًا وجودها هنا، فتبسم الشيخ فأنشد:

وعجيب منه فقيه نبيه ... بمحل النزاع كيف استدلا

ثم قال إنهم لا يستعملون إلا ضامه فهو مضيم[1] فأنشد:

ان ان الكريم يحلم ما لم ... يرين من أجاره قد ضيما

(1) وذهب شيخنا الإلغي إلى أن الأولى أن نقول مضامًا بالفتح فيكون مصدرًا ميميًا على حذف مضاف أي ذا ضيم فإنه ليس هناك ما يوجب ضم الميم حتى نتوقف هكذا قرر فتأمل، لأن الأخبار بالمصدر لا يكون إلا مع قصد المبالغة كما تقول؛ رجل عدل وهذا ينتفي هنا ثم أخبرني شيخنا سيدي المدني الرباطي أن العلامة سيدي المكي ذكر في تخريج مضامًا بالضم أنه من أضامه أي عرضه للضيم كما يقال أباعه أي عرضه للبيع ذكر ذلك في شرحه على الهمزية.

وأنشد أيضًا:

لا يعجبن مضيما حسن بزته وهل تروق دفينًا جدة الكفن؟

كما أنه ذكر أيضًا لفظة (لم يرما) في قول البوصيري أيضًا في بردته:

(والصدق في الغار والصديق لم يرما)

فقال: إن اللفظة من رام المكان يريم، وقد قال الأعشى:

(أيا أبتا لا ترم عندنا فإنا بخير إذا لم ترم)

فالذي يقال حينئذٍ هنا لم يريما، لأنه لا سبب لحذف الياء.

ثم قال كأنني بالبوصيري لم يقل أولًا إلا هكذا:

(والصدق في الغار والصديق لم يرم)

ومقصود التصريع في البيت، ثم حرفت اللفظة في النقل، فقلت له لماذا لا نقول أيضًا مثل هذا من لفظة مضاما، فيكون الأبوصيري إنما قال مضيما، ثم حرفت اللفظة في النقل، فتردد في الجواب، ثم انفصل على أن الرواية هكذا كانت، ثم إنني لم أستحضر ما قال في كون المخبر عنه مثنى في ذلك الشطر ومن إنشاداته أثناء تلك المجالس في وصف من لا يزهى بما يقول:

ويسيء بالإحسان ظنًّا لا كمن يأتيك وهو بشعره مفتون

ومنها:

عبء الصدود أخف من عبء النوى لو كان لي في الحب أن أتخيرا

ومنها:

لن يبلغ المجد أقوام وإن شرفوا حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام

ويشتموا فترى الألوان كاسفة لأصفح ذل ولكن صفح إكرام

ومنها للسيوطي:

أن الذبيح هديت إسماعيل ورد الحديث بذاك والتنزيل

ومنها البيت المشهور المعقول من ذلك النثر المأثور:

أناة فإن لم تغن أعقب بعدها وعيدًا فإن لم يغن أغنت عزائمه

ومنها:

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنى أصبت حليمًا أو أصابك جاهل

ومنها:

أوحشتني ولو اطلعت على الذي لك في فؤادي لم تكن لي موحشا
يا محرقا بالهجر قلب محبه أنسيت أنك كنت تسكن في الحشا

ومنها: وقد حكي أن الشاذلي تحمل سلامًا نبويًا من عالم الأرواح إلى عز الدين بن عبد السلام، فأسر إليه بذلك في المجلس فكأن ابن عبد السلام لم يصدقه فإذا بقائل يقول وهو بعيد عنهما:

صدق المحدث والحديث كما جرى وحديث أهل الحب ليس بمفترى

ومنها:

يا مرحبًا بحبيب لست أبصره ألا تجدد لي أنس بمرآه
وأن تغيب عن عيني ولم أره فلي فؤاد بظهر الغيب يرعاه

ومنها وقد عبر فيها بما هو منه خلق جبلي:

إذا شئت أن تحيا ودينك سالم وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرئ فعندك عورات وللناس السن

أنشدهما حين أنشدته لناصيف اليازجي اللبناني:

ليس الوقيعة من شأني فإن عرضت أعرضت عنها بوجه بالحياء ندي
إني أنزه عرضي إن لم يلم به غيري فهل أتولى هتكه بيدي

ومنها:

إذا ما قضت نفسي من العز حاجة فلست أبالي الدهر أملى لها أم لا

ومنها:

وإذا ما الجناب كان عظيمًا مد منه لخادميه لواء

ومنها:

كل تجارة سوى العلم إلى خسر فدعها أن ترد نيل العلا

ومما وجدته مكتوبًا في مذكراتي عن تلك المجالس، ولم أذكر فيها من أنشدها بالتعيين، الشيخ أم ابنه سيدي محمد، قول الشاعر من الصحراويين:

لا يكسب الشعر تبجيل وقولهم عسى تكون لنا من شيخنا خلفنا
كلا ولا أنا نجل الشيخ سيدنا أبي وأمي قد فاقا الورى شرفا

وقول آخر:

أقدمت ويحك من هجوي على خطر والعير يقدم من خوف على الأسد

وقول آخر:

الجبن عار وفي الإقدام مكرمة والمرء بالجبن لا ينجو من القدر

وقول آخر:

إياك أن تصطفي ممن ترى أحدًا ولا تثق بامرئ في حالة أبدًا

وقول ابن تميم، وأكبر ظني أن الذي أنشدها شيخنا سيدي محمد:

لما آزرتك شمعتي لتنيرها جاءت تحدث عن سراجك بالعجب
وافته حاسرة فقبل رأسها وأعادها نحوي بتاج من ذهب

وأحسن منه كما قال المنشد قوله في مليح بيده شمعة:

عجبًا له أنى يزور بشمعة وضياؤه يثني الظلام نهارا
وأظنها لما تلهب قلبها حسدًا أسالت دمعها مدرارا
وغدت لفرط الغيظ تعطي كل من وافى ليقطع رأسها دينارا

وقول آخر:

أما وجميل الصنع منه وإنها إليه بر مثلها لا يكفر
لو اسطعت حولت البرية ألسنًا وكنت بها أثني عليك وأشكر
ولست أوفي حق ذاك وإنما قيامًا بحق الشكر جهدي أشمر

ومن إنشادات شيخنا سيدي محمد بن الطاهر الأديب الكبير ما قاله بعض السوسيين ليعقوب المنصور الموحدي ـ كما قال المنشد:

ما أنت في أمراء الناس كلهم إلا كصاحب هذا الدين في الرسل

أحييت دين النبي الهاشمي كما أحياه جدك عبد المؤمن بن علي

وأنشد أيضًا:

فاض بحر الفرات في كل قطر من ندى راحتيك عذبًا فراتا

غرق الناس فيه فالتمس الفقر خلاصًا فلم يجده فماتا

وأنشد أيضًا:

خليلي أن العلم بالتجر مجروح وما بين أفخاذ الخرائد مذبوح

وأنشد أيضًا لبعض الحمدونيين نسبة إلى الشيخ سيدي حمدون الفاسي، كما قال الشيخ والد المنشد:

كنت نورًا وكان ثم عماء ونبيًّا وليس طين وماء

وإذا كان من علاك العلاء (كيف ترقى رقيك الأنبياء

يا سماء ما طاولتها سماء)

وأنشد للشيخ سيديا الصحراوي:

يا معشر البلغاء هل من لوذعي يهدي[1] حجاه لمهيع لم يسمع

إني هممت بأن أقول قصيدة بكرًا فأعياني وجود المطلع

فدعوا السوانح والبوارح واتركوا ذكر الحمامة والغراب الأبقع

وتتابع العبرات في وجناتها وتردد الزفرات بين الأضلع

فجميع هذا قد تداوله الورى حتى غدا ما فيه موضع أصبع

فاليوم إما سارق مستوجب قطع اليدين وحسمها فليقطع

أو غاصب متجاسر لم يثنه عن فعله حد العوالي الشرع

فكأنه في عدوه وعدائه فعل السليك وسلمة بن الأكوع

والشعر للتطريب أول وضعه ولغير ذلك قبلنا لم يوضع

واليوم صار منكدًا ووسيلة قد كان مقصدها انتفى لم تشرع

---

(1) هكذا الرواية بالبناء للمجهول.

وأنشد أيضًا لليفرني صاحب الصفوة، يصف رحلة[1] ابن موسى الناصري إلى مراكش:

دعوا عنا بفضلكم الكؤوسا ... فقد أنسى الطلا شعر ابن موسى
أرى رحل الأوائل ماشطات ... على قدم ورحلتك العروسا

ومن إنشادات الأديب سيدي البشير الناصري ما كتب به اليفرني المذكور إلى المسناوي، وقد طرقه اليفرني في مكناس، يسأله أخذ التلخيص في البيان عنه بعدما تمنع:

أسيدنا من لإله في زماننا ... ميل وهل للشمس في جنسها مثل
لعمرك ما التلخيص إلا كغادة ... غدوت لها كفؤاد إذا التمس البعل
عضلت بنات الفكر منك تمنعا ... وفي علمكم لا ينبغي للأب العضل

ومنها ما كتب به المذكور أيضًا للعميري المكناسي يستجيزه:

لله فهرست راقت بما جمعت ... من العلوم على كل الفهاريس
أبرزها فكر مولانا وعالمنا ... قاضي القضاة ونبراس النباريس
ما شئت من أدب غض يروق ومن ... معنى زري[2] بابن أوس وابن حمديس
ود الحريري لو يعطى بلاغته ... وابن الخطيب كما ود ابن طاووس
يا ليته خط لي سطرًا يسر به ... قلبي وأرجو به سكنى الفراديس
يجيزني بجميع ما لديه كما ... أجازني الغر أرباب الطياليس
أدامه الله في عز ومكرمة ... ومن يعاديه في نحس وتنكيس

ومنها مديح في الشيخ الكنتي الصحراوي لبعضهم:

أتيت سيدنا المختار لا أربى ... من فضة أبتغي كلا ولا ذهب

---

(1) رأيتها مخطوطة في خزانة الفقيه ابن كبور المراكشي في مجلدة.

(2) تعدية الباء لزري مستعمل، وقد كانت المذاكرة جرت فيه فقال اكْيك:

ولا تنكرن زري به فهو مزدر ... بمنكره والنقل في مفرد اللسن

يعني كتاب (لسان العرب).

وإنما أربى كشف لما نسجت كف الخطايا على قلبي من الحجب

ومنها:

لا تمنعني وقفة أشفى بها داء الفؤاد فإنها ماعون

ومما أنشد الأديب سيدي محمد بن البشير لبعض المتقدمين، وقد كتب إليه بعض أقرانه في صدر رسالة، وأمتع بك، وقد كانت العادة أن لا يكتب بها إلا الأعلون لمن تحتهم - والأبيات مشهورة:

أحلت عما عهدت من أدبك أم نلت ملكًا فتهت في كتبك

أم قد ترى أن في ملاطفة الإ خوان نقصًا عليك في أدبك

إن جفاء كتاب ذي مقة يكون في صدره وأمتع بك

أتعبت كفيك في مخاطبتي حسبك مما لقيت من تعبك

ومما أنشده الأديب سيدي المدني بن محمد بن الطاهر فيما أحسب، - ما جرى بين ابن المقري ووالده، حين قطع الوالد النفقة عن ولده لزلة، فكتب إليه ولده مستعطفًا:

لا تقطعن عادة بر، ولا تجعل عقاب المرء في رزقه

فإن أمر الإفك من مسطح[1] يحط قدر النجم من أفقه

وقد جرى منه الذي قد جرى وعوتب الصديق في حقه

فأجابه الوالد:

قد يمنع المضطر من ميتة إذا عصى بالسير في طرقه

لأنه يقوى على توبة تكون إيصالًا إلى رزقه

لو لم يتب مسطح من ذنبه ما عوقب الصديق في حقه

بين أمثال هذه الإنشادات وأثناء ما إليها من الأدبيات، أمضينا هناك من نهار الخميس إلى بكرة يوم الاثنين بين تدفق الفوائد وتوالي الموائد فكنا نأخذ من القوم علمهم ومالهم ونستمتع بأدبهم وبنشبهم وأمثال هؤلاء يقصدون

(1) قصته في قضية الإفك مشهورة، وفيه نزل ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ﴾ [النُّور: 22] الخ.

وبنوادي نظرائهم يلم النازلون:

نــنــقــل أقــدامــنــا إلــى مــلــك نــأخــذ مــن عــلــمــه ومــن أدبــه

ثم إن هذا الوادي وادي تانكرت، ينبغي أن يسمى بـ: (وادي الأدباء) لأنه منبع الأدب العربي الطافح وتحت ظلاله الظليلة، وبين نسمائه العليلة يحيا كثيرون من أدباء زانوا القطر السوسي كله، وبجيرانها تغلو الديار وترخص فهنا درج سيدي العربي الساموكني وسيدي محمد بن الحاج، وسيدي البشير العزيبي من الأسرة التي مضى فيها الأديب اليفرني صاحب (الصفوة) المراكشي وسيدي الطاهر بن المدني الناصري، ثم لا يزال فيه الآن من ذكرناهم من الأحياء أطال الله عمرهم في خفض ودعة وسعادة.

إلى إلـغ:

خرجنا صبيحة الاثنين الثاني عشر من ذي القعدة مع شيخنا سيدي الطاهر وهو على رمكة حمراء كأنها فرس مطهم، وقد حبب إليه الركوب عليها، أسوة بجده سيدي محمد بن إبراهيم الشيخ، فجزنا وسط الحقول التي كاد زيتونها يضمحل في السنوات الأخيرة، لقلة ماء عين (تيغرست) فلا يسقي في كل ذلك إلا قليل، فتذكرت سنوات 1333هـ 1336هـ حين كنا في المدرسة فنسمع خرير المياه من كل جانب خصوصًا في الليالي الهادئة، وفي النهار لا ترى العين إلا خضرة مزدهية ترفل فيها الأشجار والحقول من أعالي الوادي إلى أسافله، ولا تقع عينك على أية بقعة خالية من الخضرة، أما من الذرة وأما من البقول أو الزرع وقد اشتبكت الفاف الزياتين بين كل الأطراف وفي بعض الجوانب الحدائق الغلب الزاخرة بأشجار الفواكه المتنوعة، وقد سمعت يومًا شيخنا سيدي الطاهر المذكور يقول: إن في ذلك الوادي أكثر من عشرة أنواع من التين فقط فضلًا عن غيره وهكذا أخنى الدهر على وادي تانكرت الزاهي الزاهر فيما نعهده منه. وفي هذه السنة هطلت أمطار كثيرة استرجعت بها عيون كثيرة عهدها الأول، ولعل المعهود يرجع أيضًا إلى ذلك الوادي الجميل.

وقد وجدنا أمامنا الرئيس أحمد بن إبراهيم الذي يسمى رسميًا: خليفة القائد قد سجن هو وولده، وقد كان على كل تانكرت وإداوشقرا وأمسرا وأيت موسى

بمجاط، وكانت الرئاسة القبلية مرت في آبائه كما سمعت، ثم لما عينته الحكومة قبل الاحتلال صار يتأثل حتى استرد كل أصول آبائه من الأملاك، وقد أعانته الحكومة حتى أثرى ثم إن ولدًا له عدا ليلًا على هري تاجر إسرائيلي في سوق المركز الحكومي هناك إزاء قصبة أحدادو، فأخذ كثيرًا من الدراهم والأتاي والكتان وما إلى ذلك، وقد رآه الحرس فأمرهم بالسكوت، إلا أن الحكومة حين سجنت الحرس، وعاينوا العذاب، أقروا بالفاعل، فكان ذلك هو السبب، فكبل الولد ونقل الوالد إلى بوزاكارن مثقفًا إلى الآن، وقد سمعت الناس اتفقوا على أنه لم يكن يحترم شيخنا المذكور ولا سيدي البشير الناصري، وكان من عادة الله فيمن لا يحترمهما أن يجعل إليه النكال الأليم، وهذا ما رآه الناس كلهم سببًا باطنيًا لما وقع فيه، ونعوذ بالله من دعوة المظلوم التي لا تغلق دونها أبواب السمٰوات، وقد قيل أنه احتوش متاعًا للسيد البشير الناصري وهذا والله تعد عظيم جسيم، ولعل الرجل يتوب من ذلك فيما بينه وبين نفسه فيتوب الله عليه، وهذا الرئيس يناهز اليوم 56 سنة في عمره، بنى ديارًا واسعة وظهر بمظهر الأثرياء، إلا أن الله سلط عليه ولده فسيق بسببه إلى ما نرى، ثم بلغنا الخبر عن قرب انفكاكه من الاعتقال، ولكن لم ينشب أن توفي.

قطعنا مع شيخنا ذلك الشعب الذي بنيت فيه دار اوبخيس، رئيس آيت موسى اليوم، فكنت مع شيخنا في مذاكرات شتى استفدت منها كثيرًا وقد تذكرت صبيحة يوم من رمضانات 1335 ـ 1336هـ وقد أردفني وراءه على فرس فكان يطارحني أدبيات حفظتها إذ ذاك، فقلت هذه سنة 1361هـ فكم مضى من عام ثم يأبى الله إلا أن نمر ثانيًا هنا هكذا، وقد عجبت من الأستاذ الذي له من العمر[1] 77 سنة وهو يجول في صهوة فرسه ثم هو يمشي وحده بلا رفيق فقلت: هكذا هكذا الرجولة، فأين من شيخنا البدوي هذا أولئك الفقهاء من الحواضر هل يقدر أحدهم على ركوب الفرس القماصة كهذه التي ركبها شيخنا وهو متمكن في عنانها يديرها كيف يشاء مع قوتها وضخامة جسمها وملاعبتها لعنانها مرحًا ونشاطًا، لأن شيخنا حررها من كل الأعمال وخصها بالركوب، فاستجمعت

(1) قد أمد الله عمره حتى توفي على رأس التسعين.

لحسنها كل أوصاف الخيل الذكور البارزة، وما خفي أعظم وأجلّ:

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها وأعضائها فالحسن عنك مغيب

فهكذا الشيخ في صبارة البرد وفي حمارة القيظ، وأوان انهمار الأمطار كما وقع ذلك النهار الذي جاء فيه من اداي، وأما أمثاله من الفقهاء هناك فإن لسان حالهم كثيرًا ما ينشد:

الذيب أخشاه إن مررت به وحدي وأخشى الرياح والمطرا

وأمام (واڭشرير) ودعنا شيخنا آخر وداع، فتوجه إلى مكان حرثه في أفانتيقي حيث كانت أرض تالدة للأسرة من عهد الشيخ سيدي محمد بن إبراهيم التامانارتي رضي الله عنه.

ثم صمدنا نحن إلى (أڭادير إيزري) حيث مساكن أبناء أعمامنا نقصد النزول عندهم لأرى تلك الجهة التي ما رأيتها قط، فنمشي وقد تجلبب الجو بسحب دكناء، والبرد القارس الشديد يثلج الدماء في شراييننا، وقد خفنا أن ينزل المطر قبل وصولنا، ولكن الله سلم، فلم ترخ السماء عزاليها حتى دخلنا دار الكريم الحسن بن بلا الذي بادر فذبح كبشًا كان هيأه للضحية، وهو من أكارم المرابطين.

هذه هي أرض (تيزلمي) الشديدة البرد، لكنها صحية إلى الغاية، فكنت ترى أهلها في قوة ومنة وخفة أجسام وقلة أمراض، ونساؤهم كأنهن الغزلان، دقة وصحة ونشاطًا، وقد مرت ثلة من الرؤساء في تيزلمي منهم محمد بن علي المنصاڭي، وكان من الحربيليين الساكنين إذ ذاك في مكان ادبنيران اليوم، وأحسبه يعيش بين القرن الثامن والتاسع، ولا يزال أناس ينتسبون إليه الآن هناك، منهم رئيس صغير سموه لي.

ومنهم جدود القائد مبارك البنيراني الشهير المعتقل اليوم في درعة، وسنوفي أخبارهم إن شاء الله في (المعسول) (ثم إنه رجع من المعتقل وشيكًا، ولم يلبث أن هلك).

ومنهم قائد يلقب بأدراق الكرموني، كان أحد قائدين إسماعيليين على مجاط، حدثني من رأى رسوم أملاكه الكثيرة المبيعة بعده، ويذكر أنه كان في

عهد الثائر صالح الثائر المشهور في أكادير، وهو الذي اعتقله سيدي محمد بن عبد الله في حدود عام: 1170هـ.

ومنهم القائد سعيد بن محمد العلوي المجاطي، وقد استوفينا كل ما عندنا عنه فيما مضى من بعض مؤلفاتنا.

وفي أكادير ايزري حيث مسجد إيشوكاك نزلنا، فذكر لنا أن هذا المسجد قديم قبل هؤلاء المرابطين، وأنه للحربيليين الذين جلوا عن هذه الأرض، وكل مبتاعاتهم كانت من حربيليي أداي وأمتضي وما إليهما، وحول المسجد مقبرة بعضها كان لأولئك، والبعض الآخر لهؤلاء المرابطين، وهناك قبر الرجل الصالح سيدي محمد بن موسى بن محمد بن عبد الله بن سعيد.

حال انهمار المطر بيننا وبين إلغ يوم الثلاثاء، فكنت مع سيدي إبراهيم ابن العم في أحاديث عطرة عن الحواضر وعن أفكار طالما تعجبنا حين كتب عليها أن تنشر هناك، لأنها لو تكشفت لمن هناك لما عرفوا منها قبيلًا ولا دبيرًا، وقد كنت كتبت رسالة في مجلدة سميتها، (رسالة الشباب) أقصد بها ما على الشباب نحو أمته، وهي في شكل (رواية) فبها قطعنا ذلك النهار تلاوة، وابن العم يعجب بالأفكار التي أودعتها فيها(1).

ثم في صباح الأربعاء ركبنا بغال أولئك الكرام الذين رجعوا بغال السادات التانكرتيين، فاندلقنا إلى إلغ فصاحبنا مرابط من أولئك يلقب بوجوا، وقد كان حينًا من الدهر من العملة في فرنسا، فذكر أنه هو ومرابطًا آخر(2) من الواڭشريريين من أوائل الذين أسسوا الإخاء المغربي بين عملة المغرب في فرنسة فيجمعون اكتتابات ثم عينوا محلًا بالكراء لصلاتهم، ثم لما اشتهر أمرهم أدى ذلك إلى أن اعتنت الحكومة بذلك، فتأسس مسجد باريز، فقلت: هكذا ابتدأ العمل بأناس سوسيين من قبيلتنا المشهور رجالها بالنهوض بالديانة أينما حلّوا، ثم يذهب ابن غبريط بشهرة المسجد، والشهرة في هذه الحياة حظوظ وقسم.

---

(1) تلفت ـ بكل أسف هذه الرسالة في تنقلاتي بين إلغ والبيضاء والرباط بعدما خرج بعضها.
(2) هو المسمى (مرابو) الساكن في البيضاء.

ثم لما رجع المرابط دخلت مع رفيقي الأستاذ في حكايات طابت لنا، فحكى غريبة وقعت في حاحة بمركز تمانار في الأيام الأخيرة، وذلك أن مدررًا في مسجد بينه وبين طالب آخر سوسي هناك شنآن، فسحره بالرجم المعروف، فبينما المدرر جالس مع تلاميذه في المسجد، إذا بدواة من يد أحدهم اندفعت بكل قوة إلى وجه المدرر، ثم توالت ألواح الصبيان عليه، وكل ذلك يراه المدرر ويعلم أن لا يد فيه للصبيان، ثم توالت عليه خشب وأحجار أخرى، إلا أنها إنما تقع عليه ولا تؤذيه، فجرى جار إلى القائد بتمانار فأسرع هو ورئيس المركز المراقب الأوروبي فتثبتا في ذلك ومعهما الفقيه سيدي محمد بن أحمد أخو هذا الحاحي، فذكر لهم الطالب السوسي الذي اتهم بفعل ذلك، فأتى به الأعوان، فراودوه حتى أزال السحر، ثم توعده المراقب بالسجن إن عاد لمثل ذلك، ثم أطلقه، فقال الناس لولا أن المراقب يخاف على نفسه لما أفلت الطالب من السجن، ثم حكينا ـ أنا هو ـ حكايات صحيحة ثابتة من هذا النوع، إحداها وقعت في إمنتانوت، وثانيتها في إيشت، وثالثها عندنا نحن في دارنا عام 1352هـ فقد وقع أن الأحجار صارت تتوالى على السطوح وعلى الساحات الداخلية في العشايا وفي كل الليل لا تفتر، وقد فتش ـ لعل فاعلًا يفعل ذلك ـ فإذا به لا شيء هناك، ولكن العمل لا يزال مسترسلًا، إلا أن الأحجار لا تكسر إناء ولا تؤذي أحدًا مع كبرها وكونها بصدد الكسر والإذاية، وقد بقي ذلك أيامًا إلى أن ذهب المؤذن اليوم في الزاوية سيدي محمد أبو الركيك فأذن جهارًا وآذن فاعلي ذلك بالانكفاف، وإلا فلا يلومن إلا أنفسهم، فانقطع ذلك، وهذا الرجم معهود عند الطلبة يكتبون في طرف خزفة سورة (الفيل) كلها إلى آخرها، كما أخبرني بذلك من يعرفه، ولله في خلقه شؤون.

وكأني بأحد المتعاقلين من أبناء اليوم السذج الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوسات الملموسات يذهب إلى أن كل هذا كذب في كذب، وما جواب هذا إلا ان نفتش عمن يسحره بمثل هذا ليرى بعينه حقيقة ما ينكره، والعاقل كل العاقل لا ينبغي له أن ينكر حتى يتثبت وحتى يعلم الواقع ثم لا يكابر بعد.

أشرفنا على إلغ، فقلنا هذا إلغنا وهذا مسقط رأسنا وهذا هو الذي تحن إليه أكبادنا، وفيه أولادنا الذين هم أنفسنا وأرواحنا.

وحـبـب أوطـان الـرجـال إلـيـهـم ... مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكـروا أوطـانـهـم ذكـرتـهـم ... عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

ثما لما حاذينا الديار، ولساني لا يفتر عن سورة (الإخلاص) عادتي كلما شارفت محلًا، نفرت البغلة التي أركبها من صبي لبس لونًا أسود فإذا بي ساقطًا على ظهري، ولكن سلمني الله ولعل ذلك ببركة القرآن العظيم، وإلا فقد كانت سقطة غريبة قلما يامن صاحبها، فالحمد لله على السلامة، ثم كان من الغريب أن حدثني العم أبو القاسم أن الشيخ الوالد كان يقول: يجب على كل من أشرف على هذه القرية من كل الجهات أن قصدها أن يشتغل بالاستعاذة بالله، فإن لعين أهاليها تأثيرًا، فقلت: إنني ـ إذن ـ أصبت من العين، وفي حديث صحيح من مسلم: (العين حق).

ثم ألقينا عصا التسيار في الدار، قرب الحادية عشرة من يوم الأربعاء الرابع عشر من ذي القعدة عام 1361هـ.

وقد أرسل إلي الأديب القاضي سيدي الطاهر هذه القطعة تهنئة بالقدوم من السفر:

فرحًا طويلًا جاءنا المختار ... من سادة آباؤهم أخيار
فاستبشرت بقدومه إلغ فزا ... ل الكرب عنه وردت الأسرار
هدى بضاعتنا بفضل الله قد ... ردت فقد قرت بذا الأبصار
سعدت بكم هذي البلاد وشرفت ... وبكم عليها فاضت الأنوار
وتفتحت أزهارها وتزينت ... وتباشرت بالمقدم الأقطار
ما إلغ ما مراكش إن لم تكن ... تغشاهما يا أيها المختار
ما الفخر إلا بالعلوم وبالتقى ... ليس الصبابة مفخرًا وعقار
فعلى جنابكم الرفيع تحية ... لا الورد يحكي نشرها وبهار

الجواب:

من كنت لولا إخوتي الأبرار ... فبهم فخاري إن يعن فخار
كل له شيع وأنتم شيعتي ... نعم الملاذ لمن عراه عثار

لولاكم ما طاب في بدو حيا ... ة لي ولا فيه يكون قرار
إني جبلت على الحضارة بعدما ... طويت بها لي بينها إعصار
عشرون حولًا يا لها من مدة ... طبعت بها العادات والأفكار
لكنني من بعد أن آنستني ... وأريت كيف ترفع الأقدار
قد كدت آلف بدو إلغ وأنثني ... عما تروم «البهجة» المعطار[1]
فكربت أنساها وأنسى أهلها ... وأصم إن طافت بها الأخبار
وأرد قلبي مرغمًا عن حبها ... لو كنت في أشجانه أختار
وأصد عنها ان تناد جميع من ... كانت لهم في وصلها أوطار
قد عاد إلغ وبدوه حضرًا بما ... يوليه من ألطافك الإكبار
فلقد بدت لي إلغ شمسًا أشرقت ... منها إزاء جوارك الأنوار
أو روضة مخضلة أرجت بما ... يشذى بها تحت الصبا النوار
ما إلغ ما مراكش إن لم يطب ... بهما أخوك المخلص المختار
إيان تستطب الحياة تكن به ... في إلغ أو في غير إلغ الدار
ولك العهود موثقات أن تدو ... م بودي الآصال والأبكار
ما أن يزال مجاورًا مني الإخا ... ء وأن يزل يومًا عن إلغ جوار
فلتزهون إلغ بقاضيها فما ... كفاه إلا دافق زخار
ولتغتبط منه بفذ مفرد ... غبطته من عليائه الأقطار
وعليه من هذا المحب تحية ... تشذى بفضل أريجها الأزهار

ومما يستحق الذكر هنا أنني بعدما بدأت أذكر حضرة الأديب البشير الناصري حدث ما حال بيني وبين إتمام ذلك أيامًا فرأيت في عالم المنام أنني كنت أمشي مع الاديب سيدي الطاهر المذكور فإذا بستان لسيدي البشير عليه حائط وغلق، فاستفتحنا فإذا بخمائل وحدائق ترف أزهارًا وبناء يشتمل على

(1) اعتاد المراكشيون أن يطلقوا البهجة على مراكش تظرفًا.

قباب فقلت لصاحبي إذ ذاك:

خمائل بستان البشير دعت إلى موافاتها نادت بذاك الخمائم
نكاد نجوزها سوى انه ثنت أعنتنا منها الزهور الفواغم

ثم استيقظت، فهكذا عدت إلى عادية الأدب من الأديب الناصري حتى صرت أنظم في النوم، ويا لها من عجيبة، ويا طالما أراني أقرض الشعر في المنام، ولكن كثيرًا ما أنسى في اليقظة، وقد ذكر لي ابن العم سيدي إبراهيم بن أحمد أنني أنشدته صبيحة ليلة في مراكش قولي في المنام:

لا إلغ إلغ ولا المختار مختار أن يسكتا عن أمور كلها عار

كنت نسيت ذلك كله حتى ذكرنيه فتذكرت (وفي مدارك الأحلام أعاجيب).

كنت كتبت إلى شيخنا سيدي محمد بن الطاهر يوم استقررت في داري بإلغ أثر هذه الرحلة: هذه الرسالة المسجعة نزولًا على الذوق الذي لا يزال يرى الكلام المرسل بعيدًا من البلاغة وعاريًا من الفصاحة، وأنه لا ترسل إلا الترسل المسجع.

شيخنا الذي بالانتساب إليه تتكلل المفارق، وبمخاطبته بما هو من بعض أوصافه الباهرة تتحلى المهارق، أبو عذر البلاغة وابن بجدتها، والمتلقي باليمين بين فصحاء العصر لرايتها[1]، وأبو عبد الله سيدي ومولاي محمد ابن الشيخ الإمام، المرفرف الأعلام، الفارع كل من في هذا القطر من الأعلام، سيدي الطاهر بن محمد التامانارتي ثم الافراني، فعلى ذلك المقام السني من السلام الذكي، ما يفغم هناك كل معطس[2] ويعطر جو كل مجلس.

هذا فقد حططنا الرحل في البلد، لكن ليس فيه إلا الجسد، وأما الأرواح المنتشية بتلك الراح، في بهرة تلك الساح، فلا تزال هناك، انتشبت بتلك الشباك، فبقيت هناك مربوطة، مغتبطة بما كان خامرها عندكم مغبوطة، فيا لها

---

(1) إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين
(2) المعطس كمجلس الأنف.

من أيام لو دامت لقلنا أن جنات عدن خرجت إلى الدنيا، فتطلقت من هذه الحياة أسرة المحيا، وتعتقت فيها فطابت للندماء الحميا، ولكن سرعان ما ولت تلك الأيام بلا سلام، فكأنها أحلام، فها نحن أولاء أخيين[1] فرق الدهر بينهما قهرًا، ومن ذا الذي يأمن ـ يا للناس دهرًا ـ ونتمنى ـ لو كان التمني مجديًا ـ من السعد الذي كان سكرانًا بتلك المدامة، لو والى علينا من ذلك الشراب ثم ينسانا هناك إلى يوم القيامة، وهاك أبياتًا حضرت في وصف وادي تانكرب حين عاينته يابس الزياتين غائر المياه، كأنه ليس بما نعرفه خرير مياه، والتفاف بساتين وخضرة حقول:

عهدي بواديك يا تنكرت زاخرة ... فيه المياه بألفاف الزياتين
قد كان بين سكون الليل يتحفنا ... منه الخرير بأنواع التلاحين
فننتشي بنسيم من خمائله ... يشذي علينا بريا من رياحين
أنى التفت ترى الأدواح رافلة ... في خضرة ما لها أي مغابين
لكنها اليوم لا عين ولا أثر ... لما عهدناه في تلك الميادين
أم إنما الخصب وصف لا يزايلها ... وإنما كان من حين إلى حين

17 ـ 11 ـ 1361

انتهت الرحلة التي تقتضي من مطالعها الإغضاء عما لم يوافق ذوقه، أو كان جهل المقصود به، او كان في الحقيقة غلطًا يستدعي المحمل الحسن ما أمكن، فلن أعدو الجبلة التي طبع عليها البشر وقد وافق اختتامها أصيل اليوم السادس من العام الجديد: 1362هـ وقد كنت اكتب فيها يومًا أو يومين ثم أترك أكثر من ذلك، وربما تركتها أسبوعًا فأراجعها حتى أتممتها الآن، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

(1) اخيين كنا فرق الدهر بيننا ... إلى الأمد الأقصى ومن يأمن الدهرا

الفهارس

الرحلة الثانية من كتاب خلال جزولة

1 ـ في المحلات المزورة المنزول فيها.

2 ـ في العناوين العامة عن محتويات الرحلة.

3 ـ في أسماء العلماء المذكورين فيها.

4 ـ في أسماء الرؤساء المذكورين فيها.

5 ـ في القوافي التي ينشئها السوسيون خاصة.

6 ـ في الرسائل المسوقة في الرحلة على سذاجتها.

7 ـ في مجموعات كالمقيدات والظهائر والمجاوبات.

8 ـ في الخزانات العلمية التي زيرت في الرحلة.

الفهرس الأول
في عناوين البلاد التي زيرت في الرحلة

الفهرس الثاني
في إلقاء نظرة عامة على ما اشتملت عليه الرحلة

الفهرس الثالث

في أسماء العلماء السوسيين المذكورين في الرحلة بأية مناسبة، بترجمة أو بسبب مؤلف، وبكل أسف لم يتيسر لي تكريم ذكرهم كلما ذكروا، لضيق الوقت، ولتراكم الأشغال، مرتبين على الحروف بحسب الاستطاعة

الهمزة

الباء

الجيم

الحاء

الدال

الراء

السين

الصاد

الطاء

العين

الغين

الميم

النون

الياء

الفهرس الرابع
في أسماء الرؤساء والملوك والقواد
والشيوخ الذين يجري ذكرهم بأية مناسبة

الفهرس الخامس

في القوافي الموجودة في الرحلة مما قاله السوسيون في قرونهم الأخيرة، لا مما وجد أو أنشد من الشعر القديم وسأكتفي بالشطر الأول إن صدع عن الثاني، وإلا فسأزيد لفظة القافية من الشطر الثاني

الهمزة

الباء

التاء

الثاء

الحاء

الدال

الراء

الزاي

العين

الفاء

القاف

اللام

الميم

النون

الرجز

الفهرس السادس
في الرسائل الموجودة في الرحلة

الفهرس السابع
في مجموعات من المقيدات
أو من الأسئلة والأجوبة المكتوبة أو الظهائر

الفهرس الثامن
في الخزانات التي ألممنا بها في الرحلة

ḤILĀL JUZŪLA

BY

AL-SHEIKH MUHAMMED AL-MUKHTAR AS-SOUSI




Bibliotheca Alexandrina
1503625